

رواية

سَمِيرَةُ عَبْدِ الْبَاقِي

على هامش السيرة الذاتية

قصص البنات



مكتبة سيرة الأورد  
مكة المكرمة

على هامش السيرة الذاتية

## زمن الزنازين

سمير عبد الباقي

" .. لا أدعي امتلاك ناصية لغة الأسلاف ..  
لأنني أحد ضحاياها .. دنيا ودين .. "

• السجن هو السجن في كل مكان وزمان ، والحكام عبر العصور أقاموا السجون على كافة الأشكال والألوان ؛ حتى قبل أن يقيموا القصور ودور العبادة ، فماذا سأضيف عن سجون المنصورة ، أو القلعة ، والعزب ، أو عن سجون المحاريق ، والاستئناف، وقره ميدان بعد كل ما كتبه زملاء في وصف (أبو زعل) و (طره) و (جناح)؟!!

وماذا يمكن أن أصوره أكثر مما صورته الكتّاب والشعراء من العرب والأجانب منذ الإغريق ، والفرعانيين ، وقبائل الهون ، وأباطرة الصين ، وخلفاء الكرد والترك والعرب المسلمين ؟ هل سأضيف إلى ما كتبه ديستوفسكي ، أو ما رصده إلهامي سيف النصر ، وسيد يوسف ، ومأمون البسيوني ، وفخري لبيب ، وسعد زهران ، وفتحي عبد الفتاح ، والمناويشي، وطاهر عبد الحكيم ، وصنع الله ، وكل الآخرين .. جديدًا ؟!

هل أصف السجن ؛ مبناه ، وزنازينه ، وعنابره ؛ طول وعرض الزنزانة ، شكل السلالم ، وطريقة التمام ، والفتح والقفل ، وطقوس حراس الليل ، ونداءات المساجين ؛ حسرة أو خوفًا أو فرحًا ؟!

ذاكرة الشعوب - المسجلة في الروايات والسير ومذكرات المساجين معروفين ومجهولين - رصدت كل ما يمكن أن يقال من تفاصيل ، والسجن يظل هو السجن ؛ لأن الطغاة من الحكام هم طغاة كل زمان وحكام كل وطن . ولا يختلف سجن البلاد الرأسمالية والفاشية كثيرًا عن معسكرات اعتقال البلاد الاشتراكية ، ولا عن معاصر وعرقانات سلاطين المماليك .. وسجون الكوفة هي سجون دمشق ؛ مثلها معتقلات بوخنوالد ، وفرانكو ، والأردني ، وأبو غريب ، وجوانتانامو . الاختلاف قد يكون في التفاصيل ؛ في درجة الضبط والربط ؛ في مقدار ومستوى القسوة والوحشية ، لكن العباقرة من البشر المساجين - حتى في أي سجن محلي يطلق عليه من باب التهوين سجن احتياطي - قالوا ببساطة مذهلة :

- قُطع السجن ولو في جنينة !!

والبعض منهم يقولها مفاخرًا متظاهرًا ليهوّن على نفسه مدة الحبسة ..

- أنا أفضيها على الجردل ..

طبعاً يعني جردل البراز والبول .

هؤلاء البشر هم هم ؛ سواء كانوا من معتادي الإجرام أو من المظالم - وكم في السجن من مظالم - وسواء كانوا متهمين بالقتل أو بالنشل أو بسرقة فراخ ، أو كانوا من أبطال المقاومة ، أو رجال التحرير ، أو سياسيين ، أو أصحاب فكر ؛ سواء كانوا اشتراكيين ، أو شيوعيين ، أو وطنيين ، أو دينيين ، أو حتى زنادقة وكفارًا ؛ من أي جنسية يكونون ، هم هم أنفسهم ؛ كائنات

ضعيفة هشة قابلة للكسر ، ولكنها أيضًا قابلة لأن تتغير ، وأن تتصلب وتشتد وتقوى ، فتمتلك قوى باهرة لا عهد لها بها ، بل أحيانًا لا تصدق أنها تملكها . قوى خرافية للاحتمال والصبر .

يكتسب المرء في السجن قوة لا يمكن معرفة مصدرها ، ولا يمكنه تبريرها ولا سبر أغوارها . فقط يستطيع أن يحسها . وبرغم ذلك ؛ إذا ما كان يمتلك الإيمان بما يعتقد ويثق فيه ؛ ساعتها ستحدث المعجزة العادية الإنسانية البسيطة ، سيحرق البوذي نفسه وهو يلعن الاستعمار الأمريكي ، ويهتف المسلم : الله أكبر وهم يسلخون جلده حيا .

ويقاوم عبد القادر مفتاح (الستينيات) وأنطون مارون (العشرينيات) محاولات الأطباء لإجباره على إنهاء الإضراب عن الطعام بضح اللبن إلى جوفه حتى تتلف رئتاه ويموت ؛ دون أن ينهي الإضراب ، ولا ينتصرون على إرادته . لكن تجربته صعبة .

وأنت لا تدري وأنت في السجن ماذا سيحدث غدًا؟! هل ستستطيع الاحتمال والاستمرار ؛ خاصة إذا ما هاجمتك رياح اليأس والوحدة ، أو عصرت قلبك الإهانة ؟ تجربة لا يمكن التنبؤ بنتائجها ، أو برد فعلك حيالها غدًا ، أو بعد ساعة ، أو بعد دقيقة . ولذا قال المسيح :

"لا تدخلنا في تجربة" ! ..

وقال الله في كتابه الكريم ..

"ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به" ..

لكن المؤمن - حتى ولو كان زنديقًا - عندما يدخل التجربة ، فإنه سيتحمل كل ما كان يتصور أن لا طاقة له به . كلٌّ منهم يمكنه تبريرها وتفسير تفاصيلها إذا التفت إليها أو فكّر فيها . ويفهم ويفسر كيف ولماذا يفرح الإنسان السجين لأبسط الأشياء وأتفه الأعمال ؛ ما دام يفعلها بإرادة وفي مواجهة إرادة سجانها ؛ كإخفاء (ربع موسى مصدي) عن أعين السجانة الذين يقبلون الزنازنة بحثًا عن (المناشير) التي كان يظنها الشاويش (أحمد عبد المتعال) أدوات خفية لفتح الأبواب وكسر القضبان للهرب !..

يحس السجين بالانتصار ؛ لأنه استطاع - بعقب قلم رصاص أو مسمار - أن يحفر على الحائط علامات الأيام ، أو بيتًا من الشعر ، أو حتى لينقش اسمه ، أو يحفر شعارًا عن الحرية .

معركة عجيبة وغريبة مع النفس ؛ مع ضعف النفس ، ونزوات الجسد ، وغباء الحراس ، وبطش السجانة ، ودناءة البشر الصغار . ولذا .. فليس هناك ما أضيفه عن السجن ولا عن البشر سوى ما حدث لي شخصيًا ، وما رأيته ، وكان يعني شيئًا ، أو له دلالة . وما حدث معي أيام الزنازين كثير وكثير .

أودعت سجن المنصورة لمدة ثلاثين شهراً بالتمام والكمال ؛ في زانزانه انفرادية وسط أربعمئة سجين من الهالكين المتساقطين من ماكينة المجتمع القاسية الضخمة التي تطحن صغار البشر وتلقي بنفاياتها البشرية في السجون ..

وسط أربعمئة إنسان (هذا الرقم هو الحد الأقصى لاستيعاب سجن المنصورة كسجن احتياطي ؛ لا يقبل إلا المحكومين بعامين فأقل) في سجن يُعتبر معبراً بين الليمانات وأقسام البوليس وسجون المراكز ، لا تهدأ حركة الدخول إليه والرحيل عنه إلا يوماً واحداً هو يوم الجمعة .

يأتيه الجميع من كل فج عميق .. جنود مطرودون من الجيش ، وغفر معاقبون ، ومزيفون ونصابون ، ومزورون ، ونشالون ، وهجّامون ، وهفّافون ، وخطّافون ، وقطّاعو طرق ، ولصوص ليل ، وحرامية أزيك وفلاريا (بط وفراخ) ، وعمّال أفران خبز ، وصناعية بؤساء ، وفلاحون مستترون لكنهم مدينون مبدّون ، وشغيلة ، وفتوات ، وتجار مخدرات ، ومهريون ، وقتلة ينتظرون الأحكام ، وأحداث يرحل منهم من يُحكم عليه بأكثر من عامين ليخلي مكانه للإيراد الجديد ؛ حتى يكتظ السجن بمن فيه ؛ فتضطر الدولة لإصدار العفو السنوي عن نصف المدة في أعياد (ثورة الحرية البيضاء) ؛ لا رافة بهم ، لكن رحمة بالميزانية ، وتخفيفاً من الزحام الذي يصبح مع (يوليه) لا طاقة لأحد به !

ثلاثون شهراً وسط كل هؤلاء . كيف يمكن تذكّر أحداثها وأشخاصها بعد كل هذه السنين من الرحيل في المكان والزمان ، وفي أغوار النفس الأمانة بالسوء ، العثمانة في الرضا عن الذات والغفران .

وهل سأضيف شيئاً لتراث السجون الأدبي بوصف حجز قسم (عابدين) الذي لا يكف عن استقبال وترحيل ضحايا معارك وسط البلد بين الباحثين عن اللقمة والستر وبين حكومة مركزية قاهرة ، منذ الفرعون الأول مبتكر الطنبور والشادوف وعروسة الجلد والحجلات ، أو بوصف معتقل القلعة الخالي إلا مئتي ومن سجينين آخرين هما (مصطفى طيبة) ، و(مصطفى خليل) ، وشخص آخر وصل ليفرج عنه ؟!

ما لبثنا أن رحلنا إلى الواحات / الحلم ؛ حيث المزرعة و(الفن فن) ، ومجلات الهوا ، والمسرح المكشوف ، ومجتمع رجال الطليعة الثورية التي ستقيم الجنة على الأرض وتنتشر العدل في الملكوت !!

أو إذا حكيت عن الرحيل إلى معتقل (العرب) الذي لم يدخله أحد قبلنا إلا معتقلو المخدرات والمطاريد ، ومن قبلهم أسرى الحرب الثانية من جنود النازية والفاشية الطليان والألمان ؟!

أم أكتفي بالحديث عن السجن الحربي ، ومزرعة طرة ، والتأديب ، أو حجز بدروم الداخلية ذي الرائحة النتنة المميزة .. وكلها كانت زياراتي لها رحلات وزيارات أقصر وأشد هولاً وطرافة . كلها تؤكد أن السجن هو السجن في كل زمان ومكان ، لكن الإنسان أيضًا هو الإنسان ؛ مسجونًا أو سجينًا . الإنسان القادر دائمًا - من حيث لا يدري أو من حيث يدري - على فعل الشر ، وارتكاب الجرائم الصغيرة والأفعال الدنيئة بنفس قدرته على المقاومة والتسامي على بذاءات الزمان وقاذورات المكان . لهذا السبب بالذات - وبرغم إيماني أنه لا جديد فيه - سأحاول أن أرويّه .

\*\*\*

• فرّت الدموع - أو كادت - من عيني الشاويش سجّان (حسن عطية) . لمحتة يغالبها , احمرار عينيه فضحه , وهو يحاول التظاهر باستعمال القسوة معي ؛ لمّا الضابط (عبد العظيم الريدي) وكيل السجن شخّط فيه وفيّ وهو ينتزع علبة السجاير (الهليود) اليتيمة من قبضة يدي الميتة عليها . كانت العلبة الأخيرة والوحيدة التي نجت من جيش المخبرين وعساكر الترحيلة في نهاية رحلتي من مبنى المباحث ومكاتب النيابة حتى السجن . كان الشاويش الطيب قد تركها لي حتى خرج الضابط من حجرته ، وبلا رحمة هرسها - غاضبًا - بجزمته ..

عاود الشاويش تفتيشي بدقّة - منفعلًا - كمن ضُبط متلبّسًا بالرحمة , وأنا بين يديه ألفُ كالفرخة الداخلة , أرتعش من البرد , عريان إلا من الفانلة واللباس البقّته ؛ في ملقف بوابة سجن المنصورة الاحتياطي ، في الثالثة والنصف عصر يوم 27 سبتمبر سنة 1959 ؛ أي بعد خروجي إلى الدنيا من رحم أمي بعشرين عامًا وستة أشهر ودسته أيام ، في ذلك العام الذي جاء (رمضانه) في عز حرّ أبيب .

أنا الطالب (سمير عبد الباقي) المنقول إلى السنة الرابعة بكلية زراعة عين شمس - بامتياز - قسم الاقتصاد الزراعي والتعاون ؛ التي كانت تشغل الإصطبلات والمطابخ الملكية في سراي القبة الواقعة شرق عاصمة جمهورية مصر ؛ بعد قلب نظام الحكم فيها على يد (حركة الجيش المباركة) بقيادة (ضباطه الأحرار) ؛ موسوم بالاتهام بإعادة قلب نظام الحكم المقلوب فعلاً منذ سبع سنوات وما يزيد على شهرين وأربعة أيام بالكمال والتمام .

سبع سنوات مرت ومازالت الأحداث العجيبة والوقائع الغريبة تجري بعد طرد الملك . وُزّعت أطيان الباشوات والأعيان على الفلاحين ، أعلنت الجمهورية ، وانقلب معلنوها على رئيسها الأول ؛ قائد الحركة الذي ألغى الألقاب وحل الأحزاب ، واختفى بعده بالنفي بعضهم ، وضاع آخرون في دخان الحشيش والنسوان ، وغُيّب كثيرون في السجون ، وآخرون بالاعتقال ، أو بتحديد الإقامة ؛ حتى غاب إلى النسيان أكثر من ثلث أعضاء مجلس القيادة ، وأكثر بكثير من نصف الضباط الأحرار ؛ عبر سلسلة من الانقلابات والانقلابات المضادة الصامتة والسرية والعلنية . وشُنق (خميس) و(البقري) في ميدان عام وأمام جموع أهاليهم نساء وأطفالاً ورجالاً من العمال ؛ في حادث لم تشهد له مصر مثيلاً إلا على يد الإنجليز قبلها بنحو نصف قرن .

وأُمّت قناة السويس ، وعُقدت صفقة السلاح الروسي ، واعترف (الأحرار) بالصين الشعبية ، وأصبحت باندونج ظاهرة تبشر بعالم جديد ، بعد أن أُعدم قادة الإخوان المسلمين ، وضُرب (السنهوري) بالجزمة على يد الضابط الحر أحمد أنور ؛ بعد أن بذل جهودًا خارقة ورائدة لتبرير تحوّل مصر من الحكم الدستوري إلى حكم العسكر ؛ بعقريته القانونية هو والشغلب العجوز

(سليمان حافظ) ، والمناضل (فتحي رضوان) ؛ آخر صبر مصر من أبناء حزب (مصطفى كامل) و(محمد فريد) . وألقي إلى النسيان زعيم الأمة (مصطفى النحاس). وأنشئت هيئة التحرير ، وأعيد تنظيم أجهزة الأمن القومي على يد الهاريين من ضباط الجستابو ، والمغامرين من ضباط المخابرات الأمريكية . وظهر اتحاد العمال بقيادة أبطال انقلاب 54 ؛ بعد أن أجهض ميلاده الشرعي بحريق القاهرة على يد الملك والاستعماريين ، وفُصل أكثر من مئتي أستاذ من الجامعة التي وُضعت - بعد تنظيمها - تحت رعاية الأمن مباشرة ؛ تحسباً لشغب المراهقين .

وتولى العقلاء (الرماديون) مقاليد الحكم في كل أجهزة الدولة والجمعيات والنقابات ومكاتب التشغيل ، وأنشئ البنك الصناعي ، وأصبح اليساري المعروف (راشد البراوي) مسئولاً عن التخطيط والتنمية ، ومن ثم أعيد (خالد محيي الدين) ليتولى رئاسة تحرير (المساء) بعد تأمين الصحف . وانتصرنا على العدوان الثلاثي ، وتغنّى الشعب بنشيد الشاعر الأحمر (كمال عبد الحليم) (دع سمائي فسمائي محرقة) ؛ وهو الشاعر الذي كاد (صدقي باشا) ذات يوم ينفجر غيظاً بالسكته وهو يقرأ قصائده المتمردة على مجلس النواب المصري ليأخذ موافقته على المواد التي وُجّهت إليّ - على حبّها - تهمة محاولة قلب نظام الحكم بالقوة الجبرية المسلحة ؛ تلك التهمة التي أقف بسببها شبه عارٍ ومجرداً من الملابس والسجاير في ملفف الريح ، خلف بوابة سجن (المنصورة) كالفرخة الداخلة ، في يد عم (حسن عطية) السجّان الشراوي الطيب الذي يحاول أن يغالب دموعه وهو يتظاهر بغير طبيعته الريفية ؛ حتى لا يتهمه الضابط الشاب الطموح بالتواطؤ والإهمال ، فغلبته الدموع !

\*\*\*



• كنت قد أفلتُ من قبضة الاعتقال مرتين من قبل ؛ لحسن الحظ أو لسوءه لست أدري

المرّة الأولى كانت في أوائل فبراير 59 ؛ أي بعد عام من إعلان قيام الاتحاد القومي في البلدين (الذين أصبحا إقليمين) لبلد واحد ، نُزِع عنه اسم (مصر) مع تحريم العمل السياسي إلا من خلاله .

وبعد عام وشهر تقريباً من إعلان الوحدة الكبرى للتنظيمات الشيوعية وقيام (الحزب الشيوعي المصري) في يناير ، ثم انقسامه القاتل في يوليو من نفس العام إلى (الحزب والانقسام) أو (التكتل وحدتو) ، وبعد شهر وعدة أيام من الحرب - التي أعلنها عبد الناصر بتحريض من حزب البعث السوري ومن (محمد حسنين هيكل) ومباركة الغرب - على الشيوعية والشيوعيين في عيد النصر الثاني في مدينة بورسعيد ؛ نفس المدينة التي شهدت جنين (الوطنية المصرية) المجهض الذي وُلِدَ مبتسراً على يد الشيوعيين الذين تسللوا إليها - تحت الاحتلال - لتنظيم المقاومة الشعبية مع ضباط (المخابرات الثورية المصرية) الذين بقيادتهم وتدريبهم - أو بمباركة منهم أو على الأقل في ظل صمت متواطئ - تمت حملة يناير ، وعلى أيدي بعضهم أيضاً رُجِّحَ إلى السجون والمعتقلات بالأغلبية العظمى من زعماء وكوادر الحركة الشيوعية المصرية والسورية ؛ تلك الحملة التي بدا معها أن الجميع كانوا معروفين للأجهزة بالاسم ، وبالواحد ؛ مما يوحي بصدور الحكم التاريخي بالإعدام على العمل السياسي (السري والعلني) المستقل في مصر ، وعلى احتمالات العمل الجبهوي الوطني بين المدنيين والعسكر لحقب طويلة قادمة .

أفلت عادل حسين مسئول قسم الجامعة في (الانقسام / حدثو) - وكان صديقي ومسئولي السياسي - من الاعتقال بالصدفة ؛ لذا لجأ إلى شقتنا في السكاكيني ؛ حيث أسكن وأخي (عادل) مع أولاد (عبد ربه - حسين وعلي وفخري) ولم تكن شقتنا مكشوفة للأمن ، ولكن (حسين) فضّل أن يخفيه في القرية . وهناك تركه في رعاية وحماية أخيه الأكبر (عباس) الذي كان يكره (عبد الناصر) كراهية كل الوفديين الريفيين .

كان (عباس) - منذ انقلبنا لتأييد (عبد الناصر) - على خلاف عنيف معنا . وكان يتهمنا بالسذاجة والعبث ؛ لأننا نرى فيه حاكماً وطنياً حارب الاستعمار وانتصر على بريطانيا وفرنسا وإسرائيل . كان يصر - مثله مثل (يوسف عبد ربه) و(محمود شطا) وبقية رجالات الوفد في القرية - على أنه لم يكن هناك أي انتصار !! لإسرائيل تمر خفية عبر خليج العقبة ، والجيش انسحب من (سينا) ولم يقاتل ؛ بالضبط كما حدث في (48) ؛ تاركاً ساحلها الشرقي تحت احتلال متعدد الجنسيات باسم قوات الطوارئ ؛ ليقوم بمهمته الأساسية ؛ وهي حماية قاعدته (إسرائيل) ؛ بل كان رأيهم أن (عبد الناصر) اضطر اضطراراً للتعامل مع روسيا لأن أمريكا لم

تعد تثق به ، وأنه سوف يلهث ليلحق بأمريكا لو (بصبصت) له بلقمة ، وسيضربنا ويضرب الاتحاد السوفيتي (بالبيادة) في أول فرصة .

لذلك ؛ اعتُبر إخفاؤه لعادل حسين نوعًا من التشفي فينا ؛ لأننا نظن أن مجرد ذهاب (عبد الناصر) إلى (باندونج) يعني انحيازًا للحرية ؛ لأن من يجمع شعبه لا يمكن أن يتعاطف مع حرية الشعوب ، وأنه لو كان مخلصًا للشعب لما دمر حزب الشعب - يعني الوفد - وبهدل زعيمه .

في الحقيقة ؛ كنا نجد صعوبة في إقناع أهل قريتنا بموقفنا المؤيد لعبد الناصر ؛ خاصة وقريتنا لم تستعد كثيرًا من الإصلاح الزراعي ، فلم يكن بها من تزيد ملكيته على مئتي فدان ، وكانت نسبة التعليم فيها عالية حتى قبل الثورة ، وكان الصراع الحزبي حادًا لدرجة الاستقطاب بين (علو البلد) و(واطي البلد) ؛ بين الوفديين وذوي الميول اليسارية (علو البلد) وبين أنصار أحزاب الأقلية والإخوان المسلمين في (واطي البلد) حيث عائلات عاشور ، والقداح ، والقصبي ، وغيرهم ؛ والذين سرعان ما تسربوا إلى هيئة التحرير والاتحاد القومي والمباحث العامة ؛ حيث يحققون مصالحهم باستمرار في التفاني في خدمة السلطة القائمة متربصين إلى حين .

(عباس) لم يكن يخفي شماتته وتشقيبه فينا ، واعتبر هجوم (عبد الناصر) على الشيوعيين انتصارًا لوجهة نظره ، وتحقيقًا للمثل الذي يقول إن (ديل الكلب ..) . ولذلك رحب بإضفاء حمايته على (عادل) ، واستقبله في ترحيب ، سرعان ما انقلب إلى احترام لقدرات (عادل) الفكرية والسياسية ، وقدمه للناس كأحد أنسبائه ؛ خاصة وهو متزوج من بلد أخواله البعيد ، ومنهم كثيرون في القاهرة . وأعطى هذا لعادل بعض حرية الحركة ، وهو القادر على كسب احترام وثقة كل من يقترب منه ويكتشف فيه سمات تؤكد أنه ابن أصول ومن عيلة ..

كان من الممكن أن يهيئ هذا لعادل إمكانيات إدارة وقيادة العمل في أمان من القرية ، ولكن الأخبار من القاهرة تقول بأن هناك خطة لإعادة ترتيب (البيت) ، بعد تكشف آثار الضربة ، وحصار الكوادر والعناصر التي أفلتت من الاعتقال . كان (رفعت السعيد) قد كسر حكم المراقبة بأمر حزبي ، وشرع مع الآخرين في إعادة تنظيم العمل مركزيًا ، ولذلك أبلغونا بضرورة عودة (عادل) إلى القاهرة . ولقي أمر الاستدعاء ترحيبًا من (عادل) الذي كان يحس أنه محاصر في القرية مشلول الحركة ، بينما يزداد هجوم (عبد الناصر) الشرس على الشيوعية والشيوعيين ؛ مما يتطلب عملاً أكثر جدية وفائدة من التجول في القرية للتعرف على أهلها أو قضاء معظم الوقت - تحت (كرمة) العنب - في لعب الكومي ، أو في التثرثرة حول الموقف السياسي وتحليل الأحداث في حذر دون مشاركة حقيقية في إعادة الحياة للحزب الذي صرعه الحملة ، وهو الذي لم يُشف من جرح الانقسام القاتل . ولذا لم يكذب خبرًا ، وشد رحاله عائداً إلى شقتنا في شارع النزهة بالسكاكيني .

بدأت محاولة محمومة للمّ شمل أعضاء قسم الجامعة ، ولم يكن قد أُصيب إصابة فادحة . كانت بعض وسائل الاتصال قد ضُربت بحكم عمق الضربة للمركز . ولذا كان علينا إعادة شبكة الاتصال قدر الإمكان . كلفني (عادل) بالذهاب للقاء (رفعت) لترتيب اتصال معه ، وكان بينهما ترتيب سابق للقاء ثابت فوق كوبري (أبو العلا) في موعد معين لم يذهب إليه (عادل) مرتين بحكم هربه إلى القرية ، فكلفني بالذهاب بدلاً منه ، بعد تزويدي بما يضمن تعرّفي على (رفعت) وتأمين تعرّفه عليّ واطمئنانه لي ..

وفي نفس الوقت كلف (فتحي مجاهد) بالذهاب إلى شقة (آل القصير) في حارة (الشفقاتية) المنقرعة من شارع المساحة بباب اللوق ، وتحذير (عيداروس) بعد القبض على (أحمد) وأخته في إحدى المdahمات العشوائية بعد الحملة الكبرى ؛ وهي أحداث عبيثة كانت تحدث كثيراً عقب ليلة (أول يناير) ؛ بسبب معلومات أو أخطاء أو بالصدفة البحتة ، كلما بدأت محاولة لإعادة ضخ الحركة والنبض في العروق الممزقة للتنظيم في القاهرة .

اصطحب (فتحي) أخي (عادل) - كان يسكن معنا ويدرس في مدرسة العباسية الثانوية - وذلك لمواجهة أي ظرف طارئ ؛ خاصة أنه كان يتردد كثيراً على شقة (آل القصير) ؛ تحسباً أن يكون مرصوداً ، أو تكون الشقة قد وُضعت تحت المراقبة .

على ناصية الشارع أشار ل (عادل) على الدور الثالث ، وطلب منه أن يذهب ليبلغ عيداروس بضرورة تنظيف الشقة ؛ خشية مdahمة المباحث لها ، وزوّده بما يكفي من التحذيرات كي يتم الأمر في هدوء ودون أن يلفت نظر أحد .

وكانت المباحث قد سبقت بالفعل وdahمت الشقة قبيل وصولهم بقليل .

اندفع أخي (عادل) صاعداً السلم القديم للبيت الأيل للسقوط حاملاً حقيبته المدرسية - التي أخذها للتمويه - وما أن صعد للدور الثاني حتى أحس بالخطر ، ولاحظ وجود مخبرين وجنود وحشد منهم يصل إلى الشقة المقصودة في الدور الثالث . وخن أنه لو استدار عائداً فسوف يلاحظونه ، فاندفع صاعداً دون تردد قاصداً الدور الأعلى . كان باب الشقة مفتوحاً على مصراعيه ، وبقايا دخان نار تتطفئ في صفيحة قمامة وسط الصالة ، وضابط منفعل غاضب خائب الأمل - لأنه لم يستطيع إنقاذ أي ورقة من النار - يوجه للكلمات لمن خمن (عادل) أنه (عيداروس) ؛ بناء على وصف (فتحي) له ؛ ولأنه كان صامداً برغم جسمه الهزيل وعيونه الذابلة للكلمات الضابط .

سقط قلب (عادل) في قدميه .. ووقف للحظة وهو يلهث . وعندما حاول الاستمرار في الصعود ، ناداه الضابط في ابتهاج الغريق الذي لقي قشة ..

- أهلاً .. تعالى يا حبيبي .. إنت جاي عشان الحريقة طبعاً .. مش كده ؟

برقت عينا (عادل) ، وبلع ريقه ، وأدعى الدهشة :

- حريقة ؟ حريقة إيه ؟ أنا جاي علشان الدرس .

- درس ؟

- أيوه الدرس .

- درس إيه ؟

- مش دي شقة الأستاذ (عبد الحفيظ) مدرس الإنجليزي ..

صمت الضابط ، وأخذ يتأمله في شك ، لكن البراءة التي بدت واضحة على وجهه

(الصبي) جعلته يخفف قبضته على كتفه ، فاستطرد (عادل) في سذاجة ولكن في ثقة :

- يظهر أنا دخلت بيت غلط . أنا آسف . أنا عايز شقة الأستاذ (عبد الحفيظ) .

- بتاع العباسية ؟ في البيت اللي جنبنا يا ابني ، الدور الخامس .

قالها (عيداروس) وهو يمسح الدم الذي سال من أنفه والعرق الذي غيّم عينيه .

كادت دهشة (عادل) تكشف الأمر ؛ لأنه اخترع اسم الأستاذ بالصدفة ، لكن خيبة أمل

الضابط في إنقاذ بعض الأوراق أو أمله في العثور على غيرها في الشقة جعلته يشخط في

جيشه الصامت :

- أدخل انت وهو اقلبوا الشقة . وانت ياله .. غور روح للأستاذ زفت بتاعك .

نزل (عادل) مهرولاً وهو لا يصدق أنه نجا ، لكن الجنون الذي انتاب ضربات قلبه والرعب

الذي تملّكه كاد أن يكعبله على السلم ، لكن ذلك لم يمنعه من التفكير في ضرورة أن يدخل

البيت الذي يسكنه الأستاذ الوهمي (عبد الحفيظ) ويغيب فيه لدقائق ، ثم يهرول دون أن يلتفت

وراءه ليلحق بـ(فتحي مجاهد) عند البنزينة ، ويشير خفية إليه من بعيد ليتبعه إلى الميدان .

وتبعه فتحي طائعا في دهشة وقلق حتى لحق به عند مقهى الحرية . ولما سأله عما جرى ؛

حكى له (عادل) - وقد استعاد أنفاسه وهدأت دقات قلبه لدرجة الابتسام في ثقة وهو يحكي -

كيف ألهمه ذكاؤه التخلص من المأزق ؛ مثيراً إعجاب (فتحي مجاهد) به فقال مباحيا

- دانته داهية ! وميّه من تحت تبين .. ما يتخافش عليك يا واد .. دانته كادر !

• ذهبت في الموعد الاحتياطي الثابت بين (عادل) و(رفعت) على كوبري (أبو العلا).

كانت ليلة ممطرة ، ولم يكن ممكناً التأجيل بسبب المطر ؛ لأن ذلك يعني تأجيل

الاتصال لأسبوع آخر . زوّدني (عادل) بما يكفي من الإشارات والعلامات لأتعرّف

إلى (رفعت) ولكي يطمئن هو إليّ .

كانت أول مرة أقابل فيها (رفعت) ، ولم يكن قد أصبح دكتورًا ، ولم يكن سلم الطموح قد ارتفع وانفسح أمامه على مصراعيه بعد . كان معظم القياديين قد خطفتهم الحملة الأولى . هرب هو من المراقبة المحكوم بها عليه بعد فترة سجنه السابقة والإفراج عنه منها قبل حملة يناير . ولذا كان كسر المراقبة ضروريًا ليقوم بدور أكبر في محاولة إعادة النبض لعروق التنظيم . وتم اللقاء بسلام ، ورتَّب (رفعت) لـ(عادل) موعدًا مع أحد الرفاق في شقة معينة بالواليي ليست بعيدة عن شقتنا في السكاكيني ، اصطحب (عادل) (حسين عبد ربه) معه إلى الموعد ؛ مخالفًا بذلك قاعدة تنظيمية بسيطة ، ولكن لهفته على إنجاز العمل بسرعة أوقعتهم معًا في الفخ ، فلم يكن (حسين) مطلوبًا للمباحث التي كانت تراقب الشقة التي ضرب فيها الموعد .. ! وبالرغم من أن (عادل حسين) كان هو نفسه الذي حذرنا من التردد على شقة (آل القصير) على الرغم من عدم القبض على (عيداروس) ؛ مؤكدًا أن المباحث ستتخذ منها فخًا للإيقاع بالرفاق ، وأكثر من ذلك طلب إعادة أخي (عادل) إلى القرية وتحويله للدراسة هناك ؛ حتى لا تضطرب دراسته أمام ما يُنتظر من الاحتمالات ؛ وهو ما حدث بالفعل . وتم تحويل أوراق (عادل) إلى مدرسة (ميت سلسيل) رغم أنفه ؛ مما أثار غضبه علينا لأننا لم نقدر كفاءاته الفطرية . بالرغم من كل ذلك ؛ وقع (عادل حسين) و(حسين عبد ربه) في الفخ .

(الحذر لا يمنع القدر)

قالها (فتحي مجاهد) فيما بعد ساخرًا من طريقتنا (الهلليّة) في إدارة أمورنا باعتبارنا تنظيمًا سرّيًا . تلك (الهللية) التي سيقع هو نفسه أسيرًا لها ك(فلاح) ، كما سنرى فيما بعد ! المهم أن العصفور وقع ، ومعه طائر جديد لم تكن المباحث تعمل حسابه إلا بالجملة الذكية الحويطة التي دائمًا ما كان يذبل بها أمر القبض على مطلوب ما ؛ وهي "القبض على المذكور والمتواجدين معه" !

وإن لم يطبق هذا طبعًا على صاحب (العش) الذي يبدو أنه كان (طائرًا مستأنسًا) يدير عشّه للإيقاع بالطيور الشاردة . وهو أمر تكرر حتى صار أمرًا عاديًا لا يستحق الالتفات إليه !!!

حين تأخر (حسين) و(عادل) في العودة للشقة في موعد العشاء ، بدأ القلق يساورني أنا و(فخري) شقيق حسين الأصغر . ومع ذلك مضينا نجهز العشاء ، وكان هذا من تقاليد أي شقة يسكنها أيُّ منا ؛ إذ كانت على خلاف كل شقق الطلبة . كانت (بيتًا) تنظم فيه مواعيد الطعام ، وتقدم الوجبات في مواعيد لتجمع الكل معًا ، إلا إذا حكمت الظروف .. ترتيب ، نظافة .. لا تعرفها شقق الطلبة عادة .

وما أن انتهينا من تحضير العشاء حتى دق جرس الباب . أسرعت ملهوفًا أفتحه وأنا أنحني مرَّجِبًا في حركة مسرحية استعراضية بالسادة القادمين ، لكن الحشد الذي رأيته أخرس الكلمات المسرحية على لساني . فوجئت بأورطة أفندية وحسين وسطهم مقلوب السحنة بطريقة يختص بها ؛ يتحول فيها وجه (روبرت تايلور) إلى سحنة أشبه بسحنة مشتركة لـ(جاك بالانس) و(فنسنت برايس) . ومع ذلك لم آخذ خوانة ؛ فقد تعودت على انقلاب سحنته في مواقف عديدة . أعطتني الجملة التي قلتها - كرد فعل على المنظر الذي لم أدرك حقيقته - فرصة للتفكير ؛ وأنا أزيد ساخرًا :

- يا دي النيلة .. مش ح نتهئى ع العشا الليلة . طب يا ناصح كنت هات معاك عيش يكفي (الجَرْمًا) ده .

عدم استجابة أي من القادمين لاستظرافي وبرطمة (حسين) غاضبًا نبَّهتاني . وعندما لم أجد (عادل حسين) معهم كدت أفهم . وعندما أزعجتني للداخل على جنب ذراع مخبر قاسية فهمت .

انتشروا في الشقة وزحموها ، وجاء (فخري) من المطبخ صارخًا مندهشًا وهو يضحك بطريقته الساذجة عندما لا يفهم شيئًا :

- إيه ؟ إيه ده ؟ هو فيه إيه ؟

اقتحموا حجرة (حسين) عندما أشار إليها بناء على طلب قائدهم . ولحسن الحظ لم يكن (علي) - شقيق حسين الأكبر منه والذي يشاركنا الشقة - حاضرًا ، وإلا لكانت الأمور قد تدهورت ؛ لأنه بالتأكيد سيتعامل مع الغرباء في مثل هذه المواقف بتعالٍ يتقنه ، مدعيًا - كعادته - أنه ضابط أمن دولة أو وكيل نيابة ! حتى تحيط به هالة الرهبة التي تحيط بذوي السلطان لدى البقالين والجزارين والبوابين وغيرهم في الأحياء التي سكنا فيها دائمًا .

في البداية سألني الضابط الذي دفعني إلى جنب :

- كنتو منتظرين ضيوف ؟ ..

قلت بعد أن تماسكت مبتسمًا :

- وهو فيه أعز منكم .. دا احنا زارنا النبي !

لم تعجبه طريقي ، فزغدني بإصبع حاد في صدري :

- اتكلم كويس !!

قلت في جدية وأنا أحك بؤرة الألم التي خلفها إصبعه الخشبي :

- أنا باتكلم جد .. هو انتو مين سيادتكم ؟

ردَّ في حدَّة :

- دلوقتي تعرف يا لمض .. فين أودتك !؟

أشرت إليها ، فدفعني نحوها ..

وقع نظري على (حسين) واقفًا وسط غرفته منكوش الشعر صامتًا في تعالٍ متجهمٍ وسط كومة من فوضى كتبه وأوراقه المنتهكة تحت أقدام وبين أيدي أربعة من الجلاوزة ، يراقبهم (فخري) شاردًا وهو يغطي أطباق الطعام في صمت آلي وقد تدلّت شفّته السفلى دهشة ، فزادته طرفة .

دفعني الضابط إلى داخل الغرفة ، وأغلق الباب ، ووقف مستندًا إليه ، قلت حين تحرّرت من قبضته ؛ في صوت حاولت أن يكون خافتًا مؤدبًا :

- هوّ سيادتك المباحث العامة ؟

ابتلعنتي نظرته الغاضبة ، ورد ساخرًا :

- إيه الذكاوة دي ؟ عرفتها لوحدك !

- قلت بلا أدنى محاولة للتجاوز :

- أبدًا .. ده واضح جدًّا ، لكن بس .. فين الـ ..

التفت يرمقني بنظرة نارية كمن داس على بصبوص نار :

- نعم .. عايز تقول إيه ؟ .. كمل .. ما تتطق يا ناصح .. هه .. قصدك إيه ؟ ..

قالها بحدة وهو يفهم طبعًا ما طلبته وسألته عنه ، فزرّ عينيه أكثر في تربص ، فقلت :

- يعني أمر التفتيش !..

ردّها إليّ بسرعة غاضبة كمن يصفعني :

- أمر إيه يا روح أمك ؟

قلت في دهشة حقيقية واحتجاج مؤدب :

- وما دخل أمي في الحكاية دي يا افندم . أنا ما غلطتش في حضرتك . أنا بأسأل .. وده

شيء عادي .. حقّي .. بأسأل .

أجاب رافضًا التمادي في المناقشة :

- وحضرتي جاوبت .

كان قد بدأ في نكش الكتب وإلقاء ما يفحصه على طول ذراعه ، فيرفرف كطائر جريح ، ويصطدم بالحائط أو على الأرض ، ثم ركل (الكوميدينو) العزيز الصغير الذي رافقني عمزًا طويلاً منذ غادرت للدراسة في نهاية العام الخمسين إلى مدينة دمياط ، بعد حصولي على الابتدائية ، وبعدها رافقني في صمود وصلابة في جولتي بعد دمياط إلى المنصورة والمنزلة ودقادوس (ميت غمر) ، ليستقر معي في القاهرة حين التحقت بالجامعة ، وطاف معي أحياءها من المطرية إلى شبرا وغمرة فالسكاكيني ؛ كخزانة أسرار ، وملابس ، وحافظة نقود ، ومنشورات ؛ بكل إخلاص أكسبه عندي مكانة ، وربط بينه وبينني بعلاقة حميمة تكاد تكون بشرية . لذا

سمعت له صوت آه استغاثة ، وصرخة ألم عندما رفسه الضابط في قسوة غير بشرية ، فتحت بابيه الصغير الوحيد عنوة فشرخته .

مدّ الضابط يده التي تستحق قطعها ، فتناول رزمة استمارات (استطلاع رأي) كانت لاستفتاء ثقافي تجريبه مجلة (الغد) ؛ تمهيداً لإصدارها الثاني عن دار الفكر مع بداية العام المنحوس ، فتهلّل وجهه كأنما عثر على ضالته :

- الله .. وانت بقي بتشتغل مع دار الفكر ؟ ..

لمحت في حركة أصابعه المخراز والخيوط التي بدأ بها متحفرًا لغزل شبكته حولي ، فقلت محاولاً الإفلات :

- يا بيه أنا شاعر ودار الفكر دار نشر ، عطيتهم قصيدة عن (جميلة بوحريد) ، عادي .. دي استمارات لاستطلاع رأي القراء في الثقافة ؛ شيء عادي .

نظر في عيني نظرة مباشرة قاسية موحياً لي أنه لا يصدقني ؛ محاولاً إبلاغي مدى خطورة موقعي . تتحنح قائلاً في سخرية :

- لأ يا فالح .. مش شيء عادي ..

ثم فاجأني :

- إنت شيوعي يا واد ؟

ورغم غضبي لكلمة (واد) هذه ، فإنني أقنعت نفسي أن كل مولود ولد ، فتجاهلتها وقلت :

- إيه ؟

- شيوعي .. ما تعرفش يعني إيه شيوعي ؟

- لأ .. ما عنديش فكرة ..

- لا يا شيخ .. ح تستعبط يا روح ماما .

هذه المرة قال (ماما) ؛ دلعها أو دلعني .. لم يقلها غليظة (أمك) ، فتسامحت وتجاهلت الأمر ..

(ماما) أرحم قليلاً .. كلهن ماما .. وقلت أسوق العبط .

- ح استعبط ليه يا بيه ، ما اعرفش حقيقي يعني إيه الكلمة دي ؟

لم يرد ، واكتفى بمتابعتي في سخرية وهو يتطلع في من فوق لتحت ، وراح يسألني عن أبي

وسنّه وعمله ، وعن إخوتي وأخواتي في سرعة من لا يهتم بإجاباتي . وهو يسمع بينما يده تعبت

بمحتويات درج (الكوميدينو) ما زالت ، ثم توقف فجأة متأملاً صورة أخي عادل التي كانت -

على ما يبدو - بين الأوراق دون علمي .. أدار الصورة نحوي في اهتمام .

- صورة مين دي ؟

وأحسست في اهتمامه ما يريب ، فقلت :

- دي صورة أخويا الصغير اللي في البلد .



اقترب منّي وهو يعاود تأمل الصورة التي لا تبتسم .

- وده عايش معاكم هنا .. هه ؟

- أبدًا .. عمره ما نزل مصر , ده طالب في مدرسة البلد .

لم تُزل إجابتي شكه ، فاحتفظ بالصورة في جيبه ، وعاد إلى نكش محتويات الحجرة ، فقلب المخذات والمرتبة الثقيلة . ولما لم يجد شيئاً رفس (الكوميدينو) العزيز رفسة أخرى ، فقلبه على وجهه ، فكتم صرخته . وسألني عما تحت السرير ، فسحبت شنطة هومي القديمة ذات السوستة الخربة .

- فيه حاجة تاني ؟ فيه حاجة مدفوسة كده ولا كده ؟

- ولا كده . حضرتك شوف بنفسك .

صدقني ، وعاد يسألني عما فوق الدولاب وهو يفتحه على مصراعيه ويدس يده داخله ، قلت له :

- فيه فوقه شيشب قديم ومشط مكسور وكتاب ألف ليلة وليلة ..

- يا سلام .. دانت مذاكر اللي فوقه ؟ ما فيش حاجة كده ولا كده .

كررت النكتة البايخة :

- ولا كده .. كنت مطمئناً ؛ فليس في الشقة أية مطبوعات ، حتي الكتب اليسارية والوطنية التي يمكن أن تثير الشبهة ؛ كنا قد نقلناها في الخارج أو تخلّصنا منها ؛ فالشقة كان فيها (هارب مطلوب) . اقترب الضابط مني في هدوء ، ولف ذراعه حول كتفي في حنان أبوي ، وتحنح في رقة ، وقال في عطف مبالغ فيه :

- انت كبير اخواتك يا سمير ؟

- لأ .. أختي آمال أكبر مني .

- قصدي إنت أكبر الرجالة . يعني الكبير بين اخواتك ، ومسئول عنهم بعد ابوك الغلبان اللي طافح الكوتة عشان يريهم ، وحاطط أمله عليكم ؛ يتباهى بفلاحتهم على اولاد زميله (الإلنز) . تلاقيك أول واحد يدخل الجامعة منهم .. هه ؟ ! هو يهري ف نفسه وحارمها عشان يصرف عليك ، وانت هنا تتصرمح ، وتشبه نفسك ، وتجيب له الكافية .

ابتسمت - بل كدت أضحك - لأنه يعرف حكاية التنافس بين مدرسي الإلزامي في بلدنا على تعليم أولادهم . وتصورت أبي يهري في نفسه ويحرمها ليرسل لي الجنيهاات الخمسة التي لم تصبح ستة إلا مع بداية هذا العام .. قلت :

- وانا ما قصرتش .. أنا برضه هاري نفسي في طلب العلم ، ومش باتصرمح ولا حاجة كفي

الله الشر ..

- انت يا واد ح تستعبط لسه ؟ بتستهيل ؟ مش ده ورق شيوعي من دار نشر شيوعية بتاع الأفكار الهدامة ؟ حتى لو كان استفتاء عادي .. مش بتروّجه ، إنت سارقاك السكينة يا ابني

فاكرها سهلة .. دي أظرم المخدرات .. إياك تكون فاكر الحكاية دي ح تعدي .. لأ يا بابا ..  
ده إثبات انك شيوعي وساكن مع شيوعي خطير .. وله .. إنت عارف ان (حسين عبد ربه)  
شيوعي خطير ولأ لأ ؟ هه ؟ شيوعي ولأ لأ؟

- مين هو ؟

قلتها ببلاهة صادقة ، بطريقة أدهشتني سذاجة خروجها من فمي ، فردّ بحدّة من لا يصدقني :  
- (حسين كامل مصطفى كامل عبد ربه) .. مش عارف إنه شيوعي خطير .. أمّال عايش

معاه ازاي ؟

- أنا ما اعرفش ! اللي أعرفه إن كل عيلتهم وفديين أبًا عن جد ..

- و(عادل حسين) ؟

- مين ده ؟

- ح ترجع تستهبل .. (عادل حسين) اللي كنتو مخيّبينه هنا .. باقول لك إيه ؟ إذا كنت  
فاكر إننا نايمين على ودانّا تبقى أهبل .. احنا م الأول مراقبينكم وعارفين كل حاجة . يا ابني ما  
فيش حاجة بتستخبى ، هه .. و(عادل حسين) ؟

- يا بيه وشرفك ما اعرف حد بالاسم ده .. شققتنا دي (دوّار) وملقف لكل طلبة البلد ،

وقرايبهم كلهم بيزورونا .. يمكن تقصد (عادل عبد ربه) حضرتك !!

فجأة انتفض وقبض على زمارة رقبتي - وكان ممثليّ الجسم ربع القوام عريض المنكبين -  
فأحاط كفه برقبتي ، ورفعني وأنا أكاد أختنق ، فأضطر للوقوف على أطراف أصابعي وأنا أشهق  
، فتجاهل حالتي ، وقال غاضبًا :

- وله !!؟ إنت تلبس هدومك وح تيجي معانا . ح اورّيك . الظاهر ما فيش فايده في الطيابة .

أنا كنت فاكر ح تراعي خاطر أبوك ، بدل ما اجيبه هنا على ملا وشه وأجرجه معاك . إنت  
باين صنف جزمة ما تجيش إلا بالسك .

كنت أفر فر في يده وهو يطوح بي ويهرّب فيّ لأعلى ولأسفل حتى كدت أختنق فعلاً .. لولا  
أنه أطلقني في الوقت المناسب وهو يصيح في المخبرين . ففتح أحدهم الباب .

- تمام يا أفندم .

- شيل كل الهباب اللي ع الأرض ده ، وهات الورق ده وخليّ عينك على (الفسل) ده لحد ما  
نخلص .

وترك الغرفة غاضبًا . رمقني المخبر بنظرة قاسية ، وأخذ في تنفيذ الأمر .

كانوا قد انتهوا من تفتيش الشقة ، وملأوا ثلاثة صناديق كرتون كبيرة بكتب من كل الأنواع.  
معظمها روايات ومسرحيات ، وليس بها كتاب يساري واحد . وجذبني المخبر بعد أن ارتديت

ملابسي ، وكان (حسين) قد غير ملابسه هو الآخر . وعندما طلب أن نأخذ غيارات وبطاطين  
رفض الضابط ، وقال ساخراً :

- على إيه ؟ كلها انشاء الله ساعات وترجعوا بالسلامة . مش مستاهلة .  
والتقت إليّ غاضباً وهو يصيح :

- أما انت فابقي قابلني ، إن ما وديتك ورا الشمس !!

فغر (فخري) فمه وهو يتابع ما يجري دون فهم كامل ، فشخط فيه الضابط ..  
- وانت كمل عشاك قبل ما بيرد واتخمد .

أغلق فخري فمه بطريقة ميكانيكية ، وإن لم يستطع أن يكتب ضحكته البلهاء التي تنطلق آلياً  
منه حين يعجز عن إيجاد الكلمات الملائمة في الوقت المناسب ، ووقف يراقبهم وهم يدفعوننا -  
(حسين) وأنا - أمامهم ويغلقون الباب عليه ، وهو ما يزال يضحك بلا صوت في بلاهة .

كانت الشوارع خالية عندما حشرونا بين اتنين جبلاً بالبلاطي . ركب الضابط بجوار  
السائق وركب الآخرون العربية الأخرى . لمحت نافذة زينب مفتوحة وهي واقفة تراقب المنظر ،  
شاهدتها تسأل (فخري) بالإشارة - ملهوفة - وهو يشرح لها الأمر بإشارة حول معصميه ،  
فابتسمت فخوراً ؛ لأنني قد أخبرتها أن هذا يمكن أن يحدث في أي وقت لكل من يسير في  
طريق (النضال من أجل الحرية) !!

لاحظها الضابط ، ولاحظ لفتاتي وابتسامتي ، فغمغم في سخرية - (حبيب) !؟

انطلقت العربات في الشارع الخالي البارد نحو ميدان الجيش في طريقها إلى الداخلية ،  
وأكمل الضابط :

- بنت الجيران !؟ شيوعية هي كمان ؟ ولأ ده حب عزري .. إيه يا شاعر ؟ ما تقول لنا  
شوية في الحب ، والأ انت مش في المود .  
قلت في هدوء :

- مش مناسبة . ممكن أقول في الليل ، الضلمة ، البرد .

انتبه لنبرتي ، فقال في حدة ..

- نعم !؟ ح تنفلسف !؟

- قصدي إن الليل جميل ويستاهل يتقال فيه الشعر ؛ لأنه مخبي ياما .. حد عارف .

قال ساخراً .

- إنت لسه شُفت حاجة ! ياما مخبي بلاوي .

قلت أجاريه :

- قلتها بنفسك (ياما) .. ح ييجي منين الشعر !

غضب مرة أخرى ونهرني :

- طب اخرج ..

وزغدني (حسين) في جنبي بحدّة ، وقال :

- ما تتنيل ، (ثم رفع صوته) ، يا افندم ده مالوش دعوة بأي حاجة . (عادل حسين) صاحبي أنا ، هوّ ما يعرفوش ولا عمره شافه . أنا مش عارف تحشروه ليه في حاجة مالوش دعوة بيها وما يعرفهاش ؟

رد الضابط وابتسامته الصفراء لم تغلح في إضفاء الطيبة التي تظاهر بها ، وفي لهجة تهديد غاية في السماجة .

- كده ؟ إنت اللي لك دعوة ؟ مش قلت لك يا سمرة ؟ أهه .. طلع شيوعي أهه . أما نوصل

نشوف يا سي (حسين) !!

عندما وصلنا فرقونا ، ولم أر (حسين عبد ربه) بعدها إلا عندما استطعت زيارته في سجن (مصر) بعد عدة أسابيع .

\*\*\*

- عند عبوري الطريقة الطويلة في صحبة أحد المخبرين ؛ لمحت (عادل حسين) نحيلاً مرهقاً جالساً في إحدى الحجرات وظهره للباب وحوله أربعة جلاوزة يحيطونه ، كل منهم قد اتخذ موقعاً أقرب من الآخر إليه . عندما لمحنا أحدهم أسرع فرزع الباب

بقدمه في وجهنا . بعدها ؛ أدخلوني حجرة خالية إلا من مكتب خشبي قديم ، عليه  
أباجورة . دفعوني فجأة ، فكدت أنكفي ، وأغلقت الباب .

وقفت وحيداً للحظة ؛ محاولاً حفظ توازني بصعوبة . أخذت أتأمل ما حولي . كان السقف  
عاليًا بطريقة غريبة غارقًا في ظلام لزج محسوس ، واللمبة الساقطة منه تصارع لتتير الأركان .  
بدا المكان باردًا موحشًا . أحسست بكل طوابق المبنى تجثم على نفسي . كان ضوء الللمبة  
الضعيف يزيد الفراغ وحشة وبرودة ، ويشيع حول نفسه ظلالاً باهتة . وقفت أتأمل ما حولي :  
مكتب كالح عارٍ إلا من دوسيه قديم ، بقايا ثقل شاي وأعقاب سجائر في كوب زجاجي قدر ،  
مقعد خرزان خلف المكتب ، ولا شيء آخر . أخذت أدفئ كفي بفركهما ، ثم بدأت في السير  
جيئةً وذهابًا ؛ حريصًا ألا يصدر عني صوت .. محاولاً تحريك دمي المتجمد في عروقي .  
أتأمل الظلمة التي تتكاثر في الأركان .

مرّ الوقت بطيئًا ثقيلًا .. لكن نوعًا خفيًا أو خفيًا من التحدي كان قد بدأ يتسلل إليّ ..  
(صورة زينب) في النافذة في هذه الساعة زوّدتني بالدفء .. هل كانت هناك بالصدفة ؟ أم أن  
قلبها حدّثها بشيء ؟ ابتسمت .. كانت تستمع لكلماتي عن الوطن والثورة بشغف ؛ أو قل  
باندهاش . كانت تتصور نفسها معي كأنها تمثل في فيلم ستلعب فيه دورًا مثيرًا .. مغامرات  
بوليس واعتقالات ، منشورات . كانت ترتجف من الدهشة والنشوة إذا ما أعطيتها مجلتنا الصغيرة  
الغريبة الشكل والحروف ، لتقرأها خلصة وتعيدها دون أن تُطلع عليها أحدًا وهي في غاية  
الانفعال . كانت الكلمات مشحونة بأصوات عمّال مضربين ومظاهرات وطلقات رصاص .  
ابتسمت عندما تخيلت ما تحس به الآن . هي ترى حبيبها بين شحطين من المخبرين يركب  
العربة وينظر نحوها تاركًا العيون تتكلم . كادت البسمة أن تصبح ضحكة صريحة ، كتمها فتح  
الباب فجأة .

بدت الحجرة أكثر وضوحًا وكآبة وصمًا في ضوء الطريقة غير المباشر . قادني مدني عجوز  
صامت إلى حجرة أخرى ضيقة مقطّعة من غرفة أكبر بحاجز خشبي لزج وغامق وسقف قديم .  
كانت أكثر دفئًا بسبب دفاية نصف عاطلة في ركنها . أجلسني أمامه . بعدها جلس وقرب  
الدفاية من قدميه ، ثم أعطاني استمارة مليئة بالبيانات والأسئلة والفراغات ، وقال لي وهو يناولني  
قلمًا ..

- اكتب ! اكتبها كلها ..

- أكتب إيه ؟

- اللي قدامك اكتبه . إملاه . ما تقوّتش أي خانة ، وما تكذبش يا ابني أحسن لك .

تأملت الاستمارة . كانت مليئة بالسطور والخانات التي لم تترك شيئاً ؛ ابتداء من اسمي حتى الجد الرابع ، وأسماء أخواتي ، وأمي ، وعائلتها ، وأبي ، وقبيلته ، وأقاربي ، والمدارس التي تعلمت بها . قرיתי ، والجيران المهمين ، والأصدقاء المقربين ، وعناوين الكل ، ووظائفهم ومراكزهم الاجتماعية . استغرقتني الإجابة وملء الفراغات . كنت فكرت في الرفض والعصيان ، ولكنني طردت هذا خاطر ؛ فكلها معلومات يمكن الوصول إليها بسهولة.

فكرت أن أستفسر عن طريقة ترتيب المعلومات ، ولكنني وجدته قد راح في النوم من التعب ، فلم أشأ إزعاجه ، واندمجت مصمماً على عبثية كل ذلك ، وغلبني شعور بالرتاء لخالي (السعيد) ، وأخيه (الخميسي) ، وأولاد عمي (عوض) ، وبنات عمتي (فرحة) ؛ وهم يدخلون إلى عش الحكومة رسمياً . الآن بسببي تم وضعهم تحت بؤرة عدسة جراحة قد تجر عليهم متاعب ظلوا في غنى عنها طوال عمرهم . أشجعهم يود لو تسلخ جلده ولا يقترب من مبنى حكومي عسكري أو مدني إلا غصباً أو لحاجة ملحة .

وها هم جميعاً - في ليلة واحدة - أصبحوا مشكوكين في إبرة وخيط واحد كـ(شُلش) سمك بلطي صاده (ابن زينة) من مصرف (البواليص) مدونين جميعاً في دفاتر الحكومة ، والأمن العام بالذات . مصيبة حارة . ما علينا !

انتهيت من ملء بيانات الورقة . ولما وجدت الرجل لا يزال نائماً ؛ مضيت أراجعتها وأنا أتصور وقع ذلك على كل واحد جاء ذكره فيها ، لو عرف . ولما استيقظ العجوز فجأة ناولته إياها . تأملها قليلاً دون قراءة ، ومصمص شفثيه إشفافاً ، ثم وضعها جانباً .

أشار إليّ فتبعته إلى حجرة أخرى مشابهة ؛ حيث كانت ماكينة تصوير عتيقة الطراز تقف كالشبح الأسود وسط الظلام الدامس . أضاء شيئاً معتماً ، ثم أوقفني أمامها ، والتقط لي صورة من الأمام وصورة من الجانب الأيمن ، ثم أخرى من الجانب الأيسر . وقال عندما وجدني لا أتحرك منتظراً :

- خلاص .. فنش . اتفضل مع السلامة .

- أروّح !؟

جلس على مكتبه دون أن يهتم بالرد على سؤالي السخيف ، أو يفكر في أن يقول لي ماذا أفعل بنفسني . مضت فترة . وقبل أن أفكر في سؤاله ؛ جذبني أحدهم من ياقة قميصي ، وأدارني إلى الطريقة في صمت . فتح باب الغرفة الأولى ، ودفعني إلى داخلها ، وأغلق الباب دون كلمة .

عزّت عليّ نفسي ، وأحسست الإهانة الشديدة لهذه المعاملة ، لكنني كتمت البكاء ، وغالبت دموعي ، وأخذت أجوب الغرفة رائحاً غادياً ؛ مذيباً في الحركة مشاعر القلق والتوجس والمهانة . مرّ زمن طويل بطيء غبي . استعنت على قتله باستحضار كثير من المواقف والذكريات

والمشاهد ، ومسترجعًا بعض الأحداث التي كان من نتيجتها وجودي هنا في قبضة الأمن العام وأمن الدولة . وجددني أعجب بنفسي قليلاً ؛ فقد تصرفت بهدوء ؛ مع أنها المرة الأولى التي أعتقل فيها وأسجن ، وفي الداخلية نفسها .. ياه . مع ذلك لم يصبني الهلع حتى الآن ، ولم يتسرب الخوف لنفسي إلا قليلاً . وراجعت ما دار بيني وبين الضابط من حديث متكافئ ، فزددت إعجابًا بنفسي واطمئنناً وهدوءًا ؛ حتى كدت أن أضبط ابتسامة تلوح على وجهي المتعب ؛ فلم يقل لنا أحد كيف نتصرف حين نقع في يد البوليس . يبدو أن أحدًا - في غمرة الزحف الثوري (الآسيوي الإفريقي) ومهرجانات التضامن الأممي - لم يفكر لحظة أن البطل الوطني القومي يمكن أن يفعلها ويلقي بمريديه وأنصاره في السجون .. معقول !؟

فُتح الباب - فجأة - في ضجة وصخب ، واندفع أحد الضباط إلى داخل الغرفة مسرعًا حتى كاد أن يتجاوزني إلى الحائط ، وسأل بطريقة ميكانيكية :

- مين (سمير عبد الباقي) هنا ؟

قلت وأنا أنظر حولي ؛ لأتأكد من وجودي لوحدي ..

- أنا (سمير عبد الباقي) .

قال في حسم تشعر به مع محاولة كبيرة ومفتعلة للتظاهر بالعطف ، وهو يلف ذراعه على كتفي ، وأخذ يدور بي في الحجرة كأصدقاء :

- اسمع يا سمير يا ابني .. حضرة الضابط (شوكت) - كتر ألف خيره - عمل حساب الصدمة اللي ممكن تقتل أبوك الغلبان واخواتك الصغيرين . إحنا مش بنأذي حد . إنتوا اللي بتأذوا نفسكم . إحنا مالناش دعوة بالخلق دي اللي بتجيبه لنفسها .. هو شاف انك فعلاً مظلوم ومالكش دعوة بالأشكال دي .. علشان كده ح يسيبك تروّح بشرط .. اسمع اللي باقول لك عليه .. حسك عينك نشوف وشك تاني . مالكش دعوة ببتوع (دار الفكر) دي . دي حتت مشبوهة يا ابني . خليك في دروسك . دانتي بيقولوا عليك متفوق وطالع الأول على شعبتك . خسارة .. حاولت أن أجيب ، فقاطعني في حدة .

- اسمع اما أقول لك .. ما تردش وفكر . إحنا ما قدمناش اسمك للنيابة ولا ح نعتلك ، إحمد ربنا . هو بيقول انك لمض ولماضتك دي هي اللي ح تودي أهلك في داهية .. حاكم الابن الخرا يجيب لأهله اللعنة .. فوق بقى .. إحنا مش ح نسيبك أونطة . عينينا مش ح تغفل عنك لحظة .. أيوه ، الحكاية مش سهلة ولا بسيطة . ولو وقعت في إيدنا مرة ثانية عليك العوض . الدبان الأزرق مش هيعرف لك طريق جرة .. هه .. فاهم .. ولا كلمة .. مع السلامة

لم أعرف ما الذي يجب عليّ أن أفعله . خرج فخلت الغرفة .. الباب ظل مفتوحًا لفترة وليس هناك صوت . قلت لنفسي - وأنا أحاول التطلع في حذر عبر الطرقة - أخرج ؟ طردت الفكرة .. إيه الحكاية ؟

أشار لي أحد المخبرين . لمحني عبر الطرقة فتبعته وأنا أرتعش رغم انفعالي . سار أمامي، وقطعنا الطرقة المعتمة إلا قليلاً . نزلنا السلم البارد حتى الباب الرئيسي . وجدت نفسي في الشارع الصامت الخالي وقد اختفى المخبر . مضيت أتلفت خلفي وأنا أستقبل أول أضواء الفجر الباهتة ، وكتمت مشاعري بصعوبة بالغة ..

أحسست بغصة مُرّة في حلقي الجاف وأنا أعبر إلى الرصيف المقابل ؛ حيث كانت مدرسة (زينب) أمام الداخلية مباشرة . لم أشعر بالسعادة لخروجي ، بل أحسست وخزًا في قلبي . فكيف أواجه إخوة (حسين) ؟ قُبِض علينا معًا من الشقة ، وها أنا أعود بينما (حسين) - صديق العمر - لم يعد . صحيح أنهم قبضوا عليه مع (عادل حسين) ، لكن هل تفرق ؟ كيف سيفسر رفاقي ذلك ، وكيف سأواجه زملاء الجامعة ؟ هل سيصدقون حكايتي ، هل سيصفقون لي وسيُعجبون بحواري مع الضابط ويستملحونه كما استملحته أنا ؟

كنت قد قرأت قصصًا وسمعت روايات عن رفاق في بلاد أخرى مرؤوا بمواقف مثل هذه . أحاطت بهم الشكوك حتى خنقتهم . بعضهم دُفع للانتحار . فكّرت في التوجّه إلى شقة عابدين؛ حيث يسكن (فتحي مجاهد) و(محمد الإمام)، وانحرفت بالفعل ناحية الميدان ، ولكنّ هاتقًا صرخ فيّ يذكّرني بحديث الضابط الأخير :

(إحنا مش ح نسيبك كده لله في الله .. الحكاية مش سهلة!!)

فعلًا مش سهلة ..

خَمَّنت أنهم قد يكونون خلفي منذ الآن ليعرفوا كيف سأصرف ، وإلى أين أذهب ، انحرفت إلى شارع (محمد فريد) ، وقررت العودة إلى شقة السكاكيني التي قُبِض عليّ فيها ، فهم يعرفونها الآن بالفعل ولا داعي أن أقودهم إلى مكان آخر ، فيعرفون ما لم أبح به .

حين فتح (فخري) الباب استقبلني بضحكته التي ودّعنا بها ، وكأنه لم يكف عنها . قطعها فجأة عندما لم يجد أحدًا سواي :

- وحسين ؟

- ما اعرفش .. أنا ما شفتوش من أول ما وصلنا الداخلية .

- وسابوك ؟ .

- ما انا قدامك اهه ؟ سابوني .



- قلت لهم إيه ؟ .
- ح أقول إيه يا (فخري)؟! ما قلتش .. سألوني عن أهلي ، وخذوا أسامي اخواتي وأعمامي وأخوالي ، وصوّروني وسابوني .
- كان الحديث ثقيلًا مريبًا ، لكنه رِيحني حين قال في بساطة .
- يبقوا جايين وراك أكيد .. (زينب) حتموت روحها .
- تركني وأسرع إلى النافذة ينظر من خلف الشيش . اقتربت منه . كان شباك (زينب) لا يزال مفتوحًا ، لكنها لم تكن هناك . تمنيت أن تظهر ولو للحظة واحدة ، لكن فخري جذبني من ذراعي .
- وبعدين ؟ ح تعمل إيه ؟
- مش عارف .. أنا شفت (عادل حسين) هناك . والظاهر إنهم قبضوا عليه مع (حسين)، وجابهم (حسين) عشان يفتشوا الشقة ويدوروا على حاجة تنفعهم في التحقيق .
- وانت؟!!
- أنا إيه يا (فخري)؟! .. تاني ؟ ما انا قدامك اهه .. كنت ح اتحايل عليهم يخلوني محبوس .. أنا ما طلبت منهم يسيبوني ..
- على رأيك . بس ح نقول إيه لـ(حياة) ولـ(علي) ؟ دول جايين بكرة من البلد ، هه ؟
- ح نقول لهم إيه ؟ هوّ عيل وتاه .. قبضوا عليه زي ميات من زميلنا . ما هم عارفين كل حاجة . إسمع . أنا لازم اخرج بدري أعمل لفة كده علشان أبلغ عن اللي حصل . سيبني اتخدم شوية وابقى صحيني لو شُفت (زينب) .
- ح يجيلك نوم ؟ الله يخرب بيوتكم . افرض بقى عرفوا ان (عادل) كان عندنا في البلد، يعملوا إيه في (عباس) .
- وضحكنا من القلب .. كالعيال .
- وهُمَّه ح يعرفوا منين ؟ الكلام مالوش أي لازمة ولا بالهزار . تسمح أنام لي حبة .
- قال - وهو يضحك - :
- اتخدم .

\*\*\*

- عندما أيقظني قفزت بسرعة ، وبدلت ملابسي ، ووقفت أنتظر (زينب) في النافذة . كانت (زينب) طالبة في مدرسة التجارة الثانوية . تسكن في مواجهتنا ، ولها زميلة تسكن فوقنا . أبوها سكيّر . لا تهدأ النزاعات والخناقات عندهم . كالعادة ؛ حدثت مناوشات تلاميذي بيننا منذ سكنا الشقة ، انتهت بموعد فلقاءات نحاول فيها تقليد ما يحدث في أفلام (عبد الحليم) .

لمحتني (زينب) ، وهزّنتي فرحتها الطفولية الصادقة وهي تكاد تقفز من النافذة تصرخ فرحًا مصففة بيديها غير مصدقة . وبطريقتنا اتقنا على اللقاء ، وأسرعت إليها فرحًا ؛ لأن هذا سيكون غطاءً عاديًا لتغطية تحركي اليوم .

كالعادة التقينا في ميدان السكاكيني ؛ بعيدًا عن الشارع بما يكفي . ركبنا نفس الترام الذي كنا نعتبره ملكًا خاصًا لنا ؛ ذلك الترام المكشوف المتجه إلى (الجماميز) و(السيدة زينب) ؛ حيث مدرستها في (لاظوغي) . سأجد فرصة لأنفلت وأذهب إلى (باب باريز) ؛ حيث عطفة المطبوعة وشقة (عابدين) ؛ حيث (فتحي مجاهد) ومجموعة الأزهر .

جلسنا متجاورين نتفزز فرحًا . ولأول مرة أسلمت من اللحظة الأولى يدها لكفّي سرًا ؛ حيث استقرت بيننا على المقعد المشترك وقد سترتها الحقيبة المدرسية وفوقها حقيبة صديقتها . جارتني بنت (السُّكري) التي أصرت على الوقوف أمامنا كي تسترنا عن الأعين المتطفلة رغم نحافتها الفائقة .. محتضنة بجسمها الشديد النحول فيضان المشاعر الذي كان يغمر مقعدنا والعالم حوله . ظلت كَفَانًا تتحدثان وتتهامسان لمسًا وضغطًا وتتجاوزان في رعشة من الأحاسيس تترجمها نظرات العيون التي تفيض شوقًا وانفعالًا .. تبادلنا كلمات قليلة لكن كَفَانًا شبعنا لثما وتقبيلاً .. شرحت لها بسرعة ما حدث ودعوتها وصديقتها لنزهة في قارب غدًا .. ووافقت في شغف وسعادة كأنها ستتجسد شقاوة (آمال فريد) مع (حليم) في فيلم لم يمثالنه بعد، يلعب فيه (حليم) دور البطل الذي يتصدى للطغيان ..

كان الترام قد جاوز ميدان (عابدين) . انتظرت حتى بدأ في الالتفاف داخلًا إلى شارع (الخليج) ، فقبلت كفي كفها واستأذنت بسرعة .. لأقفز من الترام فجأة ؛ وهي تتابعني بلهفة وخوف ؛ مع أنني شرحت لها السبب فيما سأفعل كي أتأكد أن أحدًا لا يتعقبني . كانت أصابعها فوق فمها تخفي بصعوبة شهقة الخوف ، عندما قفزت من الترام المتحرك في خبرة اكتسبتها لسنوات في الصعود والنزول من قطر (سكة حديد وجه بحري) وهو في عز سرعته. ودعتها بابتسامة وأنا أختفي في إحدى الحارات القريبة بسرعة لأسلك طريقًا ملتويًا إلى حيث يسكن (فتحي مجاهد) و(محمد الإمام) ..

درت من حارة إلى حارة .. ولم أدخل البيت إلا بعد أن تأكدت أن أحدًا لا يتبعني .. في الشقة كانوا جميعًا يغطون في النوم .. فتح لي (فتحي مجاهد) وهو يغالب النوم .. تركني في الصالة واندفع إلى دورة المياه ...

قال وهو منهمك في تفريغ مئانته :

- إيه الأخبار ؟ ..

قلت له وأنا أنهب على الكرسي القش :

- زفت .. قبضوا على (عادل) و(حسين عبد ربه) ..

قطع الإرسال .. وعاد ملهوقاً ليتأكد مما قلت ..

استيقظ النائمون على الخبر والتفوا حولي يتساءلون , بينما نسي هو إكمال تفريغ مئانته .  
كان الموجودون كلهم من زملائنا الطلبة .. من كليات أزهية مختلفة ؛ وإن كانوا جميعاً من  
(الدقهلية) ..

ساد الوجوم صباحنا .. وتبادلنا التحليل . قال البعض إنها حملة أخرى .. وقال البعض إنها

صدفة .. وقال (فتحي) حاسماً الأمر ..

- عادي يا زملا .. الناس بتتصرف كأننا مش في أزمة .. وكأن زملاءنا خارجين بكرة ..

لازم نفكر ونفهم .. ونتصرف على مستوى المعركة . الحكاية لسه في أولها و(جنصر) خلاص  
حدد مسارها .

ثم قطع الصمت صوت (محمد الإمام) وهو يحدق في وجهي :

- وانت ؟ ..

قلت باختصار :

- خدوني مع (حسين) .. صوروني .. وسابوني ..

ساد صمت ثقيل .. ازداد كثافة عندما تبادل بعضهم النظرات . وقبل أن تفوح رائحة الشك القذرة  
أسرعت أحكي لهم كل ما حدث بالتفصيل , لم أترك كلمة ولا إشارة إلا وذكرت لها .. لدرجة أنني  
فكرت أن إصراري على ذكر التفاصيل قد يكون باعثاً أكثر للشك .

(شيء غامض) قاسٍ عصر قلبي . وأنا أتابع في خوف ظلاً من الشك يزحف كشبورات  
الصباحات الباردة .. بددته تماماً قهقهة (فتحي مجاهد) الفلاحي الصادقة ؛ وهو يقول بطريقته  
الخاصة :

- والله ووقعت يا فلح وعرفوا سكتك .. مش ح يفوتوهالك . كان معاهم أمر قبض على

(عادل) ومن معه .. الضابط فعلاً كان عايز يلَبِّك .. لكن قالوا له هوشه .. احنا ناقصين عيال

.. خَلِّي بالك .. العين عليك يا فلح ..

ضحك الجميع وتجاوزت عن الإهانة التي رمت عن صدري ظل الخوف الثقيل . لم يعترض  
أحد على تفسيره حتى أنا .. ارتحت والتقطت أنفاسي .. فالأيام بيننا .. ومازلت حسب كلامه  
تحت المراقبة ومعرضاً للقبض عليّ في أي لحظة . وساعتها لن يكون مكان للشك في إخلاصي  
, فرحت جداً برغم حكاية (عيال) دي .. وأحببت (فتحي مجاهد) أكثر .

كان فلاحًا من قرية مجاورة اشتهرت بنشاطها السياسي كقرينتنا وهي (ميت الحلوج) .. وكان عدد كبير من أبنائها يدرسون في كلية دار العلوم بعد الثانوية الأزهرية .. وكثير منهم اعتنق الشيوعية رغم ذلك .. أو بسبب ذلك .. كان (فتحي) من أكثرهم ذكاء وقدرة على القيادة .. يجيد الحكم على الناس وعلى التعامل معهم ؛ وهو متسلح بمكر الفلاحين الموهل في التاريخ ، وتصرفاتهم الحذرة التي تبطئ رد الفعل لتتبين موقع الأقدام ؛ وخاصة في وجود الغرباء .. ولتشحذ الخرابيش استعدادًا دائمًا للهجوم أو للدفاع ..

ذات يوم جاءنا المسئول التنظيمي المركزي (الشيخ مبارك) ليتابع نشاط قسم الجامعة .. وأبدى ذلك المسئول أثناء الاجتماع إعجابًا زائدًا بزميل زميركي الحركة خفيف الوزن من النوع الذي يعطيك إحساسًا بعدم الراحة ..

كان يقدم تقريرًا عن إقدامه على تجنيد أكثر من ست فتيات وسبع شبان من طلبة كلية الآداب كانوا منضمين إلى (حزب البعث) .. وأنه بحركة التفاف جماهيرية فكرية استطاع أن يستوعب جهودهم من خلال حركته الأكثر جذرية ، وقدراته على وضع الأمور في منطوق مقنع !. وبذلك ضاعف العضوية بكلية الآداب ثلاث مرات خلال شهرين فقط من إعلان الوحدة ..!

ورغم الإشادة التي أبدتها المسئول المركزي بهذا الجهد الملموس - وهو رجل ذو خبرات واسعة منذ (ح . م) - وأعجبت أنا نفسي بالزميل رغم عدم ارتياحي إليه ، ووجدت كلامه مقنعًا تمامًا ، لكنني لمحت على وجه (فتحي مجاهد) نظرة استهانة ساخرة وهو يزم شفثيه في عدم اقتناع .. وإن أثر الصمت . وعندما انتهى الاجتماع .. قال لي هامسًا .. :

- انت كلت من الكلام ده .. الواد ده نخّاع ومكّاع .. مش نازل لي من زور .. أنا رحنت الكلية ولقيته قاعد وسط شلة بنات مايسة ونازل نخع في الهيافة .. ومرت الأيام ..

وتبين صدق حدسه رغم تأكيد المسئول التنظيمي على ضرورة الاستفادة من قدرات الزميل (النخّاع) الجماهيرية .. والحمد لله أن هذا لم يحدث ؛ بل كان لحدس (فتحي مجاهد) قدرة فطرية على الاكتشاف ؛ إذ تبين - فيما بعد حملة يناير - أن صاحبنا (المكّاع) لم يكن أكثر من (غواصة) ! ..

و(فتحي مجاهد) كان واحدًا من رجال المقاومة الشعبية الذين تسللوا إلى (بورسعيد) عبر بحيرة (المنزلة) .. رغم اعتراض أخيه الكبير الذي كان يعوله وأخواته بعد موت أبيه .. كان أخوه يرفض أفكاره ويجادله كثيرًا ، وعانى الأمرين في سبيل إبعاده عن الاندماج في العمل السياسي

.. ومع ذلك ذهب ليودعه في (المطرية) . وعندما رآه في ثياب الصيادين يستعد للرحيل ..  
طفرت الدموع من عينيه , وقال له :

- انتوا حتكونوا الحطب في الحريقة يا (فتحي) زي كل مرة .. وبكرة تقول إني قلتها .. ما  
حدش حيفتكركووا بالخير . وبرضه حتبقوا المتهمين في الهزيمة والانتصار , أنا لو كنت شايف  
ان اللي بتعمله ده حيغير حاجة فيها , أنا كنت قلعت هدومي وعديت معاك ..  
واحتضنه وهو يخفي دموعه حتى لا يكسر مجاديفه , لكن (فتحي) الذي كانت رأسه تدور في  
ميادين مزحمة بعمال أصحاء يلوحون بالرايات الحمراء وهم يحملون صور (لينين وستالين  
وماو) .. عملاقة - كصورة (جمال) على منبر الأزهر - وحوله آلاف الأذرع والبنادق والفؤوس  
التي تشق ظلام الليل لتأتي بالفجر الجديد وبالناصر (لمصر) .. لم يفهم سر غضب أخيه ولا  
سر دموعه !!

كنّا معًا في سينما (أوديون) التي كانت تعرض فيلم (الطلقة الواحد وأربعين) . وعرضوا قبله  
فيلمًا تسجيليًا لزيارة (عبد الناصر) الأولى لـ(موسكو) . كانت القاعة مشحونة بالعواطف الجياشة  
, ولا تكف عن التصفيق كلما ظهر الزعماء السوفييت مع (عبد الناصر) يتبادلون الضحكات في  
ود ينعكس على الجميع فرحًا جياشًا . كان لكل مصري مرافقه السوفييتي لا يكف عن التودد إليه  
؛ فأذ بـ(فتحي) يزغدني في جد مرح :

- بص كويس يا زميل واعرف مسئولياتك التجنيدية .

شارك (فتحي) في طباعة المنشورات وتنظيم المظاهرات داخل (بورسعيد) ضد جنود الاحتلال.  
ويقال إنه شارك في خطف (مورهاوس) .. لكنه أبدًا لم يذكر شيئًا من هذا ولم يتحدث عن نفسه  
أو عن دوره في أي مناقشة جرت حول هذا الأمر .. ولم يغضب عندما لم يذكره أحد من الذين  
قاموا بتأليف الكتب أو كتابة المقالات عن أيام الانتصار , لكنه فقط حكى لي موقف أخيه  
الكبير - الذي كان يحبه كأبيه - وعن الابتسامة الحزينة على وجهه النبيل .. وضحك كطفل  
سعيد وهبه خاله عيدية كبيرة نهار العيد .

لذلك .. لذت به واعتبرت كلامه وتفسيره للإفراج عني - ولموقف المباحث معي - بمثابة  
التحليل الوحيد الصحيح .. وصدقته .. وارتحت ..  
واندفعت لأندمج بكل قوة .. لإعادة ترتيب صفوفنا الأخيرة أو فلولنا المبعثرة بعد القبض على  
(عادل حسين) و(حسين عبد ربه) الذي أصاب قسم الطلبة بضربة قاصمة !

\*\*\*

- أما الإفلات الثاني من السجن ؛ فقد حدث بالصدفة البحتة بعد هذا بأقل من شهر تقريباً.

كنا قد بدأنا محاولة لتجميع قواتنا في الجامعة مرة أخرى .. وكان القبض على المسئول (عادل حسين) وعلى (حسين عبد ربه) خسارة فادحة للقسم الذي كنا قد اضطررنا لتقسيمه إلى ثلاث تشكيلات يقود كل تشكيل منها العمل في إحدى الجامعات القاهرية تحت ضغط زيادة حجم واتساع قاعدتنا في الجامعات الثلاث خلال عام (58) ..

كان تشكيلنا الطلابي مرتبطاً بمجموعة حدثو (الانقسام) , وكان معظمنا من الأرياف ؛ فيما عدا طالبين قبطيين من القاهرة هما (مجدي) و(سعد) من (شبرا) و(روض الفرج) .. كان ذلك

الطالب (الجناح) قد بلغ فراراً عقب أول حملة . وتبين لنا فيما بعد أنه سلم للمباحث مجموعة حزبية من بلده (ميت غمر) . ولم نتعمد قطع الصلة به أو حصاره , لكنه بنفسه كفانا شره بابتعاده .

عقدنا اجتماعاً ، وقمنا بتشكيل سكرتارية ثلاثية بعد إعادة ضم التشكيلات الثلاثة في قسم واحد لضمان سرعة وديناميكية الحركة . وغلبت على الاجتماع رغبة عارمة للقيام بعمل سريع للرد على خطب (عبد الناصر) المعادية والمحرضة للجماهير على الشيوعية والشيوعيين ، والتي كانت تزداد حدة وتتصاعد في هستيرية بعد اتساع الهوة بينه وبين (السوفييتي) وحكومة (العراق).

كان معظمنا يرى أن الرد على (عبد الناصر) هو المهمة الأولى الملحة التي فرضت نفسها علينا مع انقطاع الاتصال ، وعدم معرفة مدى الخسائر ، وعدم امتلاكنا لجهاز فني للطباعة . وكانت حملة الاعتقالات جذرية إلى درجة فادحة ؛ خاصة وقد تمت بعد انقسام الحزب قبل أن يجف حبر توحيدده بسبب الموقف القديم للتنظيمات بعضها من الآخرين ، وبسبب روح الشك والخلاف على الموقف من السلطة الوطنية ودورها المعادي للشيوعية .

وكانت شتائم (عبد الناصر) وانكشاف الوجه المعادي للديمقراطية بهذا السفور الفج واتهامنا بالعمالة مباشرة للسوفييت - الذين وقفوا معه في العدوان الثلاثي وزودوه بالسلاح بل وساندوه في معركة تأمين القناة لبناء السد في مواجهة مباشرة مع (أمريكا) - قد وضعتنا نحن المتهمين بأننا عملاء لسلطة (عبد الناصر) الوطنية في موقف ضعيف للغاية أمام رفاق (التكتل) وأمام قواعدنا الطلابية نفسها ؛ بل وأمام أنفسنا . ولم يكن ما يجري على مختلف الأصعدة يوحى باحتمال قريب لانفراج الأزمة بين ما يمكن أن يكون حلف الجبهة الوطنية بين الشيوعيين والقوميين ..

وجرى إلغاء اللائحة الطلابية وقصر النشاط الثقافي والاجتماعي على الأسر وعلى لجان نشاط يشرف عليها أساتذة مروضون أو ضالعون في العلاقة مع الاتحاد القومي والأمن . وتضاعفت سيطرة الحرس الجامعي وسلطاته .. ولم يكن هناك أمل في إجراء انتخابات طلابية في الأفق المنظور .. إلا بشروط بالغة السوء .. يقتصر فيها التصويت على أعضاء لجان النشاط والأسر وبشهادة من الأستاذ المشرف على الأسرة أو المنوط به (حكم) اللجان بيد من حديد .. !

قالها (فتحي مجاهد) ببساطة ..

- حملة يناير نقطة سودة لن تزول مهما غسلنا القماش الأبيض .. زي قبر (ابن الخطاب) وديل الحية المقطوع .

ولما سألناه كيف كان ذلك .. قال :

- يحكى أن حية لدغت (ابن حطاب) فقتلته . أبوه بنى له قبرًا وجلس يبكي عليه , وأخذ يتربص بالحية لقتلها انتقامًا , وسعت إليه الحية وصالحته في مقابل أن تحضر له جوهرة كل صباح ليسمح لها بالسعي لرزقها . وظل السلام الحذر قائمًا بينهما .. بعد فترة .. فكر الحطاب في قتل الحية لإطفاء نار حزنه , وأيضًا للحصول على الكنز الذي تأتي بالجواهر منه, فغافلها ذات يوم وضربها فأخطأها ولم يتمكن إلا من قطع ذيلها . وطبعًا غضبت الحية ولم تعد تحضر له الجوهرة اليومية , فندم على ما فعل . وحاول مصالحتها مرة أخرى وهو يعتذر لها باكيًا , ولكنها قالت له :

- لا يا حطاب , فات الأوان , وما دام قبر ابنك قدامك .. وما دام ذيلي مقطوعًا فأحدنا لن ينسى ثأره عند الثاني إلا لو هدمت القبر أو نبت لي ذيل ثاني .

وأثبتت الأيام حكمته الساذجة , فحتى كتابة هذه السطور لم تُفلح أي محاولة لنسيان (الذيل المقطوع) أو لهدم (قبر الابن المقتول) . وفشلت كل محاولات التحالف والتصالح ؛ بل ولم تسفر أي منها إلا عن مزيد من سوء الظن والشك الذي لا يفسح الطريق إلا لمزيد من الفرقة والصراع .

وكان من الطبيعي أن يكون (فتحي) المؤثر والفاعل . قائدًا لفصيلنا المحدود العدد والذي انبثت الصلة بينه وبين بقية الحزب ..

طلب مني يومًا أن أحاول زيارة (حسين) , أو على الأقل أن أقنع (فخري) أن يحمل رسالة لأخيه ولو شفاهة . وكنت أصحب أخت (حسين) وأخاها (فخري) عند قيامهم بزيارته , بعد أن عرفنا (بالصدفة) أن من حقه أثناء فترة التحقيق زيارة أسبوعية . وبعد أن علمنا أنه أودع (سجن مصر) رهن التحقيق , ولم يصدر بشأنه أمر اعتقال بعد . فصار ذهابي معهم إلى السجن للزيارة الأسبوعية طقسًا لم أتخلف عنه إلا للشديد القوي ..

اقتنع (فخري) بعد جهد أن يطلب من (حسين) تدبير اتصال لنا بالحزب , أو على الأقل ينقل رغبتنا إليه في تدبير الاتصال لقسم الطلبة .. وكانت الأمور قد ازدادت سوءًا والحملة الهستيرية ضد الشيوعية تزداد اشتعالًا وفجاجة ..

في الأسبوع التالي ..

أعطاه (حسين) عنوان أحدهم في (غمرة) , وزوّده برسالة وأمارة من (رفعت السعيد) - وكان قد أعيد القبض عليه - لذلك الشخص وكان اسمه (حنيطر) , لكنها كانت محاولة كعدمها؛ إذ اعترض الزملاء على الاتصال بذلك الشخص ؛ لأن الشكوك تحيط به . ورفض الزملاء أن أذهب لمقابلته في شقة بعمارة (غمرة) الشهيرة .. قالوا إن هذا الشخص قريب (جمال عبد الناصر) نفسه .. وإن (عبد الناصر) عاش في بيتهم وهو طالب ؛ وإن هناك شكوكًا شديدة حوله



. ويبدو أن (رفعت) لا يعرف ذلك أو يعرف ويتجاهل - في ثقة ساذجة - تلك الظروف , ولذا علينا أن ننبهه في أقرب فرصة .

سعت للحصول على اتصال عن طريق (دار الفكر) ؛ وكانت تستعد للإصدار الثاني لمجلة (الغد) .. ونجحت في ذلك .. ولكن الأمور سارت إلى مزيد من التوتر ..

الكل كان ضد الخط السياسي للحزب (الانقسام) ؛ خاصة والحملة ضد الشيوعية تزداد سعارًا بعد أحداث (الموصل - انقلاب الشواف) . وكنا قبل هذا بفترة قد فوجئنا بوصول بيان من السجن في أكثر من عشرين صفحة بتوقيع (إبراهيم عبد الحليم) .. على صورة خطاب موجّه لـ(جمال عبد الناصر) .. يلقي بالمسئولية كلها على عاتق التصرفات الخاطئة والممارسات الطفولية اليسارية التي لا تستوعب ظروف المرحلة ، ويدعونا لضبط النفس ورأب الصدع وتوحيد الصفوف .. وكأننا المسئولون عن كل ما حدث .. وفي نهاية البيان يدعو البطل المعادي للاستعمار (جمال) لإطلاق سراح المعتقلين إظهارًا لحسن النوايا .

ولم يتعرض البيان لتزايد السعار المعادي للديمقراطية .. وازدياد الروح الانتقامية المرادفة دائمًا لأحط ما في غلّو التعصب القومي من غياب .. وقامت قيامة زملائنا خاصة وأنا كنا قد أعددنا بيانًا لتوزيعه في الجامعة يتجاوب مع مشاعر وآراء زملائنا ؛ يدعو لضرورة اتخاذ موقف حاسم من تلك الروح المتعصبة ضد الشيوعيين , وحفيت أقدامنا لطبع هذا البيان دون جدوى .. في الوقت الذي أعيد طبع بيان (إبراهيم عبد الحليم) في عدد خاص من مجلة (الانتصار) التي كان حدث عودتها إلى الصدور انتصارًا كبيرًا ومحفزًا للعمل .. وإن أطفأ جذوة الفرح بها ما حوته من (استخذاء ومهانة) كما وصف الطلبة بيان (عبد الحليم) ..

انفجرت قنبلة الغضب .. ثار بعض زملائنا وهددوا بالعودة إلى الحزب احتجاجًا ؛ بل وترك البعض التنظيم أو وجدوها حجة لتركه لاعتين اليوم الذي عرفونا فيه !!..

ولم يكن أمامنا إلا أن نمتنع عن توزيع البيان الذي أطلق عليه (البيان الفضيحة) . وكتبنا رأيًا في الجامعة إلى لجنة المنطقه , مؤكدين فهمنا للطبيعة المزدوجة لنظام (عبد الناصر) .. ومحذرين من تغلغل الروح الدكتاتورية فيه وتغلب البيروقراطية والعقلية العسكرية رغم مواقفه الوطنية , وأنه يستسلم وينحدر إلى أرداد مراتب التعصب القومي خضوعًا لمصالح الفئات العليا من البرجوازية في محاولتها للاستئثار بالسوق الوطنية وعدائها في سبيل تحقيق هذا للديمقراطية .. وطلبنا طبع رأينا ، وهددنا بالقيام بانضمام جماعي (للتكتل) رغم أن نشاط عناصره كان قد تقلص وسط الطلاب بعد القبض على أغلبية عناصرهم القيادية من الطلبة ..

وأغضبنا التسوية المستمر , وساد بين صفوفنا الشك والغضب . واستهلكت طاقتنا في المناقشات التي لا تصل إلى حسم أي موقف ، وافتقدنا (عادل حسين) و(حسين عبد ربه) كثيرًا؛ إذ كانت لـ(عادل حسين) عبقرية للوصول إلى نقاط اتفاق أساسية وبسيطة ؛ مؤكدًا في كل مرة

أن العمل لا المناقشات هو القادر على تجاوز التفاصيل المعوقة . وكنا نصدقة .. وكان الأمر يتفق عن صحة هذا الرأي .. لأنه كان يجد دائماً ما يكلفنا بالقيام به بالفعل .

ذات يوم كنت في ميدان التحرير مع (عيداروس القصير) .. كان الراديو يزعم في هستيريا مطالباً بذبج الشيوعيين الذين يتربصون بالوطن .. كنا وحدنا .. وسط الميدان والميكروفونات تزعق مطالبة بدمنا .. وكنا في طريقنا للحصول على البيان بعد أن أبلغنا (فتحي مجاهد) أنه تم طبع كمية محدودة منه , وكنا نعتبر ذلك انتصاراً لنا ولرأينا ؛ يمثل نقطة تحول نحو التقييم الصحيح للموقف .. ونقطة بداية لعمل نواجهه به حملة التحريض على الاغتيال التي وصلت إلى ذروتها .. يوم قرر (كمال الدين حسين) فقرة رديئة الصياغة عممها على تلاميذ المدارس الابتدائية ؛ يحفظونها ويرددونها دون فهم عن الشيوعية (باعتبارها داء ينخر في جسم الإسلام وينهى عن الفضيلة والإنسانية!) , ولذلك فدماء الشيوعيين مباحة وذبحهم حلال ..

وضحك (عيداروس) وهو يتحسس جيبه فوجد فيه فتاحة أطرف جوابات .. وأسرع بي وهو يتلفت حوله مبالغاً في الذعر ؛ فهذه الأداة وحدها تكفي لإثبات (تأمرة المسلح) لقلب نظام الحكم !.. ولم أستجب لضحكاته .. ولكنني استجبت لسحبه لي كي نسرع لنلحق بالاجتماع .. واستلام حصتنا من البيان التاريخي الذي سيحدث انقلاباً في مسار التاريخ !!

كان الاجتماع في شقة (عابدين) - كان اجتماعاً عاجلاً وعملياً لتحديد المهام وسبل توزيع البيان .. وأخذت نصيب (جامعة عين شمس) ومضيت إلى شقة (السكاكيني) لأبدأ من الصباح الباكر توزيعه على الكليات المختلفة وأنا أكاد أنفجر حماساً - أخيراً سنرد على (عبد الناصر).

\*\*\*

• أخذت نصيب جامعة عين شمس من المنشور الذي سينال من (عبد الناصر) ويرد على ادعاءاته وأكاذيبه وأنا في حالة معنوية عالية .. فنحن لسنا عملاء إلا لهذا الوطن ، ولا بد أن نفضح ميوله الدكتاتورية ، وطموحه للانفراد بالسلطة ، ووقوعه أسيراً لأصوله البرجوازية الصغيرة التي تجعله متردداً .

ابتسمت عندما تذكرت أنه اشتكى لسكرتير الحزب الشيوعي الأردني - وكان صديقاً له - أن الشيوعيين المصريين يقولون عنه إنه (برجوازي صغير) .. وضحك الرفيق الأردني وهو يداعبه قائلاً ..

- لك حق تغضب فأنت (برجوازي كبير) !!  
ويقال إن (عبد الناصر) قبلها ولم يحتج .. هكذا قيل لنا ، فمن حقنا أيضاً أن نسخر من خصومنا .

ذهبت إلى البيت في شارع النزهة لأبدأ من هناك جولتي لتسليم المنشورات وتوزيعها حسب كل موقع ، ولم يكن من المفيد حمل كل هذه الكمية أثناء جولتي .

كنت سعيداً كطائر . فهذا المنشور كتبناه نحن وأجبرنا التنظيم على طباعته .. ولم يكن يقلل من فرحي سوى المنظر الذي وجدته في شقة (عابدين) .. كان (فتحي) يوزع المنشورات على (مندوبي الاتصال) في نفس الموعد . كان هناك ثلاثة أو أربعة مندوبين ... وضايقني هذا .. فبعضهم يعرفني باسم آخر .. ولما انصرفوا عاتبت (فتحي) على ذلك :

- أنا افكرته طابور جمعية ..

وضحك الرفاق الفلاحون واعتبروا أنني أبالغ ..

- يا سيدي احنا في معركة محتاجة حركة ..

- لكنها تحتاج إلى حذر أكثر ..

وابتسم (فتحي) وقال :

- دول زملا موثوق فيهم ..

وسكتُ .. فهو المسئول ..

كانت الشقة تشهد تجمعات أكبر من هذا . كانت ملجأ للكثيرين من الهاربين والبلديات والأصدقاء ؛ وخاصة ساعة الغذاء ؛ حيث كنا نطبخ حلة ضخمة من الخضار أو الكشري تحسباً لوصول كثيرين لتناول الغذاء في ظروف هروبهم الصعبة ..

كان من بينهم واحد تبين أنه كان (غواصة) سلم أكثر من قضية .. وكانت له قصة تستحق أن تروى ليس هذا وقتها ..

في الشقة قسمت المنشورات حسب المواقع ، وأمنت كل قسم في مكان ما من الشقة .. وأخذت نصيب آداب (عين شمس) وتوجهت إلى (شبرا) .. قابلت (مصطفى) وكان متحرراً لاستلام المنشور ؛ فقد كان بعض رفاق التكتل يحاصرونه بموقف (حدثو) من (عبد الناصر) .. وقضيت وقتاً في محاولة إصلاح ذات البين بينه وبين (فاطمة) التي كان على علاقة بها .. وكنا نعتبرهما في عداد المتزوجين .. وكنت أحس بعض الضيق لوصول العلاقة إلى هذه الدرجة .. خاصة أنها أصبحت مصدرًا دائمًا للقلق ؛ للخلافات الدائمة التي تصاعدت بينهما والتي كانت تتخذ أحياناً طابعاً سياسياً مفتعلاً لإخفاء عجزهما عن تحمل مسئولية علاقة من هذا النوع .. واضطرت للضغط عليهما لإنهاء الخلاف في هذه الظروف الصعبة ؛ وإن كنت قد تركتهما وأنا في شك أن خلافاتهما ستنتهي على خير ..

عدت إلى البيت .. وأخذت ما سأوزعه في كلية (الزراعة) كليتي ، وتوجهت إلى (سراي القبة) ! وأخذت معي العدد الذي كنت قد أنجزته من (مجلة الفجر) ؛ وهي مجلة حائط أصدرها بانتظام منذ التحاقني بالكلية يشاركني في تحريرها عدد من الأصدقاء العرب .. وبعض

الطلبة المصريين .. كانت مجلة طلابية نحاول أن نتحدث فيها عن الحياة الجامعية ومشاكل الطلاب من خلال مواد أدبية صحفية وأحاديث وطرائف كاريكاتير ضاحك ؛ لأن أي انحراف نحو السياسة بأي شكل حسب تفسير الغباء البيروقراطي للسياسة يعني حجبها عن الصدور ؛ وخاصة أن المشرف الثقافي كان الدكتور (صلاح الدين يوسف) وهو عضو في الاتحاد القومي برتبة أمين وحدة .. !!

كان قد رشح نفسه في دائرة (الوالي) في المعركة الانتخابية اليتيمة عام (57) أمام (عبد العظيم أنيس) ، وكان لا يكف عن إعلان عدائه الشديد للشيوعية وعلاقاته الأمنيّة التي لم يكن يُعنى بإخفائها ..

أخذت العدد الجديد من المجلة .. ليكون غطاءً لتحركاتي المرصودة بعيدًا عن المدرجات .. إلى الإدارة أو إلى المزرعة للبحث عن الدكتور طلبًا لتوقيعه .. ووزعت المنشور على الزملاء والأصدقاء ، ووضعت بعض النسخ في أماكن مختلفة قدرت أن البعض سيعثر عليها بعد أن أغادر الكلية .. وبعد أن أنهيت المهمة .. عقلت المجلة في اللوحة المخصصة .. وغادرت الكلية ..

عند البوابة نادى عليّ الصول (وليام) .. وكان يتحدث في التليفون .. وقررت تجاهله ولكنه أسرع وخرج إليّ وهو ينادي ، ولاحظت أن وجهه كان مقلوبًا ..  
- إيه يا عم .. ماشي من غير سلام ولا كلام .

وكأنه كان بيننا سلام وكلام .

- تحت أمرك ، أنا أصلي مسافر البلد وكنت جايب المجلة ..

- مجلة إيه ؟ .. وريني ..

- مجلة الحيط .. متعلقة في اللوحة بعد اعتماد الدكتور (صلاح) .. يا عم (وليام) .

- طب معاك .. إيه ؟ .. مافيش حاجة حلوة كده والا .. مجلة ..

وفهمت أنه يريد تفتيش أوراقى لسبب ما .. فلم أتردد وأعطيته كل ما أحمله من أوراق وكتب - اللي يعجبك خده ..

وطبعًا فتش الأوراق وكأنه يبحث عن شيء معين .. ولما لم يجده .. حاول أن يبدو هادئًا .. وهو يقول :

- معلش بقى .. عطلناك .. ومسافر البلد ليه ؟ ..

- والله ظروف .. والدي تعبان شوية .. وبعدين أول الشهر قرب بقى عايزين نتحين ..

اغتصب ابتسامه وأطلق سراحي ..

أسرعت إلى البيت وأنا أنوي أن أكمل جولتي غدًا في العباسية لتوصيل المنشور لبقية الكليات في اليوم التالي .. توجهت ومعني المنشور إلى العباسية .. وهناك لاحظت أن شيئًا ما لا بد أن يكون قد حدث ..

فلم أعر على أي زميل ممن رتبت معهم اللقاء لاستلام المنشورات .. أحد الزملاء الذين لا علاقة لهم بالاتصال تجنبني بشكل فاضح وكأنه يهرب من لقائي .. تحسست اللغافات معي .. وكأني أتحسس قبلة موقوتة ..

دسست بعض المنشورات في أماكن مختلفة في بعض دورات المياه . وبسرعة غادرت المنطقة وأنا أحس أنني مطارد ومراقب , فأخذت أبدل المواصلات وأسلك شوارع وحواري مختلفة حتى وصلت إلى ميدان الجيش . لم أنحرف نحو شارع النزهة مباشرة ولكني درت إلى بيتنا عبر ميدان الظاهر . ومرورًا بالمعبد اليهودي .. وصلت الشقة وأنا ألهث .. ولم ألتقط أنفاسي إلا بعد أن أمّنت الكمية الباقية من المنشور خارج الشقة ..

لم يكن بالشقة أحد . وسهّل هذا الأمر عليّ . وما أن انتهيت من ذلك حتى قررت التوجه بسرعة لمقابلة (فتحي مجاهد) والإفشاء إليه بما حدث وطلب المشورة و لمعرفة الأخبار وعمل خطة بديلة أو اتصال جديد لو كان الأمر خطيرًا ..

كانت الشقة في آخر دور من المنزل القائم على ناصية (إحدى الحواري المخبوءة في حي عابدين) وطرقت الباب .

فتح لي شاب لا أعرفه .. منكوش الشعر , ومنهمك في استكمال لبس ملابسه العسكرية , كان اضطرابه واضحًا .. وفي عيونه رعب من يتوقع كارثة أكبر من كارثة ما تعرض لها .. لم تستطع (مين حضرتك ؟) .. أن تتشكل على لسانه فخرجت محشورة من زوره .. دخلت كأني أحد أصحاب الشقة ..

- إيه .. فين (فتحي) ؟ .. انت مين ؟ إيه الحكاية ؟ .. فين العجر ؟  
انفجر الشاب في البكاء ..

فوجئت .. وبلّمت ولا حظت الفوضى التي تعم الشقة ..  
- إيه يا عم الحكاية ؟ .. فيه إيه ؟ ..

- قبضوا على كل اللي كانوا هنا .. والضابط .. لهفني قلمين وقال لي أروح ما ابصش ورايا ؟ .. عيّطت له , وقلت دول بلدياتي , وأنا جيت أبات عندهم بس .. قعد يسألني وأنا مش فاهم . سكعني قلمين تاني وقال لي .. لو شفتك هنا تاني ح اوديك ورا الشمس ..  
- قبضوا على مين بالضبط ؟ ..

- الأستاذ (فتحي وابو الإمام) .. وعلى اتنين ما اعرفهمش .

- لقيوا حاجة .. خدوا ورق ؟ .. كتب ؟ ..

- خدوا كل الكتب اللي في الشقة .

- ورق ؟ .. لقيوا ورق ؟

- لأ .. ما اعرفش ..

أسرعت إلى السطح .. وتحت برميل مهمل كانت كمية منشورات لم توزع بعد .. أخذتها وأسرعت إلى الشقة .. وقلبت شوال الأرز في شوال آخر وأخرجت ما به .. وطلبت منه يحضر صفيحة الزبالة من بره ..

أسرع ينفذ الأوامر كمن تعوّد الطاعة ؛ دون أن يدري أنه يشارك في عمل غير مشروع .. وأحضر الجاز والكبريت ، بينما مضيت أنا أمزق الأوراق وأضعها في الصفيحة .. ثم أشعلت فيها النار .. وهكذا انتهى مصير الجزء الأكبر من (منشورنا الثوري) الذي قاتلنا من أجل إصداره وكنا نتوقع له أن يقلب الأوضاع ويكف عنا يد (عبد الناصر) !

- أنا ماشي .. تقفل الشقة كويس وتسافر إذا كنت رايح البلد ، وما تجيبش سيرة لغاية ما نعرف إيه اللي حصل .. ما تخرجش إلا بعد ما النار تظفي .

- واذا سألوني ؟

- ما شوفتهمش . انت رحى على البلد من الوحدة طوالي .. فاهم ..

- حاضر ..

توجهت بسرعة إلى منزل (مجدى) في (غمرة) .. قالت أمه إنها لم تراه منذ ثلاثة أيام .. كان (مجدى) يعمل متخفيًا عند تاجر خضار في سوق (روض الفرج) وبييت في المحل معظم الأيام تجنبًا للمشاكل مع والده .. في هذه الظروف .. أسرعت إلى (شبرا) عبر طريق متعرجة محاولاً تجنب الرقابة المحتملة .. وصلت إلى شارع (ابن الرشيد) .. ما أن ضغطت زر الجرس حتى سمعت نهضة بكاء في الداخل .. فتحت الست (أم سعد) لي وعيناها محمرتان وكانت تعرفني . قالت وهي تمنع نفسها من البكاء ترسم علامة الصليب ..

- (سعد) في القسم يا ابني خدوه .. خلي بالك من نفسك .

استدرت بسرعة وقفزت السلم (في كل قفزة عشرة سلالم) لكن إلى أسفل كأنني أسابق قلبي الذي يهبط في قدمي .. هي حملة إذن .. وتستهدف الجامعة بالتأكيد . هذا واضح لكل ذي عينين .. وما العمل ؟ .. وشقتنا مضروبة ..

السفر إلى القرية هو الحل ؟ .. لا أحد أسأله ؟ . تذكرت . فلأذهب لاستطلاع الأخبار في جريدة (المساء) أو في (دار الفكر) .. ليس في هذا أي خطر .. فأنا أتردد على المكانين عادة ، توجهت إلى مقهى (إيزافيتش) .. لم يكن هناك صريخ ابن يومين .. ضحك الخواجة وقال :

- إيه الحكاية ؟ .. إيه اللي حصل امبارح .  
لم أجد عندي نفس للرد عليه .. فأسرعت هارياً إلى (ريش) . كانت تتعى من بناها .. تجنبت  
الظهور فيها وعدت إلى شارع (النزهة) .. وأنا أنوي حزم حقيقتي والفرار إلى (ميت سلسيل)  
حتى تتضح الأمور , كنت أحس أنني وحدي .. تمامًا .. كيتيم تاه في مولد (طنطا) .. فكل  
من أعرفهم من زملائي قبض عليهم .. ماذا حدث ؟ .. هل قبض على كل الناس .. أم من لهم  
صلة بي فقط ؟ .. ما هذا ؟ .. لو أنني قضيت الليل مع شلة (عابدين) لكنت معهم .. هل زاروا  
بيت (النزهة) أثناء غيابي .. ولماذا لم يأتوا إليّ ؟ ..  
ذهبت إلى جريدة (المساء) .

واجهني رجل أمن لم أراه من قبل .. حين سألني عن وجهتي ولم تكن تلك هي العادة ..  
ذكرت له بعض الأسماء . تجهم ولكن بعض الموجودين ضحكوا وقال أحدهم :  
- تعيش انت .. العمر الطويل لك ..

استدرت مهولاً .. إلى (دار الفكر) وكانت بالقرب من جريدة (المساء) وفي نفس الشارع ..  
ولكنني وجدت الباب مغلقاً .. وعلى الباب شمع أحمر ..  
أسرعت هارياً .. كقط أشعلوا في ذيله كرة من النار .

\*\*\*

عندما وصلت إلى شقة السكاكيني كأرنب مذعور وحيد يطارده نباح كلاب الصيد من خلفي  
ومن حولي ؛ تحاصرني أجهزة الراديو ومانشئات الصحف ، ورجال المباحث أكاد أراهم  
يتربصون بي خلف كل باب ، وعند كل ناصية ، ووراء كل نافذة ؛ وجدت مفاجأة في  
انتظاري .

فتح (فخري) الشقة بضحكته المعهودة وهو يناولني خطاباً من والدي .. كان خطاباً قاسياً  
أضاف إلى همومي همماً ثقيلاً .

"وإذا كنت قد تغاضيت كثيراً عن مشيك على حل شعرك في السياسية إلى أن ركبنا الهم  
وجعلت حياتنا جحيماً من الرعب والخوف .. فأنا لا يمكن أن أتغاضى عن سلوكك غير  
الأخلاقي .. فالشقة التي حولتموها إلى وكر لخلاياكم الشيوعية لم أكن أتصور أن تستقبلوا فيها  
نساء وبنات ؛ أي بنات يمكن أن يذهبن إلى شقة طالبة غرباء وعزاب ؟ .. إلا إذا كن ممن لا  
خلاق لهن مما كان سبباً مؤكداً في عدم تمكن أخيك - الذي ائتمناك عليه - من المذاكرة،  
وتسببتم في رسوبه وضياع مستقبله . أنتم يا من تدعون العمل على مصلحة الوطن تفقدون  
إحساسكم بالواجب حيال أهلكم .. وتتصرفون في استهتار يصل بكم إلى إحضار بنات إلى



البيت , وتقليون البيت لوكر للشيعوية وأعوذ بالله , وتمارسون ما حرم الله .. إنني لا أكاد أصدق هذا الذي يروى عنكم في الصحف والإذاعة .. ونتيجة لذلك وبسبب ما تسمعه أمك عنكم صباحًا ومساءً , تسم لبنها وهكذا تسببت في إرضاع أختك الوليدة التي لم تبلغ بعد سوى عدة شهور لبن الحزن - فماتت .. إنني أحملكم المسؤولية بأعمالكم عن قتل طفلة بريئة طاهرة.. وأندرك إن لم ترتدع وتتمسك بالأخلاق الكريمة التي ربيناك عليها .. وتتوب إلى الله .. وتكف عما أنت فيه من غيٍ .. فأنا أعلنك من الآن أنك لا ابني ولا أعرفك ..

فوضت أمري إلى الله فيك وحسبي الله ونعم والوكيل وعوضني الله على ما صرفته عليك وما ضيعته من عمر لأجعل منك رجلاً يعرف واجبه حيال أهله وربه " ..

كان (فخري) ما يزال يضحك ضحكته التي لا سبب لها وهو يحضر الغداء .. وأخته في المطبخ تجهز الأكل الذي سنأخذه لـ(حسين) مع زيارة الغد .. كانت حالتني قد ساءت تمامًا , ويغمرني إحساس فادح بالوحدة وبالضياع .. فليس هناك من يمكنني أن أستشيريه . في البداية (حسين) و(عادل حسين) , والآن (فتحي مجاهد) , وتقطعت فجأة كل صلاتني بالحزب وبالزملاء . ولا أعرف ما الذي يمكن عمله , في كل ما أواجهه الآن من مصائب ينوء بها كاهلي الغض الطري ..

دخل (فخري) وهو يضحك ..

- تتصور الواد (بجة) وحشني جدًا .. إيه اللي في الجواب ؟ .. هو اللي باعته أكيد , أخبره إيه ؟ ..

لم أستطع أن أشرح له أو أن أخبره بشيء , وتظاهرت أن كل شيء على ما يرام وأن الأخبار عادية .. ثم أخبرته أنني سأسافر إلى البلد , فقال :

- إمتى ؟ ..

- النهارده آخر النهار ..

- طب ليه ؟ ما تستنى ليكره وتاخذ (حياة) معاك بعد الزيارة .. حتى ممكن تطلعوا من هناك ع المحطة .

تنبهت إذ وجدت خيطًا رهيئًا من الأمل أتمسك به :

- فعلاً .. وأزور معاها بالمرة .. انت مش ح تزور بكره ؟ ..

- طبعًا .. لكن الزيارة اتنين بس ..

- ما انا أدخل بدالك .. إذا كان صعب أخش معاكم .

ضحك ضحكة بلهاء أكثر طولاً .. وقال :

- يعني تعمل فيها (فخري) ؟ ..

قلت وأنا أشاركه الضحك مقلدًا طريقته في بلاهة أكثر :  
- أيوه .. وأمرى لله ..

عند (قره ميدان) كان الزحام شديدًا .. وكأنه سوق الجمعة .. وكان هذا أفضل طبعًا ، فكلما زاد عدد الزائرين سواء للسجناء العاديين أو السياسيين كانت إمكانية الاختراق أسهل والتدقيق أقل .. فالأمر يصبح مركزًا على ضرورة الانتهاء من كل هذا العدد في أقصر وقت ممكن وبأقل قدر من المشاكل والمعوقات .. عندما وقفنا أمام الشاويش أملى عليه (فخري) اسم (حياة) واسمه ، ثم طلب منه تسجيل اسم ابن خالتهم ، وقدم له سيجارة تصاحبها غمزة ووعد برشوة لكن الشاويش صاح ..

- ما تعطلنيش .. اتنين بس ..

- خلاص يا زمل .. ما تزقش بلاش (أنا) يدخل أخوه .. ما دام ابن الخاله كحّة .. !

أخذ الشاويش السيجارة منه موافقًا ..

ذهبنا للجلوس وسط المنتظرين .. كان هناك أهالي بعض السياسيين يلوذ بعضهم بالبعض .. وكانت (انتصار) وهي زوجة مدرس سجين - عرفت فيما بعد أنه (محمد جبر) - تدور بينهم تواسي هذه العجوز ، وتعطي قطعة حلوى لذلك الطفل ، وتهمس لتلك الألامادي في الحديث .. ترد كيد أحد المخبرين .. تراوغ شاويش الحراسة أو تليّن قلبه .. تدور كالنحلة بين الأمهات والإخوة ولا تكف عن إعلان رأيها في كل ما يجري .. وتقسم أن الشعب لابد سينتصر في النهاية ..

كنت قد قابلتها من قبل . كانت في البداية حذرة في الحديث معي ؛ خاصة عندما عرفت أنني من (الانقسام) ، ولكنها تنازلت عن تحفظاتها مع تكرار لقائنا وتبادلنا الأحاديث والأخبار .. رحبت بي وعلمت منها أن ما حدث لم يكن سوى حملة أخرى كحملة (يناير) .. !

- قطعة تانية زي ما بتقولوا في بلدكم في جمع القطن .. خللي بالك .. معناها إنهم مش طالعين دلوقتي والحكاية يمكن توسع أكثر .. وخصوصًا بعد اللي حصل في العراق .. لكن همّه مين برضه .. دا احنا العالم كله معانا !

ملأني (اتزانها) وصلابتها بالحماس والأمل ، وأعاد لي توازني ؛ فزوجها وأخوه في السجن ، وعليها أن تراعي الأسرتين وتقوم بتوصيل الرسائل لمن لا يستطيعون الزيارة من أهالي المعتقلين .. وترتب زيارات واتصالات .. كانت نموذجًا للمناضلات اللاتي قرأت عنهن في الروايات ، تثير حولها جواً من الإنسانية والحميمية يجعل الأمل يتحول إلى قوة تكتسح كل ما يمثله (قره ميدان) والعساكر والسجن وتذروه في رياح من الثقة والأمل في المستقبل ..

نادوا على اسم (حسين عبد ربه) ..

أسرعنا إلى البوابة .. كان الشاويش الذي سجل الأسماء يراجع على الدفاتر .. فقال (فخري) له ..

- مش ح تدخلني يا شاويش ؟ ..

- اتنين بس ..

- خلاص ادخل انت يا (فخري) .. بس سلم لي عليه .. وبلغه سلام خالته .

ودفعني للدخول مع (حياة) بعد أن ناولني لفات الطعام .. دفعنا شاويش آخر وهو يعد , ويلطع ختم السجن على ظهر كف كل منا , ثم تسلمنا ثالث للتفتيش .. وأنا في غاية الانفعال؛ لأن (فخري) بعد كل هذه الزيارات اكتسب خبرة لم أتوقعها .. وتصرف بمهارة لم أتعودها منه , وإن لم يكف عن إطلاق ضحكاته المدهشة طول الوقت .. والتي كانت تفتح له الطريق إلى قلوب الشاويشية ؛ إذ تجبرهم على الابتسام وتفك أوصال تجهمهم ..

كانت الزيارة مفيدة على كافة المستويات . كان عندهم بالداخل حصر بكل من قبض عليهم تقريبًا .. وتأكد أنها حملة أخرى .. لتصعيد الموقف . وأبلغني عن قيام الحزب بنقد بيان (إبراهيم عبد الحليم) ولكن الخسارة كانت كبيرة .. وعلمت أن (مجدي) و(عيداروس القصير) لم يقبض عليهما وكذلك بعض الطالبات , وزودني ببعض الأسماء لبعض الأشخاص , وعليّ أن أحاول العثور على أحدهم ولكن بحذر .. كما أخبرني بأن في (بحري) عدد من الرفاق مازال يعمل بقيادة بعض الهاريين .. أعطاني اسم (رفيق) من (ميت الحلوج) للاتصال بهم إن تعذر الاتصال بالجامعة .. لم يمانع في سفري لبعض الوقت إلى القرية .. وأكد أن توجيه الحزب الأساسي للطلبة هو النجاح في الدراسة مهما كانت الظروف .

خرجت من الزيارة شخصًا آخر .. أحسست أن مسئولية كبيرة ألقاها الحزب - على كاهلي- أزاحت كل الهموم .. فعليّ تجميع فلول قسم الطلبة والعمل على مد خطوط مع (بحري) ويا حبذا لو أعدنا إصدار (صوت الفلاحين) لكي نقول لحكومة عبد الناصر - ولو - مازلنا هنا .. الحملة الغادرة لن تقتل صوت الحزب ويعرف الناس رأينا وسننتصر .

كدت أطيّر وأنا خارج من بوابة السجن في قلبي فرقة نحاسية تدق ألحانًا حماسية .. بكل لغات العالم !!..

\*\*\*

• أفنعت فخري أن يقوم هو بمصاحبة أخته حياة إلى المحطة , فأنا مضطر للبقاء لأنجز أشياء طلبها مني (حسين) . وبصعوبة اقتنع (فخري) وتركني فتلكأت حتى ركبا تاكسيًا, ومضيت أبحث عن (انتصار) وسط جموع الزائرين والزائرات من أهل وأقارب المسجونين ..

تهللت فرحًا عندما رأيتهما قادمة من خلف جدار السجن الشرقي حيث كانت تجري مكالمة شباك .. ولكنها تجهمت حين رأتهما وأشاحت بوجهها مما سمرنى في مكاني .. وأخرج مشاعري .. فكددت ألعنها وأمضي .. ولكن رغبتني في تحسين صورتي أمامها جعلتني أصر على أن أخبرها أنني كنت في زيارة لرفاقنا .. وأنهم يثقون فيَّ وأن أخبرها بما عندي من أخبار حول الحملة , فتبعتهما حتى جلست تحت المظلة المقامة أمام السجن لجلوس الزوار ..

اقتربت منها حتى صرت إلى جوارها فهمست شبه غاضبة ..

- يا عم إيه (البلهنية) اللي انت فيها دي ؟

- بلهنية؟! .. أصل أنا كنت عايز أقول لك ..

- يا زميل افهم .. إن فيه مخبرين حوالينا .. وكل حركتنا محسوبة علينا .. إهدا كده والقط

نفسك ..

- أ .. أنا كنت جوه دلوقتي في الزيارة ..

- ما انا عارفة ؟ أنا كمان كنت في زيارة بس من برة .

- وعرفتي اللي حصل ؟

- طبعاً ما أنا قلت لك (عبد الناصر) مش ح يجيبها البر والحبسة ح تطول .. الضربة كانت شديدة .. قصدهم منها القضاء على الحزب من جذوره .. سواء عندنا والأ من زملاءك .. دول ما خلوش .. قبضوا حتى على ناس ما همأش شيوعيين من الديمقراطيين والكتاب والوطنيين كمان .. ومتقفين وصحفيين ياما .. دي حملة لإرهاب الشعب وفرض الدكتاتورية .

- طب أنا كنت عايز اعرف ..

- ما ينفعش .. انت تقوم من هنا حالياً بدل ما تلفت نظر حد منهم لنا واننا نعرف بعض ..

الحكاية ما بقتش لعب ..

وأتبع ذلك بالقيام فجأة والابتعاد لتضيق مني وسط زحام الزائرين .. كان عندها حق طبعاً .. إنها أكثر خبرة مني ، وليس هناك مجال في هذه الظروف للثثرة .. كانت الحملة واسعة فعلاً كما أخبرني (حسين) وكان المقصود منها اجتثاث الحزب بجناحيه (التكتل والانقسام) رغم كل ما قالته (حدثت) عن ثقتها في وطنية (عبد الناصر) .. لكن ظهور مطبوعات كثيرة وُزعت في طول البلاد وعرضها .. أكد لدى الحكومة أن حملة يناير لم تقض على صوت الشيوعيين .. فعمدت إلى تعميق الحملة لتشمل كوادر عديدة في بحري وفي الصعيد وفي القاهرة والإسكندرية .. كانت حملة شرسة نالت من أربعة أخماس الكوادر عند الجانبين وأظهرت الجانب العدائي للصراع .. فشملت العديد من الأصوات الديمقراطية .. لدرجة أن (زكريا محيي الدين) قال إنهم كانوا يتصورون أن الحزب الشيوعي السوري أقوى من المصري .. ولكن ثبت أن المصري أكثر قوة .. ولذا استهدفوا الإجهاز عليه وعلى كل من له صلة بالفكر اليساري بل وبعض الليبراليين والتقدميين .

لقد ظنت الحكومة أنها إذا قطعت الرأس بحملة يناير فستقضي على حركة الشيوعيين باعتبار أنهم مثل تنظيمهم تتركز حيويته في قمته فأرادوا اجتثاثه من الأعماق .. فاعتقلوا معهم معظم القوى الديمقراطية حتى التي لا تنتمي لتنظيم ما ؛ أنصار السلام والنقابيين وأساتذة الجامعات والمتقفين .. وكان اتساع رقعة الحملة أكبر من قدرات أجهزة مباحث أمن الدولة .. فاضطروا للاستعانة بأجهزة الشرطة العادية ، وكان منهم من لا يعرف طبيعة المهمة الموكلة إليه ولا طبيعة من يقبضون عليهم . ولذلك اختلفت طرقهم في التفتيش والقبض .. بعضهم كان يحطم كل ما يقابله من أثاث وكتب . وبعضهم كان يخجل من مجرد الدخول على النائمين أو النساء . وكثير منهم فوجئوا بنوعية البشر الذين كلفوا بالقبض عليهم . بعضهم أحس بتفاهته أمام الأسماء والأفكار والشخصيات ، فتعامل معها بما تستحقه من الاحترام ، بينما تطاول البعض فبالغ في الإهانة كنوع من إشباع شهوة السلطة وتعويض الإحساس بالنقص والضالة والانتقام .. وصلت إلى حد الضرب والتعذيب في الأقسام كما حدث في مقتل الزميل (محمد عثمان) .

حديث انتصار إليّ وطريقتها في تناول الموضوع أسكت الأبواق النحاسية وطبول التحدي التي كانت تملأ صدري , فسكنت فورة الحماس وفرحة قلبي لثقة الحزب فيّ واعتماده عليّ في أكثر من مهمة .. وبدأت أواجه الأمر وأفكر في معنى ومدى ما حدث . لقد كانت كارثة حقيقية .. وأن ما أنا مقدم عليه يحتاج إلى رويّة وحرص ويحتاج ببساطة إلى وجود جيش . قل كتيبة أو على الأقل فصيلة . لا مجرد مجموعة ... وأنا وحيد في القاهرة وأحتاج بشدة لمن أتحدث إليه !

وهكذا وصلت مثقلاً بالهمّ إلى شقة السكاكيني لأفكر فيما يجب أن أفعله وكيفية التصرف .. وفتحت شباك حجري المطل على شارع النزهة .. أتمنى أن تكون (زينب) قد عادت من المدرسة فقد يربط الحديث معها جفاف صحرائي .. أو تخفف ابتسامتها بعضاً من رعبي وإحساسي بالعجز ..

لكن زينب لم تظهر وأثقلت جفوني عادة النوم في الظهيرة فرحت في النوم واستيقظت خفيفاً مع تغير الضوء . وكان (فخري) قد عاد , فحرص ألا يوقظني تقديراً لانفعالاتي - وكنت قد حلمت حلمًا مرهقاً . وجددتني في سجن لا يشبه السجون ؛ بل قاعة كبيرة غريبة مضطربة ببخار الماء , وتعرفت فيها جموع المسجونين والمنتشرين في أنحاءها يسرون في كل الاتجاهات يحملون كتباً ممزقة وعلى وجوههم آثار دماء لجروح قديمة أو مستلقين جلوساً أو نياماً أسفل الجدران .. والغريب أن بعضهم كان يضحك والآخر يلتهب حماساً ويخطب , بينما رأيت (حسين عبد ربه) يبكي وزميل لا أعرفه يربت على كتفه .

فدهشت لأن ما حملته (حياة) إليه في الزيارة كانت كلها أخبار مطمئنة .. أو عادية .. ولما أردت أن أذهب إليه منعني حبل غليظ وجدته يكتفني ويقيد يدي مربوطاً لحلقة حديدية في الجدار , وحال بين عيني ورؤيته جسم ضخم لعسكري مرعب يمسك في يده كرابجاً سودانياً وهو يتحصني ويهز الكرابج .. فصرخت وأفقت على صوت يناديني أن آخذ حذري .. قمت فرعاً .. على دقات (فخري) على باب الغرفة يوقظني ويخبرني أن (زينب) ظهرت في النافذة.

حين انتهيت تماماً لم أتعرّف على الغرفة، لكن اسم (زينب) طرق أذني بشدة فنفضت الملاءة التي كانت تغطيني وقمت قافزاً من السرير أفتح الشباك وقد تبخر اللحم الكئيب من رأسي تماماً . تبادلت مع (زينب) حديث الإشارات المشفرة بيننا , وطلبت الإذن بالدخول بعد أن تواعدنا على اللقاء في الغد حتى لا نلفت أنظار الجيران للنافذة المضئية ..

سهرت إلى ساعة متأخرة من الليل وأنا أحسبها وأقلبها في رأسي . كل من يعرفني من الزملاء اعتقلوا واجتث قسم الجامعات .. لم يبق سواي . (مجدي) و(عيداروس) اللذان يثقان فيّ لو اتصلت بهما .. فكرت في (محمد عمارة) وكان يسكن في شارع مصر والسودان وكنا قد عقدنا

اجتماعًا في شقته ذات يوم مع المسئول المركزي للتنظيم (الشيخ مبارك) . ولكن من أدراني أنه سوف يتقبل زيارتي في هذه الظروف .. وصرفت النظر .. ولكن كيف أذهب لشقة (عيداروس) أو لشقة (مجدى) . شقة (عيداروس) مكشوفة منذ اعتقال شقيقه .. وكان هو على حافة الاعتقال ولا بد أنهم تركوه ووضعوه تحت المراقبة .. أما (مجدى) فلم يزره أحد من المباحث .. ولكن أن أذهب بنفسى في ذلك مخاطرة لا حد لها ..

قابلتني زينب وركبنا الترام معًا وشرحت لها موقفي وضرورة سفري إلى البلد استعدادًا للامتحان الذي لم يبق عليه سوى أقل من شهرين .. وكشفت لها عن حرج موقفي ومدى المخاطرة في الذهاب إلى بيت (عيد) وبيت (مجدى) .. ولكني وعدتها أن أكون حريصًا .. وقبل أن أودعها لأنزل قريبًا من حارة (الشقاقاتية) وجدتها تحمل حقيبتها وتصر على أن تنزل معي .. حاولت إثراءها ولكنها أصرت لأن قيامها بذلك بدلاً مني أكثر أمانًا وهي بملابسها المدرسية .

- الله .. هو أنا ماليش نفس ابقى معاكم ؟

وشرحت لي خطتها وقالت :

- ح اعمل زي ما عمل (عادل) أخوك لكن أنا بقى رايحة لزميلة ليّه .. مش أخته تلميذة

برضه ؟

- بس هي في الجامعة ما بتلبس مريلة ..

ضحكت وقالت :

- يا عم انت فاكر المخبرين عندهم نكاءك .. هي في كلية تجارة وانا باخد عندها درس ..

بس وريني الحارة ودلني على البيت والشقة ..

ولما وصلت تركتني في مرح وقالت :

- خليك بعيد وسيبني اتصرف .

ومضت في مرح تلوح بحقيبتها كأنها ذاهبة لبيتها .

ووقعت على ناصية الحارة أرقبها وقلبي يرتجف خوفًا عليها .. فما ذنبها تحشر نفسها في معركة لا ناقة لها فيها ولا جمل , واعتبرت تصرفها تعبيرًا عن مدى حبها لي .. ولمت نفسي كثيرًا لأنني كنت أحب ثلاثة غيرها .. ولكنها بتصرفها هذا جعلتني أحبها أكثر من أي واحدة أخرى ممن يتخاطفن قلبي .

خيّل إليّ أنها غابت لدهر .. ولكنني رأيتها تخرج من البيت تتقافز في مرح كما دخلت ..

وجاءت نحوي وهي تبتمس لكل من يقابلها .. حتى تجاوزتني فتبعتها , وخرجنا من الحارة إلى

الميدان . لحقت بها وقد عصف بي القلق .

- هيه عملتي إيه ؟

- ولا حاجة .. أخت زميلك دي ساذجة جدًا .. دي صدقتني على طول .. وقالت لي إن (عيداروس) سافر البلد عشان يستعد للامتحان .. وانها هي كمان ح تسافر .. دي افكرتك بالعافية .. هي مش زميلة برضه ؟

كدت أقبلها في الشارع , ولكني اكتفيت بعصر كفها في كفي شاكرًا وقلت لها :

- المدرسة ؟

- لا .. بقي أنا مزوجة النهارده علشانك ..

سرنا جنبًا إلى جنب قاطعين الطريق إلى ميدان التحرير من الشوارع والحواري الجانبية .

- اسمع قدامنا وقت , أنا حاجي معاك لبيت زميلك (مجدي) يمكن تتحل عقدتك ..

كانت تتصرف وكأنها طرف متورط وعجبت لهذا ولم أستطع أن أستوعبه ..

- أنا يا ابني لما شفتك والحديد في إيديك يوم ما خدوك حسيت بقلبي واكلمي عليك ما

تعرفش قد إيه ؟ وقلت دي الحكاية جد (والعيال) دي كلامهم صح ما دام معرضين روحهم كده

للسجن ..

- عيال !!؟

- آسفة مش قصدي .

- الحكاية انتي واخداها لعبة والأ حاجة ؟!

- يا عمي لعبة إيه دانتوا أبطال .. فاكر الفيلم اللي دخلناه سوا .. بتاع حرب أسبانيا !

ركبنا الأتوبيس إلى غمرة .. وهناك وعلى الرصيف المقابل لبيت (مجدي) في شارع بورسعيد

.. أشرت لها على البيت وقلت لها :

- اسم اخته (ماري) .. هي ما تعرفنيش لكن أمه تعرفني .. وطبعًا لو هو اللي فتح لك خير

وبركة . أنا كنت مكلّمه عتّك .. وانا واثق إنك بنت جنية وح تتصرفي ..

بعد قليل .. رأيتها تظهر على الباب - وكان مجدي يسكن في الدور الأول - وأشارت لي ..

فأسرعت بعد أن تأكدت من أمان الطريق . فلم يكن هناك ما يدل على أن أحدًا في الشارع

يلاحظني .

- تشربوا شاي ؟

- لأ معلش .. أنا عايز أعرف ح نتصرف ازاى ؟



- طول عمرك متلهوج ما تنصحيه يا زينب .. البيت أمان ما دام ما جوش ليلة الحملة ولا بعدها .. أنا أصلي ما كُنْتش هنا .. وحصل معايا زي ما حصل معاك .. تشرب الشاي عشان خاطر الضيفة اللي أول مرة تزورنا والا انتي ما بتشربيش شاي القبط يا ستنا زينب !  
ضحكت زينب في هلع وبسرعة قالت نافية :  
- أعوذ بالله .. دا كلام ؟ طب دانا أعز زميلاتي همه الأقباط . فين أختك (ماري) امال .  
- لأ (ماري) في الكلية .. وانا اللي ح اعمل لكو الشاي . بابا وماما برّه .  
- لأ .. ما دام كده .. أنا اللي ح اعمله .. ورّيني المطبخ ..  
دلها على المطبخ وعاد ليعطيني فكرة عما جرى .. وعرفت أنه فقد الاتصال هو الآخر ..  
ولكن لو حكمت فسيذهب ليقابل زملاء لنا في الصعيد ليعيد الاتصال .. ولو أنه يفكر جديدًا في النجاح هذا العام حتى يرضي والده .. ونصحني بعدم الذهاب إلى كلية الآداب , فالحملة طالت حتى زملاء (التكتل) .. ولا إلى الجامعة .. وأن سفري هو الاحتمال الأكثر صحة وخاصة أن هناك وسيله للاتصال بزميل (ميت الحلوج) , وهذا سيوفر أشياء كثيرة وكذلك لتنفيذ توجيهات الحزب بالنجاح .. فيه رد لاعتبارنا ولو أمام أهلنا المذعورين .  
شربنا الشاي وتبادلنا الحديث .. وعرف ما فعلته (زينب) عندما أخبرته بأن (عيداروس) سافر إلى الشرقية فأبدى إعجابه بها .. ولامني ضاحكًا .  
- أمال كنت بتتكلم عنها على إنها تلميذة بتحب (أمال فريد) وخلص .  
غيرت الحديث في ضيق .. وقلت له إنني سأذهب غدًا إلى الكلية لأحاول الحصول على معلومات خاصة بالامتحان ونسخ بعض ما فاتتي من مذكرات .. ثم أسافر إلى البلد .  
وخرجنا أنا وزينب ولم أستطع أن أمشي معها إلا لمسافة قصيرة .. فقد كان شارعنا قريبًا إلى درجة خفت أن يراني أحد معها . واتفقنا معًا على أن أصحابها في رحلة نهريّة قبل أن أسافر إلى (ميت سلسيل) وبعد أن أرتب أحوالي مع الكلية .

\*\*\*

• وهأنذا .. بعد ستة شهور بالضبط أقف كالفأر المسلوخ في ملقف مدخل سجن (المنصورة) ..

ستة شهور مليئة بالأحداث والحركة ركبت فيها كافة أنواع المواصلات , ليلاً ونهاراً .. من عربات نقل , تاكسيات .. قطارات , بل وعربات كازو وحمير أيضاً , وسرت على أقدامي مئات الكيلومترات , وسافرت عشرات المرات بين (القاهرة والمنصورة وبورسعيد ودكرنس) , قابلت رجالاً وشيوخاً ونساء وطلبة وفلاحين .. في قرى لم أكن دخلتها أو حتى عرفت بمكانها .. من (ميت سلسيل) (إلى ميت الحلوج) ومن (ديمشلت) و(الكرما) إلى (الصالحات) , و(بني عبيد) , و(طناح) , و(ميت ضافر) , و(الكفر الجديد) , و(المنزلة) .. ودخلت الامتحان ونجحت بامتياز , وتبادلت المركز الأول مع طالب أرسل فيما بعد في بعثة ليحصل على الدكتوراه من أمريكا بينما كنت أنا في السجن .. عشرات الاجتماعات ومئات المقابلات .. خضنا انتخابات الاتحاد القومي وطاردنا قوات الأمن بالطوب لمحاولتها التدخل في مجرى التصويت .. ستة شهور كاملة نابضة بالحياة وروح التحدي والخيانة أيضاً .. لأجد نفسي بعدها كالفأر المسلوخ مجرداً من ملابسي ما عدا الفانلة واللباس .. أرتعش في ملقف ريح مدخل سجن (المنصورة) .. يشفق عليّ الشاويش الجميل ذو العيون الخضراء والصدر العليل عم (حسن عطية) الشرقاوي الطيب .. بعد أن سلم لوالدي المهزوم المكسور خارج البوابة الخشبية الجهمة الباردة ذات الصرير , ملابسي الخارجية !

كانوا قد خيروني بين (الملكي والميري) . واخترت (الميري) لأعفي والدي من مصاريف (الطعام الملكي) الذي كان سيكلفه (9) جنيهات يدفعها للمتعهد وهو الذي كان يعاني من (6) جنيهات أتعلم بها وأنا مطلق السراح .. لم يقل لي أحد أن من الممكن أن أظل بملابسي المدنية وأكل طعام السجن , أي (نصف ملكي) حتى زملائي الذين سبقوني للسجن لم يقولوا لنا خبرتهم

تلك التي تعني أنك على الأقل تعرف لائحة المكان الذي تناضل وعينك عليه باستمرار , وتتوقع مصيرك إليه على الدوام ..

لذا وقفت أرتعش في ملابسني الداخلية رافضاً شفقة أحد , أحاول إعفاء أبي من استغلال المتعهد , فيكفيه ما جلبته عليه حتى الآن .. عليّ أن أتحمّل مغبة أعمالني وأقبل مصيري الذي يعطف بي انعطافة حادة في الثالثة والنصف من مساء يوم الأحد (27 سبتمبر 59) .. على الحد الفاصل بين الحرية والقيود .

هزنتي الدموع الجافة التي تالأت في عيون الشاويش (حسن عطية) .. فبدأت أحس بالريح الباردة التي تندفع من حلق ملقف السجن بين المكاتب لتلسعني بقسوة .. خاصة عندما كان الباب يُفتح لدخول أو لخروج شخص أو شيء .. لتشدّ حواسني وتتبه مشاعري التي كانت تتجهز في توتر عنيف لاستقبال أي طارئ مخيف ..

خرج الضابط من مكتبه ليشرف بنفسه على تفتيشي . كان قصير القامة متين البنيان لا يستقر في وقفته لحظة واحدة .. ولا يحتفظ بقبضتي يديه في مكان .. تارة يعقدهما أمامه ثم يعود ليدخل كَفَّيه في جيوبه .. ليخرج إحداها فيسند بها ظهره , بينما تسرع الأخرى لضبط الكاب .. يحاول أن يضفي على صوته قسوة وحدة متعمدة .. لمح علبة السجائر الهليود الأخيرة مرفوعة في يدي فانقض عليها في غضب , ارتعش له عم (عطية) وهو يمزقها تحت حذائه في قسوة .. أصبح معها لسع سياط الريح التي تجلد جلدي أكثر حدة , وأجمتني الدهشة حتى عجزت إلا عن مهمة احتجاج غير مسموعة .. لم تكن السجاير ممنوعة في السجن .. ولا عمّن هم في سني وقد بلغت العشرين وبضع شهور ولست تلميذاً ولكني طالب في السنة الرابعة في كلية الزراعة , قسم الاقتصاد والتعاون الزراعي .. ومحبوس لأنني ارتكبت أعمالاً محرمة حتى على من هم أكبر سنّاً مني !

دفعوا بي إلى (المكاتب) حيث قام أحد الكتبة الشبان بتسجيل اسمي في دفتر كبير . وعندما سألني عن (الأمانات) لم أفهم قصده , فشرح لي السؤال . ابتسمت رغماً عني , فكيف سيكون معي نقود أو منقولات أو أي شيء في موقعي هذا .. عاملني الكاتب باحتقار وكتبها وهو يقول له ساخرًا بصوت عال (لا يوجد) , ثم أشار في قرف للعسكري الدرجة الثانية الذي دفعني أمامه بعد أن أدارني للخارج متوجّهاً بي إلى (الاستقبال) . لمحت عم (حسن عطية) مستنذاً إلى الحائط الغربي المشمس للإدارة وهو يمسح بمنديل محلاوي كبير وجهه المرهق , ولكنني لم أتبين جيداً ملامحه إذ سرعان ما ابتلعني الشق الضيق الذي يفصل بين مبنى الإدارة ومبنى المستشفى حيث يوجد الاستقبال ..

نادى العسكري على شاويش المغسل , طالبًا منه إرسال (بدلة) جديدة للإيراد ولكن سجينًا يرتدي ملابس بيضاء مكوية .. ونظيفة قال :

- المخزن مقفول وعندك واحد إفراج خُدوا بدلته ..

وشعرت وأنا أتامله أن قراري باختيار المعاملة الميري كان قرارًا سليمًا , فها هو سجين يرتدي بدلة تصلح لطبيب في مستشفى أميري .. ما العيب إذن في الأكل واللبس الميري .. بدلاً من بهدلة تسعة جنيهاً في الشهر ليزود السجن تحت التحقيق بالطعام يوميًا .. وهي من حق إخوتي وجميعهم في المدارس .

لم يكن من المعقول إذن أن أعيش في الجامعة بستة جنيهاً وأعيش في السجن بتسعة والرجل الطيب عنده ما يكفيه وزيادة من المتاعب .

دخلت الإيراد وهو (كالمطهر) بين العالم الخارجي والعنبر ..

قال السجنان الدرجة الثانية :

- خش استحمي .. عندك مية سُخنة الحقا ..

ولكنهم كانوا قد أغلقوا البخار .. فقفزت من تحت الدش صارخًا من برودة الماء , لكنه دفعني وأعادني تحت الماء البارد . ولما ذهبت الصدمة الأولى أخذت أستعذب سيل الماء البارد وأحسست براحة , إذ معني الماء البارد المتساقط من البكاء وألهاني عن الموقف الذي وجدت نفسي فيه ..

دخل إلى الإيراد بعض المساجين في ثياب قذرة .. وسأل العسكري مسجون الإيراد عن بدلتني .. فأشار إلى ركن بعيد . حيث كانت بعض الهلاهيل القديمة ترقد تحت الحائط فوق الأرض المبتلة , وكانت هي البدلة المتبقية من مخلفات الإفراج ولم يرغب العسكري في لمسها وطلب مني أن أخرج لأرتديها وأنشف بها , ولما أبدت بعض التذمر صاح في غضبًا:

- وح اعمل لك إيه ؟ .. النهارده الإفراج (تسول) . وما فيش بدلة غيرها ..

استسلمت وطلبت فانلتي وكلسوني لكنهما كانا قد اختفيا .. سرقوني في (المطهر) .. ولم يكن هناك على ما يبدو لي بدٌّ من أن أتوجه إلى حيث ترقد ملابس الميري .. وما أن رفعتها حتى اقشعر بدني ..

قال العسكري :

- نَقِّضها م القمل .. تبقى كويسة .. واهي مؤقتة لحين يوم الحمام بتاع دور اتنين .

ضحك المسجون ذو البدلة .. الأنيقة وقال :

- الحمام كان النهارده !.. قدامه للحد وعليه خير ..

قال العسكري هامسًا :

- إبقى في العنبر اتصرف .. ح تلاقيلك بدله أنضف أكيد .. غيرّها بسجارة والا اتنين !

كانت السجاير قد فركت بقسوة أمام الباب ..

ارتديت (البنطلون) كان قصيراً وواسعاً وقدرًا , لم يصل إلا إلى أسفل ركبتي بقليل ، ولما لم أجد له (تكة) ناولني أحدهم حبلًا من الليف الخشن ربطته به حول وسطي . وابتسم العسكري لما أظهرته من خبرة لا تبدو عليّ .. القميص القذر لم يصل طرفه إلى حافة البنطلون فاضطرت للانحناء قليلاً حتى لا تظهر بطني عارية وأنا أعبر على (الصراط) إلى العنبر ..

قال أحد المساجين مواسياً :

- اولاد القحبة المساجين بيقصوا القماش , ويبيعوا أطراف البدل (كهن) يبلوها بالسولار لتسخين الطعام .. بكرة تغيّرها .. ما تخذش في بالك ..  
وفجأة دخل رجل جهم عملاق يرتدي معطفًا أبيض قذرًا وسأل :  
- فين الإيراد الجديد ؟ ..

عرفت أنه يقصدني لأنه تقدم مني ولم يمهلني لأعرف قصده , بل أمسك برأسي كالبرتقالة بين كفيه الكبيرتين ثم أخرج من المعطف ماكينة حلاقة فظيعة وجرى بها فوق رأسي مبتدئاً من قفائي حتى منبت شعري عدة مرات وبسرعة , لتتساقط خصل شعري الفاحم الناعم تحت أقدامي على البلاط المبلول . لم تكن هناك مرآة كي أنظر فيها كيف صار الحال .. وكان هذا أفضل لي . ساعتها قررت بعد أن خمنت شكلي أن أنسى كل شيء وأبدأ في اكتشاف مدى قدرتي على التحمل .. خاصة وقد كانت فكرتي عن السجن مجرد فكرة أدبية من الكتب حتى الآن .

خرجت من الإيراد وأنا أتخيل منظري في هذه البدلة القذرة برأسي المحلوق وابتسمت وأنا أقول لنفسني (البلد اللي ما حد يعرفك فيها امشي وبرطع فيها) .. ودي لا بلد ولا ليّه فيها أهل ولا ولد .. للوهلة الأولى لم يعرفني (عم حسن عطية) ولكنني عرفت وتأكدت أن صورتني ومنظري يستحقان نظرة الدهشة الغاضبة التي لاحت على وجهه وفي عينيه المحمرتين .

أشار للعسكري فتركني وقادني مفتعلاً بعض الشدة - ليخفي مشاعر الحزن التي تملأ قلبه - نحو بوابة العنبر , وبدون كلمة أشار لسجان البوابة ففتح ودخلنا ..

أغلق السجان الباب الحديدي ووقّع (عم عطية) في الدفتر و(حضّرني) ثم قادني إلى السلم إلى الدور الثاني ..

كان العنبر نظيفاً وبارداً وعشرات المساجين في ثياب خضراء وبيضاء منهمكين في تنظيف الجدران والأرض النظيفة .. كانت الأصوات المتداخلة تملأ العنبر .. نداءات وصيحات وثرثرة تخترق الجدران وزعقات لها رنين غامض ..

الشاويش (عبد التواب) يذهب ويجيء وقد قدم البيريه على حاجبيه كاشفًا قفًا أحمر مخلوقًا. رنة صوته الحاد وحركة يديه سريعتي الأذية تدفعان عدة مساجين صغار السن إلى نشاط غريب متناغم ومفتعل . البلاط في الدور الثاني يلمع ويبرق . وأمام دكة الشاويش ذات الدرج الرأسي .. وقفت وجلس (عم عطية) ونادى (عبد التواب) الذي قطم صيحة غضب .. وجاء مسرعًا وابتسامته ترحب (بعم عطية) .. نظر إليّ نظرة متعجلة فاحصة فأجابه الشاويش (عطية) .. (شيوعي !!)

- أهلاً وسهلاً ..

قالها (عبد التواب) وهو يقيسني ويزنني بعينه .

- طالب ؟ ..

- بكالوريوس زراعة ..

- وله يا (سيد) ..

جاء (سيد) يجري مهرولاً بكل احترام ..

- وضّب له شعره يالّه .. بعد الحمار ما خرّبه !..

(سيد) قال إن العدة في الصالون والصبح رباح .. زعق (عبد التواب) .

- واد يا (عبد الغني) .. حضّر (39) يا وله ..

ثم رمقني بنظرة فاحصة وقال :

- معاك إيه ؟ ..

قلت له معتذراً ..

- الضابط فرك السجاير ..

ضحك وقال ..

- لازم شاغبت وياه ..

تدخل (عم عطية) وقال :

- سيبه يا (عبد التواب) وشوف له بدلة غير دي ..

قال (عبد التواب) منهياً الموقف .. ولم يعجبه تعاطف عم (حسن عطية) معي :

- اتفضل يا مسجون .. الصباح رباح .. أهلاً وسهلاً ..

رنت كلمة مسجون في أذني , فتنبعت إلى المفاتيح التي جاء يجري بها مسجون مريرب أبيض الوجه كان يفتح ويقفل الزنازين في نشاط .. سبقنا يجري نحو الربع الرابع حيث الزنزانة (39) .. كل الزنازين مغلقة .. لاحظت أعلى الأبواب مساجين متعلقين بالحديد يراقبون داخل

العنبر .. وحين يزجرهم (عبد التواب) يسقطون خلف الأبواب فزعين .. لاحظت ثلاثة من المساجين في ملابس زرقاء (مقيفة) ونظيفة يجلسون على عتبة شباك العنبر الرئيسي .. فتح المسجون المريرب الباب , وأدخلني (عبد التواب) ثم دفع بقدمه كومة من الهلاهيل الصوف والبطاطين وجردل قديم قذر , وأغلق الباب بشدة .. وجدتني في مساحة لا تتجاوز مترين طولاً وعرضاً .. لها نافذة ذات قاعدة منحدره .. خالية ونظيفة ومازالت مياه المسح تبلل الأرضية .. وما أن أغلق الباب سقطت في بئر من الصمت العميق ..

وقفت تائهاً وسط الزنزانة .. تلفت أتأمل المكان . كانت على الحائط الأيسر مربعات من ضوء الشمس الباهت تجاهد للتشبث بالجدار وهي تصعده في بطء نحو حديد النافذة لتتلاشى . غمرت عيني ظلال رمادية جعلت الأرض تبدو أكثر سوادًا , وقع نظري على الهلاهيل , اقتربت منها في حذر وخوف .. كانت مجموعة من الحبال يؤكد تشابكها أنها كانت ذات يوم مغزولة كالحصيرة وقطعتين مهترئتين كانتا ذات يوم بطانيتين .. لم أفهم ماذا أفعل بهما .. فبقيت واقفاً .. في حيرة ..

وأخيراً نهتني قدمي المتعبتان فكومت الكل إلى جوار الحائط أسفل النافذة .. وجلست فوقها أنظر إلى الباب .. وبكيت .. لم يهتم أحد أن يدرنا على كيفية التصرف مع التجربة الأولى للسجن , ولا كيفية مواجهة صلافة مثل ذلك الضابط الذي فتك بسجائري , ولا كيف أتمسك بحقي في تطبيق لائحة السجن التي كان أبسطها أن أظل مرتدياً ملابس المدنية . ولو أكلت من طعام السجن .. كان هذا كفيلاً بحفظ بعض الكرامة التي يدهسها الإحساس بالضعف . لقد حضرت مدارس كادر كثيرة كانوا يحدثوننا فيها عن التناقض الرئيسي وقوانين الجدل والقوانين الأساسية للاقتصاد الرأسمالي والصراع الطبقي ..

ولكنهم تركونا وحدنا نكتشف قوانين الصراع المباشر مع لائحة السجن وقانون الحياة المصرية الأكثر قسوة من قوانين الجدل والتمثل في تلك المواجهة غير المتكافئة بين المواطن والسلطة . وهي القوانين غير المكتوبة الأكثر حضوراً والتصاقاً بحياته اليومية .. والتي اكتشفت البساطة المذهلة بل العبقرية في جوهرها الفريد - الذي احتجت شهوراً طويلة لاستيعابه - من مقولة الشاويش سجان (محمود سعد) يوم أتحنني بها مبرراً ما ينفذه لي من مخالفات فادحة لكل اللوائح - طبعاً بأجر !

- (نيك الحكومة وما توريهاش زيك) !!

\*\*\*

• ليس هناك من شك أن شخصًا آخر قد تقمصني أو أن روحًا جديدة قد تلبست جسدي .. فلم أكن أتصور إمكانية تحملي لفكرة السجن .. كنت أسأل نفسي كيف يتحمل (حسين عبد ربه) السجن دون أن يشاهد السينما .. كنا مدمنين لمشاهدة الأفلام والمسرحيات .. مرتين أو ثلاثًا أسبوعيًا .. وكلما دخلت السينما وحدي تعجبت من إمكانية احتمالته الحياة دون سينما !!

ومع ذلك هأنذا بين أربعة جدران في زنزانة عارية تمامًا وباب مغلق , عاريًا أو شبه عار بلا طعام أو شراب أو أقلام أو أوراق أو كتب أو أي شيء إنساني آخر .. لا شيء سوى الوقت . وقطعة من الضوء انسحبت من فوق الجدار مع الشمس التي توشك أن تغيب .. مسحت دموعي وبدأت أفكر فيما أنا فيه .. أخذت أؤكد لنفسي أنني لست وحدي .. ولن أبقى هنا إلى الأبد .. لا شيء يمكنه أن يهزم روحي أو يقهرني .. وأخذت أستحضر صور رفاق ومعارك .. وأستعيد حكايات كلها تؤكد أننا لا بد أن ننتصر .. وأن السجون لم تقهر البشر أبدًا . رغم تقنن الطغاة على طول التاريخ في ابتكار أشكالها وأنواعها ووسائل التعذيب فيها .. ورغم أن الناس لا تتذكر الضحايا أكثر مما تتذكر الجلادين .. امتلأت أذني بهتافات جماهير العمال المنتصرين في ميادين تزينها الرايات الحمراء .. ومع ذلك .. هاجمتني صورة والذي وهو يقف ذليلاً مقهوراً أمام باب السجن , حاملاً بقايا ابنه وكأنه يتصور أنهم سيسلمونني إليه في آخر لحظة بدلاً من ملابسي ..

أعود لتأمل الجدران النظيفة ومربعات الحديد التي تبدو السماء من خلفها سجينة تحاول أن تشاركني حزني الدفين .. راح الضوء يخفت في الزنزانة , فقد غابت الشمس واكتمل فناء ضي مربعات الشمس على الحائط وتلاشيها .. بدأت أفكر في الطريقة التي سأنام بها بعد أن فحصت كومة الحبال وبقايا البطاطين التي أجلس عليها وبذلت جهدًا كبيرًا في معرفة طريقة استعمالها .. وأخيرًا طويت هلاهيل البطاطين وصنعت منها بالعرض مستطيلًا على الأرض في الركن المواجه للباب .. ثم كومت الحبال .. لأصنع منها وسادة .. - لا بأس .. لا بأس .. نومة ملوكي ولا في الهيلتون ..



تمددت على ظهري .. ورفعت رجلاً فوق رجل فضحكت , وأنا أتأمل ساقِيَّ النحيلتين العاريتين . فأخذت أهز قدمي في قلاطة .. وبدأت أندن في لامبالاة متمعدة . فاجأَتني دقات على الحائط المجاور لرأسي .. دقات منتظمة , كأن شخصاً يحاول لفت نظري .. فجاوبت على الدقات بمثلها , فتأكد لي ذلك .. ألصقت أذني بالحائط فسمعت أصواتاً فسرتها بصعوبة ..

- مين انت ياللي في (39) ؟ .. زميل ؟ ..

كان هذا رقم زنزانتي ..

- أنا فلان .. إنت مين ؟ ..

وعدت ألصق أذني , فسمعته يقول ..

- أنا (معين) في (أربعين) وفيه (أحمد يوسف) جنبك في (38) و(عبد الحميد) في (37)

.. تعرفهم ؟ دول من (دكرنس) زمالك - حدثو !!

طبعاً خمنت أنه ينتمي لتنظيم آخر . وأن (أحمد) و(عبد الحميد) لابد وقد سبقاني إلى هنا .. فقد واجهتني النيابة بالمضبوطات لديهما وبأقوالهما .. صحيح أنني أنكرت أية علاقة بهما .. ولكني رأيت بعيني كل الأوراق التي كتبتها بنفسي والخاصة بالعدد الذي كنا ننوي إصداره من (صوت الفلاحين) .. المقالة التي كتبتها عن (حلايب) والخلافات مع (السودان) والخلافات مع ثورة (العراق) وحكاية (جمهورية لا إقليم) الشعار الذي رفعه (العراقيون) ، ومقالة (سيد يوسف) عن تحليل الوضع السياسي والذي حاول فيه أن يشرح مؤامرة حزب البعث السوري لضرب الشيوعيين والتخلص من كل الأحزاب للسيطرة على الحكم باستخدام شعبية (عبد الناصر) ، ومقالة أخرى عن أوضاع الفلاحين وما يدبر للحركة التعاونية وتجربة (ميت سلسيل) في عقد جمعية عمومية بناء على طلب الأعضاء لأول مرة في مصر ، ومقالة أخرى عن الديمقراطية وضرورة أن تكف أيدي الأمن عن اختيار المرشحين سواء للاتحاد القومي أو لمجلس الأمة ، والمهزلة الانتخابية التي تمت لاختيار الوحدات الأساسية ومجموعة من الأخبار المحلية .. من (ميت الكرما) .. و(ميت الحلوج) و(ميت سلسيل) و(الصالحات) .. وتعليق شديد اللهجة على خطابات (عبد الناصر) وتحريضه على قتل الشيوعيين - أشرف أبناء الوطن ..

كنت قد طلبت من (أحمد) أن يقوم أخوه (يوسف) بنقل المقالات بخطه قبل أن تذهب للطبع إمعاناً في الاحتياط , لكنني فوجئت بها كما سلمتها لهم مع أنني - تحوطاً - كنت قد أعدت كتابتها بنفسني وتخلصت من أصولها .

اعتلى (معين) شراعة الباب ونادى على (أحمد وعبد الحميد) ليخبرهما بوصولي ..

وزعق الشاويش (متولي) ..

- انزل يا مسجون .. ممنوع الكلام .

ونزل (معين) وانقطع الاتصال ..

سمعنا أقدام الشاويش (عبد التواب) في الطريقة تقترب .. وفتحت الزنازين الأربعة .. وتعتمد الشاويش أن يترك الأبواب مفتوحة وهو يعد للتمام .. ليترك لنا فرصة لرؤية بعضنا البعض .. ولكني طبعًا لم أجرؤ على القيام من مكاني .. فعاد ووقف منتصبًا أمام الزنزانة .. وقال في سخرية من عبطي :

- ما تقوم يا (كاويرك) .. بص على زمايلك ..

ومضى .. قمت نحو الباب ومددت رأسي محاذراً فوجدت (عبد الحميد) و (أحمد) و (معين) يقفون كلٌّ على باب زنزانتهم يرحبون بي . لا يجاوز أحدهم الخط الأحمر أمام الزنزانة ففعلت مثلهم .. نصحني (أحمد) أن أحدثه خلال الجدار في الليل وأستخدم طبق العسل الألومنيوم الصغير (فهتم أنهم سوف يعطونني طبقًا فيما بعد) كسماعة بينما أجعل من قبضة يدي بوقًا للحديث .. وأفهمني أن يجلس كل منا في ركن الزنزانة الملاصق (خلف خلف) لكي يصل الصوت أسهل ..

- على كل حال بعد التمام ممكن تربط البطانية في الشراعة ونتكلم عادي ..

خمنت أنه سيكون عندي بطانية .

كان الأمر يستحق المحاولة .. سنتدرب من جديد كالإنسان الأول على طريقة مبتكرة للحديث عبر صخور الكهوف أو ونحن معلقون فوق الأغصان .. وأصبح هناك شيء أو حدث هام ننتظر حدوثه - وهو الحديث معًا .. رغم منع الكلام ..

ورغم أنني من مكاني أوجزت لهم ما حدث معي .. وما قلته في المباحث .. والتحقيق .. إلا أن مغامرة الحديث عبر الجدران كانت تشوقني .. وعرفت أن (عبد الحميد) تعرض لتعذيب وحشي في المباحث .. وأن أحدهم هو الذي سلمه .. تبين لي أن الأستاذ (معين) مدرس لغة إنجليزية قديم وعجوز على المعاش ويعمل بالمدارس الحرة .. كان ضئيل الجسم ضعيفًا .. لا يكف عن التدخين .. تمنيت ساعتها لو أن الضابط لم يفرك علبتي كنت أعطيها له .. فقد عذبتني نظرة عينيه وهو يسألني عن السجائر وأخبارها .. تأسفت له .. لكن نظرة اليأس وخيبة الأمل التي رمقني بها .. قتلنتي ..

تقدم (أحمد) في جراءة وسلم عليّ واحتضنني بينما (عبد الحميد) ينظر من الباب مذعورًا .. ثم تجاوزني رغم نداءات (عبد التواب) من بعيد :

- وبعدين .. يا مسجون ارجع محلك ..

ناول (معين) سيجارتين .. وأعطاني مثلهما ونصف شطاطة وعودين كبريت ..

- معلش يا شاويش (عبد التواب) .. الأستاذ (معين) خرمان ..

وعاد إلى موقعه في الباب في ثقة أعجبتني .. ولكن (عبد التواب) قام في خطوة عسكرية وتقدم مسرعاً ليغلق الزنازين , ناوله (أحمد) سيجارة وضعها وراء أذنه وهو يرمقه في حدة حانية دون كلمة ويرزع الباب عليه .. ثم تجاوزني وأغلق ززانة (معين) وعاد يسألني دون أن ينتظر مني إجابات .

- عندك فيه ؟ خدت الجراية ؟ يا واد يا زفت .. هات الجراية , وتعالى املا الجرادل ده يا ولد يا (بشلة) .

ومضى في نفس الخطوة العسكرية .. ومن بعيد أسرع الولد المريرب حاملاً في يده اليمنى رغيفين عليهما الطبق الألومنيوم الصغير الموعود . وهو يجري في خطوات قصيرة وبطريقة خاصة تميزه !! وهو يلوح بمفتاح الزنازين في يده اليسرى .. ناولني العيش والطبق في حركة رشيقة ..

- خد يا مسجون الجراية ..

ودفعني في قلة ذوق وشد الباب فرزعه وأدار الأكرة فتكَّت مرة ثم بالمفتاح تگَّة أخرى ..

- تصبح على البرش ..

كل ذلك وأنا أحاول أن أتعايش مع اللغة الجديدة , فأنا (مسجون) وهذه هي (الجراية) لعشائي وممنوع الكلام .. ولكن ما هو (البرش) ؟ خمنت عندما استدرت أنه لابد يعني تلك الحبال التي كومتها كوسادة ..

كنت جائعاً .. فجلست على (البرش) ووضعت الخبز (الجراية) والطبق الذي كانت في قاعه (لحسة عسل أسود) .. بحلقت في الطبق ثم بدأت في محاولة فاشلة شديدة التعقيد كي أجعل العسل يكفي (ليبلِّغ) الخبز .. لكنه اختفى بعد لقيمات قليلة . فبدأت ألوك الخبز - حاف .. وعزَّت عليَّ نفسي مرة أخرى وكنت قد تجاهلت عزتها قليلاً فبكييت بحرقة ..

\*\*\*

قرر عبد الحميد عبد الرازق أن يكفر عن خطيئة حدثت منه في دقيقة ضعف فدفع خمس سنوات من عمره وهو لا زال في مقتبل العمر .. كيف فعلها وكيف تحمل برجولة عبء السنوات الخمس بكل ما فيها من مرارة ووحدة وغربة ووحشية .. ولم يستطيع أن يتحمل لحظات تحت سياط التعذيب ، فاعترف بما كان عليه أن يخفيه التزامًا بالواجب الحزبي الذي لم يشرحه له أحد ، ولم يكن ليسأله عليه أحد سوى ضميره .

عرفت كثيرين فيما بعد أكثر لمعائنًا من (عبد الحميد) وأكثر وعيًا ، لم يدخلوا التجربة التي تجسدت لهم رعبًا جائمًا (لم يحدث أبدًا) لكنهم ولغوا في دماء الآخرين متطوعين أحيانًا ، أو بأجر ولا يزالون يجدون الجرأة لتدخين الشيشة في مقاهي المثقفين وشرب البيرة في أحط المستنقعات في وجاهة .

كدت أبكي وأنا أرى أثر العصا الرفيعة على ظهره ، وعلامات إطفاء السجاير في أماكن مختلفة من جسده وحين انفجر باكياً وهو يقول :

- نفخوني يا سمير ..

ذهلت .. كيف ؟ .. كيف يجد إنسان مهما كانت حيوانيته القدرة على إهانة الآخر .. الذي لا يملك أن يرد له الإهانة ..

ضحك أحمد يوسف وهو يربت على كتفه في محاولة لإضحاكه وإضحائي .

- دانت لو شفته وهو مزنهر ومنتفخ ، جسمه عنده قابلية طبيعية ، دلوقتي مش قوي .. إحنا كنا فين ؟

ولم يكن في الأمر ما يضحك رغم أننا ضحكنا ..

كان مجرد صبي ترزي بسيط ولذلك هرسوه بكل قسوة وحنكة زبانية عمرها آلاف السنين لكي يخبرهم باسمي ، ومع ذلك أعطاهم نصف الاسم ليقنع نفسه أنه لم يبيح بكل ما يعرف ، لينجو وليستطيع أن يواجه نفسه .. لكنهم رغم ذلك لم يرحموه .. انتقامًا من أخيه الذي كان عضوًا نشطًا وقائدًا في قريته ، وله تأثير كبير على تلاميذه كمدرس - كان قد اعتقل في حملة (مارس) الماضية بعد أن دوّخهم السبع دوخات كما سمعنا .

كان إصبع اتهامهم للواشي موجهاً إلى أحد زملائهم في القرية ؛ لأن المباحث سألتهم عن الاجتماعات (في القطن) وكنت قد عقدت معهم اجتماعًا في حجرة مخزن مليئة بأكياس القطن وكان معنا ذلك الزميل البريء ونحن نرتب لطباعة العدد الجديد من (صوت الفلاحين) . ولم

يحضره ذلك الزميل ! الذي لم أكن أرتاح إليه وكان من قرية (ديمشلت) وقيل لنا إنه يحتفظ بالجهاز الفني .. الذي كان مجرد (رونيو) يدوي من خشب .. لا يتكلف أكثر من 5 جنيهات .. وعندما ذكرتهم بيوم لقائنا مع ذلك الطالب المدعو (شاور) في حقل القطن بالقرب من قرية (كرم) قال أحمد وهو يشهق متذكراً..

- تصور كنت ناسي , أيوه فعلاً .. غيط القطن .

يومها كان (شاور) هذا يلتهب حماساً ! ويهاجم تخاذل الحزب وعدم رده على ما يقوله (عبد الناصر) من بداءات ويحرضنا على ضرورة العمل على إغراق القرى بالمنشورات .. ليعرف الناس رأينا .. وللدفاع عن شرف (الحزب والشيوعية) , ولم أكن أستريح إلى أولئك الذين يلتهبون حماساً ثم ينطفئ لهب حماسهم بين لحظة وأخرى .

لكننا كنا مضطرين للتعامل معه بعد أن فشلنا في تدبير الجنيهات الخمسة اللازمة لتصنيع رونيو آخر ..

كان صديق محام قد وعدنا بتدبيرها . لكنه سافر فجأة إلى القاهرة .. وقال أحمد يوسف :

- فلسع .. لا يريد أن يتورط , حيرشح نفسه في الانتخابات ورأيي إن الشك في (شاور) لا محل له فهو مبني على إحساس لا دليل عليه .. وليس أمامنا إلا استخدام هذه الإمكانية ؛ خاصة والحزب هو الذي استأمنه على الجهاز الفني .. منذ فترة طويلة .

لكني يومها لم أكن مستريحاً .. لذا طلبت منهم إعادة نسخ مادة المجلة .. قبل تسليمها إليه . لكنهم لم يفعلوا .

قال عبد الحميد :

- عندك حق .. هو (شاور) فعلاً إزاي فاتت عليّ دي؟! الحمد لله إننا ما بلغناش الزملاء عن شكنا في الزميل الآخر ..

- دا واد ممتاز .. وكنا ح نعلمه ..

وحكى عبد الحميد كيف ذهب لـ(شاور) في الموعد المحدد .. لكنه اعتذر مدعياً أنه نقل (الرونيو) إلى المنصورة لشقته في عزبة عقل , مكان أمن من القرية بمراحل .. وأعطاه موعداً في الغد ليسافرا معاً إلى المنصورة .. وذهبا إلى الشقة وهناك وبدون أي مبرر .. جمع له الأوراق والحبر والرونيو في شنطة ..

وادعى أنهما سينتقلان لشقة أخرى أكثر أمناً (احتمال الواد اللي ساكن معايا يرجع فجأة من البلد بين لحظة والتانية) ..

وحمل بنفسه الجهاز الفني والأوراق في حقيبة وما أن خرجا من البيت حتى ناول الحقيبة بما فيها لـ(عبد الحميد) واستأذنه ليشتري علبة سجائر من الدكان القريب .. وما أن ابتعد بخطوات حتى انقض رجال المباحث على حامل الحقيبة ..

- تصور بقى إني أدرت له ظهري , حتى لا يلاحظوا أننا معًا .. ويقبضوا عليه .. تصور دانا حمار بشكل ..

قال أحمد يوسف للتخفيف من وطأة الغيظ :

- إنت حمار من الأول لكن بقيت بعد الحكاية دي أحمر !

وضحكنا من القلب ..

\*\*\*

• تبدو النظافة وكأنها الشغل الشاغل لكل العاملين في حكومة سجن المنصورة تحت قيادة الباشا (الدماطي) مأمور السجن , وهو (ديك رومي) هائل الحجم .. أبيض ومريرب , نصفه السفلي ضعف حجم نصفه الأعلى .. حين يسير في خطوة منتظمة يبدو أنه ينط للأمام في قفزات قصيرة غير منتظمة .. ولا يتحرك من مكتبه إلا وتسبقة صيحه عالية رنانة يطلقها بعد صفارة طويلة حضرة الصول (مصطفى) الرجل الطيب العجوز ذو الشنب المبروم الذي انتهت مدة خدمته الافتراضية منذ سنوات .. وهو يحاول جاهدًا أن يسبقه إلى كل ناصية قادمة - إذا أراد التجول للتفتيش على السجن :

- انتبأاااااااااااه ..

فتنزل الصفعات والشلاليت كالمطر على أقفية ومؤخرات المساجين (المصنعين) للنظافة ؛ سواء من يتولون كنس الحوش وممرات الحديقة التي تتوسط المساحة بين الإدارة والعنبر والمطبخ والملاعب .. أو من يتعلقون فوق الأعمدة والشبكات الحديدية التي تشكل الهيكل الداخلي للعنبر ذي الأدوار الأربعة . أو من ينحنون على بلاط الأرضية والطرققات أمام الزنازين بالخيش والمنافض .. كالنحل يلحسون البلاط حتى يبرق .. بينما يلاحقهم آخرون يحملون جرادل البوية والفرش لدهان أي (ملاحيظ) , أي أي وساخة أو كشط أو خربشة في الجدران خاصة في بطون الشبابيك والأبواب , حيث تعود المساجين على الجلوس في البطاطين بعد ربطها في حديد الشبابيك أو شراعات الأبواب للدرشة الليلية بين زنزانه وأخرى أو لتأمل الحياة الخاوية الصماء

خارج الزنازين أو للزيارات السلك خاصة من شبابيك زنازين الدور الثالث المطللة على ما وراء السجن بعد التمام , لمن لا حق لهم في زيارات رسمية أو لأغراض أخرى عديدة ..

- امنع الساقط ..

صيحة الشاويش (عبد التواب) الروتينية يطلقها في غضب وهو يشد قامته كقائد فرقة عمليات العلمين الحربية .. إذا ما تجرأ أحد المساجين على تسريب القذارة إلى الأدوار السفلى خلسة ؛ وهو يطارد الغبار وآثار الأقدام في الأدوار العليا ..

لابد أن يبدو العنبر كالعروسة والأرض كالمرآة عندما يمر جلالة المأمور (جلال) ! لأنه لو لاحظ خدشًا أو علامة أو قذارة :

- فنهاركو طين بإذن الله تعالى ..

يقولها عم الصول (مصطفى) العجوز في سخرية خفية وهو ينطلق نافخًا الصفارة .. زاعفًا عند كل ناصية ..

- انتباه ..

وبعد أن تنتهي جولته اليومية تهدأ الأمور على كل الجبهات . وتكون الهدنة إلا في الدور الذي يحكمه الشاويش (عبد التواب) إذ يظل وحده يذهب ويجيء ليصفع ويشلّت للمساجين النبطشية المكلفين بالنظافة وهو يصيح :

- امنع الساقط ..

إذ يبدو أنه يطمح في أن يرقى لدرجة مأمور .. ولا أقل .. بعد عمر طويل ..

أما بقية الأدوار , فكان الأمر يخف جدًا .. وتمضي عملية النظافة بشكل روتيني غير منتظم تمامًا ؛ وإن ظلت الأسلحة مشرعة جاهزة , فقد يعاود (الباشا) المرور مرة أخرى في نزوة مفاجئة .. فتسوء العواقب .

خاصة إذا عنّ لواحد مثل (رجب الجن) فاضت به الحاجة أو (أشفرت) معه الظروف . فيقرر أن يقوم بانتفاضة احتجاج لابتزاز الإدارة لتحقيق مطلب تافه أو هام .. فيقرر التقدم إليه بشكوى أثناء المرور ..

فتكون الطامة الكبرى , فللشكاوى أصول وطقوس معروفة ... وهو لا يريد لأي شيء مهما كان أن يعكر عليه صفو جولته الطاووسية .

فيأمر غاضبًا بضربه أو يقوم هو نفسه في حركة استعراضية بصفعه , ويحتج رجب مفلتًا نفسه من أيدي السجانة .. منطلقًا في الحوش بعد أن يخلع ملابسه تمامًا .. وتبدأ المطاردة بقيادة المأمور الذي يجد في معركة الإمساك به فرصة للتحرر من ملل الروتين المضجر , ويتطوع للخدمة كل السجانة والشاويشية على مرمى البصر .. ويقفز المساجين إلى الشبابيك

غير مبالين بصيحات (عبد التواب) امنع الساقط اوعى الملاحظ يا مسجون .. ويقف العمل إذ لا أحد يريد أن تقوته الفرجة .. خاصة عندما يسخن العرض .. ويقفز رجب عاريًا إلى خزان المازوت المستخدم لإشعال النار لإدارة البخار الذي يخدم المطبخ والمغسلة والحمام .. ويصبح الإمساك به مغامرة وخيمة العواقب . وهو يجري فالتًا من أيدي المطاردين , كعفريت انطلق من القمقم .. ولا يكتم المساجين ضحكاتهم , بينما يداري السجانة ابتساماتهم الساخرة وأمنياتهم الخفية أن ينتهي المشهد باحتضان (رجب) للمأمور نفسه . ولكنها أمنية لا تتحقق أبدًا .. فهم أنفسهم الذين يصنعون سياتًا حول المأمور كلما اقترب منه (رجب) .. ثم يخيب المأمور نفسه أمل الجميع . ويقطع حبل شهوة الفرجة فيدخل مكتبه في انتظار مثل (رجب) العاري أمام حضرته .. ليوقع عليه العقاب المناسب

كل مرة يتم سيناريو هذه الفرجة بنفس الصياغة دون تغيير إلا في الأدوار الرئيسية , وغالبًا ما تنتهي بعودة (رجب) إلى العنبر نظيفًا ليسكن ززانة التأديب التي لا تعلق عليه أبدًا كما تقضي اللوائح لبدء منها نشاطًا ما , يحتاج للخلوة والسكن الانفرادي .. وكثيرًا ما تنتهي مدة التأديب , إما بعودة البطل العاري إلى ززانته العامة محملاً بما خرج به من غنائم ومكاسب لقربه من زنازين (الملكية) في الدور الأرضي .. أو بتصنيعه في المكاتب والإدارة .. بالقرب من مكان الزيارة واستقبال الإيراد الجديد حيث مناطق التماس مع (السوق الخارجي) . ومراكز النميمة الدائمة تصب في أذن المأمور ونائبه أخبار الأنشطة المريبة داخل العنبر .

نائب المأمور الرائد (الريدي) وقع في بداية عمله في السجن ضحية لرجب فقد حاول أن يظهر جديته في التعامل معه بحزم , فاحتضنه (الجن رجب) حين انسحب المأمور إلى مكتبه مغيرًا تسلسل السيناريو المعتاد وانطلقت الضحكات المكتومة على هيئة آهات من المساجين تجامله وحلت محل ابتسامات السخرية الخفية زغرات انتقام من السجانة تتعاطف معه . لكنهم هروا (رجب) ضربًا على غير رغبتهم بالشوم والخرزان . ثم لُقوا نائب المأمور في بطانية وأخذوه إلى المغسلة لتنظيفه بالبخار ..

بعدها .. وعى (الريدي) الدرس بل هداه الموقف الذي وضعته قلة خبرته فيه إلى اتباع أسلوب عبقرى منع هذا العرض تمامًا .. إذ كان يذهب بنفسه إلى أولئك المحترفين ليعطيهم أدنا مصغية حميمة أو يستدعيهم إلى مكتبه في ود ويريحهم تمامًا .. وإن فعلها بعضهم رغم ذلك , كان يمنع مطاردته تمامًا .. ويأمر الجميع بالانتباه لأعمالهم .. تاركًا المتمرد عاريًا مصبوغًا بالمازوت بلا أي اهتمام حتى يلسعه البرد أو تأكل جلده حرارة الشمس .. ويقول حقي برقبتي ويستسلم تمامًا , فيأمر على الفور بنصب العروسة له وسط الحوش .. ثم يأمر بإخراج كل



المساجين - محكومين وتحقيق - للوقوف في دائرة ليشاهدوا المذكور المصبوغ وهو يُجلد علنًا  
كما ولدته أمه بعد أن يُتلى عليه الحكم الذي تقرره لائحة السجون والقانون لنوبات التمرد هذه .  
فقضي عليها تمامًا ..

كان الريدي - على ما يبدو - تلميذًا بمدرسة جديدة ستحتل مكان مدرسة البطش الفج  
المباشر التي كانت تمارس الحكم في نفس الفترة في أبو زعبل و الواحات .

\*\*\*

• قبل فتح السجن بساعة تقريبًا ، يفتح سجان المكاتب الراديو . أقفز كقرد يتيم زقزقت له أمه إلى رحم البطانية المعلقة بحديد الشباك المطل على الحوش حتى لا تقوتني صورة أغنيات الصباح والجدران تنهار حولي والحجارة تتزاح لأرحل إلى أي مكان إنساني . فأغني مع كروان (أم كلثوم) يا صباح الخير وأسابق حمار (عبد الوهاب) وأناشده أن يجري إلى حيث حبيب الروح مستني . مرة على طريق (تفتيش السرو) ، حيث (نجاة) أو في زحام شارع النزهة أتطلع إلى حيث شباك (زينب) أو أجدني على زراعية (ميت سلسيل) ؛ لأراها تنتظرني مختفية خلف نخلة (ياسين) (مديحة ذات الشعر الأكرت والعيون البرسيم) فتحمي كآبة مبنى المستشفى والإيراد وبيت المأمور وتحملني بانوراما كافورة ترعة (مهذب) وجميزات غيط الخمس وسور المستشفى الياسمين ونخلات (ياسين) حيث (مديحة) تنتظرني بابتسامتها وتلومني لأنني تخليت عنها وسافرت دون أن أودعها.

ثمه عسافير نشطة . لا تكف عن مناكفة بعضها البعض والقفز حول السلك الشائك الممتد فوق السور القبلي وشبابيك حائط المستشفى (يا طير يا طائر خدني معاك وهات لي جناح وانا اطيرو وياك) لأرشف عابرًا قبة (سيدي مجاهد) (ترعة السلطان) وجرن (دار أحمد) والمدرسة إلى بيوت (دار عوض) التي تذوب ملامحها حتى التلاشي في غيامة غرغرة دموعي التي أفضل في حبسها ، إلى أن يغلق السجن البيت الراديو في خشونة . مع بدء موسيقى الغباء الحية ، أصوات السلاسل والمفاتيح المعدنية، مفاصل البوابة ، وكعوب العساكر المهرولة ، فتهرب مشاعري وتسقط ممزقة معي مقرفصة أسفل الجدار في ركن الزنزانة المعتم .

أجدني مرة أخرى تحت ضلمة خيش البطانية في فراغ الزنزانة الضيق يلسعني الجدار البارد في قفائي . وقد انهزمت روحي وفرّت معالم المنظر هاربة أمام فجاجة طابور العساكر الذي يحاول أن ينتظم متحركًا في بلادة مستجيبًا في لا مبالاة لأوامر الصول (مصطفى) التي لا تخيف أحدًا . فلا هم يكفون عن الحركة أو الثثرة إن قال انتباه ولا هم يعيرون (صفا) الضعيفة الباهتة التي تخرج ممطوطة من فمه عاجرة أن تتشكل في أمر له أي معنى . وهو أيضًا لا يبدولهم مهتمًا برد فعلهم أيًا كان . ويظل يواصل إصدار الأوامر وقراءة كشف النبطشية إلى أن ينصرف يائسًا إلى المكاتب ؛ ليعيد كشف التوزيع للضابط ، وحين يتأكد أنه لا ينوي مغادرة مكتبه ليتم على الطابور بنفسه . يشير إليهم من بعيد فيتناثرون كلُّ إلى منطقة نفوذه وسلطاته . بعضهم فرح لأنه أفلت بما يحمله اليوم من حشيش أو نقود مهريّة ، والآخر لأن أحدًا لم يوبخه على ملابسه المفركشة أو ذقنه غير المحلوقة أو على أي علة .

يزحف (غريب) كالبرص نحو (الإيراد) . وقبل أن يفتح باب الحمامات الحديدي يلتقط خرزائه المشهورة من خلفه يتأملها بحب وهو يهزها في الفضاء كأنه يجلد الهواء ليتأكد من فاعليتها .. ثم يضرب بها بنظونه عدة مرات منصتًا لصوتها يطرق مع القماش . فيبتسم ضاربًا المفتاح في خرم الباب محدثًا أكبر ضجة ممكنة ..

ويحجل (محمود سعد) متأنقًا نحو المطبخ يجر خلفه مؤخرة قوية دافعًا كرشه أمامه متربصًا ؛ مستطلعًا نوعية فرائس اليوم وغنائمه بينما يزحف (محمد عبد العال) نحو السور كسحلية مكتتبة تعرف ما سينتظرها أسفل السور من ملل .. فإذا ما اطمأن أن أحدًا لم يحرك حجارة مقاعد الراحة والنوم عن مواقعها المعتادة بعيدًا عن أنظار الإدارة , علت وجهه الكئيب شبه ابتسامة مغتصبة تبتددها نظرات عينيه شبه الحولاء .

يتقافز (عبد الله بولجانين) بخطواته الإبلية و بطوله الملحوظ وهيكله (الجرم) الذي يعطيه بعض الهيبة المخادعة متجهًا إلى العنبر لتسلم أفراد (العمل) أو مساجين الجلسات , أو الترحيلات إذا كنا في صباح الأربعاء .

يتلصص (الشاويش الصياد) متلفتًا قلقًا ليقتنص سيجارة مشتعلة من أحد شبابيك الملكية في الدور الأول , وليتبادل مع بعضهم كلمات غامضة كودية ثم يسرع نحو باب الكانتين . فقد رضى عنه وكيل السجن هذا الشهر ووزعه على خدمة الكانتين بما يعنيه ذلك من فوائد عينية ومادية ؛ مكافأة لأنه كشف له كعادته كلما غضب عليه (تقليتة) أو (صيدة) ممنوعات تافهة لدى أحد تجار المخدرات في العنبر لحساب تاجر آخر , أو طمعًا في زيادة نصيبه في تقليتة أكبر .

أما البقية (أحمد عبد العال) و(عبد المتعال) و(حسن عطية) الفلاح الشرقاوي و(ناصر) كفته و(الشيخ) والعايق (حسن مرسي) فيهرولون كل حَسَب إيقاعه الذي لا يتغير نحو أشغالهم في الورشة أو الحوش أو المكتبة أو المغسلة بينما يكون (عبد التواب) قد أحدث أكبر ضجة ممكنة ليعلو صوته فوق صوت العنبر المتخم بثرثرة الاصطباحة وضجيج النزلاء في الأدوار الأربعة , قبل أن يفتح بوابة العنبر ليفرج عن حرس الليل الذين يخرجون مرهقين نصف نائمين سعداء لإطلاق سراحهم ..

يتكرر هذا المشهد كل صباح . وكنت قد أدمنت متابعته باعتباره حدثًا مختلفًا يصنعه بشر يملكون حريتهم , وكذلك كان الضابط (الريدي) بعد أن تسلم ولاية السجن بالنيابة من الوالي الشرعي المقدم (الدماطي) .. الذي اختفى بلا سبب معلوم , هل نقل ؟ أم مات أم أنهيت خدمته؟ لم نعرف . وتصور كثير من المساجين أن الله استجاب لدعواتهم فأخذه أخذ عزيز مقتدر بصورة ما . وأراحهم عن عنظته وروشة حركاته طول اليوم حيث كان يحلو له أن ينظ من مكتبه على

حين غرة ليتقد الحوش والعنبر أو الفرن بلا أي غاية في اعتقادهم إلا تلك الزفة التي يحدثها الصول مصطفى بالصفارة وصيحة الزاعقة (انتباه) فيتعفرت السجانة لإظهار انضباطهم على قفا المساجين لتأكيد أن الكل منهمك في جدية مفتعلة في الكنس والرش والمسح لتكون جدران وأرضية السجن كالمراية .

في البداية بعد اختفائه سلك (الريدي) نفس النهج , ولكنه زهق فأهمل التفتيش بنفسه على تمام الطابور الذي لا يمكن الاقتناع بإمكانية أن يصبح طابورًا عسكريًا على أي صورة ! فقامات العساكر متفاوتة بشكل ملحوظ , وأكثرهم تخطى عن فكرة الجندية من زمن بعيد فنمت كروشهم أمامهم بطريقة مقرفة ؛ إذ أهملوا فصاروا مهملين كسالي , ألفت سنوات الخدمة الطويلة في أنحاء الجمهورية بهم على شواطئ سجن المنصورة الاحتياطي بعد أن أكلتهم الليمانات والمعقلات وهزمتهم وجردتهم من أي رغبة أو قدرة على الانضباط العسكري . ولم يستطع (الريدي) النفخ في قربة بقاياهم المهترئة فتركهم لحالهم واكتفى بتمام المكتب .. وإرعابهم بقوة جبروته وسطوته بمفاجأتهم في عقر مقل عملهم ونوبات خدمتهم دون صفارة (انتباه) الصول (مصطفى) !

أنا نفسي زهقت من متابعة هذا الحادث الكوميدي في صباحية كل يوم بلا أي جديد .. وأصبحت أتابعه دون أن أصعد للشباك كما كنت أفعل في أيامي الأولى .. وصرت أتخيل أدق التفاصيل وأنا قابع في ركن قاع الزنزانة أحاول أن أستقبل اليوم الجديد وأنا تحت البطانية بين الصحو والنام في انتظار فتح باب الزنزانة فأسرع إلى دورة المياه .

لم يكن في السجانة واحد يشبه الآخر , فلكل منهم طباع وسمات ولأجسامهم عرض وطول ووزن مختلف بدرجة أو بأخرى . ولكل منهم طريقة في المشى لا مثيل لها عند آخر وأحجام رؤوسهم وملامح وجوههم .. طول آذانهم .. حجم أنوفهم .. طريقة حلاقتهم .. طول شواربهم .. حتى علاقة ستراتهم بسرابيلهم تشكلها مساحة كوميديية للاختلاف تتراوح بين درجة ما من الانسجام المفتعل , وبين الهرجلة والتنافر لآخر مدى ..

كان لكل منهم عوايد وأخلاق وطريقة خاصة في نطق الكلام وفي ممارسة السلطة فيما بين القسوة والغشامة والغباء الرحيم . وفي إصدار أو تلقي الأوامر . وصنع هذا بالطبع تفاوتًا كبيرًا في علاقاتهم مع المساجين الذين أطلقوا على كل واحد اسما مرادفًا لاسمه . لا أعرف بالضبط هل كان الاسم من ابتكار سجناء المنصورة أم أنه لاحقهم في رحيلهم بين السجون المختلفة التي كانوا فيها قبل استقرارهم في تلك المستعمرة المسورة المحاصرة في الطرف الجنوبي الشرقي من مدينة المنصورة والتي لا يلاحظها إلا من تعرضت علاقته بالقانون والسلطة لشرح أو جرح أو احتقان استدعى نفيه أو قهره أو تكدير صفو حياته على نحو ما , أما الذين يسرون على

الصراط بلا مشاكل فذلك المبنى الكئيب ذو الزوايا الحادة والألوان الكئيبة لم يكن يلفت نظر أحد منهم إلى أن يكتشف يوماً حقيقة أن حياته ووجوده ليست على هذه الدرجة من الأمان كما يظن .

كان لكل شاوئش منهم نقطة ضعفه الخاصة ، وكانت لكلٍ حكاياته بل وفضائحه المختلفة أيضًا . كان غريب يدعونه (البرص باشا) هزيل الجسم نحيفًا نحيلًا لذلك كان أكثرهم ضجيجًا ، له صوت مزعج عالٍ دائمًا بمجرد أن يغادر مبنى الإدارة يسبقه صوته معلنًا عن وجوده . وكأنه يخشى ألا يلاحظه من يراه ولذلك كانت الخززانة لا تفارق يده .. خززانه طويلة يحملها كأنها تستند عليه وليس هو الذي يتوكأ عليها .. تسبقه دائمًا إلى أي جسد يقابله أو يقترب منه من المساجين . وهي تفرق دائمًا بين المحكوم عليهم وبين الذين مازلوا تحت التحقيق ، بل وتستطيع أن تفرق بين المعلمين والسوابق وكاسري الحديد ، وبين الكاركئية المحكومين للمرة الأولى .. كما أنها تحذر بشدة من لمس (الملكية) تحت التحقيق إلا على سبيل المزاح أما غيرهم فلها أحاديث أكثر حدة تتراوح بين اللسع الشديد العالي النبرة والهمس الصامت المرتبك المبتور .. وكانت سمعته معروفة حتى لدى الإدارة أنه يقوم بمهام عديدة وخدمات متنوعة لحساب من يطلب لقاء مقابل يختلف حسب طبيعة المهمة وخطورتها . ورغم ذلك لم أسمع أنه عوقب على مخالفة طوال مدة وجودي .

كانت علاقتنا ملتبسة في البداية ؛ إذ كان يتوخى الحذر ويتجنب الاحتكاك بنا أو الاقتراب ؛ حتى بدأت أنا في الحديث إليه ذات يوم جمعة وكانت صدفة حين كلف بالدور الثاني حيث أقيم بعد أسبوع في خدمة غفر الليل . لم يحاول طواله أن يقترب من الربع الذي به زنزاناتنا ولم يطفئ النور علينا .. وحفظت له هذا الجميل الذي حدث فقط لأنه في الحقيقة تجنب خطورة الاقتراب منا .. يومها عزمته على كوب شاي ، فوجئ بدعوتي وظن أنني أجر رجله كي أكلفه بمهمة ما وهياً نفسه - كما صارحني فيما بعد - للرفض لأن فكرته عما يمكن أن يحدث له إثر كشف تعامله معنا كانت عن خبرة طويلة لسنين حبس مع الشيوعيين في (قره ميدان) و(طره) . لكنني يومها لم أطلب منه شيئاً سوى التعرف عليه وإشباع فضولي لمعرفة سر قسوته المبالغ فيها وميله الدائم للأذية ، ففتح قلبه لي واكتشفت من اللحظة الأولى أنه أضعف من ريشة يمامة وأغلب من الغلب .. (ومن يومها صارت له زيارة أسبوعية لزنزانتني .. لأدس في كفه (الشلن) الورق الذي صار راتباً عرفياً له كل أسبوع واعتبره هو حقاً له لا محيص عنه ..

في لحظة ضعف إنسانية .. اعترف لي أنه (ولا حاجة) وأنه يحدث كل ذلك الضجيج دفاعاً عن النفس ولكي يرسم لنفسه صورة في أذهان المساجين مبالغ فيها ، يختفي خلفها ، بدونها سيضره أحقرهم بالجزمة . إنه يعرف الاسم الذي أطلقوه عليه .. ولكنهم بسبب سلوكه هذا

وصورته في عيونهم ، يدفعون له ويتقون شره وبغيرها ما كان يحصل منهم أو مني طبعًا على شيء .. (أنا ماهيتي سبعة جنيه يا أستاذ سمير .. أنا خريج الملجأ لا أهل ولا قرايب ولا نسب ولا ناس .. ولولا الشلن ده وغيره كانت مراتي سرحت في الشوارع أو خدمت في بيوت التلاميذ وانت عارف بقي !).

احترمت صراحته وظلت علاقتنا على هذا المستوى فلم أطلب منه أي خدمة في مقابل الشلن الأسبوعي إلا خدمة ترك النور مضاء ، هذا إذا كانت عنده خدمة ليل في العنبر ، وهي خدمة فعلها من نفسه منذ البداية ليلة فضل ألا يقترب من (الربع) الذي فيه ززانتني .

(الشاويش محمد الصياد) كان صورة مناقضة لـ(غريب) هو يشبهه من حيث الهزال والنحافة لكنه كان أطول منه بمرتين .. وكان بنيان عضمه أعرض وكأنه (غريبان) رُكِّبًا فوق بعضهما البعض . ولم يكن يستعمل خرزانة ما فقد كانت إيدته أطول من أن تحتاج لإضافة .. كان كفه يسبق لسانه إذا ما تعامل مع سجين كاركي أو هفية .. لكن علاقاته مع (العمد) -محكومين أو ملكية - كانت علاقة عضوية مبنية على مصالح واضحة ودائمة : لكنها كانت علاقة متوترة مع السوابق ومع المساجين الذين يبنون مكانتهم في السجن بأيديهم أو بمجهودهم أو بعلاقتهم بالضباط . كان يخشى أن يشي أحدهم دون إنذار مسبق بأي صفقة أو تقليته من باب إغاظته أو الانتقام منه لا لشيء إلا كسر شوكته أو لإخراجه من المنافسة أو إخراجة .. فكان حريصًا على أن يجاملهم بل وأحيانًا يرشوهم ليأمن شرهم .. فقرصة أضعفهم لو حدثت ستكون مدمرة لمصالحه .

في بداية الحبسة كنت وزميلاي (أحمد وعبد الحميد) مازلنا نتلمس حدود وجودنا في السجن ، وكانت علاقتنا مازالت محدودة إلا ببعض السجانة مثل عم (حسن عطية) وعم (فايد) ترمجي المستشفى الذي تعرف هو علينا حين طلبنا تحويلنا إلى العيادة الطبية لأول مرة بناء على نصيحة صديق لنحصل إن أمكن على غذاء طبي حسب اللائحة .. فاستقبلنا هاشًا بأشًا بابتسامة صارعت ملامح وجهه العجوز التي كدَّرها طول العمل في مستشفيات السجون ..

- أهلاً بالبروتاريا .. إنتو بقي (حدثو والامشمش والانحشم)

وفاجأتنا معرفته تلك الرموز ولفتت نظري فأمسكت بطرف الخيط وداعبته :

- الله .. دانت حضرتك مذاكر اهه ..

فسخر مني قائلاً ..

- مذاكر؟؟ إنت اللي تلميذ .. أنا بقي لي يا اولاد أربعين سنة خدمة مع زعماءكم .. لفيت

سجون مصر ومعتقلاتها لما اتهرت .

عدت أقتل معه حبل التودد وغازلت الجانب الذي حرضه على الابتسام مرحبًا بنا ؛ الجانب الذي دجنته بالتأكيد سنوات من التعامل مع الشيوعيين والكامن تحت ملامحه الكئيبة فضاحكته:  
- وما طلعتش إفراج أبدًا في الأربعين سنة دول؟

ضاحكًا مدشنًا صداقة تضاف إلى سجل حافل له كشف عنه في بساطة :  
- أنا يا ابني حضرت إضراب (أنطوان مارون) الله يرحمه و حضرت موته في السجن .. يا سلام ..

عقدت الدهشة لسان (أحمد) و (عبد الحميد) وبادلاني النظر وقد شجع حب الاستطلاع الرجل ليكمل :

- بإيدي دي كنت باهرب له لبن من وراهم عشان يستمر في الإضراب . و حضرت (شهدي) في ليمان طره , يوووه .. ياللا انت وهو عشان الدكتور يكتب لكو على بيض ولبن .. مش كل كلم طبعًا .. (أحمد) باين عليه صحته حلوة .. ضروري انتو طبعًا عاملين حياة عامة .. أكيد ياللا يا شيوعية ياللا .. ياللا ..  
ومضى هو حتى لا يلاحظ أحد طول وقوفه معنا وتركنا بجوار جدار الإيراد حتى يأتي شاويش الخدمة الذي صحبنا للمستشفى لاستلامنا .

كانت شمس الشتاء حنونة غمرنا حنانها ودفؤها وتمنينا أن يطول غياب من سيصبحنا للعنبر . وفجأة .. هبط كف قاس متعمدًا الخسونة على قفاي فققرت صارخًا والتفت متعلقًا ممسكًا بخناق من فعلها وأنا أسب وألعن وأحتج زاعقًا .. بينما تحفز (أحمد) و (عبد الحميد) للدفاع عني وتوقّي أن ينالهما مثلي . واندفعنا ليحولنا دون تكرار ما وقع مجتمعين على ذلك .. وأمسك بي (أحمد) يبعديني بينما اندفع (عبد الحميد) ليحول بين الشاويش (الصيد) وبيني . ولفت الضجيج الذي حدث فجأة وصياحي الغاضب والشتائم كل من كان بالحوش من المساجين . وفوجئنا بالرائد (عبد العظيم الريدي) يخرج من فرجة المكاتب ويقف في غضب متسائلًا عما حدث . واندفعت نحوه أحتج على ما فعله الشاويش (الصيد) .. فقال في حزم وهو يستوعب احتجائي ..

- طب وطي صوتك . وما ترعقش .. فيه إيه يا صياد ؟

ضربته ليه ؟

وتقدم الصياد يحيي الضابط محاولاً إخفاء اضطراب شديد بدا عليه واضحًا . فقد كان متأكدًا أن (الريدي) يتمنى له غلطة - أي غلطة - توقعه تحت رحمته :  
- يا افندم .. أنا لقيتهم واقفين في الحوش من غير سجان ..  
- تقوم تضربهم ؟ ..

- يا افندم ما ضربتوش دانا كنت باسأله همه هنا ليه ومين سجانهم ؟

هز (الريدي) رأسه ودون أن ينظر إليّ صاح :

- يا صول (مصطفى) , رجعم العنبر .. وانت ياصياد دَوّر نفسك مكتب دلوقت حالاً .  
واندفع عائداً إلى مكتبه ..

طيّب الصول (مصطفى) خاطري وخاطر رفيقي , وقادنا نحو العنبر وهو يسألنا إن كان شيء ما بيننا وبين (الصيد) جعله يتناول علينا . ولما نفيت ذلك بشدة قال :  
- هو كده طويلة إيده .. لكن معلش يا شيوعي .. المسامح كريم .. انت وقعت ف إيده صدفة .. لكن البيه أكيد ح يكذّره .. مش عشان خاطرك قوي .. هو بيتلكك له .  
حبس (البيه) الشاويش (الصيد) يومها بدلاً من أحد نبطشية غفر الليل في العنبر .. ليكذّره عقاباً على أشياء يحفظها له .. لكن صديقي (رجب الجن) ليلتها كذّر (الصيد) تكديرة أطارت النوم من عينه طوال الليل فقد منع عنه الشاي .. وسلخه بنداء (العنبر) أكثر من مرة , وهو ينهيها بقوله :

- نعرفكم يا إخوان .. أن الشاويش (محمد الصيد) عايز يروّح لأووئمه ؟

ويرد عليه العنبر كله بصوت واحد جهوري منتقم :

- كيبّي أوووئمه !!

• (محمد عبد العال) , (أحمد عبد العال) , (أحمد عبد المتعال) ثلاث شاويشية يجسدون ما بين عساكر السجن أو سجانته من تناقض واختلاف فاضح مع أن كلهم من بلدة واحدة , عزبة من عزب ريف المنوفية لكن المتأمل لهيئاتهم وملامحهم لا يمكن أن يقتنع أنهم أبناء شعب واحد .. كان الشاويش (محمد عبد العال) في نفس طول الشاويش (غريب) لولا أن الجزء العلوي من سلسلة ظهره مركب فوق الجزء الأسفل بالعرض .. لدرجة أنه لا يمكن أن يرى أحد هيئته لأول مرة ولا يرفع حاجبه على الآخر دهشة . وإن لم يتأكد أحد أبداً من سر هذه الدهشة . إنه غريب وبس . فإذا ما تأملت رأسه الذي هو في حجم يكاد يكون بنسبة حجم ما بين كتفيه , فاجأتك عيناه غير المتناسقتين كبقية البشر .. فأحدهما مزرورة دائماً في إغماضة توحى بشكّه الدائم في كل ما يجري حوله من أحداث وما يدور أمامه من حركة لدرجة تؤكّد أنه في كل خطوة سيصطدم فجأة بمن يقبل عليه أو يقترب هو منه , جداراً كان أو بشراً , مما يجعلك , ويجعل كل من يتعامل معه متأكداً أن عينه الأخرى الشمال المفتوحة على الآخر لا فائدة منها , ويبدو أن ذلك هو ما يجعلك تظن أن ذلك هو الذي يجعله يمضي للأمام وراء كتفه اليمنى المندفعة ساحبة خلفها بقية جسمه بصعوبة .



قبل أن يُنقل إلى سجين المنصورة . كانوا من زمن بعيد يكتفون بتكليفه أعمالاً خفيفة ..  
كأن يأخذنا واحدًا بعد الآخر إلى الشمس في جانب من الحوش حيث يترك المسجون منا  
يدور في مربع مشمس بعيدًا خلف المكتبة ليتخذ لنفسه حجرًا يقتعده وينام ..  
في البداية كان يصحبنا واحدًا بعد الآخر .. تحت تأثير الأوامر المشددة التي تمنع  
اختلاط المتهمين في قضية واحدة . ولما لم يحدث شيء يوحى بالخطورة أصبح يختصر  
الوقت ويأخذ ثلاثتنا جملة - بعد أن أُفرج عن رابعنا (معين) (لأسباب طبية) وعجزنا عن  
إقناعه أن يمد لنا وقت الطابور قليلًا - أكثر من النصف ساعة المقررة لكل واحد منا .  
فكان يرفض المناقشة فهو لم يتعود أن يفكر إلا فيما استقر في يقينه أو فيما يصدر إليه من  
أوامر ..

- يا سلام .. كلو بعقلي حلاوة .. هيئه نص ساعة يعني نص ساعة .  
كان يناديني (موريس) - يا مريس - وكنت متأكدًا أنه لا يعني ولا يقصد قلب الاسم  
لأي هدف وإنما هي قدرته العاجزة عن نطق الميم بعد السين , لما في ذلك من جهد يتطلبه  
ضم شفثيه بعد أن فتحها بالميم أولاً دون تفكير , وارتضيت أنا الاسم بكل ما يوحى به من  
اختلاف .

وكان (أحمد عبد العال) على عكسه تمامًا , لا تستطيع ببساطة أن تعرف كيف رُكِّب  
عموده الفقري بالطول كاملاً أم نص بالطول ونص بالعرض مثل سميّه  
(محمد) . فالنظرة إليه لا توحى إلا بأنه لا يملك عمودًا فقريًا أصلاً إذ تكاد ساقاه القصيرتان  
تخرجان من بقية جرمه المربع مباشرة إلى الأرض متشبثتين به في خطوات قصيرة تجاهد  
لحفظ توازنه مستقيمًا لا يسقط بسبب ثقله وحجمه يمينًا أو شمالاً . وتكاد تظن أن إحدى  
ساقيه لو تأخرت للحظة خاطفة عن الانتقال في توقيتها المقدر تمامًا لانكفأ على وجهه  
لاندفاعه - وراء رأسه الممدود دائمًا على رقبة لا تكاد تُرى - إلى الأمام خلف شفثين  
مزومتين باستمرار لا تتفرجان بالحديث إلا في النادر , فوقهما شارب مبروم من الناحيتين ,  
كسهمين رفيعين صليبين يشقان الفراغ ليفسحا الطريق أمام هيكله المنشئ ..

لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة . ومع ذلك كان الوحيد بعد الصول  
(مصطفى) الذي يحمل ثلاثة أشرطة كاملة .. وسط كل هؤلاء السجانة الذين نطلق عليهم  
هكذا دون مراعاة لمراتبهم (شاويشية) . وهم ليسوا كذلك فأذرعهم كلهم خالية من أي شرائط  
إلا من شريطين اثنين يحملهما كل من (عبد التواب) و(حسن عطية) والعايق (حسن  
مرسي) ، وكان الشاويش بجد (أحمد عبد العال) يفاخرني بأنه خدم مع (النجومي باشا)  
عندما كان قائدًا ورئيسًا لمصلحة السجون الملكية , وأنه هو الذي أعطاه ترقية استثنائية لأنه  
كان في شبابه حاجة ثانية !!

- غيرشي الزمن هو اللي متقلب .

والحقيقة أن عدم معرفته القراءة والكتابة فرضت عليه أن يتخذ مني سكرتيرًا خاصًا ومدرسًا  
- بعد ترحيل (أحمد) و(عبد الحميد) إلى (عزب الفيوم) وترحيل مساجين الإخوان الثلاثة  
الذين كانوا يشاركون أربعتنا الربع الرابع من الدور الثاني الذي يُعتبر المطهر أو البرزخ الذي  
لا بد أن يعبره الإيراد إلى حياة السجن - حيث يقضي المساجين الجدد مدة الاختبار فيه -  
قبل أن يوزعوا على بقية الأدوار حسب تخصصاتهم .. كما أنه الدور الذي يقضي فيه  
المساجين (تحت الملاحظة) المرضية مدة عزلهم قبل شفائهم أو نقلهم إلى المستشفى حسب  
ما يرى الدكتور ..

وكان هذا يقتضي عملاً مكتبيًا معقدًا اضطره لاكتشاف قدرتي على تصريفه بجدارة من  
يستطيع أن يستر جهله القراءة والكتابة . ولا أدري من الذي دلّه إلى ذلك ، فلست أذكر إلا  
أن الظروف حكمت أن يتأخر عن استلام الدور عقابًا له ذات أسبوع . وجاء عم (حسن  
عطية) لتصريف الأمور مؤقتًا فاستعان بي لفرز التذاكر . ولما حضر هو بعد (دش بستقة)  
ميري ولوم قارص من المأمور ، وجد كل شيء تمام .. فأثر الاحتفاظ بي بناء على توصية  
عم (حسن عطية) ومن يومها .. صرت سكرتيه الخاص ثم مدرسه الخصوصي حين أراد  
اجتياز امتحان الحساب والقراءة والكتابة لترقية أعلن عنها .

لما مر الأسبوع الأول بنجاح منقطع النظير .. أصبح يفعل كل ما يمكنه لكي يتم توزيعه  
على الدور الثاني من العنبر ، سواء بمحايلة الصول أو بالمبادلة مع زملائه مما أعطاني  
فرصة كبيرة خاصة بعد رحيل الإخوان الثلاثة وترحيل زميلي .

صرنا صديقين جمعت بيننا الحاجة المشتركة والضرورة التاريخية . فكما وفرت له كل  
التسهيلات لتيسير العمل في الدور المعقد والمتغير كل يوم بل وكل ساعة .. وقُر هو لي حرية  
حركة لا حدود لها ، وأعطاني فرصة لا مثيل لها في الاحتكاك بالمساجين الجدد والقدامى ..  
والغوص في سراديب الحياة في قاع السجن بكل ما فيها من تفاصيل وتنوع وتقرود وشذوذ وقذارة  
وإنسانية وسماحة .

شيء واحد فشلت فيه فشلاً ذريعًا .. هو أن أضيف إلى كفاءة يده القدرة على كتابة كلمة  
أخرى إلى ما كانت تستطيعه ؛ بل إنني فشلت في تحسين قدرته على تحسين كتابة حروف اسمه  
ليكون توقيعه مقروءًا . أما في الحساب فقد عجزت عن فتح مغاليق أفعال عقله التي طمسها  
الصدأ المتراكم منذ الباشا (النجمي)!!

حدث أن أرهقت نفسي طوال عدة أسابيع في شرح معنى الكسور العشرية والفرق بينها وبين الكسور الاعتيادية .. وكنت أحاول - مستخدماً كل خبرات ورثتها عن أبي المدرس الإلزمي وكل ما تعلمته على يدي الشيخ (علي مسعود) والأستاذ (شاكر) - أن أشرح له كيف توحد مقامات الكسور في جمع الكسور الاعتيادية .. وكيف تفعل ذلك بين (3/1) و (5/1) بعشرات الأمثلة . ضربتها وطرحتها وجمعتها لأصل به إلى معنى (15/ 1) كمقام موحد .. وأبدى فهمًا لا يليق به !.. فسألته (ماذا تفعل لكي تصبح الـ(3) والـ(5) - (15) .. ففكر طويلاً طويلاً فقلت لمساعدته :  
هه ماذا فعلنا بالخمسة لتصبح (خمسة عشر)؟؟ أضاء وجهه لهيب الاكتشاف وقال : حطينا جنبها واحد !

أحمد عبد المتعال سميئهما الثالث كان أكثر ذكاء منهما بقليل ، كان يتقن جمع الكسور الاعتيادية ويوقع باسمه في فورمة وثيقة ! قصدني ليدخل الامتحان نفسه . لم يكن يملك أي شرائط سوى شريط يتيم واحد بعد أن انتزع منه شريطان حصل عليهما بعد لأي في لحظة عابرة ؛ إذ ظبطه قائد سجن (طنطا) وهو يلغ في قروانة لحمه حمرا تزن أكثر من كيلو جرامين كاملين وهو مستخف في ركن حجرة البخار المجاورة للمطبخ الذي كان مكلفاً به منذ عامين ، نتيجة لمؤامرة دبرها أحد مساجين المطبخ السوابق الذي طهق من سوء معاملته له رغم خبرته وأقدميته ، فاتفق مع الطباخ المدني المشرف على المطبخ للتخلص منه بترتيب ضبطه متلبساً . وكان أن نُزعت منه مسئولية المطبخ ونُزع معها الشريطان الغاليان . لكن هذا المقلب لم يؤثر على طبعه ولا حدًّا من جشع بطنه الذي أوردته موارد التهلكة وأفقدته رتبة صعبة المنال ، حصل عليها من بين أنياب كلب مسعور .

كان قوامه على عكسهما ممشوقاً يوحي بسمات جنديّة رياضية بليت بسبب النهم المتزايد الذي ألصق - مع دورة الأيام والطعام - بهذا العود الفارع الممشوق كرة ضخمة بمثابة كرش هائل شديد الحضور ، يتقدمه نافرًا بفجاجة لا تتناسب على الإطلاق مع عوده الخرزاني الفارع . ولم يعد ينفذ معها الحد من نموه بأي حزام ميري فأعفي من ذلك ليصبح السجان الوحيد الذي تنسدل سترته فوق كرشه الشاذ كتندة غرزة إحدى حارات عابدين .

لم تكن تراه في أي وقت إلا آكلًا أو ماضعًا أو منظرًا أسنانه بعود قش أو متلمظًا يفتش في كل زانزاتة شم بها رائحة شهية .. حذره كثيرون أن خُرمانية أكل المساجين تزيد بعدة درجات عن أي طعام آخر ؛ لأنهم أسرى ومنزوعو الإرادة ونصيبيهم مهما كبر أو كثر فهو منظور . ولذا فحرامه مسموم . وآخرون نصحوه أن يذهب لطبيب إذ لا بد هناك شيء ما شيطاني يسكن بطنه .. وقيل إنه في (قرّة ميدان) أخرج الطبيب من جوفه بعد أن أعطاه شربة مضاعفة دودة شريطية طولها أكثر من سبعة أمتار لكن ذلك لم يقلل من شهوته ولم يبطن من نمو كرشه المتزايد ..

الغريب أنه لم يكن مهتمًا بكل ذلك , فاهتمامه الوحيد كان منصبًا على متابعة مهمته التاريخية في طحن ومضغ كل ما تلقىه الظروف أمامه من أطعمة ذات نكهة مميزة أو عادية أو طعم راقٍ أو سوقي . ومن هنا أطلق عليه المساجين اسم (ناصر كفتة) ويبدو أن (ناصر) هذه جاءت من فكرة النص بالنص .

ذات (يوم الجمعة) تسلم مسئولية دور (2) . بعد أسبوع في غفر الليل .. وبعد أن فتح زنزانتي أطل برأسه خلف الباب حيث المخلة التي أخرج فيها طعامي الجاف .. فناولته منها كوز حلاوة طحينية ليغير ريقه .. وفي يوم الجمعة لا تكون هناك حالات إدارية ملحة فأعفيت نفسي من خلقته والتزمت الزنزانة , ويوم الجمعة وخاصة عندما يكون الضابط (ميخائيل) هو الذي فتح السجن في الصباح يصبح يوم للمساجين - يوم فرح ورخاء إذ يرتب معظمهم بحنكة زيارات متخمة بأجود الأطعمة ؛ إذ إن الضابط (ميخائيل) كان كثيرًا أودائمًا ما يتغاضى عن شرعية تلك الزيارات , وعن كمياتها . وبينما أنا مستلقٍ أقرأ في هدوء جاءني المسجون النبطشي صارخًا (الحق الشاويش عبد المتعال بيوموت ..) (ناصر كفته بيوموت يا جدعان مش نص نص) .

أسرعت أشق طريقي وسط جمع المساجين المتزاحم للفرجة على الغرفة الإدارية الخاصة بالمخزن , كان اثنان من المساجين يمسان بجسد (عبد المتعال) الفائق الذي كان يرتعد ويرتعش كعود درة في ريح شتاء وهو يواصل التقيؤ بعصبية وألم في حوض الغسيل الذي ازدحم بقطع دامية تشبه كبد خروف فرمته سكين غشيمة .. كان وجهه كليمونة معصورة وآهات أمعائه تصرخ مستتجة .. أحدهم قال (إنه يتقيأ كبذته) .. وآخر قال (في الحوض أكثر من طن بلاوي) وثالث - أنبّه بشدة (طب ! امضغ وعلى مهلك) .. وأسرع بعضهم يستتجد ببقية السجانة وجاء الضابط (ميخائيل) مسرعًا ملهوفًا . وكان يكره بشدة حدوث أي مشاكل أو حوادث أو اضطرابات إبان فترة حكمه التي تتميز دائمًا بهدوء وسلام شاملين ..

نقل الشاويش عبد المتعال إلى المستشفى , حمله بعض المساجين واستدعي الطبيب على عجل .. وأطلق خرطوم الحريق على غرفة المخزن للتخلص من بقايا (عبد المتعال) التي خرج كل مساجين الأدوار الأربعة يتفرجون عليها ويطلقون عليه وعليها النكات . ويصفون ما كان أمامه من طعام وفير جمعه من زنازين الملكية وما انتزعه من زيارات السوابق في الأدوار العليا كضريبة عبور أمام مكتبه ؛ ليلتهب في إحشائه ويعكر صفو هدوء يوم الجمعة في ظل الضابط (ميخائيل) !

أقسم (رجب الجن) أن (عبد المتعال) لا يمكن أن يتقيأ ولو أكل كلبًا ميتًا , لكنه تقيأ في البداية عامدًا متعمدًا ليفرغ بطنه ؛ كي يعيد شحنها .. لكن العيار غصبًا عنه أفلت منه ليكشف ستره ويفضحه .

\*\*\*

- فتح الشاويش (عبد الله بولجانين) باب العنبر بمفتاح الصول (مصطفى) محدثاً ضجة كبيرة تعلن عن قدومه للكافة .. ثم أغلقه محدثاً ضجة أكبر أفلقت منام المساجين الذين يمكنهم النوم في فترة القيالة , وخاصة الملكية سكان أول دور .

شد طرفي جاكنته الميري التي لا تناسب طوله من خلف . ووقف مباعداً ما بين ساقيه  
الطويلتين الممثلتين وزعق مكوراً كفه أمام فمه كمن لا يريد أن يسمعه أحد :  
- يا شيوعي .. شيوعي ..

منغمة من فمه بطريقته الخاصة . يضم شفثيه صانعاً منهما - كما يشرح حين تسأله -  
(طيظ وزه) عوجة إلى جانب وجهه الأيسر بينما الكف الضخمة كبوق نحاس ..

اتنفضت من نومي في لهفة .. كانت الكلمات (الشينية) كلها تصنع في هذه الانتقضة إذ  
كنت أظن مع أي منها أن أحداً ينادي عليّ , فينكسر إيقاع الزمن بجلسة أو خطاب أو  
استدعاء , لذلك قفزت في عجلة متجنباً طبق العسل الذي كنت قد تركته نصف ممتلئ وكسلت  
أن أدفعه إلى جانب الحيط خلف الباب .. كانت تراودني رغبة في النوم أو كادت .. لذا كدت  
أكسر ركبتي لعدم تقديري المسافة بين يدي وبين حديد القضبان أعلى باب الزنزانة الذي  
أستخدمه لرفع جسمي لأطل على فراغ العنبر ..

تحملت ما سببته سقطتي من ألم خفف منه أنه كان نداءً حقيقياً حملته آمالاً كبيرة أن يكون  
وراءه ما يكسر رتابة خمسة شهور من الحبس الاحتياطي الانفرادي ..

تشبثت بالحديد وثبْتُ نفسي بين كتفي الباب بواسطة ظهري وقدمي في حرفية ، بينما ألصقت  
وجهي بالحديد البارد محاولاً توسيع مجال الرؤية لأصل إلى حيث يقف (بولجانين) في بطن  
العنبر . وطردت إحساس خيبة الأمل . فلم يكن معه أية أوراق يحملها من التي يستدعون  
المساجين بها عادة لأمر رسمي ..

- عايز إيه يا شاويش عبد الله ..

زيّف على وجهه نظرة جادة صارمة وقال في همس حازم :

- إيه - ليا - بان ؟

قلت وقد خاب ظني تماماً وكدت ألعنه ..

- إيه ؟!

- بان بااان - إليا بااان - إن فرنش

في سري لعنت سلسفيل اليوم اللي حذفه عليّ . بعد أن خاب رجائي تماماً .. وقلت في غيظ

:

- أصل أنا ثقافتي فلاحى مش زيك يا مسييه بولجانين .. بتقول إيه ؟

ابتسم ساخراً في تودد وقد فهم أنني زعلان :

- بريد - يا فلاح .. بريد - برد - خبز .. عندك خبز ؟

لم تكن المرة الأولى التي يطلب فيها خبزاً لإفطاره . ففي هذا الوقت لا يكون الفرن قد بدأ بعد ، وكل الخبز المتاح يكون بائناً كما أن المتاح أجهزت عليه وردية غفر الليل - ولم يكن يحب التطفل على الملكية إلا قليلاً - خمنت أنه بات في السجن محبوساً لأمر ما .

كان كثير من السجانة يلجأون إليّ للحصول على خبز للإفطار . ولذا تعودت على تخزين ما يكفي لهذه الطوارئ وقد أصبحت أعرف أسرار السجن لطول المدة وتراكم الخبرة فاليوم ليس يوم جمعة ليذهب بعد غفر الليل إلى بيته .. ولا بد أنه سجن أو حُجز لذنب جناه , ولذا جاء يتسول خبزاً بالللاتينية .. تركت نفسي أنزلق مقاوماً شعوري بالإحباط والغضب وأنا أهمس :

- الله يخرب بيت أهلك على الصبح يا بولجانين .

نبهني صياحه مرة أخرى أنني لم أشف غليله ورآني أنزل من الفراندة واختفى خلف الباب فصاح :

- إيه يا شيوعي - إليا - بالان !؟

فأجبت بصبر نافذ ..

- اطلع شرف .. افطر يا مسييه .

وعدت إلى حيث كنت على طرف النمرة . وأعدت فرش القميص الأبيض الذي أستخدمه كمائدة طعام , وتذكرت أن لديّ ضيفاً فقمتم إلى الكيس القماش خلف الباب وأنزلته وأخرجت منه قطعة كبيرة من الحلاوة الطحينية وبصلة متوسطة وحبّتي بندورة . ومن الكوز أفرغت قليلاً من العسل في الطبق وعدت أتعلق على الباب أتابع (بولجانين) وهو يسرع في نشاط ناحية السلم ليرتقيه قفزاً مستعياً بالدرابزين وهو لا يكف عن جذب أطراف جاكته من الخلف في اعتداد الجنرالات ، ولف .. في حركة عسكرية متجهاً إلى حيث أقطن في الربع الرابع من الدور الثاني .. سمعته يشخط في أول سكان الربع (أحمد الشرمبيلي) الذي كان لا بد متعلّماً بالحديد ليتسول سيجارة أو ينتظر مرور أحد ليقوم له بمهمة ما :

- انزل يا مسجون ..

- كبريت يا شاويش عبدالله

- ممنوع يا مسجون .

قالها في لهجة صارمة حادة وأنا متأكد أنه سيعطيه الكبريت , ومعه السيجارة التي ترقد فوق أذنه اليسرى حتى وإن لم يكن يملك غيرها للاصطباحة .. وهو يعدل من قامته وخطوته قادماً إلى ززانتي يدق البلاط بحذائه الضخم في كبرياء المتسول الميري ..

أقعى على ركبة ونصف بعد أن شمر ساقى بنطلونه إلى أعلى قليلاً .. لم يكن رغم طول ساقيه يستطيع الجلوس القرفصاء ولا أن يربيع ساقيه كما يفعل كل المصريين .

- ولا أقدر أخط رجل على رجل .. دا طول على الفاضي .. الطول الحقيقي اللي يمكّن صاحبه من الجلوس في قلاطة .

كنت أنصت لأقواله وحكاياته بكل اهتمام فقد كان نبع حكايات وقصص .. وحكمة أيضًا .

- إنما إيه بيتك الليلة في السجن ؟

أجاب وهو يلوك ريع رغيف جعل منه (ودن أرنب) وغاص به في طبق العسل بالطحينة قبل أن يدفع به مرة واحدة إلى فمه .

- المأمور الحمار .. فاكر نفسه ح ييلفني .. ويصالحني على (أحمد عبد العال) .. لكن أنا رفضت وقلت له .. والله لو يكون (همرشيلد) ..

دهشت لسرعة الدخول في السياسة العالمية . وكانت تلك عادته كلما بدأ حديثنا حتى ولو كان حول السريس ..

- الله .. الله .. دانت الليلة بقى مسجون سياسي ..

- يحشر نفسه في القضايا دي ليه ؟ . دول نسوان مع بعض .. وهو ماله ؟

- قضايا إيه ونسوان إيه ؟ .. هات م الأول !!

- يا سيدي إحنا الثلاثة بنسوانا ساكنين مع بعض في شقة منيلة ثلاث أوض تحت السلم .. (الصيد) ومراته و(عبد العال) والكوديانة بتاعته .. وأنا ومراتي .. كل سجان في أودة .. أوسع شبرين عن الزنزانة بتاعتك دي .. ودورة ميه مشتركة ريحتها تقرف م التلات نسوان .. عمرى ما دخلتها . أنا بأخلص نفسي أول بأول هنا في السجن أنصف ..

إوعى تفكر أن السجان مننا يعني ياما هنا .. ياما هناك . دا احنا آخر غُلب .. ثلاث سجانة ونسوانهم في شبر ونص لازم تحصل مشاكل .. وانت عارف النسوان لازم لها تتشاكل تحل عقدها .. وخصوصًا اللي جوزها مش على مقاسها .. مرات (عبد العال) بقى ما بتبطلش زن .. وبتغير من مراتي .. عشان كافية خيرها شرها .. لأنني مكفيتها وكل يوم تستحمى .. اتخانقوا وضربوا بعض .. رجعت .. اشتكت لي ضربتهم لاتنين .. راح عمل محضر في القسم .. المأمور اللي هناك .. قال لك .. عيب دول رجالة دولة برضه فكلم المأمور بتاعنا .. عشان يحل الأمر وديًا ودبلوماسيًا يعني .. فامبارح الصبح استدعانا .. ومن غير لا سين ولا جيم .. نزل بستقة فينا .. فأنا قلت له .. يا سعادة البيه (فيتو!) قال لي نعم؟! .. قلت (فيتو) . حقي .. دي أمور لا علاقة لها بالعمل .. فهاج وثار .. وقال لي أنا باتدخل عشان ما تقضحوناش في الداخلية .. لازم تتصالحوا. واعتذر لزميلك ياللاً .. فانا خدنتي العزة بالجسم وخصوصًا ان (عبد العال) كان كمشان في قصره ومتذلل .. وقلت له .. لا . يا سعادة الباشا لا والله ولو كان (هيمرشيلد) ذات نفسه !!



- ضحكت من القلب وأنا أتخيله يرفع حاجبه ويستحضر كل إمكانيات ثقافته السياسية .. ويلقي بالجملة في عظمة وزير خارجية دولة كبرى ..
- شفت أمه انت ضحكت اهه . إيه اللي زعّله هوّ بقى .. وسكّني يومين حجز .. ما أروّحش , يومين عشان لساني طبعًا .. هو ما يعرفش ان ده أريح لي من وجع الدماغ بالعكس صعب عليّ . (عبد العال) وهو مروّح .. قال لي مراتي غلطانه لكم يا (عبد الله) .. واطمّين ح أخلي مراتي تبوس راسها .. إيه رأيك بقى ؟ يبقى مش السجن أجدع ..
- والله انت اللي أجدع ..
- طبعًا .. ما هي راحة من كله .. ما هو احنا مش ح نحرت كل يوم .. ودي منها أدب لمراتي برضه خليها تعقل . مش لازم تتباهى على الغلبانة وتغيظها وتستحمى كل يوم . وهبّ واقفًا مرة واحدة كما جلس واستعدل جاكنته مستكملًا قيافته .. وقال :
- شكرًا يا زميل .. على الفطار اللذيذ ده .. وعندي لك قروانة يمك مسبكة النهارده وهبرة لحمة .
- إيه يعني ح تسرقهم لي ..
- فشر ده حقي .. ما هو أنت عارف أكل السجانة مش من أكلكو ، ده له مواصفات خاصة ، ثم إن أنا محبوس بقى . وح نتحين ومراتي ح تبعت لي عمود ملكي (إذ إت إنف) ؟ يا مسجون .
- بحث عن السيارة التي كانت في أذنه ولم يجدها .. مددت يدي له بعلبة السجاير ليأخذ واحدة وأنا أسأله :
- السيارة راحت فين ؟ .. عطيتها (للشرمبيلي) أكيد .
- ابتسم ابتسامته الطيبة الماكرة . وقال :
- غلبان .. ما هو زيك قاعد انفرادي يا ولداه ..
- قلت مندهشًا :
- (الشرمبيلي) غلبان ؟ .. دا معلم كبير يا بابا ..
- مش في كل وقت يا زمل .. وبعدين ده عليه مسئوليات تهد جبل .. انت عارف ان امه في سجن النّسا واخته الكبيرة في القناطر . ده غير أخين في (ابو زعبل) .
- نهار إسود .. كل العيلة ؟ !
- آه .. عيلة كلها مشرفة في مصلحة السجون واللي بره مطلوبين . إنت تعرف بقى انهم لما بيجي ميعاد زيارة حد منهم بيجمعوا كلهم في سجن واحد . طبعًا على حساب المصلحة حسب اللايحة ..
- أيوه لكن هوّ مش محتاج يعني . مسلكّ أموره .

- يا راجل دانت مجرب السجن يعني إيه .. ؟ مسلك أموره؟! عشان يعني بيتاجر وبيهرب  
حشيش ... هووه هووه .. دي حكاية كلها متاعب وأذى .. عارف رحلة زيارة زي دي تكلفهم قد  
إيه ؟ .. دا انت على نياتك .. ثم إن الحكاياه مش كلها .. سجاير وفلوس .. يا زميل . كفاية إنه  
محروم م النسوان .. وم الحرية . جرى إيه يا زميل .. دا انت بتاع الحرية !  
ارتفع صوت الصول (مصطفى) عند الباب . فأسرع وأغلق باب الزنزانة تكة واحده ومضى  
ملياً نداء الواجب . فهو لا يستطيع إغضاب الصول أيضاً .. وإلا صار حجه لأشغال شاقة ..

\*\*\*

- عندما فتحوا باب الزنزانة بعد الصياح , كان الوقت قد فات . فبدأو التحقيق على الفور  
مع أن ذلك يعد مخالفة صارخة للائحة السجن .  
سألت العسكري الذي وضع القطرات المهرية في القروانة التي أكلت منها .  
- هل وضعت العدد المطلوب بلا زيادة ولا نقصان . فأقسم بشرف أمه أنه أجاب على هذا  
السؤال من ساعتها أكثر من مئة مرة - بنعم .

- إذن لماذا ماتت بهذه السرعة ..

ضحك العسكري حتى استلقى على قفاه ولم يكن يُسمح لأحدهم أن يضحك هكذا علناً .. ولكن أحدًا لم يسجل عليه هذه المخالفة إكرامًا للدور العظيم الذي قام به مخاطرًا بالشريطة الواحدة التي على ذراعة بتهريب المادة الممنوعة التي لم يطلبها منه أحد وماتت بسببها السيدة التي كانت معنا .. !

لكن أحدًا من الرفاق سكان الزنزانة لم ير أن ذلك كله كان متعمدًا .. فالأمر سار في مساره الطبيعي مثلما كان يحدث دائمًا . ولم يكن أحد يتوقع أن تقوم الدنيا ولا تقعد لحدث يومي مثل هذا . كانت كل تداعياته مقدمًا معروفة (فكيف سمحت إدارة السجن بوجود امرأة غريبة في زنزانة يسكنها شركاء في قضية واحدة) ولما لم يجدوا أي أثر لمادة غريبة عندما قاموا بتشريح الجثة عدّ هذا عجيبة من عجائب الزمان ..

لكن شعور الدهشة العميق الذي أيقظني من نومي .. هو نفسه الذي دفعني لتدوين هذا الذي ظننته في البداية استمرارًا لما رأيت أنه كان مجرد حلم كغيره مما يمور في دماغي كلما استغرقت في النوم بسبب حبة (السيرانزين) التي أربعتني قراءة النشرة الخاصة به وخاصة التحذير الذي يؤكد على الحذر من تناوله مع تناول الكحوليات , مع أن الدكتور (عبد المنعم) أكد لي أن حبة واحدة لن تضر . ومضيت في كتابة ما ظننته استمرارًا لأحداث ذلك الحلم العجيب بينما أنا أقوم في الظلام لأذهب إلى حيث أضع حبوب (الجليكودال) لأخفف من حرقان معدتي الذي عاودني بعد انقطاع لأسابيع ..

ثم إنني ذهبت إلى المطبخ لأحضر ماء وأضع الحباية التي استحلبت نصفها في سقف حلقي حتى لأشرب دون أن أبلعها مع الماء . ثم أضأت النور وتناولت القلم الرصاص وسحبت الأوراق وبدأت أكتب وأنا غاضب لأن أحداث الحلم بهتت في رأسي ولم يعد لديّ ذلك الإحساس المدهش بتواليها لتصنع صورة أحلم بها لاستئناف الكتابة الذي تعطل منذ ما يقرب من عام ..

ولكنني مضيت أكتب مقننًا نفسي أنه يمكن التوفيق بين مجرى الأحداث على المستوى الواقعي ومسارها على مستوى الحلم طالما أن الشعور بروعته ما انفك يراوغني .. وقد يكون هذا مسارًا مبتكرًا لمجمل البناء الروائي - ومازجًا بين الهلاوس والوقائع - رغم أنني التزمت حتى الآن بمسار الأحداث الواقعي المعتمد على إحياء ذاكرة الصبي في أعماقي حرصًا على استدعاء أحداث الماضي كما عشتها دون أي محاولة لطمس أي تفاصيل حتى لو كانت مخجلة أو مختلفة أو باهتة تجنبًا للكذب الفني ..

في صباح ذلك اليوم .. نادوا أسماءنا نحن الثلاثة .. في البداية ظننت أنه استدعاء للطابور .. ولكن تعبيرات وجه الشاويش (عبد التواب) الذي جاء بنفسه ليفتح الزنانات الثلاث أخبرتنا أنه استدعاء لشيء أهم ..

- مطلوبين للجلسة يا زميل .. جهز نفسك بسرعة كده وخشوا دورة الميه .. قوام .  
سألته منفعلًا فرحًا :

- جلسة إيه يا شاويش (عبد التواب) ..  
كان قد مضى ليفتح لـ(عبد الحميد) ..

- جلسة وخلص .. أنا ما عرفش .. طالبينكم انتم الثلاثة .. فيها فسحة وفرجة . ويمكن إفراج قول انشا الله .

لكن الشاويش (حسن) الذي كان يصعد السلم في هدوئه المعتاد قال وهو يقرأ في الأوراق التي معه ..

- مش فسحة .. لأ .. دا سفر .. ح يترحلوا يا شاويش (عبد التواب) .

- مددت رأسي أحاول قراءة ما بيده ولكنه أخفى الورق بضمه إلى صدره بسرعة لا إرادية ثم أعاده مبتسمًا متيحا لي رؤيته ولكني لم أستطع القراءة .

- على فين يا شاويش حسن .. اعتقال ولا نيابة ؟

- يا ابني مش ح تفرق .. نيابة أمن الدولة في مصر طالباكم لاستكمال التحقيق .. يمكن تفرج عنكم . استبشر خير .

المعلومات الجديدة أربكتنا . فأسرعنا كالعادة نتناقش فيما وراء هذا الطلب . واختلفنا أيضًا كالعادة في تفسير الأمر وكأننا عقدنا جلسة حزبية في دورة المياه .. كلٌ يدلي بتحليله للموقف الذي لم يكن يحتاج لجدل كثير .. فنيابة أمن الدولة في القاهرة تريد استكمال التحقيق .

اصفرَّ وجه (عبد الحميد) وهو يستعيد ما حدث له في التحقيق الأول ولكني طمأنته أن هذا تحقيق نيابة ..

- هو حد مد إيده عليك في النيابة !؟

- الحقيقة لأ .

- طيب .. بالعكس . أنا رأيي إن قدام نيابة مصر تشتكي م اللي جرى لك وتثبتته في المحضر .. كان لازم تعمل ده هنا . لكن بقى أهي فرصة .

قال أحمد يوسف متشائمًا .

- أنا بتهيألي اننا مترحلين المعتقل .. أو ح ينقلونا لسجن ثاني ويضمونا لقضية أكبر .

قلت له - منهيا المناقشة - ولنسرع تلبية لنداء عم (حسن) الذي زعق يستعجلنا .. لأن عربة الترحيل وصلت أصلاً ..

- يا عم انت وهو .. ما دا سجن ودا سجن .. على الأقل ح نفك شوية ونشوف الدنيا ..  
وحلاوتها بقى لو ودونا سجن فيه زملاء لنا .. وف كل الحالات ح نفهم راسنا من رجلينا . واهي  
الأمر بتتحرك .

قال عبد الحميد في أسف :

- مش ممكن؟! عندي زيارة السبت الجاي . ح يتشحطوا ورايا فين تاني .. وح نعرفهم  
احنا فين ازاي ؟

- يا عبد الحميد الراجل (حسن عطية) قال استبشر خير .. ممكن أمن الدولة في مصر تفرج  
عنا بسبب العلة اللي انت أكلتها .. استبشر خير .

عادت البسمة لوجه (عبد الحميد) .. وتلقانا الشاويش (عبد التواب) بلامح جديدة .. إذ إننا  
كنا قد صرفنا من الكانتين منذ يومين فقط .. وترحيلنا يعني أننا سنأخذ حاجاتنا وهناك كثير  
سنستغني عنه . وكان عم (حسن عطية) قد جلس على دكة (عبد التواب) في انتظارنا بينما  
صحبنا هو إلى الزنانات وقال لنا في حسم مفهوم :

- الحاجة المستغنيين عنها سيوها في الزنازين أناح سيب زنازينكم لحسابكم لحد ما ترجعوا

عاريًا حافيًا وجدت نفسي في حمام الإيراد (المسدود البلاعة على الدوام) استعدادًا للسفر  
أقصد الترحيل إلى نيابة أمن الدولة بالقاهرة لاستكمال التحقيق . وأنا وشركائي في الجريمة ثلاث  
مساكين تحت التحقيق (كاركيّة) التي مفردها (كاركي) أو (كاويرك) يعني غشيم . وها نحن  
سندخل تجربة جديدة لم نخضها من قبل . تعدنا بخبرة وبعض التغيير . فرحين في قلق لأن شيئًا  
ما سيحدث ليحرك جبل السكون والملل القاتل اللذين يخنقان الروح تحت ثقل أيام بطيئة راكدة لا  
يحدث فيها شيء ، وأشد وطأة منها أنك لا تفعل فيها شيئًا أي شيء يوحي أنك حي . وتنتظر  
(الجرية) في الضحى و(اليمك) في الظهيرة .. وفي المساء ، ولا شيء بين هذا سوى أن نتوقع  
ضجيج المفتاح في طبلة الزنانة (قبل بقية المساجين) للذهاب لدورة المياه لنجدد جردل ماء  
الشرب . وننظف - بعد أن نفرغ - أنية الفضلات والبول التي قد تكون قد اضطررت أحيانًا  
لتفريغ بطنك فيها في الليل . وعليك فعل ذلك كله في دقائق . أن تفرغ جوفك وتنظف نفسك  
وجسمك ووجهك بالماء البارد في عز الشتاء وفي دورات مياه لا أبواب لها . تعلمنا من جيراننا  
الإخوان (سامي) و(كمال أبو النجا) و(الحاج وهبة) أن نصنع مثلهم (بابًا) لخانة (الكنيف) التي  
نستعملها لنستر أنفسنا ، عبارة عن قطعة قماش من القميص أو (الوردة روبة) معلق بطرفيها  
حبلان تتاقل كلاً منهما صابونة غسيل . نطرحها على الجدارين الفاصلين بين الخانات فتصبح  
ستارة تخفي عورتك رغم أننا كنا قد تعودنا تخطي حاجز الخجل والكسوف في التعامل مع

عوراتنا إلا أننا صنعنا مثلهم لاستدعاء متعة الشعور بإنسانية انفرادك بنفسك وأنت تمارس أكثر العمليات (حميمية) حتى لدى الحيوان الذي لا يبرز في الغالب إلا بعيداً عن الأنظار .

كانوا يرسلون لنا الشاويش (أحمد عبد العال) إذ يكلف عادة بأعمال احتياطية خفيفة أو ظهورات ليصبحنا واحداً بعد الآخر لقضاء هذه المهمة . ثم اكتشف هو بعد فترة أن الأمر لا يستحق كل هذا الحذر خاصة أنه زهق من استعجالنا وقرف من تمسكنا بالدقائق القليلة التي كانت بالنسبة لنا غاية الأمل في الإحساس بالحرية , هرباً من جلافة حوائط الزنزانة حيث تنعم هنا باختلاس النظر للحوش أو على الأقل لسماع صرير مياه الصنابير وحيوية تبادل المساجين للشائم . وأحياناً بمشاهدة العراك المجسم عن قرب . فغامر في خطوة جريئة أن يأخذنا لدورة المياه معاً لكنه اشترط علينا ألا نتبادل الكلام , وألا نحدث أي تصرف من شأنه أن يلفت النظر إلى تلك الخطوة (الثورية) التي منحنا إياها بالتواجد في دورة المياه صحبة ؛ بل ومع الإخوان .. في البداية تأفف الإخوان من وجودنا , لكن مبادرة (أحمد يوسف) بالسلام عليهم ورحمة الله وبركاته وموهبته وقدرته على فتح مجالات للحديث كتاجر وابن سوق مع الحاج (وهبة) صاحب المكتبة وأكبرهم سناً كان هذا النصر الذي حصلنا عليه قد فضح وألغى أو تبخر ؛ رغم أننا كنا قد دفعنا ثمناً غالياً لقرار (أحمد عبد العال) (الثوري المتهور) علبة سجنائنا كاملة , فور السماح لنا بالتعامل مع الكانتين!

وتطلب الأمر علبه سجنائنا أخرى ؛ لكي يوفر مجهوده في اصطحابنا فرادى لطابور الصباح وطابور المساء والذي حُصص لكل منا فيه ثلاثون دقيقة نتنعم بالشمس والهواء النقي في حوش السجن أو خلف العنبر . كان عليه أن يفعل ذلك على مدى ساعة ونصف , ولكن نجاح تجربة دورة الماء واقتناعه أننا لا نحدث بعضنا فيها بل ولا ينظر أحدنا للآخر أقنعه أن يجرب إخراجنا للطابور معاً مرة واحدة خاصة وقد عاهدناه على طاعته والتزمنا أن نسير في صف مستقيم يفصل بين كل منا والآخر عدة خطوات كافية لإقناع من يرانا أن كلاً منا يسير وحده ولا علاقة له بالآخر ..

وإن كان هو لشدة طبيته قد سمح بهذا طبعاً لقاء ما يتيسر من سجنائنا فيما بعد أن نجلس معاً في بقعة الشمس التي تظهر مع الضحى خلف الحمام - فيما بينه وبين المكتبة حيث تسترنا المباني عن عيون الإدارة - بينما هو يقف ناضورجياً قلماً ينبهنا عند اللزوم حتى يحين موعد عودتنا إلى الزنازين .

هكذا استقر الأمر معنا في الأسابيع الأولى ، وكنت قد استبدلت ببذلة المتسول أخرى معقولة .. واشترى لي (أحمد يوسف) بخبرته كتاجر خردوات فائلة ولباسًا من أحد نزلاء الدور الأول الملكية ولكننا ظللنا نسير حفاة على البلاط البارد القاسي وفي طين الحوش الزلق خاصة فيما يلي سقوط الأمطار . ولعدم توفر أحذية بلا رباط ، كما أن نوعًا من التآلف الحذر بدأ يتكون بيننا وبين الإخوان الثلاثة ؛ وإن اختلفت درجاته فيما بين (الحاج وهبة) الذي كان أكبرهم سنًا وأكثرهم وقارًا و(سامي) الطالب المنوفي من بلدة (سبك الضحاك) وكنت قد بدأت به بذكر حادثه مشهورة لطالب منها قتل أخته دفاعًا عن الشرف ثم تبين أنها لم ترتكب إثماً - كانت منشورة في جريدة المصور على ما أظن قبيل القبض عليّ وأثارت لغطًا كبيرًا لكنه صحح لي في غضب أنها حدثت في قرية (سيك الأحد) لا (الضحاك) - وما الفرق؟ الحديث كان قد اتصل بيننا فعلاً والمهم أننا صرنا نتبادل السلام ولو على كره منه . أما (كمال أبو النجا) فقد تطور الود بيننا عبر الحديث عن أشخاص نعرفهم وأماكن مشتركة في (الحوار) وشارع المدير و(الطمهي) لدرجة أنه قبيل ترحيلنا بعدة أيام وهبني قبل السماح بالكانتين بصلة (حية) كانت أول كائن ينتمي لعالم الحرية ألمسه . وألتهمه في شغف ولهفة وأحسست له طعم تفاح الشام ونكهة جميز غيظ السباخ .

\*\*\*

وللمرة الثانية سرقت بذلة التحقيق البيضاء التي كنت أرتديها هذه المرة . سرقتها أحد المساجين النبطية في الحمام عيني عينك ؛ مستغلًا جهلنا بوضعنا وما يترتب عليه الترحيل .. فقد أسرع ليقنع الكاتب بأن يسلمنا أماناتنا بسرعة قبل الحمام وعنها خلعنا البذل الثلاثة بعد أن أحضر أمانات (عبد الحميد) و(أحمد) وضمنها ملابسهما الملكية وحذاءيهما . أنا لم تكن لي ملابس في الأمانات ؛ لأنني خلعتها يوم جئت وسلموها لأبي عبر البوابة . ومرة أخرى في غياب وجدت نفسي عاريًا إلا من الفانلة والكلسون ؛ على البلاط الطافح بمخلفات المجاري . بينما اختفت بدلات السجن الثلاث في غمرة فرحنا بارتداء (أحمد) و(عبد الحميد) الملابس الملكية ..

وتظاهر النبطشي بمحاولة حل مشكلتي فاشتري لي جلابية قديمة من نشال سيخرج للإفراج وسينظره أهله في الخارج . ودفع (أحمد) علبتي سجائر ثمنًا لها .. وكانت جلابية من قماش خفيف وقديمة لدرجة البلى .. وبقيت حافيًا , ثم اختفى النبطشي السجين بعد أن سلمنا للشاويش الذي يتولى حراستنا فأرًا بغنيمته التي سيحولها إلى كهن .

كان بلاط الحمام (الإيراد) باردًا مغمورًا بالمياه القذرة الباردة فلم أعد أحس بقدمي . كان منظري يثير الشفقة وأنا أبدل قدمي كسحلية الصحراء على البلاط البارد والرطب محاولاً بعث الحرارة فيهما .. ومن تعبير وجهي (أحمد) و(عبد الحميد) أحسست بمدى ما وصل إليه حالي من سوء . كنت أرتجف من شدة البرد أتعجل الخروج من الإيراد للوقوف (رغم اعتراض الشاويش) في سلخة الشمس التي تبدو من مدخله وتغمر الحوش . عادت الروح إليّ , وشعرت ببعض الدفء يسري في بدني حين فعلت . لكنني كنت لا أزال أبدل قدمي متقافزًا على الأرض الطينية الباردة لأستعيد الإحساس بأكعابي وأعاود حكها في الجدار الخلفي دون جدوى .. حاول (عبد الحميد) أن يتنازل لي عن حذائه ولكنني رفضت بشدة ونهرته مؤنبًا لأنه أحق به وكانت قدماء قد شفيتنا قليلاً من آثار جلدهما في المباحث ..

فجأة تقدم مني ولد شاب نحيل في مثل سني وهو يحمل حذاء من القماش البني نصف مهترئ وقدمه لي راجيًا قبوله وفي عينيه حكمة عجوز طيب :

- إنت راجل متعلم وعيب تسافر وانت حافي ..

نظرت في عينيه أحاول فهم سر تصرفه . كان وجهه جميلًا , خط على شفته العليا شارب أخضر . يرتدي جلباب فلاح كرمشه التخزين بدون ياقة تحته - صديري مقلم باهت - أفنعني وهو يحاصرني بنظرة براءة خلابة وتصميم غريب نال مني وأربكني فعجزت عن النطق بكلمة واحدة ..

- خد يا أستاذ سمير دا احنا بلديات ..

أخجلني شعوري بالشك في دوافعه , وخاصة أنه لم يكن معي ما أدفع به ثمن الحذاء . شجعني (أحمد) على أخذ الحذاء واعدًا أن يسدد للفتى ثمنه بمجرد أن يستلم نقود الأمانات وكان لديه جنيه أو أكثر , لكن الشاب رفض بشدة أن يقبل ذلك قائلاً له :

- يا عم أنا باعطيه له من غير حاجة .. أنا رجلي واخدة على كده .. ثم إيه الحكاية إنت مش شايفه مش قادر يقف عيب .. خد يا أستاذ إلبس , هو يعني أنا جايبه له من البنك . ووجدتني أحتضن ذلك الشاب شاكرًا وأنا أخذ منه الحذاء نصف البالي وأخفي بصعوبة دموعًا أثقلت جفني وقلت له :

- انت بتقول انك بلدياتي ؟ .. انت مين ؟ ومن فين ؟ ده جميل عمري ما ح انساه لك .

ربت على كتفي وهو يضحك ويقول :



- يا عم إيه اللي يهم ف ده (أنا من عزبة أكالة العيش) ارتحت ؟ قلت لك كلنا بلديات .  
وقبل أن أنطق كان الشاويش المكلف باصطحابه والآخرين إلى القسم ينادي عليهم , فانفلت  
من ذراعي وهو يلوح مسلماً ومودعاً بابتسامة عريضة !  
- يا سيدي مسير الحي يتلاقى .. بس ما يهمكش شوف . بص ..  
وأخذ يدب بقدميه على الأرض الرطبة الباردة ليؤكد لي أنهما لن تتأثرا .  
- واخدين على كده يا أستاذ .. مع السلامة ..

وقفت ذاهلاً وقد ارتج علي . وحاول (أحمد) أن يعيدني من حالتي الوجدانية ضاحكاً :  
- يا عم البسه ده نزل لك من السما . بس اوعى ليتقطع وانت بتشده . ها يمزع . ده كهنة  
خالص ؟. واللاً باينُّه كان ح يرميه على طول ذراعه أول ما يخرج للدنيا . الراجل حب يعبرك  
بالجزمة !!  
لم أستجب لسخريته لأنني فرحت بالحذاء فعلاً وجلست على إفريز الجدار أنفض الطين  
والقاذورات عن قدمي وأدخلها في (أجمل وأعز حذاء عرفته قدامي في حياتي السابقة) ؛ بل وفي  
القادمة أيضاً .

حضر عساكر الترحيلات , فساقونا إلى عرية جيب ذات غطاء مشمع ميري ممزق . قال  
(عم حسن عطية) وكنا حتى اللحظة في عهده يودعنا :  
- مع السلامة يا اولادي يا ريت يكونوا واخدينكم لسجن فيه زملاءكم . ح يكون أبرح لكم أو  
يجوز ح يفرجوا عنكم . مع السلامة أشوفكم في الحرية .  
أسعدني تفاؤله وأدفاًني حديثه عن الزملاء والحرية فاستعدت نفسي قليلاً . وكانت سحقت  
تحت نعل الحذاء الكاوتش القديم المبلل بمياة النفايات ..  
صعدت إلى العرية مجروراً وراء العسكري الذي قيدت ذراعي اليسرى في ذراعة اليمنى بالقيود  
الحديدي . صعد خلفي (أحمد يوسف) مع حارس وجلس بجواري ثم (عبد الحميد) والعسكري  
المقيد إليه ؛ ليجلس أمامنا على المقعد المقابل . وما أن استقر الجميع تحت خيمة المشمع  
الميري الممزقة .. حتى هاجمت (عبد الحميد) موجة فزع وقلق وخنقه التوتر حين سمع الضابط  
خلفه يتحدث عن إعادة التحقيق معنا في أمن الدولة إذ قفزت إلى ذاكرته خبرة التحقيق السابق  
معه في المباحث .

- ح يعيدوا التحقيق تاني ليه عايزين إيه ؟  
كان الضابط الشاب الذي جاء ليتم على حضورنا قبل أن يركب الكابينة واقفاً خلف العرية  
يراجع أوراقه فأطل ليتم علينا ويقول معلماً :

- شد حيلك امّال يا راجل , ماله التحقيق تاني ؟ دا في النيابة مش في المباحث . مش يجوز عشان يفرجوا عنكم ؟ باعتباركم لسه قصر . أولقيوا دليل جديد على برائتكم .  
لم يخطر هذا الاحتمال على بالنا أبدًا , لكنه جعل (عبد الحميد) يكف عن قلقه بعد أن أوشك على البكاء . وقال وهو يشهق مانعًا دموعه في لهفة .  
- يعني انتو مرحليّنًا على فين بالضبط يا بيه ؟  
- ليه ؟ همه ما قالوش لكم ؟ .. مترحلين لنيابة أمن الدولة في مصر يا سيدي . باين عليكم مهمين قوي (سمير بيه ناجي) ح يحقق معاكم بنفسه .  
ثم نادى على أسمائنا تأكّدًا من وجودنا للمرة الثالثة ! وركب في الكابينة بعد أن أفسح الطريق لاثنتين أخريّن مختارين من العساكر المسلحين برشاشين آليين جلس كل منهما على طرف الكرسي من الخارج وانطلقت العربية . لوحت لعم (حسن) بيدي الحرة أودعه . وكان لايزال أمام البوابة يفرك كفيه طلبًا للدفء , ولمحته يلوح لي ويعود قبل أن يسدل أحد العساكر غطاء المشمع على العالم الخارجي ..

انطلقت العربية وانطلقت معها كراييج الريح عبر شقوق المشمع الممزق , تجلد جسدي النحيل غير أبهة بقماش الجلاباب القديم الناحل . كنت أنكمش فيما بين (أحمد) المقيد لذراع حارسه الشمال وبين حارسي ؛ محاولاً حماية جسدي من لسع الكراييج الباردة دون جدوى .

كانت السماء ملبدة بالحزن وبالغيوم الكامدة التي ما انفكت تتراكم ؛ لتزداد كآبة العالم ثم توالى البرق والرعد وهطلت الأمطار بكثافة لتسلح كراييج الريح بسيف رذاذ المطر البارد التي انهمرت من كل ناحية لتجلدني وكأنها جميعًا تقصدني أنا بالذات .. حاولت النوم فلم أستطع فطلبت من (أحمد) أن يضغطني في بدلة العسكري الصوفية الخشنة ملتئمًا بها التخفيف مما أعاني دون فائدة إلا حينما كانت الأمطار تتوقف بين الحين والآخر ..

\*\*\*

• أحسست بدفء الذكريات يغمرنى حين اقتربنا من قناطر زفتى ، ساعتها كنا نمر بزمام قرية (دهتورة) الغني بالخضرة ، ووجدتني بين أبناء الشيخ (علي مسعود) ، (محمد) و(محمود) و(سمرا) في مركب الصيد التي اعتدنا أن نستأجرها حاملين معنا ما تزودنا به الست (أم محمد) أمنا جميعاً من خبز الحلبة اللذيذ المقرمش والجبنة القريش والزيتون الأسود والطماطم والخس والخيار والبيض ، لنقوم برحلاتنا المتعددة من شط (دقادوس) إلى قناطر (زفتى) نزهة في نيل غني تُوَطر شاطئيه الخضرة الكثيفة لحقول وحدائق الفاكهة وشجر النخيل والصفصاف والموز حيث نقضي نهارنا في الصيد واللعب والمرح . وكان يصحبنا أحياناً بعض الأصدقاء من زملاء المدرسة من (كوم النور) و(سند بسط) .

وابتسمت لأن هذا كان يغيظ (سمرا) فقد كانت تحرم من صحبتنا .

كنت قد انتقلت للدراسة في السنة الخامسة الثانوية أو التوجيهية إلى مدرسة (كشك) في (زفتى) وذلك بدافع رغبة عارمة في التغيير والابتعاد عن مدرسة (المنزلة) الثانوية التي قضيت فيها عامين كاملين على غير العادة وبحجة أنه لا يوجد مدرس لغة فرنسية وما سببته على ذلك من حتمية سقوطي في اللغة الفرنسية ذاتها بعد أن قد رسبت في الثقافة العامة في (شفوي) الفرنسي (أي والله في شفوي الفرنسي) رغم نجاحي بتفوق في بقية العلوم . ولذلك وافق أبي على انتقالي واتفق مع الشيخ (علي مسعود) على أن أعيش وسط أولاده ليتابعني بنفسه ، وكان الأستاذ (محمد الشناوي) قد نُقل إلى تلك المدرسة بجوار بلدة (دقادوس) بعد أن سعى جاهداً لرد الجميل لأبي لتقبلني مدرسة (كشك) ، وكانت مدرسة عريقة لها سمعة ، امتحاناتها ترد في الكتب النموذجية وليس سهلاً أن تقبل مثلي دون أسباب قوية . وهكذا صرت أحد أفراد أسرة (الشيخ علي مسعود) وكانوا في مثل سني وصارت زوجته النبيلة تعاملني كأكبر وأعز أولادها أو أحسن قليلاً ، لأنني على الأقل لي ما لهم وليس عليّ ما عليهم . فكانت بكل مقاييس المراهقة من أسعد أيام حياتي . وجدتي وكأني أعاد ذلك الغطاء الميري الممزق الذي تحاصرني فيه أسياخ الريح الباردة ، إلى دفء وحواري (دقادوس) تلاحقني أغنية عبد الوهاب الجديدة - أنا والعذاب وهواك ..

وتأخذني ألقانها إلى بيت صديقي وحيد عائلة (أبو عيشي) الذي يعيش مع أخته المدرسة الجميلة التي كانت أكبر منه ومني . وكانت ذات وجه ملائكي لم أره إلا مؤطراً بالطرحة الحريري السوداء . كانت علاقتي بهما تسمح لنا بالاجتماع وبالحديث .. نجلس معاً (ثلاثتنا) نناقش كل ما يدور من أمور .

كنت أيامها أعرف كيف أقود زورق الكلام ، وأثير قضايا لا يعرفها أو لم يهتم بها الآخرون . كنت قد أشرت أخاها قصة (أنا كارنينا) فقرأتها وناقشتني فيها وهي سعيدة تستمع بشغف لوجهة نظري . وكنت أفرح وأنا أشاهد أمارات الإعجاب بنضج حديثي وثقافتني تلوح على محياها الرائع إعجاباً . حتى كان يوم طلبت أن تحدثني على انفراد بعد أن وثقت فيّ لتكشف لي عن حبها لزميل لها في المدرسة عاهدها على الزواج ولكن ظروف أهله لن تتجح في إقناع أهلها بالموافقة عليه ، وطلبت مني أن أسعى لدى أخيها كي يساعدها في إقناع أهلها لقبوله وإنقاذها من مأساة قبولهم قريب لهم لا تطيقه . وقد فعلت وأفلحت لا في إقناع أخيها فقط بل وأمه التي كانت تعاملني كابنها ولم أفرح في حياتي قدر فرحتي عندما تمت الخطبة وبدأت أمارات السعادة تلوح مشبعة بالعرفان على وجه أخت صديقي التي خايلتني كملاك صيف في زفتي الباردة بين بدلة العسكري وبين (أحمد يوسف) الذي سمعته من بين صحوي ومنامي القلق الراضي :

- خلوه نايم .. الظاهر دفي .. ويبطم ..

أيقظني ضغط القيد على معصمي ، فعاد إحساسي بالبرد أشد وإن ظل الحلم بأيام (دقادوس) و (زفتى) و (دهتورة) يخيلني بكل هؤلاء الأ أصحاب (نيازي لاهيل) و (على ابن شلش) و (زكي البرهمتوشي) .

وتذكرت بهم يوم كدت أغرق في (نيل أسوان) بجوار جزيرة النباتات ، حيث كنا قد قفزنا للنيل نلهو ونستحم في الماء الرائق المتدفق ..

وكانت رحلات السنة الخامسة إلى (الأقصر وأسوان) عادة وتقليدًا تقوم به المدارس في مصر كلها . يومها نزلنا للماء الذي كان تياره شديدًا بكرًا وكاد (علي) أن يغرق . ولمحته يكابد فقفزت نحوه في حركة طرزانة واستطعت أن أعوم به حتى اقتربت المركب التي انتبه ركابها ونبهوا المراكبي فأسرع وألقى بحبل وعوامة وتعلق (علي) بعد جهد صعب بهما فانتشلوه .. بينما حاولت متعَبًا جاهدًا أن أنستقر بقدمي على إحدى الصخور البادية تحت الماء . ولكنها لم تكن قريبة بما يكفي فتزلقت بسبب نعومتها اللزجة . ووجدتني أغوص بقوة وكلما حاولت الوقوف جرفني الماء عنها فأغوص ثانية . وركبني شيطان الكبرياء ، فكيف أستجد صارخًا بهم وأنا الذي أنقذت (علي) وبدوت لهم بطلاً ..

أخذتني العزة بالعند ولم أقدر تمامًا ما يحدث لي ؛ بل تجاهلته مصرًا على قدرتي على الصمود ، لكن قواي كانت تخور في كل مرة تنزلق فيها قدمي من على الصخرة الخادعة . وشربت كما خُيِّل لي ماء النيل كله ؛ حتى تنبه أحدهم بالصدفة لما يجري وراقبني ضاحكًا حتى تأكد أنني لا أفعل ما أقوم به من حركات .. فأسرع من بالمركب ليقطعوا عليَّ سبيل العناد الذي كاد أن يودي بي .

تذكرت ساعتها أنني عمت وغطست وبلبظت في النيل من البحر الأبيض حتى أسوان ، كنت ضعيفًا كلما ناداني ماؤه للنزول أو قل للصعود إلى أعماقه والإحساس الذي يكاد يكون جنسيًا حين بمائه يغمرني ويغرقني ويغسلني حتى أكاد أغرق بالفعل .

نزلت النيل وأذبت جسدي في أحضانه في آخر نقطة منه في (الجري براس البر) قبيل عز فيضانه وكانت امتحانات الثقافة العامة عام (54) وكان آخر عام لها إذ كانت ستلغى بعدها . يومها . . والدي وأنا وزميلان لي مع والديهما ذهبنا للبحر بعد الامتحان تلبية لعزومة (إبراهيم عطا) شقيق (نبيه) الذي تزوج خالتي ، وكان يعمل في خزان المياه الجديد لرأس البر استعدادًا لموسم الصيف . وبعد أن قضينا يومًا على البلاج مرتدين مايوهاتنا الريفية دعانا لخيمته حيث جهز لنا (ورقة لحمة) معتبرة في الفرن لم أذق أذ منها في حياتي .

وبعد أن ريحنا قليلًا عقب الجهد الرهيب الذي بذلناه بحب في التهام الورقة الثمينة الشهية . شاهدت عدة (دلافين) تقفز في النيل متجهة إلى (دمياط) . كانت مياه البحر يومها تصل إلى

حيث (سد فارسكور) الذي عادة ما تبدأ إزالته استعدادًا لاستقبال الفيضان الآتي . وأغراني حضور هؤلاء الزوار البحريين إلى النيل أن أستحم . اعتبرت ذلك دعوة لي وعلامة . وألح علي هذا خاطر فتسللت خفية عنهم وألقيت نفسي في النيل . وأنا واثق أنني لو غرقت فسوف تنقذني تلك (الدرافيل) الصديقة كما قرأت في حكايات البحر وسمعت في حواديت خالتي ..

وحين تنبه والدي لغيابي جُنَّ جنونه حين رآني في الماء وهددني بعلقة ساخنة بعد خروجي، وحاول (إبراهيم عطا) والآخرين إقناعه بعدم التعرض لي خاصة وقد تلكأت في الخروج ورفضت أن أقرب من الشاطئ إن لم يلق بعصا البوص الخضراء التي انتزعها ليهددني بها بل وبدأت أبتعد عن الشاطئ أكثر . قال (إبراهيم عطا) :

- يا أستاذ (عبد الباقي) (سمير) بقى أفندي (ثقافة عامة) ما ينضريش .

- يا سلام .. شفته فلح ونجح .. طب لما يخرج وح يشوف .

- يا راجل دا انت اللي بتأكد إنه ح يتفوق على زملاؤه لما راجعت إجاباته !!

- ده ولد بايظ .. إيه اللي ينزله الميه تاني .. ما شبعش طول النهار

- يا سيدي معلى خليه يفرح .. مش اللي عليه عمله وجاب لك الشهادة .

- إحنا لسه شفنا حاجة ..

- طوّل بالك ما تقلقش وروح الخيمة انت وانا ح أجيبه .

وأخذ من أبي العصا , وظل يحميني حتى لبست ملابسي . وعاد لأبي صفأؤه ولم أخبره بعلاقتي بالنيل إذ كنت أنزل إلى نيل (دمياط) على كفي .. منذ ألحقت في السنة الأولى الثانوية بمدرسة (دمياط) تحت إغراء أنها كانت تقدم لطلبتها - كما يتحدث بذلك الركبان في بلدنا - طعامًا فاخرًا مطبوخًا شهياً أرز وخضار ولحم وفاكهه في أيام الدراسة الكاملة السبت والأحد والثلاثاء والأربعاء .. وغداء من بيض و(جبنه شيدر) وعدس بجبة وفاكهه في أيام الإثنين والخميس .. شيء لا يصدق العقل الريفي .. ولكن أبي كان يصدق وكان يعرف ولذا ما أن نقل (طه) ابن خالتي من مدرسة (ميت سلسيل) الابتدائية كنجار مشرف على غرفة الأشغال إلى مدرسة (دمياط) الثانوية حتى سعى للاتفاق معه على أن أعيش معه هناك لقاء مبلغ مناسب للإيجار وتكاليف المعيشة ..

ثم تقدم بأوراقى لمدرسة (دمياط) الثانوية وهكذا وجدت نفسي حرًا . وكان (طه) شابًا أقرب إليّ في السن إذ كان أصغر إخوته وكانت أمه أعز خالاتي و(رسمية) أخته شاهدة على نزواتي وأخوه (أبو الفتوح) الذي ورث صفات خاله (الخميسي) الجوال الرحالة المتمرد يحمل بعض صفاتي .. وأخوه (فهمي) الأكبر ناظر محطة قريبة من (دمياط) . تعودنا أن نذهب إليه لنقضي عنده معظم إجازتنا ..

أخذنى زورق اللحم من علبة العربة الميري الممزقة مشفقاً عليّ من لسعات البرد وتأمل وجوه  
العساكر الكالحة الحادة في عبوس يفوق عبوس الدنيا الغائمة الممطرة حولنا . ولاح لي هذا  
الخطر كإنذار مبكر وأنا أنتوي أن أبحر خلف ذكريات النيل مستمتعاً بذكريات (دمياط) (سوق  
الحسبة) ودرافيل النهر في الشتاء وسينما (اللبان) وسينما (دمياط) الجديدة . لكن صدمتني  
صخور شاطئ الحقيقة الباردة وأيقظني أحدهم وهو يزغديني في جنبي قائلاً :

- قوم يا اخويا قوم لك حق . الأيام (الخرأ) فايدتها النوم .

- قوم وصلنا صح النوم حمد الله على السلامة .

\*\*\*

• بين الصحو والمنام قلبت دماغي ضجة الميدان . تاهت عيناى في جموع البشر إذ رفع  
الشاويش الذي في آخر الكرسي الغطاء الخلفي . فأخذت أتأمل الناس والعربات الكارو  
والحمير والأتوبيسات وعربات الملاكي والتاكسي والنقل التي كانت تتراجع والعربة تراوغ  
مسرعة أحياناً وعاجزة عن الحركة مرة أخرى , بين هذا الخليط الذي يرطن بكل طبقات  
الصوت , عيون تتلصص متطلعة داخل خيمة المشمع لا تندهب ولا تتساءل ولا أحد  
منهم يدري بنا , منظر معتاد في تلك المنطقة حيث مديرية الأمن والسجن والمحكمة ,  
ولد شقي رث الملابس دس رأسه بين الجنديين وصاح يخاطبنا :

- يا حرامية !!

ضحكت وغضب (عبد الحميد) وقذفه بشمته من النوع الثقيل بينما (أحمد) كان مشغولاً يتأمل  
حمولات العربات من البضائع في حنين إلى سوق (دكرنس) .

لَقَّت العربة واندفعت نحو بوابة سجن - تدخل إليها عبر حارة - لم أتبين فيه ملامح سجن مصر . فقد كان مختلفًا ومختفياً بين البنايات . وأسرع الضابط ليسجل حضوره وليسجل أسماءنا صارخًا في السائق (اركن هنا وانتو ورايا) دخلنا في طابور إليه من الباب الصغير الضيق وأحصانا سجان البوابة وعاد الضابط يصيح فينا قبل أن ندخل إلى مكتب المأمور : إنتم .. جنب الحيط ده ما تتحركوش .

نزل (أحمد) وحارسه , وأسرعت مثلهما للنزول ؛ لأستعيد إحساسي بجسدي المتخشب .. وما أن لامست قدمي الأرض حتى انهرت تمامًا فلم تكن لي ساقان تحملان جسدي . أسرع (عبد الحميد) يسندني والعسكري المقيد إليّ رفع ذراعه ليرفعني معه فكاد يملخ ذراعي , لما صرخت تأكدت أنني حي ما أزال .. ألم شديد كان يجتاح بطني ورجلي المتصلبتين . وما أن وقفت حتى وجددتني أرتعش من قمة رأسي لأخمص قدمي بطريقة لا أسيطر بها على جسدي المرتعد .

كانت هناك سلخة مستطيلة من ضوء شمس متسلل , غامر العسكري أن يخالف أمر الضابط وسحبني للوقوف تحت رحمتها لأستعيد إحساسي بجسدي المتجمد .. حتى سرى الدفء في عروقي لدرجة أحسست بنبضه يتدفق في ببطء فأخذت أنط في مكاني مما أثار ضحكات (أحمد وعبد الحميد) .

- دا اللي كان متخشب من شوية ؟

وابتسم العساكر وعزم أحدهم عليّ بسيجارة أنعشتني قليلاً .. أثار منظرنا فضول بعض المساجين فاقتربوا منا عسى يجدون لدينا شيئاً يتسولونه أو يقايضون عليه ولكن نقبهم كان على شونة إذ كنا يا مولاي كما خلقتنا .. الرحلة استهلكت كل ما بقي معنا من سجائر .

سألونا وأجبنا في غير ود .. كانت نظراتهم تخترقنا في حب استطلاع عدواني .. ولما عرفوا أننا (شيوعيين) ! ابتعدوا عنا .

خرج الضابط غير راض ينفخ وخلفه على الباب ظهر ضابط آخر .. أكبر منه رتبة يضحك متعالياً في رزالة .

- خد البلاوي دي على سجن مصر .. هنا ما نقبلش أمثالهم .. فحاول الضابط مرة أخيرة يائسة لإقناعه - إذ كان يريد الخلاص من تلك المهمة الثقيلة .

- بس هنا جنب النيابة على طول , سيادتك .

لكن ضابط السجن رد ساخرًا :

- سجن مصر مش بعيد برضه ! .. يا شاويش (عطوة) افتح دحلّ العربية هنا تاخدهم وما

تزعلش يا حضرة الضابط السجن ده ما يستحملش الأصناف دي .. هناك أريح لهم ولنا وللبلد !



فُتحت بوابة سجن الاستئناف ودخلت العربية بظهرها وأصعدونا . صعد الضابط ولم يهتم بتوديع صاحب السجن وهو يأمر السائق أن يغور بنا إلى سجن مصر !!

دارت العربية مع ميدان باب الخلق دورة كاملة أتاحت لنا أن نعيش لحظات وسط ضجيج القاهرة الذي أوحشني . وتمنيت أن تذهب العربية إلى سجن مصر عبر الحلمية , لأشاهد ترمي (الجماميز) مع أننا لسنا في موعد المدرسة إلا أنه كان عندي أمل كبير أن أرى (زينب) ولم يحدث !! فقد مرقت العربية إلى شارع (محمد علي) صاعدة نحو القلعة . كانت الحياة تسير في مجراها ولا تشعر بنا .. بينما نحن نحتضن بعيوننا كل تفاصيلها ..

رجل على كرسي مريح يشد أنفاسًا من الشيشة , وأولاد يلعبون وسط الزحام بالكرة . القهاوي مترعة بالخلق اللاهين والمشغولين بكل ما حولهم إلا نحن . نسوة ينشرن الغسيل ويتبادلن الزعيق والأخبار . عربات كازو يجرها بشر وأخرى يجرها حمير تزاحم تاكسيات ونصف نقل وترمايات مختفية وراء أجساد بشر من كل الألوان خناقات بين السائقين حين يواجه من هو على اليمين أولئك الذين على الشمال . فتى وفتاة يسيران في مرح ويتبادلان نظرات هزنتي من الأعماق فظلت أرقبهما حتى اختفيا .

صعدت العربية الطريق بين جامع السلطان (حسن) وجامع (الرفاعي) . تنبهت أننا أصبحنا قرب سجن مصر , وفرحت وأخبرتهم أن زملاءنا هناك كثيرون فقد زرت السجن عدة مرات خلال الشهور الماضية .. وبشرت (عبد الحميد) أن زملاءنا سوف يكون لديهم ما يقولونه لنا عن وضعنا القانوني . فالحزب هناك بالتأكيد وسيزيح عن أكتافنا بعض الهموم وسنعرف أخبار الدنيا منهم .. لكن كلامي زاد همَّ (عبد الحميد) عن موقف الزملاء عندما يعلمون باعترافه . كان يشعر بذنب كبير , استطعنا أن ننسيه إياه في سجن المنصورة ولكنه عاد يثقل قلبه ويعصره عصرًا ..

حين اقتربنا من السجن لمحت جموع الزوار محتشدين قرب الباب في المكان الذي كنا ننتظر فيه وتعرفت فيه على الزميلة (انتصار) وتمنيت أن ألمحها وأستطيع أن أجعلها تراني حتى تعرف أننا أبناء (الموحد وحدثو) لسنا كما تظن هي أو تتظنهما .. لكنني لم أستطيع أن ألمح خيالها بين الحشد الذي كان في حراك دائم .

أمام الباب أنزلونا وصحبنا الضابط إلى البوابة حيث دخلنا من بابها الضيق الذي سبق أن دخلته من قبل ..

كان حارس البوابة هو نفس الحارس الذي خدعه (فخري) من قبل وأدخلني بدلاً منه في الزيارة لكنه لم يعرفني فحييته في ودٍ مذكراً إياه بي ..

- إزيك يا شاويش (عثمان) ..

نظر إليّ مستكراً .. ولكني لم أرعو :

- مش فاكربي .

دفعني بشدة - مستكراً حديثي معه - خلف العسكري المربوط إليّ .. وهمس لي

(أحمد) :

- يا عم خش . انت فاكرب ح يرحب بيك حتى لو عرفك . انت دلوقتي مسجون يا زميل .

خش بلاش عبط ..

أحسست فعلاً أنني عبيط فهذا البواب تمر عليه مئات الوجوه ميري ومدني ومساجين وملكية , ولشدة غروري أظن أنه لابد سيلاحظني لأتني خدعته مرة ودخلت أזור بدلاً من

(فخري) . عبط فعلاً ..

تمت عملية التسليم والتفتيش وفُكَّت قيودنا .. وخرج الضابط بأوراقه نحو الباب مسرعاً لم

يهتم حتى أن يودعنا . فأحسست شعوراً ثقيلاً وكأنه كان صديقي ولم يخفف من شعوري

سوى مصافحة العسكري الذي كان معلماً معي بالقيود الحديدي .. وتمنياته لنا بالتوفيق ..

قائلاً :

- إنشاء الله براءة . وربنا معاكم ..

شخطة (السجان) الضخم التي زعقت فينا قطعت التواصل بقسوة :

- الثلاثة الإيراد الجداد ييجوا ورايا .. منك له .

ومضينا وراه في صمت وحذر .. وما أن درنا مع الجدار حتى التفت إلينا في ابتسامة :

- مرحب يا زمل .. إنتوا إيه .. طلبية ؟

ثم نظر إلى منظري الرث وقال :

- باين عليكم (لوميين) !

ضحك وهو يربت على كتفي معتذراً (ولو أنني لم أفهم الكلمة) :

- معاكو إيه بقي .

أسرع أحمد كعادته يحسم الأمر :

- يا مولاي كما خلقتني .. خدنا بس لزملاءنا .. وهمه ح يكرموك ..

ابتسم له وعرف أنه أكثر خبرة ومضى في خطوة ذكرتني (بعبد الله بولجانين) .. فغفرت له .

وبدأت أألف المكان ..

تبعنا الشاويش (البولجانيني) إلى الدور الثاني من عنبر (ب) الذي يتوسط عنبرين آخرين

كان السجن (قره ميدان) يليق باسمه . إنه أضخم ثلاث مرات وأكبر من سجن المنصورة يحيطه سور أعلى وأسلاك شائكة أكثر كثافة . وطبعًا كانت الضجة المنبعثة ضجة أضخم وأكبر وأكثر إبهامًا وغموضًا وكأن مئات الوحوش تزار وتخور وتثرثر . تخترقها صرخات ونداءات ورنين معادن يصدر من ورش وضربات طائشة على أبواب مصمطة . مداخن عدة تبعث دخانًا دسمًا من ورش . أسوار شاهقة بين العنابر عليها أبراج حراسة , غير أبواب ضيقة لا تهدأ الحركة دخولًا وخروجًا منها , تحت السيطرة . دخلنا في شبه طابور تلقائي وراءه دون كلمة .

كان العنبر أشبه بعنبر سجن المنصورة تمامًا . الحديد الأسود المزرق يوطر كل الأدوار ، معلقة عليه أجساد المتنتعنين والمتبطلين من المساجين الذين لم يخرجوا للعمل في المطابخ والورش . مساجين يتسكعون وآخرون منهمكون في النظافة كما في سجن المنصورة . السقف يبدو سقف قفص كبير متعدد الأدوار . وأبواب الزنازين قليلاً ما تشبه زنازيننا في المنصورة . كان بعضها مفتوحًا وبعضها مواربًا وأخرى مغلقة .. نفس الملابس الخضراء والبيضاء . الدور الثاني هو الذي بدا مختلفًا متعدد الألوان تبدو على سكّانه سمات مختلفة . النظارات كثيرة وكذلك القمصان الإفرنجية والبنطلونات , تؤكد أنه دور أفندية ودكاترة وليس دورًا في سجن أي سجن .

الشاويش الذي استقبلنا - بالرغم من نظرة الازدراء التي رمق بها جلابيتي وحذائي الكاوتش المهترئين - بترحيب شديد .. صائحًا :  
- أهلاً يا زملا .

حوله كان يقف ثلاثة أو أربعة أفندية لهم هيبة . حاولت أن أتعرف على أي منهم فلم أستطع - استقبلونا بترحاب جميعًا وبعد أن سألونا وتعرفوا على هويتنا وقضيتنا التي حسمها كون (أحمد) أخو (السيد يوسف) و(عبد الحميد) شقيق (أحمد عبد الرزاق) وأننا من الدقهلية وبالذات تردد اسم (حسين عبد ربه) والشيخ (الخشان) و(أحمد رفاعي) و(عادل حسين) . مضى بعض الواقفين وتركونا نافضين أيديهم منا فنحن على ما يبدو أبناء القبيلة المعادية بينما أفرط الآخرون في الترحيب وقادنا أحدهم إلى الزنزانة على يسار دكة الشاويش مبتسمًا .. قائلاً :

- خشوا استريحوا .. ح ابعت لكم فطار وح يجيكم بلدياتكم .. ما تعلقوش . يا مرحب!
- لم يتحرك الشاويش من مكانه . ولم يمسك حتى بتذاكرنا ولم يهتم بالحديث . كان هناك زميل (ملكي) هو الذي تولي كل شيء .. حتى المفتاح تناوله ببساطة وفتح لنا الزنزانة وأرسل آخر إلى حجرة المخزن المجاورة أحضر لنا بطاطين وأبراشاً جديدة كلها ! .. ودفع بكل ذلك عبر الباب ثم رده فانغلق سنّة واحدة علينا بينما كان الشاويش منهمكاً في تقشير البرتقال .. وتدخين سجائر متتالية ..
- عندما أغلق الباب .. ضحكنا جميعاً بلا اتفاق .
- هه ! .. شفت الزملا قد إيه ؟ يا رب نفضل معاهم هنا.
- همه اللي حاكمين السجن يا ابني .. بطاطين عمرها ما حكّت قفاك وسرير كمان .. فاكّر البرش اللي نمت عليه أول ليلة .
- أيوه . بس ليه قفلوا علينا ؟ .. ما كلهم راحين جايين في الدور اهه .. ولا زنزانة بابها مقفول .
- لأ.. بقى سيبهم يرتبوا شغلهم .. ياللاً نفرش نمرا .. أكيد ح يجولنا بعد شوية أنا ح آخذ السرير اللي في النص .
- وانهمكنا في فرش النمر .. لأول مرة ثلاثتنا في زنزانة واحدة !
- كل تعب الدنيا حط على جسمي .. خلعت الجلاباب التاريخي وألقيت به على حافة السرير , ولقفت نفسي في البطانية وألقيت جسدي على السرير ورحت في نوم عميق .. صحوت على من يهزني برفق .. خيل لي أنني قد عدت لبيتنا :
- قوم يا ابني بقينا العصر .. إيه ده ؟ دا انت ميت مش نايم .
- صحوت لا أصدق أنني نمت كل هذا الوقت .. أحسست أنني نمت دهرًا ولم أتعرف لأول وهلة على المكان .. كان الفراش دافئًا يغريني بالعودة لإغماض عينيّ والعودة لحلم ناعم عجزت عن جمع تفاصيله بأي صورة .
- قوم يا زميل .. زمانك ميت من الجوع ..
- فعالاً . أحسست بجوع شديد وشدتتي رائحة الطعام الغريبة .. ناولني (عبد الحميد) قروانة نظيفة لامعة مليئة :
- مكرونة ؟! معقول!! وكفتة ؟! لا .. دا انا روّحت فعلاً ..
- ضحكنا .. ولوح (أحمد) في وجهي بكيس فيه قماش :
- الحياة العامة بعنت لك طقم جديد يا عم . قوم وارمي الجلابية العرّة دي وخذ بيجامة بشوكها من عمر أفندي .

ناولني كيسيًا به بيجامة كستور .. ولكني وضعتها جانبًا وتناولت قروانة المكرونة لأسدً لهفة  
بطني ممتنًا ..

كان الزميل (عبد الحميد) منهكمًا في القراءة تتناثر حوله عدة جرائد ومجلات في هدوء من  
يجلس مطمئنًا في بيته .

نزلت من الدور التالت إلى أرض الزنزانة وضايقني الباب المغلق . وقبل أن أنطق بما ضايقني  
حين تبينته , قال :

- إحنا بقينا آخر النهار يا زميل .. بيتّموا . ما انت مش دريان انت نمت قد إيه ؟ ياللا نوم  
الظالم عبادة .

- الله أكبر إحنا جايين ناكل ونام الظاهر .

- لآ .. ونقرا جرايد .. قوم .. اتسلى بنكلة المجلة والصبح رباح .. بكره ح تجينا لجنة تحقق  
معانا .

- إيه ؟ .. لجنة إيه ؟ ..

- اللاه . مش الحزب عايز يعرف حكايتنا إيه ؟ قوم البس البيجامة يا عم وريّح زي بيتكم تمام .  
في الصباح فتح أحدهم باب زنزانتنا ومضى .. ولم يدعنا أحد للذهاب إلى دورة المياه . لكننا  
كالعادة هرعنا كما نفعل في سجن المنصورة لننجز طقوس الصباح في أسرع وقت قبل فتح  
الزنازين الأخرى ولكننا اكتشفنا أن الإيقاع هنا مختلف فلم تكن زنزانتنا أول ما فُتح من زنازين بل  
كان الزملاء منتشرين في الطرقات الأربع وفي دورة المياه على راحتهم حتى أن (أحمد يوسف)  
الذي كان أكثرنا نشاطًا حين قفز يحمل جردل البول ليفرغه بسرعة .. كبح خطواته المندفعة  
وأبطأ في خجل كطفل . وسار على مهل وكبرياء مصطنع حتى لا يبدو مضحكًا لكنه سمع من  
يضحك مداعبًا بعد أن صاح به مهددًا :

- ماشي على مهلك ليه يا مسجون ؟ .. بالخطوة السريعة ..

فعلها وأسرع في البداية ؛ إذ ظنه السجان لكن ضحكته جعلته يبادل الضحك , ثم تعرف إليه  
مكتشفًا أنه بلدياته ؛ ليغرقا معًا في تبادل الذكريات , ونسي أن يفرغ الجردل إلى أن سمع (عبد  
الحميد) ينادي عليه لتناول الإفطار وهو يستعجله في إغراء مرح :

- ياه .. مرّي وزبدة .. وفول مدمس ؟ وجبنه اسطنبولي .. وعيش أبيض .. ده ولا في الحرية .  
ياما ح تشوفي يا (ميت الحلوج !)

- ده مش كل يوم يا زملا .. دي الحياة العامة يعني بترحب بيكم . ده فطار للضيوف

بس . مش يعني كل يوم من ده .

- يا سيدي اشكر لنا الحياة العامة وخليها تعتبرنا ضيوف على طول .

- طبعًا .. وهو يعني كنا بناكل كل ده بره . كلنا ضيوف الحكومة ..
- ده ترفيه .. لو خدنا عليه مش ح نطبق نرجع سجن المنصورة .
- مش ع الأكل ؟ هو احنا لو قعدنا هنا يومين والا أسبوع مش حنقدر نتكيف ثاني مع غباء عمك (عبد المتعال) وقفلة مخ (عبد التواب) .. ربنا يستر .
- سيبكو من الكلام ده دلوقتي .. اللي عايز يبعث لأهله رسالة يكتبها .. لأن الظاهر انكم مش رايعين النهارده النيابة وفيها ليوم السبت ..
- أعطانا ورقًا وقلماً وثلاثة مظاريف .
- أضاف أحمد يوسف ردًا عليه :
- لا .. دا كتير يا زملا .. وجوابات كمان .. ناقص نقرأ الجرايد والمجلات ..
- وانت بتقول فيها .. ح ابعت لكم كام جرنان تانيين تعوضوا الجفاف اللي انتو حاسين بيه ..
- بعد الإفطار لاحظت أن (عبد الحميد) انطلق بسرعة ليلحق بزلاء مجتمعين في آخر الدور يقودهم زميل آخر في طابور رياضة وتمارين . كانوا يرتدون شورتات وفانلات وكأنهم في نادي البلدية وبعضهم كان يتمرن بملابس السجن .. في اندماج وكأنهم على موعد مع سباق ما ..
- لكنه عاد بعد أن وقف يتأملهم قليلاً .. لأن الزميل المدرب نصحه بعدم اللعب لأنه تناول إفطاره ونصحه بتأجيل الرياضة للغد على الريق .
- وانت باطنك فاضية أسلم يا زميل .. عشان ما تتعش .
- فعاد إلينا مكسور خاطر وقال مبالغًا على سؤالي :
- يا عم النادي رفض عضويتي .. الكابتن الظاهر خاف عليّ م الملكي الزيادة يربك لياقتي ..
- نودي علينا للعودة للزنزانة .. فقد سرحنا في الدور نتعرف على زملائنا بعد أن دلنا زميل على زنازين حزينًا طبعًا وزنازين التكتل , ولما لاحظ تحفظي على ذلك شرح لي باسمًا :
- اللي ما يعرفك يجهلك .. ويمكن كمان يشك فيك .. خلي الأمور تمشي طبيعية بلدياتك اللي تعرفهم اتعامل معاهم لكن الحذر واجب وزملاءنا لما ح يقعدوا معاكم ح تفهموا ..
- أشياء كثيرة لم أفهمها ..
- نظرة الاستكثار التي كانت تلوح في عيون رفاقنا إذا ما حاولت التبسط مع زميل من التكتل .. مهما حاول إخفاءها أو التخفيف منها .. وكذلك نظرة التعالي التي كان الزملاء من التكتل يقابلون بها محاولة التعرف عليهم أو التودد إليهم ..
- ونحن كالعطشى الذين وصلوا إلى شاطئ نهر بعد لأيٍ وفجأة ظهر من يحذرهم أن الماء قد يكون مسمومًا ..

- يا فلاح .. الحكاية مش كده .. الحزب بقى اتتين .. وطبعًا كل واحد عايز يلتزم الأمان ..  
لحماية أعضاؤه . وأساراه .. إحنا مش في رحلة . ثم إن أعداءنا يمكن يندسوا وسط الكل . منين  
تعرف ؟

- يا زميل أيوه مفهوم لكن ده ما يوصلش للجفا والعداوة . كلنا مفروض اننا زملاء والود مطلوب  
. إحنا كلنا مشكوكين في (سلبية) واحدة ايه .. احنا كلنا تحت مطرقة واحدة .

- إسمع .. تعالوا ندخل نتكلم جوه . بدل ما بيان اننا بنتخانق !!

ناديت (أحمد) و(عبد الحميد) وكانا قد سرحا مع زميل بلديات لهما . كان متهمًا مع مجموعة  
من المنصورة وجاء (عبد الحميد) ضاحكًا .. يضرب كفاً بكف ..

- تتصور ان الواد (شاور) هو اللي (موقع) القضية اللي فيها الواد (موسى) و(حسين) و(عبد  
عباس) و(زين) !.. و(فؤاد حجازي) !!

لم أعلق ودخلنا الزنزانة ومعنا الزميل المسئول الذي واجه كلام (عبد الحميد) بابتسامة  
عريضة مفتعلة :

- يازملا إحنا مش في الحرية .. انتو في السجن . وكلنا تحت عين الحكومة والمباحث .. وكل  
كلمة ممكن تتحسب عليك .. معاك أو ضدك ..

- يا زميل مش كل اللي هنا زملا ؟!

- لأ .. مش كلهم .. الحملة علينا شديدة .. وهمّه بيرتبوا لنا قضايا .. وكل كلمة ممكن  
يكون ليها تمن .. فيه كتير اترحلوا من هنا .. منهم اللي اتهموا بقضايا وفيه اللي راحوا على  
المعتل .. .. احنا مش عايزينكم تخافوا , لكن برضه احنا مش في رحلة .. وح يجيلكم زملا  
قانونيين ويفهموا في القضايا . ولحد ما يحصل ده ويسمعوكم خلوا حركتكم وكلامكم في  
أضيق الحدود وخاصة مع زملاء التكتل . والزملا اللي ما تعرفوهمش .

- ماشى يا زميل .. اعذرنا .. إحنا جايين من الفراني .. وزى ما انت شايف بنتنشق على  
الكلام معاكم ..

- خلاص يا سيدي .. ح يجي لكم اللي يسمعكم واتكلموا براحتكم ..

وقام الزميل مخليًا المكان لثلاثة من الرفاق يبدو عليهم الوقار اللائق بالقادة . كان منهم  
الزميل (أحمد الرفاعي) (عاكف) وكنت أعرفه وقابلته من قبل عرفته به (حسين عبد ربه) فقد  
كان زميل وصديق عمه (يوسف) منذ لجنة الطلبة والعمال .. وهو من عرفني بدار الفكر  
وب(صلاح جاهين) .. و(كمال عبد الحلیم) .. المهم أن الثلاثة جلسوا معنا فانحشرنا في  
المساحة الضيقة بين السرير ذي الثلاثة أذوار والحائط .. تربع بعضنا على الطبقة الأولى  
من السرير وجلس اثنان على الجرادل ورُدَّ الباب ..

وبدأوا أسألهم .. وتنوعت إجاباتنا .. كانوا يريدون معرفة ملابسات القضية وما قلناه في التحقيق , وظروف كل منا . وحكى كل منا ما رواه من قبل ..

بعد تدخين عدة سجائر .. صار الجو في الزنزانة خانقًا وكانت ظروف القضية بشكل عام قد وضعت أمامهم كاملة بشكل سريع .. فاقترح (أحمد الرفاعي) أن يحكي كل واحد منا لزميل من الثلاثة . واختصني بنفسه وقام فتبعته إلى الخارج نمشي في طرقة الدور الثاني من العنبر .. وقام كل زميل باصطحاب واحد من زميلِّي ليتحدث معه براحته وبالتفصيل , ليتمكن تقييم الموقف بعيدًا عن جو الزنزانة الخانق .

خمنت أنهم يريدون مطابقة ما قلناه ونحن معًا بما قد يفضل أن يقوله كل منا وحده بعيدًا عن الآخرين ..

مضينا (أحمد الرفاعي) وأنا نسير قاطعين الممر أمام زنازين العنبر عدة مرات .. وكم تمنيت ألا تنتقطع هذه المحادثة أبدًا .. إذ شعرت شعورًا حقيقيًا أنني لست في السجن على الإطلاق .. كان أحيانًا يربت على كتفي راضيًا وأحيانًا يستوقفني ليتأكد من حقيقة ما أقول أو للسؤال عن التفاصيل . وكنت أحس أنني طفل يسير إلى جانب والده في صبحية يوم سعيد اصطحبه فيه لإنجاز أمر ما مفرح رائع .. كان (العمدة) .. الذي سمعت باسمه في وقت مبكر في أواخر العقد الأول من عمري عندما كان (حسين) يحكي عن أصدقاء عمه الثوريين من طلبة الحقوق في اللجنة الوطنية للطلبة والعمال .. ويوم قرأت في (المصور) عنه وعن قريته (طناح) حين قبض على أول خلية شيوعية من الفلاحين المصريين كانت مجلة المصور قد نشرت مع التحقيق صورًا غامضة لساقية كانوا يجتمعون عندها !! ولوجوه أليفة لرجال كأنك تعرفهم , مع أنك تراهم لأول مرة . وكم تركت متابعة تفاصيل تلك القضية وتحقيقتها في نفوس صبية يتفتحون ويفتحون عيونهم على كلمات غامضة عن العدالة وحقوق الفلاحين المنهوبة وعلى أسماء وصور أفندية وفلاحين فقراء يتحدون الإنجليز والملك بل ويريدون الانضمام لجيوش بناء الاشتراكية ومستعدون للتضحية بحياتهم ودمائهم من أجل الحرية والعدل . وأن مصر يمكن أن تصبح في قوة روسيا .

وظلت الصورة الغامضة التي ترسمها كلمات كالشيوعية والتحرر توحى بالخطر ولكن أيضًا بالكفاح . وما يثيره في النفس السجن وتحقيقات النيابة وتحدي مثالي تلفحك أنفاسه مع كل قراءة تقرب قلبك وعقلك إليه وتثير خوفك منه ..



ثم عرفت عنه بعد ذلك أنه كان أحد الشيوعيين القلائل الذين عبروا بحيرة (المنزلة) في ملابس الصيادين , ليشاركوا أهلها مواجهة العدوان على (بورسعيد) .. وقربتني الصدفة منه أكثر خلال الخمسينيات ليكون دليلك أحياناً في زحام القاهرة إلى أولئك الذين ارتبطت بهم إلى الأبد من فنانيين وثوريين بكل ما حملته هذه العلاقات من وعود , وما صورته لي من أحلام .. حتى كان ما كان بعد أن ارتبطت بالحزب بعد وحدة الشيوعيين . كان أحد الأربعة الكبار من زعماء (الموحد) الذين جرى فصلهم تعسفياً من الحزب الوليد فلم أتردد أنا و(حسين عبد ربه) من الاحتماء من الكارثة العاصفة عن اللحاق بمركبهم . مركب الانقسام كما أطلق علينا رفاق (التكتل) لأنه لم يكن لنا أن نعوم إلى مركب آخر لا نعرف أحداً من ركابه أو ملاحيه ..

كانت تخاليني ذكرياتي بكل هذه العواطف الصبية العميقة وأنا أسير إلى جواره سعيداً حين يناديني (يا زميل) و أحياناً (يا إبنى)! .  
وفي أحيان كثيرة باسمي مجرداً وكأننا صديقان من زمن سحيق بينما احتميت أنا من كل الحرج المرتبط بمكانته بمخاطبته باللقب الأقرب إلى القلب والذي يناديه الجميع به (يا عمدة) وجنبي هذا كثيراً من مبالغات الأدب والاحترام .. أو مغريات التباس والألفة .. فوجئت بأحمد الرفاعي يسألني عن (زينب) .. للوهلة الأولى أصابتنى الدهشة ..  
- زينب ؟! ..

وسرعان ما انتبهت وتذكرت أن (حسين عبد ربه) - الذي سبقني بالتأكيد إلى هذا الاستجواب - من قبل لابد أخبره كعادته بتفاصيل القبض عليّ معه وما جرى مع ضابط المباحث (أحمد شوكت) فضحكت .

- واشمعى زينب يعني ؟ ..

- هوّ فيه غيرها ؟ !

- أوه .. ما تعدّش .. خلينا (يا عمدة) في اللي احنا فيه .

وحاولت أن أغير سير الحديث فأسرعت أحكي له عن قرار العودة إلى القرية عقب حملة مارس ومقابلتي (مجدى نصيف) معها ..

فقاطعنى ضاحكاً لأعبر هذه المنطقة أيضاً ..

- ما هو (مجدى) شرف هنا برضه . وحكى لي عنك وعننا خلينا في موضوعنا - خلينا في اللي احنا فيه !!

ضحكنا معاً ضحكة لفتت أنظار الكثيرين من (الهلالية) و(الزغابية) المنتشرين أمام الزنازين على طول أربعة أضلاع (الشرفة) ذات القضبان ..

كانت انفعالاتي تسابق كلماتي ..

وأنا الآن أسير جنباً إلى جنب مع أحد الشخصيات التي جهزتي ودفعتي من عدة جوانب  
ثرية ورائعة نحو المدى الثوري ..

كان يناديني باسمي مجرداً في عطف وأحياناً يقاطعني بـ(يا إبنني) .. أو في جدية  
يخاطبني بيا زميل بعد شهور الجفاء والخشونة في قبضة وحدة وصمت الزنزانة الانفرادية  
فأحس أننا على رصيف شارع (بالمنيرة) متجهين إلى مكان ما في الخارج ولم تعد تفصل  
بيننا وبينه تلك المسافة من الغموض الممزوج بالرهبنة .. فنحن الآن في السجن ولنفس  
السبب وفي سبيل نفس اللحم .. نسير جنباً لجنب ..

في غمرة كل هذه المشاعر المربكة والمفرحة في نفس الوقت حكيت له كيف عدت إلى  
القرية لأحقق التكليف الذي طلبه منا الحزب (أن واجب الطلبة الأول هو النجاح) ولم أخف  
عنه شعوري الغامض الذي أرّقني : أن في عودتي للقرية نوع من الهروب الناعم من  
المعركة نحملها حجة أنه تحقيق لتوجيه الحزب وليس أمراً اختيارياً ..

بعد عدة أيام .. وصل (عيداروس القصير) إلى القرية .. كان كالمتمكر يرتدي جلباباً  
ويغطي رأسه بمنديل محلاوي .. ولما سأل عن (الحاج عبد الباقي عوض) .. دلّه أولاد  
الحلال على والدي الذي كان يصلي الجمعة في (سيدي مجاهد) .. وفوجئ أبي فور انتهاء  
الصلاة بذلك (الغريب) الذي لا يعرفه إلى جواره يسلم عليه بحرارة معرفة قديمة .

- حرماً .. يا عم (عبد الباقي) ..

وفوجئ أبي فسأله فزعاً وكانت المخاوف البوليسية شبحاً يخيم على القرية :

- إنت مين ؟ ..

- أنا زميل (سمير) في الكلية ..

لم يرتح أبي لمنظره في الجلابية والشال .. ولا لنظرة عينه السهتانة التي هي في الحقيقة  
تقاوم الضوء بحثاً عن الوضوح .. وهمّ أن يتركه ويمضي دون أن يبدي اهتماماً حتى لا  
يلفت نظر أحد من حوله ..

لكن (عيداروس) الذي كان كالغريق الذي وجد القشة التي يتعلق بها ..

- أنا عايز (سمير) ضروري .. فيه حاجات مهمة في الامتحانات لازم يعرفها .. ما

تستغريش من منظري . أنا أصلي نمت في القطر , وسها عليّ في محطة (المنصورة) ولما  
حببت أنزل من القطر بعد ما مشي اتشكلت وقعت وبنطلوني انقطع .. كنت أعمل إيه ؟

ومنمًا للفت الأنظار سحبه أبي من يده .. وخرج من الجامع , متجنبًا تقديمه لمن يسلم عليه , مسرعًا قدر ما يستطيع , متمددًا إن سُئل عنه ألا يجيب ويتجاهل الأمر .. وهو يسرع ليصل البيت راجيًا ألا يلفت الأنظار .. وكل موجبات الشك تطارده .. متخيلًا أنه بعد كل هذا الحذر والخوف تناوشه فكرة طرأت له فجأة أنه يصحب مخبرًا من البوليس بنفسه إلى فلذة كبده .. ولكنه طرد هذا خاطر وهو يتأمل طيبة (عيداروس) وانكساره ولما وصلا إلى البيت أدخله في عجلة للجلوس في المنذرة .. وصاح بمن في الداخل :

- ابعثوا شوفوا لي (سمير) فين ؟ قولوا له بيحي حالاً . (ثم التفت إليه في جدية) إيه يا سيدي الحكاكية ؟ .. انت جاي صحيح بخصوص الجامعة والامتحان والا فيه حاجة تانية ؟ انت مين قول لي حالاً !؟

- أنا فعلاً زميل (سمير) في الجامعة .. بس هو زراعة وأنا في كلية التجارة .. أنا م الشرقية جنبيكم ما تخافش مني .

- وإيه اللي لمّ (الشامي على المغربي) انشاء الله . ما تقولها على بلاطة انت بقى زميله في السياسة انشاء الله .. وجاي عشان تروحوا سوا في داهية هه ؟؟ ..

كنت قد وصلت فأعفيت (عيد) من الإجابة المخرجة ضاحكًا :

- أهلا اان (عيداروس) لا والله جدع اللي وفيت بوعدك وجيت ، ما كانتش مصدق انك هتعملها .. لكن الله .. ؟ إيه اللي انت لابسه ده ؟ (عيداروس) يا بابا أعز اصحابي .

لم تخل على أبي محاولتي احتواء الموقف لجعله أمر زيارة عاديًا فتركنا غير مقتنع , وهو يمصمص شفثيه كعادته عندما لا يعجبه أمر .. وهو يقسم لنفسه أن هذا (العيداروس) .. شيعوي !! المهم وبدون الدخول في التفاصيل .. كان (عيد) قادمًا ليناقدش معي تكليفًا من الحزب بمحاولة لم شتات التنظيم في بحري .. وأنه مع الاهتمام بضرورة النجاح , كان الحزب في حاجة لاستعادة الخيوط المتقطعة وخاصة أن كثيرين منا لم تطلهم حملة مارس الماضية وبعضهم هارب .. وهناك ضرورة للاتصال بهم .. وطمأنت (عيد) على أننا نحاول .. وقد بدأت بعض الخيوط تتجمع بالفعل وأن هناك اتصالاً بالهاريين في (بورسعيد) وبعض الزملاء في بعض القرى .. صاح أبي ساخرًا من وسط الدار , وأنا أصحب (عيد) لتوصيله إلى المحطة بعد أن ناقشت معه الوضع أثناء تناول الطعام .

- شرفتنا يا (شراقوي) . وابقى تعالى زورنا .. بس خلي بالك وانت بتتنزل من القطر ..عشان ما نُقعش .

سحبت عيد بسرعة في طريقنا إلى المحطة , وأنا أعتذر له عن طريقة أبي الساخرة .

ولكن (عيد) اعترض :

- يا راجل وشرفي دا راجل زي السكر . يا بختك بيه .. !  
لم يكن أبي مقتنعًا بحكاية البنطلون هذه .. وكان متأكدًا أنه (منهم) يقصد منا.. وأن  
تتكره في هذه الملابس لا يخيل على أحد ..

ولما أحسست أن (أحمد الرفاعي) متعاطف مع ما حكيت ومازال يسمع باهتمام , رغم  
إحساسي أنني أسرد تفاصيل ليست بذات أهمية لزعيم مثله , يقتطع من وقت سجنه طويلاً  
ليسمع لي .. قررت أن أختصر وأن أركز على المهم ..  
- أيوه .. المهم . (بورسعيد) والمجلة وكازينو الشجرة .. وما الذي حدث مع ذلك وجعلكم  
تشرفونا هنا .. يا بطل ..

لم يكن في كلامه أي نبرة سخرية وأحسست أنني لن أكون بطلاً أبداً .. ما دام الأمر كله  
انتهى بتشريفنا كلنا في السجن .. ولكني عدت معتمداً على تعاطفه لأشرح أننا قمنا بما  
يجب عمله , في حدود ظروفنا وإمكانياتنا ..

\*\*\*

#### • قال الرفاعي :

- عندنا فكرة عن اللي عملتوه .. لكن فيه أسئلة كثيرة طبعاً . الحزب عارف قد إيه  
كانت ضرية مارس وأثارها .. وفي كثير من الأحيان الصورة كانت فظيعة ومعظمكم  
كان عضمه طري .. لكن اللي حصل في سبتمبر كان مش مفهوم .. كل دول يُقعم في  
وقت واحد .. (السيد) و(حامد) و(برق) و(الزعفراني) .. و(مجدي) وانت وغيركم في  
(إسكندرية) وفي (أسيوط) و(عيداروس) كمان . على فكرة (سيد يوسف) و(الموجي)  
حكوا لي عن المجهود اللي انت عملته لكن ليه بسرعة كلكم صادوكم كده ..

#### قلت للعمدة :

- يا عمدة إحنا كنا بنشتغل بعواطفنا .. ما كانش فيه حد عنده خبرة ولا كان ورانا تاريخ ..  
والحزب ما ربّاناش كويس .. كنا زي الهواة . كان الواحد حاسس اننا شلة صحاب بنلم بعض  
عشان مظاهرة لتأييد عبد الناصر . إحنا دخلنا السجن وما حدش قال لنا يعني إيه السجن .. ولا  
ازاي نتصرف مع اللي حابسييناً بدليل لما سألوني .. (سجن ولا ملكي !) على باب سجن  
(المنصورة) .. أشفقت على أبي من التسع جنيهاات اللي هيدفعهم للمتعهد عشان أكل الملكي .  
لكن كان ممكن تعطونا فكرة إن ممكن التحقيق يفضل لابس الملابس ملكية ويأكل م السجن ..

ما كانش عندنا فكرة .. فنزعوا عنا الملابس الملكية وانا قضيت الأيام الأولى في سجن المنصورة لابس بدلة (تسول) شبه عريان - مش مهم - لكن الكرامة اتبعزقت من غير ما حد يمد إيده عليّ .. لكن قضيت أول ليلة أعيط على كرامتي .

ضحك العمدة وطبقت على وهو يقول :

- يا سيدي مش انت اللي قلت لهم البلد اللي ما حدش يعرفك فيها امشي وبرطع فيها .. بتستغرب ليه ؟ ما هو الحزب برضه كان معاكم مع ذلك وكلهم حколنا زي ما انت بتحكى دلوقت ..

قاطعته وقد كاد صوتي تخنقه دموع مفاجئة :

- يا عمدة احنا كنا شوية تلاميذ أنا مش بانكسف من كده لكن الحزب ما كانش معنا .. لأنه الحقيقة ما كانش موجود ولو إن (الخشان) كان بيقول قبل الحبسة .. الشيوعي مفروض يكون جاهز لكل ظرف وعنده إجابة لكل سؤال . حتى لو انقطع بيه الاتصال .. يكون هو الحزب بنفسه ويتصرف .. إحنا كنا سارقانا السكينة . من يوم تأميم القنال والحرب والمقاومة بنهتف لعبد الناصر من قلوبنا . وانا شخصياً كنت حاسس ان أحلامي في الوطن بتتحقق وكلامكو كان بيثجعنا على كده ويمكن ده اللي خلاني أنا و(حسين) نوافق على الانضمام للحزب بعد الوحدة . لكن ما كانش حد بيقولنا ان فيه مطبات وكل شيء ماشي مع أفكارنا .. اللي عمرها ما شكّت ان ممكن عبد الناصر يقلب علينا كده ..

كان الناس معنا ويمكن وأكد عندك فكرة عن معركة الجمعية الزراعية وقد إيه كانت (ميت سلسيل) ورانا .. لكن إحنا ما كانش عندنا فكرة رايحين على فين ويمكن الفلاحين فاكرين اننا اللي بنحكم البلد . ولما اتقبض على (حسين) واتهدد كل زملاءنا في البلد وخصوصاً بعد انتخابات الاتحاد القومي اللي شطبوا فيها معظم أسامينا البلد برضه فضلت معنا وأجبرنا عساكر المركز والمديرية على الهروب والبلد طلعت وراهم بالطوب كلما حاولوا يقبضوا على مرشح لينا وهو (محمد عبد ربه) . كان بيخطب في حماس وهو بيقول للناس - لقد آن الأوان لتطهير الثورة من الرجعية وأذئاب الاستعمار والإفراج عن المعتقلين اللي من أشرف أبناء الشعب .. وإيه الى حصل بعد كده ؟ بعدوه عن البلد رغم نجاحه .. وشتتوا كل اصحابنا .. وما كانش عندنا أي خطة لمواجهة ده ..

ولا ف إيدنا أي إمكانيات .. وأخيراً شرفت أنا كمان . ما كناش نعرف يعني إيه اننا ف تنظيم سري .. ما حدش علمنا قواعد الأمان .. ما تزعلش مني .. الواحد في الزنزانة الانفرادي دماغه ما بتبطلش . إحنا كنا في الجامعة - قسم الجامعة يعني - بنجتمع أكثر من (15) واحد من كليات مختلفة عندنا في شقة السكاكيني أو في شقة (الولوجية) ف (عابدين) , وكنا بتأدي بعضنا بأسماء حركية وتلات أرباعنا عارفين أسامي بعض الحقيقية .

كل اللي كنا نعرفه من قواعد الأمان الحزبي إن نبص ورانا عشان نعرف إن كان حد بيراقبنا ولا لأ .. واننا نخبي المنشورات والورق .. (عيداروس) قال أروح اجيب اتصال من السجن لكن زملاءنا قالوا ان (حسين) اترحل للوحدات وقالوا ممكن أزور (رفعت) على إني ابن خالته . طبعًا أنا خفت وكنت متأكد إني ح انكشف ، وده عن طريق أخو (سيد) وزملا (دكرنس) اللي عطولي عنوان (بورسعيد) عشان أروح لهم . ولقيتني شايل حمل مانيش قده . زيارة خطرة للسجن وسفر على بورسعيد وما فيش فلوس أصلاً .. لولا ان اختي اللي كانت بتشتغل على مكنة الخياطة اعتبرت نفسها مسئول المالية بتاعتنا عطتني اتنين جنيه وبحجة إني لازم أوصل الكلية عشان جداول الامتحان عطاني أبويا اتنين تانيين وسافرت في عربية نقل بتاع سواق من بلدنا .. عشان أكون الصبح في مصر .. وأقنعت نفسي اني ما اروحش شقة النزهة إلا بعد ما اخلص المهمة .

- إيه ما كنتش متشوق لـ(زينب) والا إيه ؟

ضحكت وجاريتيه ..

- ما اهو انا لو رحنا الشقة الأول .. الحكاية ح تبقى (زينب) ومش مهم زيارة السجن بقى .

ولا (رفعت) ولا يحزنون .

- يا ولد يا جامد .

- إولادك يا عمدة .. شئون القلب تتأجل في سبيل الواجب . المهم أنا أول ما وصلنا شبرا الخيمة مع دغميشة الصبح كان حصل فصل بارد من السواق قرفني . وأول ما وقف في أول إشارة رحنا نازل من الكابينة ورامي له نص جنيه أجرة .. وتهت في الميدان عن عينيه .. جبت سندوتش فول وطرشي وقعدت ع القهوة أشرب شاي لحد ما القط نفسي واسترد روعي ..

- ليه ؟ .. هو إيه اللي حصل ؟ واتخانقت مع السواق ليه ؟

- حكاية بايخة وسخيفة قلبت معدتي . أصل أنا ما بحبش النوع ده من البني آدمين .. مع إنه كان راجل فتوة وملو هدومه ..

- يا سلام .. حصل إيه ؟ ضربك !؟

- يا ريت ؟ وهو سايق ع الآخر وعينيه بتتعوس لقيته بيستعبط وبيمد إيداه يلعب في بتاعي .. وعامل مش هنا .. وأنا اقعد أبعد عنهُ وانظر إيداه وازغرله كده لحد ما قرفت . اتقايب في الكابينة وكنت ح انط من العربية قرأاً منه .. وما صدقت وصلنا شبرا رزعت الباب في وشه وشتمته ومشيت .

- طب ودي كان الحزب يعلمك فيها إيه ؟

- يا سيدي الحياة خير معلم . احنا رجالة فلاحين يا عمدة . بعد ما فطرت ركبت الاتوبيس بتاع (السيدة عيشة) وعلى (قره ميدان) - عدل ..

المهم زرت (رفعت السعيد) على إني ابن خالته وحمدت ربنا إن الشاويش اللي بيكتب الزيارة ما كانش هو اللي زرت (حسين) في وجوده بدل (فخري) لكن كنت مع ذلك بارتعش جوايا وخصوصًا إني ما لقيتتش الزميلة (انتصار) وسط الزوار رغم إني دوّرت عليها .. وقلبي كلني جدًا . (رفعت) لامني لأنني ما اتصلتتش (حنيطر) زي ما قال (حسين) قلت له ده كان رأي الزملا كلهم , لأنه قريب (عبد الناصر) . وشكوا فيه .

- (حنيطر) .. اتقبض عليه لكن أفرج عنه بعد كام يوم . وما اعترفش على حد .  
- على كل حال كان الاحتياط واجب .

- المهم رفعت لما شرحت له الموقف .. قال لي على (الزعفراني) ووصف لي محل هو شريك فيه في شارع (السد) في (السيدة) . ولما سألته الاسم (حركي والأحقيقي) قال لي ح ابعتك لكدانة في السوق باسم حركي!!؟ يا اهيل .. والأح تشك فيه ده كمان . ياللاً اتوكل . على الله هو ما يشكك فيك انت . وبعد ما وصف لي (محمد الزعفراني) .. وقال أمانة عشان يأمن لي - قعد يكلمني عن وطنية (عبد الناصر) وضرورة التمسك بخط الحزب السياسي رغم حملات المباحث والجناح المعادي للثورة جوه الثورة وان ثباتنا هو اللي ح يعيد ل(عبد الناصر) وعيه ويعيده إلى أحضان الجبهة الوطنية وإلى العقل فيفرج عن الشيوعيين وكل هذه سحابة صيف لابد أن تنقشع . وأردت أن أجادله وأن أنقل إليه ما يفكر فيه زملاءنا والناس في بلدنا .. ولكنه أكد ضرورة التمسك برأي الحزب وأن الآراء التي ترى تحويل الخلاف إلى صدام هي آراء تشق الصف الوطني ..

نظرت حولي وتأمّلت الحاجز السلكي والحديدي , والصف المجاور من الزوار الذين يتجادلون مع أقاربهم .. وأصابع تتشنج على السلك .. وأذرع تلوح .. وأطفال يبكون اختناقًا من ضيق المكان ووجوه عابسة وباكية وأخرى تتجمل .. ثم نظرت إلى ابتسامة (رفعت) الواثقة المحملة بكل وعود انتصار الجبهة الوطنية فقررت أنه أن الأوان لي أن أنقشع وأذهب للبحث عن (الزعفراني) !!

قال العمدة في عدم رصًا :

- إنت بتتريق!؟

- أعوذ بالله .. وأنا اروح فين عشان اتريق .. دا رأي الحزب ! .. وعليه أناقشه ف مستواي . ودي زيارة .. وأنا خايف ومرعوش .. وح اخرج ادور على حد ما اعرفوش ولا شفته قبل

كده .. والأمر مفتوح لكل الاحتمالات .. وفيه ناس بتستتاني في (مصر) و(المنصورة) وف (بورسعيد)! .. و(عبد الناصر) لسه بيخطب بملو الفم ضدنا . إحنا العملاء و(كمال الدين حسين) كاتب قطعة أدبية (راقية) يحفظها تلاميذ المدارس حتى الأولوية منها . تتحدث عن إن الشيوعية (داء ينخر في جسم الإسلام وينهى عن الفضيلة والحرية .. والإنسانية).. يزق بها أطفال لا يفقهون ما يقولون ويطرشونها في وجهي أو يطاردون بها إخوتي في المدارس . ولكني خرجت لأذهب إلى (السيدة زينب) لعلها ترتق تمزقات الجبهة الوطنية .

حي (السيدة) من أقرب أحياء (القاهرة) إلى قلب أهل (ميت سلسيل) يقيم فيه عدد لا بأس به من الذين رحلوا إلى القاهرة .. وكانت فيالق طلبة (ميت سلسيل) يفضلون السكن فيه لقربه من جامعة (القاهرة) ولأن (السيدة) ذات نفسها لها مكانة خاصة في قلوب أهلنا .. في شارع (عبد المجيد اللبان) تقيم أسرة الشيخ (محمد أبو مجاهد) وكتيبة كاملة من الطلبة المحترفين - كما كان أهل البلاد المجاورة يسمون طلبة (ميت سلسيل) - يقيمون بصفة دائمة في إحدى شقق حارة (أبو جبّة) التي خرّجت أجيالاً منهم توارثوها جيلاً بعد جيل وأنا نفسي قضيت أول أسبوع لي في (القاهرة) عندما التحقت بكلية زراعة (عين شمس) في العام (55) بناء على توزيع مكتب التنسيق - الذي كان اختراعاً لنظام يوليو لتحقيق المساواة بين البشر - في شقة كتيبة أخرى من طلبة البلد في حارة (القصر العالي) المتفرعة من (خيرت) .. ولذا ذهبت مسرعاً إلى (السيدة) وهي تبقى زيارة وتجارة .. واهو نتبارك بالست ونقرا الفاتحة للشيخ (الزعفراني) أقصد للزميل (محمد الزعفراني) .

وجدت الدكان خلف المقام على يسار القادم من الميدان عابراً شارع السد .. سألت من بعيد .. وعبرت أمام الدكان للاستكشاف والاطمئنان أن أحداً لا يراقبه ولا يراقبني . كان دكاناً عريض الواجهة واسع الباب أكثر ما يشبه دكاكين الريف الكبيرة .. وعدت وقد قررت جمع أطراف شجاعتي حتى لا يبدوعي وأنا أسأل أي اضطراب أو خوف .. كان هناك ثلاثة رجال , شابان في منتصف العمر وثالث كبير السن بعض الشيء ويبدو عليه كأنه صاحب المحل .. لكنه لم يكن (الزعفراني) .. اخترت أن أتقدم منه وأسأله .. فانسعت عيناه وغمرني بنظرة تساؤل أربكتني .. وسألني فجأة .. (إنت مين؟) .. أنا قريبه وجاي له في موضوع عائلي .. لم يبدد ردي نظرة الحذر والشك في عيونه ولاحقته في ثبات السائل القريب .. (هو ح ييجي إمتي؟) بعد أن تبادل النظرات مع الاثنين الآخرين اللذين كانا يتابعان الحوار باهتمام يشوبه كثير من الشك .. تأكد الرجل أنني (قد) أكون صادقاً لأن (الزعفراني) لم يكن أحدهما . وتشجعت وحييتهما كأني أراهما لأول مرة ..



عاد الرجل يسألني : طب نقول له مين لما يبجي ؟  
قلت في ثبات أكثر : قول له فلان من طرف علان ابن خالته .  
قال الرجل ببساطة مطمئنة كأنه يصدقني :

- طب انت اتفضل استريح وهو ح يبجي على الساعة واحدة . لم يكن الظهر قد أذن بعد  
فاعذرت له متظاهراً بالانشغال . وقلت له : سأذهب لزيارة قرايب لنا هنا ف (عبد المجيد  
اللبان) وارجع . بس وحياتك قول له يستناني .. سلامو عليكم !.

سلمت ومضيت ووقفت بعيداً حيث لا يراني أحدهم وانتظرت قليلاً أراقب الدكان .. خرج  
أحد الشبابين .. ونظر في الشارع يميناً ويساراً .. ثم عاد إلى الداخل .. فأيقنت أن الخطوة  
الأولى قد تمت بسلام .. وطبعاً لم أفكر في زيارة أحد من بلدياتي في الحي وجلست على  
قهوة منزوية بالقرب من الميدان وطلبت شايًا .

حين جاوزت الساعة الواحدة .. قمت وتوجهت إلى المحل . وقد هاجمني هاجس بالشك  
. ما الذي يمنع أن يسلمني هؤلاء للبوليس . وقد يكون الدكان مصيدة لأمثالي مثلما حدث  
مع شقة (الوالي) التي أعطاني عنوانها (رفعت السعيد) نفسه فأوقعت بـ(حسين) و(عادل  
حسين) ! ولكني طردت ذلك الهاجس لأن أركان الأمر ليست مكتملة ف(الزعفراني) لا يعرفني  
ولا أنا أعرفه .. ونحن في دكان عمومي يدخله كل من هب ودب . وقررت أن أجهز نفسي  
لذلك إذا حدث أمر غير عادي (سأسأل عن بضاعة ثم أتحجج بأي حجة وأنفلت ..) ثم إذا  
حدث أسوأ ما أتوقعه فماذا في الأمر .. ليس هناك ما يشكل خطراً .. (أنت تتبالغ في الأمور  
قليلاً!) ..

حين دخلت المحل عرفت (الزعفراني) على الفور .. إذ كان هناك رابع تنطبق عليه كل  
المواصفات التي زودني بها (رفعت) ! وتخيلت أنه تعرف عليّ إذ كانت ابتسامته ترحب بي  
قبل أن يتكلم الرجل العجوز ويقدم أهدنا للآخر .. وبعد تبادل عدة أحاديث تليق بالموقف ..  
قال (الزعفراني) فجأة :

- هيا بنا .. ووضع ذراعه على كتفي وخرجنا .. قال لي إنت مسافر من بالليل وزمانك يا  
ولداه على لحم بطنك تعالى ح نتغدى ونتكلم . حمد الله بالسلامة ..

و(تاكسي) .. وعلى حاتي الجيش .. محل كنت أشم رائحته كلما ذهبت إلى  
(العتبة) ولم أدخل على الإطلاق .. كانت المرة الثانية في حياتي التي أدخل لأتغدى في  
الحاتي . المرة الأولى لما حضرت للقاهرة أول مرة في صحبة أبي ومدرسين (ميت سلسيل)  
الابتدائية الذين كانوا يسكنون في الدور الثاني من بيتنا في عام 1953 .. وجئنا لحضور  
أعياد الثورة حيث غنى (عبد الوهاب) في ميدان (عابدين) في الهواء الطلق . وتغدينا كما

قيل لنا في الحاتي (الملكى) الشهير (علي حسن) بميدان (الألفى) . ولكن هذا حديث آخر .. ولكنني أذكره لأفسّر سحائب الشك التي بدأت تجتاحني .. فأنا جنئت في عريبة نقل يقودها سائق شاذ وبنصف جنيه .. ولم نستطع تدبير (5) جنيهات لتصنيع رونيو بدائي والآن أجد نفسي أتغدى في ثاني أفخم حاتي أدخله في حياتي ..

جلست محرّجًا ولكن (محمد الزعفراني) تتبسط وتتبسط مع أصحاب المحل مما يوحي بأنه زيون هام ودائم عندهم . وامتألت المائدة بأنواع المشهيات والسلطات . أعرف بعضها ولا أعرف الكثير منها .. ثم نزلت زجاجات البيرة الباردة .. فلم تمنع تراكم مقلقات الشك .. وأكلت وأنا أفكر فيما سيحدث بعد الأكل .

قال الزعفراني إن أهم شيء هو إعادة (لضم) الخيوط بعضها للبعض لكن مع الحذر لأن الخامة ممكن تكون مغشوشة , وأي غلطة ح تبوّط التوب كله .. أنا أعرف ان زملاءنا في الجامعة منهم من يحتاج إلى إعادة الاتصال بعد حملة مارس . قال (إن الحزب عارف ومن ناحيتنا في القاهرة عملنا حاجات .. والنهاردة بالليل ح نتقابل فين يناسبك يكون أنا عملت ترتيب !)

فرحت لأن الأمور ميسرة هكذا ومشواري ح يكون بغايدة مزدوجة . وحين حل ميعاد دفع الحساب , عاد الشك ينمّل في عروقي فقد طلب لي رغم معارضتي زجاجتي بيرة ولما سخر لرفضى وقال لي ضاحكًا (الفلاحين ما بيشرىوش بيرة؟) قلت (لأ الطلبة بيشرىوا) وعجبه الرد فضحك بصوت عالٍ لفت أنظار من حولنا وركض النمل في عروقي أكثر خاصة عندما دفع في الغداء والبيرة أكثر من (9) جنيه ودفع بقشيش محترم .. فبلعت نملي مقاومًا ارتيايى ..

فها هو زميل يدفع في (غدوة) كان ممكن ما تتكلفش مع الكرم الزائد جنيه والا اتنين فإذا به ببساطة يدفع ما يقرب من تمن (اتنين رونيو) خشب عجزنا نحن عن توفير تكاليف واحد ..

المهم .. ان أنا أسرعت إلى (مجدى) في (غمرة) ولحسن الحظ لقيته في البيت فاتفقت معه على أن نذهب معًا للميعاد بعد أن شرحت له أبعاد الموقف في بحري وأوضاع الهاربين .. وما جرى في محاولتنا لِمَ الشمل في القرى .. ووجدت لديّ وقتًا كافيًا فتوجهت إلى شقتنا في شارع النزهة لعلني أحظى برؤية (زينب) ؟ !

- أيوه زينب يا سيدي .. زينب مين فيهم ؟

سعدت جدًّا لأنه مهتم بشئونى العاطفية أيضًا .. ونظرت إليه في امتتان ..

- (زينب النزهة) .. لأن (زينب البنك) عايزة ترتيبات ما عنديش وقت لكده .. هو احنا ح ننهب وانا كمان ما عنديش وقت .

كنا قد اقتربنا من موعد الغداء وسمعت أصوات الكناتين ونداءات حاملي (اليمك) للاستعداد بالقروان ورأيتهم يستعدون في معظم الزنازين ويصفون القروان النظيف على الأبواب مع أنهم كلهم يرتدون ملابس مدنية .. فقلت أمال الجبنة الرومي والزيتون والبيض ده بيعملوا إيه ؟ ..

كانت أكثر من زلزلة قد دعتنا عند مرورنا لشرب الشاي . وشربنا .. في أكواب حقيقية واحنا ماشيين . لكن عند الزلزلة التي فيها (برق) دخلنا ودعاني (الرفاعي) للجلوس .. ورحب بي (برق) وبادرني مصطنعاً الغضب .

- يا زميل .. تسييني مطوع في كازينو (طلخا) وتعرضني للخطر .. مش كان الميعاد اللي بينا انت اللي حدّته ؟

حكيت معي القافية فقلت له ضاحكاً لمحاولة احتواء غضبه :

- إنت اللي (حدثو) .

امتصت غضبه فناولني كوب شاي محترم صنعته يد محترف قراري .. وطبعاً أكملت تقريري حرصاً على شرح حكاية الميعاد ولماذا لم أذهب إليه ..

قابلت (مجدى) ورحنا بعد المغرب على كازينو (الشجرة) .. الجو كان شوية لطيف ورأيت (الزعفراني) ومعه اثنان لا أعرفهما طبعاً .. واحد تخين قوي والثاني كبير في السن (قصدي كان برق) ..

وكان مجهداً ووشه مخطوف عن دلوقتي .. رحب بينا (الزعفراني) وقدمت (مجدى) باسم مستعار .. وجلسنا .. ودار الحديث حول ما يتطلبه عملنا من تدعيم الحزب في (القاهرة) وكانت شكوانا الأساسية هي افتقارنا لجهاز فني .. ونزلت طلبات البيرة وكل مرة ينزل طقم بيرة أجدني أتبادل أنا ومجدى النظرات في ريبة . والقعدة طولت ؛ إذ اكتشفنا أن هناك نقاطاً خلافية بيننا حول خط التبشير المطلق لتصرفات السلطة حيالنا .. والحملة الشعواء التي تحاصرنا بها خطب (عبد الناصر) وبذاءات ما يلقيه (كمال الدين حسين) للتلاميذ ضد الشيوعية ..

وتحدث الرفيق ضخم الجسم فقال وهو ينهج فقد كان تنفسه صعباً ..

- حظكم حلو ! .. إحنا وصل لنا جهاز فني متقدم جداً .. أول امبارح .. ما تشيلوش هم

طباعة أي حاجة .. بس نرتب طريقة بينا .. وقولونا احتياجاتكم ؟

وهنا تدخل (الزعفراني) ليحدد موعدًا مع (مجدي) يلتقيان فيه لترتيب الاتصال مع لجنة (القاهرة) والجامعة على انفراد ..

واتفقت على أن أعرض ما توصلنا إليه على زملائنا . وحددت مع (برق) موعدًا بعد يومين في (طلخا) .. وطلب مني أن أحمل معي عددًا من روزاليوسف في يدي .. وسيكون هو جالسًا في الكازينو على النيل بجوار الكوبري ومعه هو الآخر عددًا من (روزاليوسف) .. ولم يعجبني ذلك .. فأنا أعرفه وهو يعرفني والأمر لا يحتاج لأمانة بيننا .. ولما أن خرجنا من الكازينو بعد أن شربنا أكثر من 4 طواقم بيرة .. حتى زغدني (مجدي) في جنبي صارخًا ..

- يا ابن الكلب جاي تسلمني للمباحث ؟

ورغم الزَّيْب التي كانت تملأ قلبي والأسئلة الحائرة التي دارت في رأسي حول الجلسة وما جرى فيها إلا أنني دهشت لأنه قرأ أفكارى ومضى يؤنّبني :

- معقولة .. يعني الجهاز الفني ما وصلهمش إلا على بختنا ؟

- نظرت لمجدي في بلاهة وحاولت أن أذكره أن الذي دبر اللقاء زملاء الحزب في

السجن ومن غير المعقول أن يخدعونا ؟

- إسمع أنا مش مستريح .. وح استنى لما يرجع (عيداروس) وندبر أمورنا لوحدنا ..

- أنا اللي مضايقتي الطريقة اللي بيتشخر بيها (الزعفراني) وهو مصر على البيرة ورا

بعضه .. هو احنا كنا ف قعدة والّا اجتماع ؟

- ياللاً يا سيدي آدي انت سهرت لك سهرة عريدة ما بتحصلش ف بلدكم .. هه ؟ ناوى

تعمل إيه ؟

- أنا بعد كلامك ده مش ح ينفع أروح على (السكاكيني) ما هو لو كلامك صح .. يبقى

ح يقطرونا .. أنا ح ازوِّغ وعلى محطة مصر .. وأخذ قطر الجرايد على (بورسعيد) ..

أعرض الأمر على الزملا يمكن يكون لهم رأي تاني ..

- عجبني انك رفضت تاخذ منه الفلوس اللي عرضها عليك ؟

ما أنا معايا اللي يكفيني ويفيض لحد ما أرجع .. كلام في شرك خفت ليكونوا معلمين العشرة

جنيه وعاملين لنا فخ .

ضحك مجدي وهو يقول :

- يا فلاح ما فيش فايده الشك أقوى سلاح تاريخي .

- الحذر .. لو كانت فلوس حلال حزبية يعني .. أما يبقى فيه اتصال بعد كده تتدبر ..

إنما كلام في شرك أنا مش مطمئن .

احتج (برق) وكان يجاهد ألا يتدخل في مجرى الحديث :

- حذر إيه يا اهيل (الزعفراني) راجل متيسر وكان بيصرف على الحزب قصدي على المنطقة من جيبه .

معلش يا زميل ما احنا لا خبرة ولا معرفة .. نعمل إيه ؟

- اتصرفت على قد فهمي وعلي قد فلوسي ..

هنا قام العمدة وقال لي :

- شربت الشاي ؟ ياللا نكمل في الطريقة . وما تقعدش تقتل في حبال التفاصيل كده ..

ما هو كلكم شرفتم وسمعنا كل الموال ده .. قوم ..

قمت وأنا أحاول أن أصالح (برق)

- ما تزعش يا زميل . الحزب هو اللي منعني من الذهاب إليك كازينو طلخا .. أخذوا

قرار ان ندبر أمرنا في بحري وحدنا لغاية ما تتضح الأمور ..

- وأهي اتضحت ع الآخر يا فالحين ..

قالها كمن يسبني وهو يكاد يقذفني (بالزنزانة) إشفافاً عليّ أن تقتلني القروانة أو (التوتو)

الذين كانا في يديه معاً !!

ودعت مجدي إلى لقاء ..

وركبت قطار الصحافة المتجه إلى (بورسعيد) بعد أن تلكأت متجولاً في باب الحديد

لأؤكد ألا أحد يتبعني أو يراقبني .. كانت دماغي خفيفة وجفوني ثقيلة بفعل البيرة التي لم

أعودها بهذه الكثافة واخترت ركنًا في إحدى العربات بعيدًا عن الشبابيك المكسورة وعن

تيارات الهواء المحتملة وما أن أسندت رأسي إلى جدار العربة حتى رحت في النوم ولم

أستيقظ إلا على ضوء البطارية المبهر الذي وجهه الكمساري إلى وجهي .. قطعت التذكرة

ودفعت الغرامة .. وكنت قد فضلت عدم شراء التذكرة من الشباك .. حتى لا يعرف أحد

وجهتي !!

في بورسعيد حكمني مزاجي الشعري فرحت أبحث عن عشرة شارع (حافظ إبراهيم) وبعد

جولات ومشاوير في حي الإفرنج ثم في العرب وصلت إلى الهدف وفوجئت أن المبنى على

الأرض , ومهدوم تمام , فجزعت وأسقط في يدي .

وكان هناك موعد احتياطي (أن أذهب إلى محل ألبان وحلواني في الشارع التجاري) ولم

أكن خبيرًا في شوارع بورسعيد .. ولكنني عثرت على اللبان وكانت الساعة قد اقتربت من

الموعد الذي تعود فيه (سيد) و(حامد) تناول إفطارهما .. فعثرا عليّ أشرب كوبًا من اللبن الساخن في ببطء لكسب الوقت ..

وجدتني أعود للتفاصيل فاعتذرت للعمدة . كانت حالة من النشوة تمتلكني وأنا أمسك بخيط الحديث الذي لا أريد له أن ينتهي . واحتملني العمدة بصبر ويبدو أنه أشفق على هذا الفتى الساذج صغير السن والممتلئ حماسًا وفخرًا بما أنجزه حتى وصل به إلى السجن !

وفي الحقيقة أنني كنت أحس حديثي مشوقًا .. فأنا أصف ذهابي إلى قرى يعرفها هو ويسألني عن أناس يعرفهم من أهلها . عشرات القرى في (الدقهلية) وفي مركز (دكرنس) بالذات . ذهبت إلى بعضها ماشيًا والأخرى ممتطيًا عربة كارو أو عربة مخلعة أو أتوبيس أو عربة جيب أو نقل أو نصف نقل أو في القطر أو الديزل بتاعنا من (طناح) قرية (العمدة) لكفر طناح , لمحلة مشاق للصالحات , ومن (أشمون الرمان) للزرقا أو السرو ومن المطرية وبورسعيد إلى (ميت فارس) (الصدقا) ومن (عزبة عبد الرحمن) إلى الرياض وميت سلسيل طبعًا .. ومن دقهلة إلى شربين . قابلت زملاء لنا . أكثرهم لمرة واحدة .. وبعضهم تملص مني .. وبعضهم أنكر نفسه ولكن العديد منهم فرحوا لأن الحزب مازال له قلب ينبض وكنت فخورًا أن هذا النبض يسري من عروقي إليهم , فلاحين ومكانكية وسواقين وحرفيين . وكان منهم من رفضوا الانخراط في صفنا احتجاجًا على موقفنا الذي وصفوه بالتخاذل أمام إعلان (عبد الناصر) الحرب علينا!

في (ميت الحلوج) كانت لقاءاتي الأساسية مع (أحمد يوسف) الشقيق الأصغر من (سيد) وإخوته ومع (عبد الحميد عبد الرازق) شقيق (أحمد عبد الرازق) وهو مدرس أيضًا .. وكان هناك آخرون .. إذ كانت (ميت الحلوج) واحدة من القرى الحمراء بجد! وكان علينا أن نحاول تدبير وحتى صناعة رونيو خشب .

وكان الزميل (السيد) قد طلب ألا نلجأ إلى (الواد شاور) إلا مضطرين وكنت أؤيد وجهة نظره بشدة وأبحث عن حل بعيدًا عنه فلم أكن أرتاح لـ(شاور) هذا وكل من هم على شاكلته . أولئك الذين يثيرون ضجيجًا ويظهرون ثورية جوفاء . كان يطالبنا طول الوقت أن نرد على هذيان (عبد الناصر) وأن نغرق القرى المتعطشة للثورة بالمنشورات , ويؤكد أن تردنا هو الذي يجعله طامعًا فينا . وكنت طوال الوقت أبذل جهدًا كبيرًا في تهدئة جموحه المزعج غير المنطقي .

وعرضت الأمر على (سيد) في إحدى رحلاتي لبورسعيد عبر بحيرة (المنزلة)  
فسمح أن نلجأ إليه لطبع مجلة (صوت الفلاحين) فقد تأخرنا كثيراً وكنا قد جهزنا المادة .  
وهذا ما حدث .. فكان ما كان ..

- وجعت لك راسك يا عمدة .. لكن بقى استحمل ولادك .. وسمع الزملاء من زميليّ مثل  
فعل العمدة .. وتعاطفوا معنا وإن أنبونا قليلاً وعذرونا كثيراً .. لكنني رغم تقديرهم لنا  
أصابني إحباط شديد بمجرد أن انقطع حديثي للعمدة وغاب عن بصري . وتذكرت ما بذلنا  
من جهد ومحايلة لإصدار ذلك المنشور المنحوس الذي كنا سنرد به على حملة (عبد  
الناصر) الأولى فضاع إلا قليلاً في حملة (مارس) .. وها هي (صوت الفلاحين) المأمولة  
تتحول إلى طعم لصنارة مباحثية بلعناها بكل بساطة أكثر من مرّة لنقع في شباك المباحث  
بسذاجة .. دون أن يسمع بها أحد .

أخذونا إلى نيابة أمن الدولة في الميعاد . ووجدنا أن (علي نور الدين) بنفسه هو الذي  
يستجوبنا .. وبينما أجلس زميلي على منضدة في وسط غرفة عالية الجدران .. دعاني  
للجلوس بجانبه على المكتب لأكون تحت ناظريه .. وبعد تكرار الأسئلة التي أجبنا عليها  
عدة مرات وإن كان هو أكثر مكرّاً في تكرارها وتحويرها وتعديلها بذكاء وحنكة ثعلب بالغ  
الدهاء ..

ظلت مصرّاً على إنكار علاقتي بأي منهما , كما أنكرت أن الأوراق المضبوطة المكتوبة  
بخطي .. ووجدت أمامه الأوراق التي كتبتها في مباحث المنصورة , بعد أن تأملها بإمعان  
طويلاً .. فاجأني وهو يدفع بأوراق بيضاء أمامي ويناولني قلمًا .. بطلب أن أكتب ما سيمليه  
عليّ وأردف بحدة :

- وسبيك من الحداقة الخايبة وبطل تحور في خطك وتتلائم علينا أنا ح ابعت أجيب أوراق  
امتحانك من الكلية يا ناصح (!).

وضايقتني كلامه لأنه اكتشف محاولة تحوير خطي في المنصورة . وكنت أكتب براحتي  
وعلى مهل .. لكنه كان يملي كلامه بسرعة ويراقبني ويتأمل حركة القلم فركبت رأسي متحدياً  
مادام يستطيع إحضار أوراق من الكلية فنسيت الطريقة التي كتبت بها في المنصورة ..  
وتماديت فأطلقت العنان لقلمي ولمحت ابتسامة انتصار حاول أن يخفيها ..

أكد زملاؤنا حين عدنا أننا سننزل قليلاً على ذمة النيابة .. وأن وضعنا لا يرقى إلى قضية  
كبيرة أو إلى عقوبة أكثر من عامين على أكثر تقدير ..

أطلق سراحنا بعد التحقيق .. فانطلقنا خارج الزنزانة نستمتع بوجودنا وسط زملائنا .. الذين أكدوا أن (سجن مصر) ليس سوى محطة تجميع لمن تطلبهم نيابة أمن الدولة والكثيرون حُقق معهم وصدرت أوامر اعتقال لهم ورحلوا إما إلى (عزب الفيوم) أو إلى (الواحات) .. وأن هناك قضيتين كبيرتين يقال إن قرار الاتهام فيهما سيصدر قريباً جداً والأرجح لن نلحق بأيهما .. إذ هناك العديد من القضايا الصغيرة والتي تشبه قضيتنا لا يوجد فيها ما يربطنا بإحداها .. ولذا سنظل تحت أمر النيابة .. أو هناك أمل على ضوء ما رويناه أن يُفرج عن ثلاثتنا .. ولكننا لن نخرج أو يُفرج عنا فالأمور تزداد سوءاً رغم تقاؤل زملائنا بانفراج الأزمة مع (عبد الناصر) بالرغم من إمعان زملاء التكتل في مهاجمته وكذلك اشتداد الأزمة بين (عبد الناصر) والشيوعيين العرب من ناحية وبينه وبين الاتحاد السوفيتي من ناحية أخرى ..

\*\*\*

- في الحقيقة أن ما كان يعصر قلوبنا هو فراق زملائنا بهذه السرعة فقد أعطانا وجودنا وسطهم قوة وخبرة في التعامل مع السجن والسجانة لم نكن لنحصل عليها لسنوات طويلة وحدنا .. لقد عرفنا أن هناك نظاماً للحياة العامة ينظم أحوالهم المعيشية لتقليل نسبة المعاناة والحرمان ولخلق نوع من المساواة بين الزملاء ، فما يصل من طرود ونقود يصادر لحساب الجميع ويوزع حسب الاحتياجات وقد تترك نسبة دون مصادرة حسب حالة كل زميل ، وأن هناك ما يسمى بمسئول الإدارة .. وهو زميل أو أكثر يتولون تنظيم العلاقة مع الإدارة ويحل معها المشاكل ويقدم المطالب .. وهذا كان يقوي مركزهم في التفاوض مع إدارة السجن التي تهدف دائماً .. للتعامل مع الأسرى كأفراد .. وكان الوصول إلى تأكيد هذه الخبرة يحتاج إلى خبرة تمتد إلى أبعد من هذه الحبسة ولأن الشيوعيين خاضوا لتأكيداتها كقواعد تاريخية معارك إضرابات عديدة عن الطعام .. أو عن الزيارة ولجأوا للعديد من الاعتصامات .. وأيضاً ذاقوا في مقابل ذلك الأمرين من تكادير وتكسير عظام .. وتأديب وحبس انفرادي .. ولكنها صارت كمواد لائحة السجن .. حتى صارت إدارة أي سجن هي التي تطلب أول ما تطلب تحديد من هو المسئول المخول للتفاوض لكي تسهل على نفسها وسائل التعامل مع هذا الصنف من البشر المتمردين طويلي اللسان الذين يملكون حججاً قانونية وإنسانية يعجزون غالباً في الظروف العادية عن تجاهلها أو دحضها .. وبفضل ذلك كان نزوعهم إلى السيطرة يصطدم دائماً بإرادة جماعية للمقاومة ، فيفضلون مساحة للتعايش السلمي .



عدنا إلى سجن المنصورة بعد يومين . وقد ناقشنا كثيراً من الأحوال حول ما يحدث لنا في إطار ما يحدث للوطن . واقتنعنا بأن المعركة الشرسة مع الاستعمار لها كل الأولوية في النضال حتى مع غشم وبطش الحليف المفترض والذي قرر أن يتخلص منا ليحكم منفرداً دون استشارة أحد وقد تطلب هذا قدرًا كبيرًا من الجهد لأقتنع بأننا (يمكن أن نكون في معركة واحدة ضد عدو واحد بينما حليفي الوحيد المدجج بكل الأسلحة يتربص بي بل ويسجنني بالفعل ويجرم حتى كلماتي ..) .

ولكن ما خفف من ضعفي , إيماني بأن من قابلتهم وناقشوني أكبر مني سنًا وأكثر خبرة ومنهم من قضى معظم حياته في السجن وقرأ كتبًا أكثر مني فكيف لي أن أشك في قدرات (أحمد رفاعي) .. أو ثقافة (شريف حتاتة) أو (شهدي عطية) أو (عادل حسين) !  
عدنا من القاهرة وقد عرفنا أن ارتداء ملابسنا الملكية حق أصيل لنا . كانوا قد زودوني بملابس لائقة وحذاء (بنص) أجبرتني جدته أن أتخلى في حزن عن هذا الكاوتش الذي وهبني إياه فتى مجهول لا أعرفه بسماحة وكرم .. وعدنا إلى (المنصورة) .. أكثر ثقة .. وعرفنا أن المئات من زملائنا رحلوا إلى الواحات .. وآخرين في القناطر .. وأن هناك صلة منتظمة مع الخارج طبعًا لم يكن من حقنا الاطلاع عليها ولكنهم زودونا بما يمكن أن نلجأ إليه من وسائل للاحتفاظ بخيوط مهمما كانت واهية بأهلنا . والعالم .. وكيف نرسل ونتلقى الرسائل ..  
وأكثر من هذا عدنا بأمل كبير في أن عودتنا إلى نيابة (المنصورة) إنما هي في الغالب للإفراج عنا وهذا أفضل من ترحيلنا إلى المعتقل .

كانت توقعات القانونيين من زملائنا أنه على أسوأ الفروض ستكون هناك قضية ترويح .. إذا ما اتضح أن الخط الذي كتبت به الأوراق هو خطي فعلاً وهو ما كنت أتوقعه بالفعل .  
بعد عدة أيام من عودتنا إلى (سجن المنصورة) استدعى (أحمد) و(عبد الحميد) إلى الإدارة . وحاولنا أن نعرف أيًا من تحليلات الزملاء هو الذي تحقق - فلو كان قرار الاتهام قد صدر فلماذا يرحل (أحمد) و(محمد) إلى (الفيوم) - كما عرفت من عم (حسن عطية) الذي عس في الإدارة وعرف من قوة الترحيل إلى أين ستتجه بهما وعاد ليخبرني سرًا بأن قرار الاتهام كان في السجن من أيام وأنه يشملنا نحن الثلاثة .. وفي قضية واحدة .. ولكن النيابة قرنته بقرار إفراج عن (أحمد) و(عبد الحميد) فقط . فأصدرت المباحث قرارًا باعتقالهما ولذا سيرحلان إلى المعتقل (العرب بالفيوم) .

وقد ارتحنا قليلاً لمعرفة المصير الذي ينتظرنا فأسوأ الأمور أن تمر عليك الليالي في السجن لا تعرف مصيرًا محددًا يقود لنهاية ما محتملة أو مؤكدة .

وعلى قدر الفرحة لأن النيابة أفرجت عن (أحمد) و(عبد الحميد) كان الحزن لصدور قرار اعتقالهما .. فلا فرحة خالصة في السجن سوى فرحة الخروج أو الإفراج .. ولكن خفف من ذلك أنهما ذاهبان للالتحاق بجزء غال من الحزب وسيعيشان مع رفاق آخرين يزودهما وجودهما معهم بروح مقاتلة جديدة كتلك التي جربناها خلال أيام قليلة قضيناها في سجن مصر ..

كنت أحاول أن أخفف عنهم بتحميلهم سلامات لفلان وعلان وأغبطهم أن سيقروا الصحف ويعيشوا الأحداث مع من يمددهما بالقوة .. ولكن هذا هو نفسه ما يجعلهم حزاني لأنني سأبقى وحدي .. ولكن ما كان لأحد أن يعرف كيف ستجري الأمور هناك أو هنا .. رأيت نظرات الإشفاق تحيطني خاصة في عيون جبراني الإخوان الذين يعرفون معنى الترحيل إلى المعتقل , وأيضاً فراق زملاء الحبسة .

في المساء كوَّرت جسدي في رحم الزنزانة بعد أن ربطت أطراف البطانية في الحديد المتقاطع للنافذة هروباً من مشاعري المضطربة وأصقت خدي مستمتعاً ببرودة الحديد المندي .. حوش السجن الساكن . هدأت الحركة في الزنازين .. من وقت لآخر لا يقطع السكون سوى صوت فيشة التسجيل التي لا بد أن يحكها سجان العنبر في (الكوبس) كل ساعة مضطراً أن يمر بالأدوار الأربعة (خلف خلف) ليؤكد استيقاظه .. ويدور ليفعلها السجان المناوب في حوش السجن حول أركان السور الأربعة , ثم يسود الصمت .. كأن الموت قد تسلم نوبته معهم بالتبادل .. لولا بعض صرخات ألم أو نهنجات بكاء مفاجئة أو تضرعات مستجدية الرحمة أو العفو من الرحمن الرحيم ومستنزلة لعنات وبطش المنتقم الجبار .

لما انتبهت لموقفي وغفوت كأني أستيقظ أسلمت روحي للسكون والظلام المشوب بإضاءات خابية معتمة للمصابيح قليلة الحيلة المتناثرة في الأركان .. وأرخيت جفوني متعلّقاً بكل ما يستيقظ في داخلي من أصوات وصور تتداعى وتتسارع أو تتباطأ في إيقاعات لا قصد فيها ولا توقع ..

فالنكريات تستدعي بعضها . لها طعم آخر يخفي عنك ملامح الواقع وينتزعك منه إلى ماضٍ تلاشى بالفعل لكن حضوره يملأ قلبك بالراحة وسعادة العيش في واقع مغاير .. تأنيك أحداثه مصفاة من التفاصيل أو تغالبك مزدحمة بها وهي تعيد خلق ما فات لتعيشها مرة أخرى كما كنت تحب ..

تأتيك الذكريات لتعطيك فرصة فات أو أنها لتتجنب أخطاءك ولكي تتجاهل نقاط ضعفك وإحباطاتك .. ويعيد صياغتها كما كنت تتمنى بالضبط , لأن أكثر ما فيها رداءة أجمل بكثير مما تعانیه وأحن عليك مما أنت فيه .

صوت خفيف أشجار الجازورينا المحتشدة في المساحة الممتدة جنوباً وراء سور السجن أخذني إلى ظل صفيين من نفس الأشجار , ممتدين شمالاً أمامي على استقامة الطريق الظليل الذي وجدته أسير فيه وحدي في ظهيرة ذات يوم متجهًا نحو (الإسكندرية الجديدة) وهو الاسم الذي كنا نطلقه على (محطة ظلمبات السرو) الواقعة إلى الشمال من قريتنا . تفصل بينهما مساحات (التلول) الجرداء ثم أراضي دومين مصلحة الأملاك إلى مسافة أكثر من (13) كيلومترًا بعد البحر الصغير أو البحر الجديد , كما يطلق عليه أهالي ميت سلسيل .  
لم تكن المرة الأولى التي أقطع هذا الطريق ولكنها كانت الأخيرة ..  
ففي الشهر السابق لحبسي , في أغسطس الماضي , قررت فجأة أن أذهب لتوديع (نجاهة) .

كنا سندخل الجامعة في سبتمبر وكانت أختي (آمال) مازالت تونبني على موقفي منها .  
عندما حكيت لها ما حدث بيننا شاكياً وجدي أو قل مبتاهياً بحبي قبلها بأربع سنوات فانفجرت في صارخة ..

- انت اتجننت تعمل كده .. مالك ومالها .. دي بنت غلبانة منكسرة .. عايشة في بيت خالها وبيت امها على بعد خطوتين وابوها عايش ومش عايش .. وتفتح قدامها باب العشم والأمل الميت ؟ إنت ؟ هو أنت ما بتفهمش الا اللي في دماغك ؟ ثم تعالى هنا .. هو أنت بتجمع صحبة ورد ؟ أمال أيه (مديحة) و (عزيزة) ؟ ولا (سكر) ولا نسيت بنت (عبد العظيم الهواري) .. وبنت عمك ولا (ملكة) وبنت (رشاد) يا حلاوة .. أبو زيد زمانه .. مين منهم بقى (عاقصة البرقي) ولا (ليلي العقيلية) اللي ح تتجوزها يا بتاع الاشتراكية .. وامتى ؟ وانت لسه تلميذ!

لم أسلم من لسانها طوال أربع سنوات .. ناقشتني بالعقل والمنطق وبدون عقل ولا منطق فكنت لا أنطق .. لأنني أنا نفسي كنت ألوم نفسي كلما تذكرت أيام تلك القصص والحكايات الحزينة .. وإن كنت خفية أبتسم سعيداً كأنني نجحت في إجراء تجربة في المعمل وحققت نتائجها توقعاتي وأشعبت غروري ..

كنت أحاول إقناعها ألا ذنب لي .. إلا أنني كنت أشكو لها وجدي في مسكني وتباريح قلبي في هيام يريحني (قلبي هو الذي يقودني) !!

كانت (الهورية) بعيدة المنال رغم صلات القرابة ولكني كنت أفرض عليها حمايتي ونحن ذاهبون للمدرسة في القطار معًا وحتى تنزل في محطة (الجمالية) حيث مدرستها .. بل وكنت بنفوذتي بصفتي ابن أخت (فتوح افندي) أمنع الكمساري أن يتقاضى منها ومن أخيها نصف القرش المطلوب . وكان زملائي من (ميت سلسيل) يغارون عندما تبتسم لي شاكرة . تلك الابتسامة التي كانت تشرق مع مطلع الشمس فتضيء حولها .. كانت رؤيتها والاقتراب منها زاد يومي أتزود به من (الكفر الجديد) حتى (الجمالية) .. إن سعدت ولم تجد مكانًا دبته لها .. وأخذت أباها في يدي أحمله من الزحام , وأظن أحاجي عليها فإرضًا وصايتي التي لم ترفضها بل كانت تمنحني تلك الابتسامة لأعيش عليها طوال اليوم .. ويا فرحة قلبي الذي كان يكاد يقفز من صدري إذا ما تصادف وتلامست يدينا على حديد سلم القطار حتى تنزل بسلام وأسلمها أباها .. والحقيقة أنها كانت تظل واقفة تمنحني ابتسامة النور تلك حتى يختفي القطار وأختفي معه في أول ملف بعد محطة (الجمالية) .. !

حتى كان يوم ..

سأل عني (زغلول البيومي) جارنا .. وسلمني ورقة قال إن (سعاد) قد طلبت منه تسليمها لي .. كان مكتوبًا عليها اسمي بخط بناتي جميل أو قد يكون أجمل خط بناتي رأيته في حياتي .. ورغم أنها كانت رسالة الغرام الأولى التي أستلمها منذ عرفت الحب , فلم أتسرع وأفتحها ..

لم أصدق في البداية ولكن (زغلول) كان جادًا ومحترمًا . فأوحى لي أن هذا حدث فعلاً وأنها لاحظت أنه من أقرب التلامذة لي .. فاختارته دون تفكير وأعطته الورقة .. وضحك في ود وهو يؤكد أنه فرح لأنه ظن أن الورقة رسالة له .. لكنها خيبت أمله عندما أسرع تقول له هامة (أرجوك تدي الورقة دي لسمير) وأنه تأكد أنها تقصدني لأنها عادت وذكرت اسمي كاملاً بصوت أعلى واستشهد على ذلك بـ(أحمد أبو الفضل) الذي أكد لي وحلف بالتلاتة أن هذا ما حدث ..

أخفيت الورقة في أحد كتبي خشية الأنظار التي خيل لي أنها جميعها تحاصرني وأخذت أحاول انتهاز فرصة كي أختلي بنفسني لأقرأها . وبدأ لي كأنما كان الجميع متقنين علي حتى دخلنا الفصل . كنت في السنة الثالثة الثانوية التي أصبحت الأولى في العام التالي .. كنت من آخر دفعة في نظام السنوات الخمس والثقافة العامة ..

كانت الحصة الأولى للأستاذ (النشار) مدرس اللغة العربية وكان صارمًا .. لا يسمح في حصته بأي خروج أو هذر ..

ولكني كنت سارحًا في عالم آخر .. أحاول أن أخرج الورقة من الدرج حيث الكتب ؛ لأنني لم أكن أستطيع صبرًا .. كانت ذراعي داخل الدرج .. وأنا أنتطلع إلى الأستاذ محاولاً

رفع غطاء (التختة) بعد أن نجحت أصابعي في فرد الورقة المطبقة وفجأة سمعته يسألني  
غاضبًا ..

- إنت يا سمير مش سامعني .. إيه انطرشت؟!!

جاوب على السؤال ..

وفوجئت أن هناك سؤالاً ولكنني لم أسمع أي سؤال ..

وقفت مضطرباً ونزعت ذراعي من الدرج .. فسقط محدثاً دويًا وقرعة عظيمة لم أسمعها  
.. لأنني كنت أتابع غضب الأستاذ الذي كان يقترب متسائلاً عما في داخل الدرج وكان قد  
ظن أنني أكل شيئاً أخفيه أثناء الدرس ..

- إفتح بقلك .. رُد على السؤال ..

عشرات العيون حولي كان بعضها يتشفى في . وبعضها تكاد شماتته تنط من وجهه  
وكأنه يتوقع حجم الكارثة التي بدا أن معظمهم يعرفها بل ويعرف ما في الورقة !

كان الأستاذ (النشار) يخصني برعاية خاصة لأنني لم أخذه أبداً وكان يباهي بي الفصول  
الأخرى والأساتذة .. وعكس هذا مدى خيبة أمله أنني كنت في عالم آخر فلم أسمع سؤاله  
ولم أرد عليه! ..

رفع غطاء الدرج في غضب وكاد يغمى عليّ بينما ارتفعت ضحكات تلاميذ الفصل كلهم  
.. وقرأ هو الورقة .. فهدأت ثورته .. بل وابتسم في حنان بالغ .. وربت على رأسي وهو  
يطبق الورقة ويعيدها إليّ ..

عاد إلى السبورة بينما ساد صمت رهيب .. بدأ يتخلخل بهمهمات وهمسات .. جسمها  
هو وأخرسها بحزم وصرف الأنظار بكلمة واحدة :

- مين عارف الاجابة ؟ هه قوم (يا مصطفى) !

جلست وقد صعقت لتصرفه النبيل فلم يشأ أن يجعل سري مشاعاً بين زملائي الذين كانوا  
على ما يبدو يعرفونه كلهم !

وما انتهت الحصّة وخرج الأستاذ حتى تجمع حولي كل التلاميذ وكلهم مصرّ على أن يعرف  
مني ما فيها . ولم أكن قرأتها بعد .. فلما لم أشف غليلهم سخروا وضحكوا . وقرأها بعضهم  
غيباً وكأنه ينشد نهج البردة .

(حبيبي سمير .. عارفة انك بتحبني لكن مش قد ما بحبك أنا .. باستنى أشوفك كل يوم  
على نار . أليس هناك طريقة ولا فرصة لأراك بعيداً عن الأنظار ؟ حبيبتك سعاد) ..

بعدها اختفت سعاد من حياتي . فقد أصبحت تركب الأتوبيس وأنا أيضًا لم أحاول رؤيتها ..  
خاصة بعد أن وسّطت (رسمية) بنت خالتي وهي تمت لها بصلة قرابة فولدها أيضًا  
(هوارى) .. وجاءني إنذار حازم صارم ألا أقرب منها أو أحاول رؤيتها وإلا .. وهكذا انتهت  
قصتي مع (سعاد) . فما ذنبي ؟

- الذنب راكبك من ساسك لراسك .. ما لناش دعوة بـ(سعاد) لكن ذنبها إيه المسكينة  
(نجاه) انت اللي علّقتها في حبال الهوا الدايبة . طبعًا انت بالنسبة لها عريس لقطة ووعدها  
بالجواز يا اهيل . دا انت لسه ف سنة ثانية كلية .. آمال إيه (عالية علوي) و(زينب) ؟ إيه  
؟ بتجمع ألبوم صور . اتجننت ح تجننها معاك طبعًا .. أهي رفضت يبجي أربعة اتقدموا لها  
ما يتخيروش عن بعض . ما هي نفسها في اللي ينقذها من الغلب اللي هي فيه . وحتلاقي  
فين زيك ! يا بتاع (مديحة) . يا أخي راجع نفسك هو انت مع الغلابة ولا عليهم ؟!  
صوتها كان يرن في أذني ولم أستطع تجنب نظراتها التي أحسست بها تخترق ضلوعي

كانت شمس أغسطس تحرق الأرض (الدومين) الجافة وتحرقني .. لم يعد الطريق  
المسور بالأشجار ظليلاً .. فالشمس فوقه تمامًا وهو ممتد على استقامته إلى الشمال مباشرة  
.. فتتضاءل ظلال الأشجار وأنا أنكمش تحتها رعبًا .. بينما كانت بقايا المياه في القنوات  
تغلي وفوق سطح الأرض المنبسطة المروية تكاد تجف وتصدر نشيئًا تحدّثه فقاعات تنفجر  
من الحرارة .. وأنا أحاول القفز من بقعة ظل إلى أخرى قدر الإمكان .. وصار الطريق  
المفروش بأوراق الجازورينا الإبرية التي حمصتها الشمس تحت قدمي جحيماً .  
في مرة سابقة منذ أربع سنوات كنت أقطع هذا الطريق نفسه غاضبًا من (حسين عبد ربه)  
الذي كان يخرج مسرحية (أرض المعركة) والتي اقتبسها عن قصة لـ(الشرقاوي) , كنت  
غاضبًا لأنني كنت قد اعتذرت بما فيه الكفاية عن انسحابي من بروفات المسرحية السابقة  
(نداء الدم) التي كنت ألعب فيها أنا وأخي (عادل) دوري طفلين لـ(أحمد صبري بكر) الذي  
كان يلعب دور الوالد الذي خطفه الحشيش من زوجته وطفليه وكان (حسين) صارمًا في  
مواعيد البروفات اليومية .. خاصة وقد اقترب موعد الافتتاح ..

وكننت لا أطيق تلك المواعيد التي تقيد حركتي التي اعتدتها حرة أفعل ما يعن لي ..  
وبدأت أرهق (الأب) حين يعود مرهقًا لبيته ويحمل طفليه في اعتزاز وحب وهو نادم .. كنت  
لا أعطيه نفسي خفيًا فأرهبه ذلك .. واشتكى للمخرج الذي ضيع كثيرًا من وقته ليشرح لي  
كيف أكون خفيًا ولا أضطره لبذل جهد إضافي يفسد انفعاله بالعودة لحضن أسرته . وكننت

أفعل ثم أعاود ما كنت نويته . حتي زهق (أحمد بكر) وألقى بي وبأخي على الأرض , حين شبطت في رقبته بطريقة أرهقته ..

وأجل (حسين) البروفة للغد وظل لساعة زمن يدريني ويقنعني وأنا أخادعه وأتظاهر . وكانت (سينما العدل) قد أعلنت عن عرض فيلم (اليتيمتين) غداً ..وصممت على التخلف عن البروفة واصطحبت أخي إلى السينما في اليوم التالي دون إذن من (حسين) ... ضارباً بالبروفة عرض الحائط ..

ولا أعرف كيف خمنا أننا في السينما .. فجاء (حسين) وبعض أفراد الفرقة ليأخذنا أثناء عرض الفيلم لاستكمال البروفة . ورغم أن الموقف كان محرّجاً وهم واقفون على باب الدوار (صالة العرض) ينادون ويزعقون علينا ويحايلوننا لترك الفيلم دون جدوى .. وأغضب هذا (حسين) جداً .. فمضى يتبعه الآخرون وهو يتوعدنا .. ويؤكد على قرار طردنا . ودرّبوا لعدة بروفات طفلين غيرنا . ولكن الفشل كان قاسياً واضطر (حسين) أن يحضر إلينا في البيت ليخرجني ويشكوني لوالدي . وكيف أننا وضعناهم في مأزق , ولم يبق سوى أيام على العرض .. وطبعاً سمعنا كلام أبي وذهبنا متدللين واحتملنا (حسين عبد ربه) على مضض حتى تم العرض بسلام .. ثم أصدر قراره بإبعادي عن الفرقة معلناً أنني لن أشارك في أي عرض قادم ..

وقد كان - وكان هذا أمراً مؤلماً لي ؛ لأنني كنت أحب المسرح .. وكان فرحي كبيراً أن سمح لي (حسين) بالمشاركة في الأمور الفنية وفي تجهيزات الديكور والدعاية .. والحقيقة أنني كنت أريد أن أثبت حاجتهم لي وأنه لا يمكن الاستغناء عني . وقمت بكل ما طلب مني بل وأكثر . وإن كان يؤلمني أنني لم أحظ بأي دور أقوم به على المسرح كممثل . ولما بيّست من تحقيق ذلك قررت ترك العمل كله .. والاختفاء لأشعرهم أنه لا يمكنهم الاستغناء عني واستطعت أن أحصل على صرخة غضب واحتجاج جادة من (حسين) كما حكى لي (عادل) :

- يا اخوانا شوفوا لي الواد (سمير) ده فين ؟ .. هاتوه من تحت الأرض ما حدش ح يدبر لنا الملايات الا هو !!:

لكني كنت قد ركبت رأسي وانطلقت ضحى اليوم السابق في طريقي إلى (إسكندرية الجديدة) دون أن أخبر أحداً . كنت أجد دائماً ملاذاً آمناً في بيت خالتي التي كانت أكثر خالاتي ارتباطاً بأمي .

كنت على نفس الطريق وتكاد تكون نفس الساعة . وكان الحر شديداً وإبر الجازورينا التي تفرش الطريق ملتهبة تحرق نعل الحذاء الكاوتش كما هي الآن أو أشد ..

على جانب الطريق شاهدت حمارًا يسير الهوينى في نشاط متجهًا وحده في نفس الاتجاه .. وتلفتت أبحث عن يسوقه أو عن صاحبه ولما لم أجد أحدًا .. فكرت أن أركبه مادام ماضيًا في طريقي فإذا ما قابلت صاحبه ادعيت له أنني خفت على الحمار أن يضل الطريق . وغالبًا ما سيتفهم ركوبي له ..

وامتطيت الحمار بسهولة فقد كان سلسًا وكأنه ينتظر أحدًا ليركبه .. وما أن استقرت مؤخرتي على (البردعة) حتى فوجئت . استدار الحمار مهرولاً عائداً من حيث أتى . وأبى أن يستجيب لضرباتي أو نداءاتي لإرجاعه .. فأردت النزول وخاصة أنه انطلق يقطع مسافة أطول في الاتجاه المعاكس سترهقني أكثر وأنا الذي ركبته لأختصر معاناتي .. ودهشت لهذا التصرف الأحمق من الحمار . عاودت محاولة النزول , ولكنه لم يستجب بل أخذ يغدو السير أسرع .. ولما قررت القفز من فوق ظهره (قمص) .. فاشتبكت قدمي في (الحياسة) ووقعت من فوقه ليسلطني خلفه وهو يزيد من سرعته .. وأخذت أصرخ فيه أسبه ؛ حتى أفلتت قدمي من الحبل وتحررت منه . وقد صعقت لما جرى ولم أجد له تفسيرًا .. ووجدتني أجلس محبطًا مغيظًا وهو (يفلسع) بعيدًا . ولما نظرت أقدر المسافة التي قطعها الحمار عائداً وهو ساحب جسمي وراءه انفجرت ضاحكًا .. وقمت أعدل هدومي وانفض ملابسي مما علق بها من وساخات الطريق .. ولا أكف عن الضحك حتى دمعت عيناى . وأنا أسير في جد لأعوض ما أفقدنيه الحمار ..

ولكن الأمر كان يتجسد لي مرة بعد أخرى . وكلما عجزت عن أن أجد تفسيرًا معقولاً لتصرف الحمار كان الضحك يحط عليّ . ولأنني لا أبصر أحدًا على مدى النظر كان غيظي ينطلق ضحكًا عاليًا , سخرية من غبائي أو من تصرف الحمار . وفي إحدى نوبات الضحك هذه سمعت من يزرق بي :

- بتضحك على إيه يا افندي يا مُهزأ؟

التفت ناحية الصوت فرأيت رجلاً عملاقًا .. عاري الجسد تمامًا ملطخًا بالطين وهو يمسك في إحدى ذراعيه المتدليتين بجواره علبة كبيرة من الصفيح .. كان ينزح بها المياه , أمام سد صغير يعترض مجرى قناة لبيصيد السمك الذي ستتكشف عنه المياه . كان الطين قد جف فوق جسمه صانعًا جلدًا ممزقًا وخشنًا كمارد خرج من جوف الطين ولم يكن في منظره ما يضحك سوى (أشيائه) التي تدلت بين فخديه كأعضاء حمار حساوي غاضب .

أخرسني غضبه فكتم ضحكتي .. ولكنه كرر سؤاله المحتج مضيقًا إليه نبرة أشد وشتائم أسخم فلم أجد بداً من الجري كأرنب مبتعدًا عنه ناجيًا بنفسى من هذا (العفريت) الذي انشقت عنه حشائش (الحلفا) وانفلتت على ما يبدو أثناء سقوطي من على ظهر الحمار ساقى الخدلة من البطانية المعلقة في القضبان فكادت أسقط من شباك الزنزانة في نفس الوقت الذى



سمعت فيه صوتاً يناديني غاضباً من الحوش ليعيدني من طريق الجازورينا إلى واقع الزنزانة

كان صوت (عبد الله بولجانين) الذي كان يقف أمام شباك الزنزانة التي تحتي يسامر ساكنها الملكي تحت التحقيق فقطع حواديته معه - ليسألني في دهشة ممزوجة بالغضب :  
- الله !! بتضحك على إيه يا شيوعي .. ممنوع الضحك . انزل يا مسجون من الشباك وبلاش أمور (المونكي بيزنيس) ده !!

غضب (عبد الله بولجانين) مني وخاصمني .. لأنه فسر ضحكاتي الفجائية العالية خطأ - ظن أنني أسخر منه ومن كلامه إذ كان مستغرقاً في إعادة سرد إحدى حكاياته في اندماج يتقنه وجدية لا يباريه فيها أحد .. إلى مسجون (الملكية) الذي كانت زنزانتة في الدور الأول .. والذي كان واقفاً على الجردل .. لأنه لم يتقن بعد ربط البطانية إلى حديد الشباك . كان هذا المسجون متهماً بالقتل وكان من عائلة ميسورة في إحدى قرى مركز (السنبلالوين) وطبعاً كان مبهوراً مسحوراً بحكايات (بولجانين) الساحرة . (قصة بنائه لعمارة من (14) دوراً على عمود واحد . عندما كان يشتغل في أحد معسكرات الجيش الإنجليزي في العباسية .. أو قصة تزويجه قائد أركان الجيش اللواء (المسيري) (ما انت عارفه) من إحدى بنات الباطنية (الكاسرة حديد) !! أو حكاية اشتراكه في مسلسل تهريب بضائع من معسكرات الاحتلال بالاتفاق مع (ياور) أيرلندي مهم كان يسلك له صناديق الويسكي والسجاير . وغير ذلك من حكاياته المثيرة التي لا تنتهي والتي حكاها عدة مرات لي من قبل عبر ليالي السمر أثناء النبطشية داخل العنبر .. هو قاعدًا على دكة شاويش الدور بعد أن يجرها في أكبر ضجة ممكنة (يضاعفها ليل العنبر) من مكانها حتى باب زنزانتني في الربع المحرم وحيث أكون قد علقت نفسي داخل البطانية فوق الباب يفصل بيننا حديد الشراعة الذي لا يمنع أكواب الشاي التي يمدني بها والتي لا تنقطع عنه من المساجين كلما مر مع الساعة ليسجل برهان يقظته في أركان العنبر يميناً وشمالاً .

ظن عبد الله أنني كنت أتابع حديثه مع (منتصر السنبلالويني) وأنني سخرت من حكاياته التي صدقتها من قبل بكل جدية أكثر من مرة . ولم أستطع استرضاءه في حينها وانتظرت لليوم التالي ، حين تمسي خدمته داخل العنبر . وما أن تأكدت من وجوده حتى أسرعرت أنادي عليه (يا شاويش عبد الله) .. أكثر من مرة لكنه ظل يتجاهلني مكتفياً بصيحته المميزة (انزل يا مسجون) ولما .. قال (انزل يا شيوعي) .. تأكدت أنه على استعداد لقبول دعوتي

للسمر .. فأسرت بربط البطانية وتجهيز ما تيسر لواجب الضيافة وانتظرت أن ينتهي من إحدى دورات التسجيل .. فناديته واثقاً أنه سيأتي .. وجاء حاملاً معه كوبين من شاي (رجب الجن) ناولني واحداً ثم قفز فوق دكة الشاويش واستقر على سطحها ونظر إليّ نظرة عتاب جادة ودخل مباشرة في الموضوع ..

- يا شيوعي انت هنا لا حول ولا قوة .. اللي زيي ما يزعلش منك . دا انت مسكين أربع حيطان يا ولداه . أنا على الأقل باقضي في السجن نص اليوم وبعدين أروح .. أطلع مراتي ملط وانزل حرت طول الليل . إنما انت لا حول ولا جدوى !! ..  
حاولت مقاطعته فنهزني صائحاً متسلحاً بحقه بالعتبي عليّ ..  
- انت تسمع وانت ساكت . انت يا والداه بتاكل بعضك هنا .. لولا الصابونة .. كنت تطق من اجنابك حسرة على شبابك ..

- مش دي النظرية يا عبد الله انا عايز افهمك إنه .. ..  
- لكن انت مسكين يا دوب تتريق وبتضحك على خلق الله الغلابة .. لأ هي كده أنا باخرج أعمل اللي أنا عايزه ..

- يا بولجانين .. انت لو تعرف عني كده .. تبقى غلطان .. هو أنا كنت سامع أصلاً إنت بتقول إيه ؟ .. ولا عارف انك تحت !  
- أمال كنت بتضحك كده ليه زي اللي شاف طيظ الأمور عريانة .  
- يا عم وحد الله ..

حكيت له حكاية الحمار التي أضحككتي فجأة حتى كادت تسقطني من على الشباك ساعتها .

وما أن انتهيت إلى الرجل العملاق العاري الذي نهزني حتى انخرط في ضحك عالٍ صريح .. وصفت نفسه ورد في مرح على التعليقات المرحية التي ارتفعت من أصدقاء له كثيرين في الأدوار العليا , ثم استأذني ليلبي لهم طلباتهم التي ألتهه عنها حكايتي مع الحمار ..

عاد عبد الله محملاً بخيرات عديدة وهبها له المساجين لقاء ما قام به من مهمات (المراسلة) بين المعلمين ترويجاً لصفقات لا تحلو إلا في هذا الوقت ومع مثل (عبد الله) ذي السمعة الطيبة التي تؤكد أنها أبداً لم يش بمسجون ولم ينهب شيئاً انؤمن عليه . كانت عقيدته الثابتة (أن المسجون ضعيف واللي يبجي عليه ما يكسبش فالله لا يحب المفترين !!) .

حين استقر على سطح (البنش) ناولني سيجارتين محشوتين خصيصًا لي وله . حاولت الاعتذار قال بجدية :

- دي عبارة متعمرين مخصوص عشانك وده (تكليف) يا زميل .. انت هنا ف محنة وأي حاجة تخرجك منها ولو للحظة .. خير .. في سبيل القضية . والشعب !  
وطبعًا كنت قد اعتدت على رطانة هذا فقد قضى مددًا متفاوتة مع زملائنا في (أبو زعل) و(سجن مصر) ويدين لرطانتهم بثقافته السياسية التي كان لعمقها يضع خططًا لإصلاح حال البلد .. بل ولحكم العالم ..

(دي حكومات مغللة .. ديّة الأزمة دي مكنة طبع فلوس .. ودور وابسط الناس .. زود أجورهم .. غرقهم نغغهم .. تخسر إيه ؟ حاجة ما تكلفش الحكومة إلا الورق و الحبر .. لو كانت بتفهم) انت ما بتعرفش إلا لغة واحدة وعشان كده محبوس انفرادي في سجن هزأة زي ده .. رحموك عشان صغير .. تعرف (خروشوف) إيه اللي خلاه يملك العالم .. بيعرف أربعتاش لغة .. ومخططها .. (كنيدي) ع يلم الأمريكتين و(ديجول) أوربة .. (عبد الناصر) الشرق الأوسط .. و(نهر) جنوب شرق آسيا .. ده غير الصين (ماو) وهو (خروشوف) فوق .. وفي اللحظة المناسبة يصدر أمر ينفذه الكل . شيوعية على الآخر . (سألته مرة) .. واليابان ؟

قال لي .. لا .. دول بقى (ياجوج وماجوج) ربنا يتولاهم !

بعد شرب السجارة المحشوة باستمتاع .. صدقته . كانت بالفعل عبارة ممتازة ..  
وحكيت له وسط الدخان الأزرق الكثيف .. أنني رغم المشوار ومقلب لحمار .. فشلت أن أرى (نجاة) .. أخفوها عني .. كانت خالتي في الجنينة منهمة في الخبيز وكانت (خالتي خضرة أم بيومي) أمام الفرن معفرة بالدقيق والدخان .. تدس كتل قش الرز في الشاروقة وتدفع بالرحاية أرغفة الخبز بعد أن تبططها في حلق الفرن وتصهرج النار . وتنتفخ الأقراص المبططة وتتحول إلى أرغفة مبهجة بيضاء مبرقشة باللون الوردى الخفيف بينما خالتي منهمة في (تقريص) العجين وامرأتان من الجيران يساعداها على تبطيط الأقراص وتتاوله ل(خضرة) . لكن (نجاة) لم تكن معهم ..

رمقتني خالتي بنظرة كاشفة كأنما تسأل (أنا عارفة انت جاي ليه؟) لكنها رحبت في فرح .. بينما صاحت (خضرة أم بيومي) :

- عقبالك يا أستاذ (سمير) .. بيتهيألي انت عرفت فجيت تبارك لحبيبك (كمال) دي خبزة الفرح والنبي تاخذ (الحئون ده) !

فهمت وكتمت مشاعري .. إذ كانت أمي قد صرحت لي أن خضرة عايزة (نجاة) لـ(كمال) .  
وتأكدت من الأمر عندما لم أجد نجاة في البيت حيث تحججت لهم بدخول الحمام ..  
واستدرجت ابنة خالتي الصغيرة فعرفت أن (نجاة) في بيت أمها استعدادًا للخطوبة والشبكة  
..

ولم أدر .. إن كان من الصواب أن أصر على مقابلتها ؟ ولكني لم أجد عندي الشجاعة  
لذلك خاصة وأني كنت آتياً لإنهاء الموقف .. ورؤيتها لن تزيد الأمر إلا سوءاً ولما عدت  
لخالتي .. اندمجت معهن في الحديث وسألت دون تعمد ..  
- ونجاة .. مبسوطه ..

- ح تطير من الفرح .. ح تلاقى عريس زيه ؟ دا انا خالتيها يا وله .. بس البركة فيك انت  
وابوك .. انتوا اللي وظفتوه في الجمعية .. واهو يتلم عني بقى ويفتح بيت ويسترها وتشيل  
همه اللي طول عمري مغروسة فيه لاسناني من يوم أبوه .. روح يا شيخ ربنا يسترها معاك  
انت وابوك دنيا وآخرة .. يا اعز الحبايب انتم ..

اكتفيت من الرحلة بدعاء (خالتي خضرة) المستجاب بعد أن أزاحت غطاء رأسها المغبر  
. وأحسست أن عبئاً ثقيلاً قد انزاح عن كاهلي وأن الظروف أنقذتني من مأزق حشرت نفسي  
فيه . وانا مشواري طويل .. لكن (عبد الله) تلقى حكاية خيبيتي هذه وعودتي دون أن أرى  
حبيبيتي منشرحاً يضحك من القلب . كانت (الغبارة) قد فعلت فعلها معي خاصة وأنه أتحنفي  
بأخرى أشد وطأة لدى عودته فانزلقت عندما ذهب لإثبات يقظته .. وتحسست طريقي إلى  
فرشتي .. ورحت في النوم ..

واعتقد أنه نادى عليّ عندما عاد .... لكنه لم يشأ أن يوقظني وتركني أهيم تحت تأثير  
(الغبارة) في الأحلام فقد كانت إحدى مآثراته التي لم تكن تليق مع عاطفية الموقف :  
- الأيام الخرا .. فايدتها النوم .

الحديث مع الشاويش (عبد الله) أو عنه ذو شجون ولا ينتهي ف حكاياته الخيالية التي لا  
تملك أمام طريقته في حكايتها إلا أن تصدقها , بل وتطلب منه إعادتها .. تجسد أحلام  
وأوهام المصري الضعيف العاجز وطموحه الدائم لامتلاك قدرة القفز على واقعه المزري  
منتقماً لنفسه ممن لا يستطيع مواجهتهم , أو السخرية ممن لا يجرؤ على النظر في عيونهم  
. كما أنها تعكس طاقات المقهور وقدرته على خلق عالم يصنعه هو , ويعيش هو فيه قادراً  
على أنه يحمل كل هموم البشر الأضعف منه .. فهو يصر على حل مشاكل الوطن  
الاقتصادية بجرة قلم أو قل بلفة عجلة .. كما أنه يدبر حل مشاكل العالم كله حسب ما  
يصور له تفكيره الأمي الذي يسع كل عقول العالم .. بكل بساطة وقدرة على الإقناع بفضل

نيرة الصدق التي لا تقبل أي تشكيك والتي تمحو كل ريبة وتسم الموضوع كله بكل أسباب الصدق والواقعية .

إن جملة قاسية من زوجة رئيس أركان حرب الجيش الحيزيون كما وصفها .. كانت كفيلة بأن يطعننها في صميم كبريائها ويزوج القائد الفخم لبائعة مخدرات صغيرة سُجنت أكثر من مرة في فرح تحدثت بذكره الركبان وحضره كبار معلمي الباطنية والوالي حتى المطرية .  
- كنت باشتغل بنأ .. بعد ما سيبت المعسكرات .. وبعد ما بنيت للإنجليز العمارة اللي قلت لك عليها على عمود واحد .. وجعلتهم يعترفون بعقيريتي الهندسية .. لكن أنا بعد حادثة (جثة) الضابط ابن اخت (الملكة إليزابيث) واللي طلعت لي غلط في صندوق سلكهولي الولد الياور الأيرلندي في ليلة كحل اتفوجئت إنها جثة مش ويسكي ولا سجاير .. لكن مسكت نفسي وقلت اللي قدره ربنا يكون .. رحى شارى حمل قصب سكر كان على عربية ولد سريح وأجرت منه العربية .. دفنت الجثة فيه بعد ما خبيت الصندوق اللي كان من خشب الورد , ويسوى الشيء الفلاني . دفنت الجثة تحت زعازيع القصب ومشيت اتستر بالحيطان . دخلت حوارى كوبرى القبة .. وكل ما يقابلني عسكري دورية لا مؤاخذة ركبي تسبب وعضلاتي (تقمط) عليّ وكأن دخل فيّ خابور .. لحد ما وصلت خط السكة الحديد بتاع الخانكة .. ولقحت الجثة بالقصب على الشريط .. وكثّيت . والدنيا اتقلبت عند الانجليز تاني يوم والحكومة المصرية وقفت على رجل , لما لقيوا الجثة والقطر فارمها وعاجنها بعصير القصب ..

طبعاً ما هوّبتش ناحية المعسكرات تاني .. إيه يضمن لي إن الواد الأيرلندي ما يلبسهاش ليّ .. قول رحى اشتغل صنعتي .. فبقيت أقعد عند دكان الموان اللي على ناصية شارع (ولي العهد) وكان بتاع (العبد باشا) . طبعاً قبل ما يبقى مقال كبير وباشا .. وانتظر يبجي له واحد عايز يبني حيطه , عايز يمحرّ جدار أو يرم سلم .. لحد يوم جت بنت خدامة لونة وعلقة تطلب بنأ يرم سلم الفيلا بتاع سيادة اللوا .. البت عجبتني .. رحى معاها .  
والحق كانوا يومين هنا . أكل وشبرقة .. كانت فيه سلمتين مكسورين عايزين صب من جديد وواحدة مخلعة عايزة تتثبت وكله عايز جليّ , أقول لك الحق .. كانوا ما ياخدوش يومين ثلاثة .. صب ونشغان وتثببت وجليّ وكده .. لكن أنا بقى اشتغلت على طريقة اللي بتسموه انتو (إضراب - تباطئي) .. يا واش يا واش .. البت حلوة وسهلة وكل طقة تجيني صينية عليها ما تشتهي الأنفس .. لحد يوم من الأيام كان اللوا مريح وقاعد بيقرأ الجرنان في البرجولا , بيتشمس .. وأنا مريح مستني الغدا لمحت البنت جاية بالصينية . فابتسمت لها لكن نفسي اتسدت لما سمعت الحيزيون بتولول وبتقول :

- هو المنيل على عينه ده استحلى القعدة .. طبعًا بياكل في قته محلولة .. الشغل ده كله كان يخلص في يوم . قولي له يخلص ويغور .. وإلا ح اطين عيشته .. فتحت نفسي للنضال قلت حلو .. ح نشوف مين اللي ح يطين عيشة الثاني يا مرضعة (قلاوون) !.

- كلام في سرك أنا كنت ملاحظ .. الرجل الجميل ده , اللي الشعر الابيض بيخلي وشه الأحمر زي القمر .. متجوز (الراجل الحيزبون) دي .. باين .. بيان لك على طول .. حاطط عليه غضب الله خصوصًا لما تقرب منه بشكلها العفش المققع ده وصوتها اللي زي العقربة . وانا قلت لنفسى .. والله يا واد يا عبد الله براوة عليك عرفت سره .. المسكين . وخصوصًا لما يبقى ف حضرتها أرنب . هو عايز ياكل البنات الخدامة مش قادر ولا متنهني على فرصة ..

انتهزت لك الفرصة روقان كده .. وقلت أجس نبضه .. قربت منه في لحظة هادية .. وبعد السلام والتحية قلت له :

- يا سعادة الباشا : انت صعبان عليّ قوي وانا نفسي أخدمك !. وقلت يا واد إذا فهمني ح بيان , ما فهمش يبقى يا دار ما دخلك شر وأقول له إن السلم كله عايز يتغير . لأن السلام اللي مش مكسورة مسيرها تفتح .. والجديد أرخص .. وطبعًا فهمني سيادة اللوا وكأني جيت له على الطبطاب فكان ناقص يرقص . صدقني لو شفت النظرة الملهوفة اللي طقت في عينه لقلت دا طفل عايز البزازه .. هوب وخذته على مشمُه ..

- طلبك عندي يا سعادة الباشا أنا حاسس بيك . وعندى الدوا اللي فيه الشفا وجاهز وما تحملش أيتها هم . دا انا اخدمك بعنيّه - بس انت وزّعها بعيد ولو لأسبوع واحد . وكعادته في استخدام حيل التشويق قطع الحلقة . وكعادته بص في الساعة .. وقال لي .. - عن إذنك أمّا أروح أخربش الكوبس .. وارجع لك . وما تحملش هم انت كمان .

انطلق ليثبت يقظته ومروره على الأدوار .. ونزلت أنا عن الشراعة .. لأريح جسدي من القرفصة في البطانية والحقيقة أن أول ما حطيت رأسي على الفرشة حتى رحت لك في النوم وكسلت انزل البطانية .. و(عبد الله) من ناحيته لقطني من الدور الثالث فقطع الإرسال . واندمج في إنجاز مهمات التوصيل بين الزنازين في الأدوار الأربعة .. , لم يكن يرد لأحد طلبًا حتى زنازين التسول .. إذا ما طلبوا منه كبريت أو دخان طبعًا . يسارع بنفس الهمة للاستجابة لطلباتهم .. ولو من دخله الخاص . في مثل هذه الليالي تكون حصيلته كافية ليلعب دور المحسن الكبير تطبيقًا لنظرية أن كل من يغلق عليه باب الزنزانة ضعيف وغلبان حتى لو كان سوابق أو قتال قُتلى وابن كلب .

\*\*\*

• لكل سجن أحوال خاصة متفردة ومتنوعة ومتغيرة بين لحظة وأخرى . وأنا الذي عشت ثلاثين شهراً في الزنزانة الانفرادية وللمرة الأولى في حياتي في سجن (المنصورة) رأيت منه وعشت فيه ما لا عدد له ولا حصر من المشاعر والعواطف والأحزان بعدد ليليه ونهاراته بل بعدد دقائقه وساعاته ..

وسجن (المنصورة) ليس حالة واحدة ؛ فكل دور طابعه وشكله ولكل عنبر وزنزانة سكانها وهمومها .. وهو في ذلك أيضاً مختلف عن سجن (الاستئناف) وهما مختلفان بكل تفاصيل المكان والزمان والسكان عن مزرعة (طرة) وعن (أبو زعبل) .. وطبعاً عن عنبر التجربة بليمان طرة .. وكل ذلك يختلف أيضاً باختلاف أبعاد الزمان والمكان والسكان وكذلك باختلاف التهمة والظروف السياسية .. تنوع لا حدود له .. ولا نهاية ..

لقد تعرفت على كثيرين من قاطني السجون ومعاناتهم وقصص حياتهم نظرياً قبل دخولي السجن وبعد خروجي وأثناء وجودي متنقلاً بين متغيرات صفاته ..

عرفت (د. مانيت) والكونت (دي مونت كريستو) و(ديستوفسكي) (ود. بلود) و(أكيم أكيوفيتش) (وابن المقفع) وآخرين ؛ قدامى ومحدثين ، شعراء ومجرمين وسياسيين . وكم في السجن من مظالم وكم فيه من جبارين ولصوص ونصابين .. تنوع مذهل ما عشته منه وما رأيته ليس إلا قطرة في بحر ممتد على طول تاريخ الإنسانية والدول . ومع كل هذا التنوع بين غلظة وقسوة الجلادين والسجانة .. ورقة مشاعر المساكين والشعراء وبين دموية التسلط والقهر والإذلال ورغبة الهروب الدائم بالمشاعر والأحاسيس عبر الجدران الغليظة إلى عوالم الذكريات والرغبات ودفء ما فات من علاقات ، أو الحلم بما يمكن أن يكون من الاحتمالات فيما هو آت .. مع كل هذا التنوع فالسجن هو السجن .. في خلاصته الجوهريّة والتي ظلت تسميه منذ بدء الخليقة وتنافر المصالح - فهو تسلط الأبدان على الأبدان وعجز وضعف الإنسان أمام جلافة الجدران ، وفقدان القدرة على التجاوز والتخطي والعبور من حصار الشك والقلق والخوف إلى أي دائرة ولو ضيقة من الأمان . ولذا يقول حكماؤه (قُطع السجن ولو في جنينة) . ما علينا - أخذت على عاتقي منذ البداية ألا أتفلسف . وأحكي دون طموح لأي أعيب أو حيل فنية ما حدث لي . ومازالت أتذكر تفاصيله ودون أي طمع في تميز أو تفاخر أو تباه ، أو اختلاف لو كان فيما جرى لي أي ذرة من موجبات ذلك ..

وللسجن عند من لم يظأ أرضه أو لم يعبر بوابته تحت وطأة تهمة أو حكم - رهبة شديدة مرعبة .. أحسست بها وإن قاومت معاولها المتربصة بإرادتي وأفكاري وقضيتي وإيماني بأحلامي .. ولكنني أحسستها وكأنني ضحيتها في عيون الأطفال الأربعة أو قل الأحداث



الأربعة الذين رأيتهم لحظة عبورهم البوابة مكبلين بقيود تكاد تضاهي وزنهم ، كأشباح من إبداع الفقر والشارع المصري محكومين بسرقات خفيفة ؛ قمت حديد ، غسل ، وستأكد من ذلك فيما بعد ..

كانت أول مرة يدخلون من تلك البوابة ذات اللون الرهيب ويواجهون مفردات ذلك العالم المحاصر . كان الرعب مجسداً يكاد يقفز من عيونهم ويتشكل في رعدة أيديهم واصطكاك أسنانهم .. لدرجة تصورت أنه كان من الأحرى والأجدر بالمسئولين أو بمن حكمهم وحاكمهم أن يأمر بصفعهم أو لسعهم بخزانة رقيقة وضربهم علقة وإعادتهم من حيث أتوا : لأنه لو عرف ما جرى لهم بعد ذلك .. وكيف تغيروا بعد أن خاضوا تجربة السجن وتواءموا واندمجوا في نسق حياته .. وتمرسوا بعلاقات نزلائه ؛ لندم أشد الندم - ذلك لو كان يهيم أمرهم - قبل إلقاءهم في محرقة .. وهذا ما سنأتي إليه فيما بعد ؛ إن وجدنا مناسبة ملائمة تكون أقل فلسفة وتنظيراً مما نحن بصدده الآن ..

كنت أتعجب كيف يستطيع صديقي (حسين عبد ربه) أو أي شخص مثله احتمال حرمانه لشهور من مشاهدة السينما . وقد كنت أنا وهو من مدمني مشاهد الأفلام ؛ والأجنبية بالذات .. كيف ؟

وعندما عثرت بالصدفة على ربع موس حلقة مصدي فوق حلق باب زنزانتي تصورت أنني وجدت كنز (علاء الدين) أو صندوق جواهر أمير الانتقام .. وتحاليت أن أخفيه وأدسه في أماكن مختلفة أو بلغتنا - أسرى الفكر والسياسة .. كنت (أؤمته) وأجرب كيف لا يعثر عليه السجانة في حملات تفتيشهم لزنزانتي وأحس بالانتصار والزهو ، حين لا يعثرون عليه وأكد أقبلة فرحاً بنجاته أو بانتصاري له عليهم .

ويوم سرب لي مسجون من نبطشية الأدوار .. كتاب (الحرية الحمراء) لـ(حبيب جاماتي) .. استعاره خصيصاً لي من المكتبة ، انقلب حال الزنزانة وانقلب حالي (كانت الكتب ممنوعة وكنا لم نذهب بعد إلى سجن مصر) وكانت زنزانتي مازالت عارية لا أثاث فيها تقريباً (إلا تشبيهات ورموز) . وهالني وجود الكتاب معي - كنت أمسك به وأنا أقرأه كأني أحمل جمرة أو أن هناك عشرات العيون تراقبني وسوف تبلغ عني .. وتوقعت حملة تفتيش عاتية في الصباح .. حركت خيالي ودفعتني لإبداع طرق إخفائه في تحد لضرورة الانتصار على حملة التفتيش المتوقعة عند فتح الزنزانة .. والتي لم تحدث طبعاً .. ولكنها كانت فرصة لابتكار عشرات من وسائل الإخفاء في مساحة الزنزانة العارية الضيقة القليلة الاحتمالات .. جعلتني

في قمة السعادة وأنستني للحظات أنني وحدي سجين وضعيف وغلبان على رأي (بولجانين)

فالإنسان - غير كل الحيوانات وإن شئنا الدقة غير كل الثدييات . فإن انقلب مناخ الأرض وحل عصر بارد أو جليدي فلن ينتظر الإنسان أجيالاً لكي يتحول جلده إلى جلد دب يدفئه .. ولكنه على الفور يطور ملابسه ويدفئ نفسه بطرق صناعية يبتكرها .. حتى لو كانت ذبح الدب نفسه واستعارة جلده كغطاء أو لباس يقيه من البرد ..

وكذلك في السجن إنه سرعان ما يتواءم مع ما يواجهه من ظروف .. لذا استوعبت أنني قضيت الليالي الشتائية القارسة الأولى لي نائماً على تلك الكومة من الحبال التي كانت ذات يوم برشاً وتدفأت وتدثرت بتلك الهلاهيل التي كانت ذات يوم بطانية ؛ مرتدياً بذلة المتسول الممزقة أو ما بقي منها . وتمكنت أن أسير حافيًا على البلاط البارد أو على الزلط وخضت في طين الأيام الماطرة في الحوش متجاهلاً صرخات أمي عندما كنت أخطو خطوة واحدة في الصالة بأقدام عارية . عجيب أمر هذا الإنسان إن فشل في الاستجابة لتغير الظروف بقدراته فإنه يلجأ إلى غرائزه ؛ إلى ميراث جينات أجداده البدائيين في العصور الأولى التي لم تُعرف فيها الملابس الملائمة لكل طقس ولا الأحذية اللاتئة بكل أرض .

ويبدو أنني من حيث لا أدري قررت استدعاء قديم غرائزي البدائية حين اخترت (المعاملة ميري) وليس (الملكي) لأن ذلك كان سيكلف والذي (9) جنيهات شهرياً للمتعهد الذي يتولى تغذيتي , طبعًا غير المصاريف الأخرى ؛ كأن يوفر لي بضع جنيهات يرسلها في حوالة بريدية لحسابي أصرف منها لشراء الضروريات الأخرى .. فكيف أحمله كل هذا بعد أن رأيت منظره الذي يصعب على الكافر وهو يتسلم ملابسني في قهر ملحوظ .. مؤكد أنني استعنت بالمثل الذي يقول (البلد اللي ما حدش يعرفك فيها إمشي وبرطع فيها) . وبصرف النظر عن معنى البرطعة هنا .. إلا أن ذلك ساعدني في حينها على احتمال بذلة المتسول المقطعة على الجلد .. وأن أسير حافيًا يلسعني البلاط البارد أو المبلل دائماً وتخدشني حواف الزلط أو يلغوصني طين الأيام الماطرة ..

في الشهور الأولى وأثناء وجود زميلي في نفس السجن , كنا نتبادل بعض الأحاديث عبر الجدران أو في الطابور .. أو في ساعات أو قل لحظات فتح الزنازين ومع تغاضي الشاويشيه لطول العشرة - عن قفل الأبواب ؛ شرط بقائنا مصلوبين على الخط الأحمر بين الطرقة والزنازة . استيقظت في كل حواسي البدائية وانتفضت غرائزي دفاعاً عن وجودي . وأنا أرى (الإخوان الثلاثة) أكثر منا حرية ولكنني لم أحسدهم .. وأقنعت نفسي أنهم

محكومون ينفذون أحكامًا قضائية وحقوق السجين المحكوم أكثر بكثير من حقوق السجين تحت التحقيق أو المعتقل .. شيء منطقي ومن حقهم أن تكون لهم امتيازات عنا .. إنهم يتزاورون ويجتمعون معًا في العصاري على عتبة الشباك الرئيسي في آخر الربع المحرم .. يتمتعون بالنظر في حرية , خارج مجال العنبر إلى جدار سور النساء الحجري المصمت الممتد ليحجب السماء , وإلى سور السجن البحري حيث هناك مستطيل من السماء ممل تتعاقب عليه أحوال الطقس في لوحات رتيبة .. لم أجد في ذلك ما يثير طموحي لأن يُحكم علي .. لكن كانت هناك امتيازات أخرى أصابنتي بحسرة .. فهم يقضون معظم النهار أو كله خارج العنبر . ويعملون أعمالاً مختلفة .. من تطبيق حسابات الكانتين أو إقامة الصلوات جماعة في المسجد . طبعًا فيما عدا يوم الجمعة التي يأتي ليؤم السجن فيها شيخ من الخارج كان في الغالب يلعب همزة الوصل بينهم وبين عائلاتهم وعلى ما أظن مع جماعتهم .. أما أكثر ما أثارني وضايقني فهو علاقتهم بالمكتبة ..

أما نحن فعندما عرفنا أن من حقنا الرسمي الحصول على المصحف بل والإنجيل أيضًا - أسرعنا وطلبت شراءهما عند أول فرصة أتحت لنا من أهلي .. متحملاً استغرابهم من طلبتي (العهد القديم والجديد) فقد زغر أبي مندهشاً يوم جاء بهما ساخطاً .. (إيه ناوي تستنصر؟) ولكنني أقنعت أن العهد القديم بالنسبة لي كتاب تاريخ , وأنه وحده مع المصحف هو المسموح لنا بالاحتفاظ به وقراءته . ومع ذلك كانت عيناى تخرجان من محجريهما .. كلما رأيت الزملاء الإخوان (رايحين جاينين) يحملون كتباً من المكتبة . وكانت عامرة بما يصدر عن وزارة الثقافة تحت شعار كتاب كل 6 ساعات في سلاسل المسرح العالمي ومسرحيات عالمية والألف كتاب وغيرها علاوة على ما زود به (الحاج وهبة) المكتبة من كتب التراث الإسلامي والتاريخي من (سيد قطب) حتى (الطبري) و(ابن كثير) و(ابن هشام) و(ابن إياس) وعشرات غيرهم .. علاوة على ما كان بها منذ البداية من الدوريات مثل مجلة (المقتطف) القديمة و(الكاتب المصري) وهلال الأربعينيات والتلاتينيات .. كل هذا كان يقهرني حرمانى من الوصول إليه. فحفظنى للبحث عن وسائل لجعل الكتب هدفاً لسجائرنأ .  
والحقيقة .. أن هذا التحريم لم يمنع تمامًا وصول بعضها إلينا مثلما حدث مع (الحرية الحمراء) التي وهبها لي ذلك الفتى الجميل .. نبطشي الربع المحرم .. الذي لاحظت تعمدته التلكؤ - أمام زيزانتي مغنيًا .. (هل تُرى يا ليل أحظى منك بالعطف عليّ) فأقدمت على الحديث معه خاصة عندما أنشد نشيدًا كنت أعرف أن شباب (مصر الفتاة) كانوا ينشدونه في السجن . يقول :

(يا ظلام الليل أقبل .. نحن لا نخشى الظلاما .. فوراء الليل هذا .. نور فجر يتنامى) ..

عندها اطمأنتت له وناديت عليه وسألته لم يغني هذه الأغنية ؟ .. فقال ببساطة (كنت عارف انها ح تعجبك) .

تصادقنا وعرفت أنه من عائلة (جويده) أصحاب شادر ومحلات الخضار والفاكهة الشهيرة في سوق الجملة في المنصورة .. وأنه فنان يمثل ويغني وكان يتعمد كثرة الهروب من الجيش ؛ حتى حكم عليه أخيراً بعام سجن مع الرفق من القوات المسلحة . ومازال أمامه ثلاثة شهور ليخرج إفراج ليلتحق بفرقة (المنصورة) .. وأنه يريد أن يخدمني لأنه يعرف أننا مسجونون في سبيل الوطن وقضية العدالة والحرية وقال :

- أنا أخذت كتاب (الحرية الحمراء) لظني أن ذلك سوف يرضيك بما أنني اشتراكي زيكم .. وقد وعدني أن يستمر باستعارة الكتب التي أريدها . وكان من حقه استعارة كتاب واحد في الأسبوع , فوهبني هذا الحق لأنني أكثر حاجة للقراءة منه ..

وأصبحت أقرأ كل كتاب يحضره لي في نفس اليوم بعدها أسبره إلى (أحمد) و(محمد) حتى خرج (ابن جويده) إلى الحرية . وكان هذا انتصاراً كبيراً على الوحدة بين الجدران الأربعة الصماء , ولكنه لم يكن يكفي لقتل كل هذا الوقت المأسور بينها طوال هذا الزمن الممل الذي لا يتقدم إلا بصعوبة بالغة في عناد ثقيل يجبرك على ابتكار وسائل لقتل الوقت لا تخطر على بال .

دفعني حسدي للإخوان على ما حباهم الحكم عليهم من كتب إلى استدعاء كتب خالي (إبراهيم) المحشورة في دولابه القديم فأخذت (أستعرض بخيالي ألف ليلة وليلة . وأعدت إلى الحياة التاجر وعفريته و(الجمال ونساءه) و(علاء الدين أبو الشامات) و(جاهنشاها) .. كما راجعت كتاب أستاذ الرسم في مدرسة الجمالية وقرأت معه (أساطير الحب والجمال) .. وجسدت (زيوس) و(بوسيدن) وخضت البحر مع (أوليس) و(هيراكليس) وأخذت أقارن بين (وحش أوليس) و(عملاق السندباد) ذي العين الواحدة . وكنت أنشط ذاكرتي بإعادة تلاوة ما أذكره على أسماع (أحمد يوسف) و(عبد الحميد عبد الرازق) خلال لقاءاتنا القليلة في دورات المياه أو في الطابور أو من خلال الجدران .. وامتدت الغواية إلى كتب كشك (سيدي عبد القادر) فاستعدت وعشت مع شخصيات (أرسين لوبين) و(شرلوك هولمز) .. وخطفني (الفرسان الثلاثة) من جدران زنزانتي إلى مروج فرنسا الخضراء كما عبرت مع (كابتن بلود) المحيط إلى (بورت رويال) ممتطياً سطح سفينته المحبوبة (أرابيلا) سمية محبوبته وهاجمت مع (فرسان المائدة المستديرة) جيوش الغزاة ومع (جان دارك) هزمت الإنجليز وزاملت (سكاراموش) و(روبن هود) وهربت من الزنزانة مع (الكونت دي مونت كريستو) واستحضرت

شخصيات (بيت الموتى) ومخلوقات (جوركي) التي كانت رجالاً .. وفتيان (شارع السردين المعلّب) و(طريق التبغ) ..

عرفت حينها فضل القراءة التي شغلت أيام صباي وشبابي فخففت عني جلافة جدران السجن التي كثيراً ما أوحت لي نتوءات واهترئات وتشققات أسفل جدرانها التي كثيراً ما أدفن وجهي فيها متأملاً خطوطها وأشكالها متخيلاً فيها منظر الغابات والتلال وأجد في سوادها خضرة وفي رمادياتها آفاق سماوات صافية أو ملبدة بالغيوم وفي أشباحها الصغيرة فرساناً ورعاة وقراصنة وعشاقاً ، واتسعت على ضيقها فشملت ما أستدعيه من قصة غرامي الفنية المستمرة مع السينما .. فرحت أستحضر قصص وأبطال ما أتذكره من أفلام . خلقت منها عالماً غنياً ثرياً لا تستطيع أن تمنعني عن معاشته لا جدران الزنزانة ، ولا ليل السجن الممل الطويل .

ركبت مع (نور الهدى) شعبة ظهر عربية حبيبها وغنيت معها (يا أتومبيل يا جميل محلاك من ورا صاحبك وأنا راكباك / طير طير يا أتومبيل) .. ومع (أسمهان) غنيت (إمتى ح تعرف إمتى إني بحبك إمتى) واستحضرت مغمض العينين تطور قصتها مع (يوسف وهبي) من الكراهية إلى العشق .. وهما الفيلمان الأولين في حياتي ؛ حين سافرت مع أبي عقب الحرب العالمية الثانية إلى الإسكندرية (جوهرة وغرام وانتقام) واستعدت رغبتى القديمة أن أكون طياراً عقب مشاهدتي فيلم (فتاة من فلسطين) الذي افتتحت به سينما (المنزلة) وكيف استبدلت هذه الرغبة ، لوقوعي في غرام (محمد فوزي) الذي وقع في غرام (ليلي مراد المجنونة) ووجدت أنه من الأفضل أن أصبح طبيباً .. ثم تشابهت المهنة عليّ بعد أن انتقلت إلى (دمياط) بعد حصولي على شهادة الابتدائية عام (50) وقضيت عاماً في السنة الأولى الثانوية .. أشاهد فيلمين على الأقل كل أسبوع . فيلم تتحمل (العائلة) أي الميزانية المشتركة مع ابن خالتي ثمن تذاكر إحدى السينماين (اللبان أو دمياط جديدة) ويتحمل مصروفي تذكرة الفيلم الثاني .. فتتوعد مهن ووظائف الأبطال حتى لم يعد يهمني أن أحلم بها عندما أكبر فقد كان (حسين صدقي) عاطلاً أو صاحب مال كثير وهو يحب (ليلي مراد) في (شاطئ الغرام) ولم تكن له مهنة توصل إليها بالدراسة فصرفت النظر عن إعداد نفسي لأكون مثلهم إلى رغبة أشمل لأكون ما كانوه جميعاً .. فكيف أصبح مثل أمير الانتقام (أنور وجدي) .. إذ تارة هو أمير حقيقي بعد أن كان بحاراً وتارة يكون صعلوكاً يعزف على مزمار .. واسترجعت طموحي الجديد أن أكون بطلاً لفيلم ما .. أو أكون ممثلاً يحترف كل هذه الوظائف ويعشق كل هذه الممثلات من (نعيمة عاكف لشادية ليلي أو فاتن حمامة) ، ثم اختلط الأمر وتخلت عن هذه الأفكار الصببانية بعد أن انتقلنا إلى (المنصورة) وتداخلت علاقاتي مع أبطال كتب كشك (سيدي عبد القادر) ومكتبة

البلدية مع إدماني مشاهدة كل أفلام السينمات الثلاثة في المنصورة (ركس) التي كانت تعرض أربعة أفلام أجنبية اثنين يوم الاثنين لمدة ثلاثة أيام ثم تغير يوم الخميس باثنين (أنقح) منها يوم الخميس , وسينما (عدن) التي كانت تعرض فيلمًا عربيًا كل أسبوع مع حلقات مثل (فومنشو الجبار) و(فلاش جوردون) و(نايوكا) .. والكلب (تن ترن تنتن) وغيرها .. وسينما (الكوكب) التي تقدم ثلاثة أفلام في عين العدو مرة كل أسبوع .

وأذكر كم تحايلت وكذبت واخترعت أعداءًا لأمي بحجج المذاكرة عند زملائي .. والدروس الإضافية حتى لا تقوتني حفلة واحدة من حفلات دور السينما الثلاث ..

وقد زارني كل أبطال هذه الأفلام في زنزانتني وتحدثوا إليّ وواساني بعضهم بينما تشقّى في مأزقي آخرون من الأشرار وكم جسدت أحداثًا على شاشتي (الشبرين) من أسفل جدار الزنزانة أو شاشتي اللامحدودة أو (السكوب) في فضاء الحوش في الليل أو في سماء القمر الملبدة بالغيوم تعينني على استحضار براح سهول الغرب الأمريكي ليرفه عني (راندولف سكوت) و (إيرول فلين) و(تاييلور) و(ماتيوور) و(بربارا ستانويك) , و(جون) و(جين باول) ! أو اتساع بحار القراصنة وأبطال الإغريق والرومان .. ييااه عرفت بسبب ذلك أن ساعات حضور تلك الأفلام لم تضع هباء فقد أعاننتني على الوقت وما أبشع انتظار مرور والوقت وأنت أعزل أمامه من أي سلاح تقتله به حتى الكتب .

\*\*\*

• كان لتطور علاقة الصداقة بيني وبين الأخ (كمال أبو النجا) أثر كبير في تطور علاقتي بالسجن مساجين وإدارة .. صحيح أنني كنت قد قطعت شوطًا كبيرًا في توسيع علاقاتي مع المساجين (محكومين وتحقيق) بعد ترحيل زميلي (أحمد) و(عبد الحميد) إلى المعتقل وكذلك دعمت كثيرًا علاقتي مع معظم السجانة حتى أولئك الذين توترت علاقتهم بي في البداية مثل (غريب) و(محمد الصياد) .. لكنني وجدت طريقًا إلى قلب (غريب) عن طريق (الشلن) الأسبوعي .. أما الصياد .. فقد تكفل بتحييده (رجب الجن) و(القص) .. وأصدقائي من المحكومين السوابق .

بدأت علاقتي مع (كمال أبو النجا) بأحاديث صدفة عادية كلما التقينا في دورة المياه أو في الطريقة أمام زنازين الربع الحرام ، ربع السياسيين .. في البداية لاحظت أنه يتكأ في الأحاديث معي ليؤخر سجان الدور إغلاق زنزانتي حتى صارت عادة أن يتركها مفتوحة حتى بعد خروج الإخوان إلى العمل خارج العنبر .. ثم استعار لي بعض الكتب عندما رأني أهتم بكتب التاريخ الإسلامي والسيرة فأقرأني (طه حسين) و(سيد قطب) و(الغزالي).

كان إخوانيًا معتدلاً .. فُبِض عليه كشاب متحمس في حملة منتصف الخمسينيات بعد محاولة اغتيال (جمال عبد الناصر) والتي كان له رأي في اصطناعها لتصفية الإخوان وكان له منطق معقول ومقنع .. لأنه هو نفسه كان ضد التطرف وكان يعتبر أن الدور كان قد جاء على الإخوان للتخلص منهم كقوة منافسة بعد تحالف استمر من قبل قيام الثورة .. وكان يفسر بنفس المنطق ما حدث مع الشيوعيين .. ويضرب مثلاً بما حدث معنا بعد تحالف فاضح طويل ..

- عبد الناصر لا يريد أي قوى مناوئة أو معارضة أو تفكر بغير طريقته .. طريقة المستبد الذي يريد أن يقيم وطنًا قويًا .. على فكرة دي نقطة خلاف بيني وبين إخواني .. في رأيي أن السياسة تحتاج لبعض (الوساخة) ولذا أربأ بنفسي كمسلم أن أشغل بالسياسة .. فأهم وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم (لا تكذب) ولا تصلح السياسة مطلقًا بدون اعتماد الكذب كوسيلة هامة لخداع من يفهمون وللتمويه على من لا يفهمون .  
كان ينهي أحاديثه التي طالت معي بقوله :

- هل يمكن للمرء أن يزهد من عبادة الله والعمل الصالح ؟ لكن السياسة زهقتي وكفاية عليّ لحد كده .

كان قد حُكِم عليه بعشر سنوات كاملة منذ (5) سنوات وهو يتحمل لأن السجن وهو محكوم عليه أرحم كثيرًا من كونك تحت التحقيق ومطلوب أن تعترف . وحكى لي كثيرًا عما لاقاه في السجن الحربي قبل أن يقدم للمحاكمة وكان لتعاطفي معه ورفضه لكل هذه الأساليب واتفاقي معه في تفسير أسباب الطغيان والاستبداد ما قرب بيننا وجعله يؤثرني بالحديث معي لوقت أطول وباستمرار الحديث إلى أن شجعه على أن يفتح لي قلبه كاشفًا بصدق عن لحظات الضعف التي لم يكن يجرؤ على الحديث عنها إلى إخوانه ..

- كنت صغير السن واعترفت أنني انخرطت في التدريبات الرياضية لا أكثر وأنني لم ألمس قطعة سلاح في حياتي .. ولكن هذا لم يشفع لي .. ولم يشفع لي حتى صغر سني ..  
ووجدت نفسي مسوقًا إلى السجن الحربي الذي سبقني إليه كثيرون من الإخوان . هناك شفت النجوم في عز الضهر .. لأقر بما لا أعرف ووجدتني أتساءل ونحن تحت التعذيب عما كان يحسه (بلال) وما فكر فيه (عمار بن ياسر) وأسأل نفسي إذا كنا نحن كفارًا ..

فهل من يعذبوننا هم المسلمون .. وما الخطأ في الأمر كله أصلاً .. وكان صوت (أم كلثوم) يزحف على جدران السجن وفي أركانه المظلمة عبر الزنازين والأحواش ودورات المياه .. (يا جمال يا مثال الوطنية بنجاتك يوم المنشية !)

- في الطابور الذي ساقوني للوقوف فيه نالني من الضرب والإهانة ما أعجز عن وصفه .. كانت هناك كراييج سودانية منقوعة في الزيت .. وكانت هناك شوم وجريد نخل . ومن لم يجد من الزبانية شيئاً من ذلك في العهدة استعمل القايش .. وأبشع من كل ذلك كان الابتكار الذي يعجز عنه الشيطان .. فيأمرونك أن تتولى صفع من هو أمامك وطبعاً عليك أن تتلقى صفعة من هو خلفك ولا تظن أن هناك فرصة لك لتتظاهر .. فهم خبراء ويعرفون مدى ثقل الصفعة .. .. وتصور أن يكون الذي أمامك .. رجل في سن والدك .. بل أنت تتصوره والدك .. وتوقع أن تأتيك الضربات بما يتلاءم مع إخلاصك في إهانة من هو أمامك .. في الحوش وقعت عيني على جماعة يشبهون البشر .. حليقي الرؤوس ممزقي الثياب .. يعلقون سباً في آذانهم .. ولم أفهم في البداية ما يفعلونه .. فقد كان منظرهم جنونياً .. إنهم حسب الصفارة أو مع الصفارة التي تتغير نغماتها - ويبدو أنهم دُربوا على ذلك من وقت طويل .. كانوا يتبادلون الصفع كلٌّ مع الموجود أمامه , ثم ينظمون في صفين ويبدأ كل صف في التناطح بالرأس مع الذي أمامه . كل هذا والأدوات من عصي وكراييج وقوايش تتطاير في الهواء وتهبط عشوائياً على ما يقع في طريقها من أكتاف وظهور ورؤوس .. وكل هذا في إيقاع منتظم مع الصفارة المنغمة .. وعلى صفارة حادة اندفع الجميع في طابور صاعدين إلى السلم المؤدي للدور الثاني لتناول الغذاء . . كل في الزنزانة التي يسكنها ..

قالوا لي إن الطعام كان شحيحاً في بداية إحضارهم إلى الحربي .. لدرجة أنهم كانوا يبذلون جهداً رهيباً في عد حبات الأرز وحببات الفاصوليا وتقسيمها على بعضهم بالعدل والمساواة .. وكانت الكمية عموماً لا تكفي لسد جوع ريعهم أو خمسه .. فاقترح البعض أن يتبادلوا الأكل بحيث يأكل بعضهم كل ما يأتيهم من طعام ثم يصوم حتي تكتمل الدائرة .. وتطوع بعض العارفين بأن الإنسان يمكن أن يتحمل الجوع لأيام تصل إلى شهر وهي خبرة الذين جربوا الإضراب عن الطعام وتبادلنا الاقتراحات وقلبنا الأمر على كافة احتمالاته ولم نستطع الوصول إلى حل يرضي كل الأطراف ..

كانت هناك حديقة مربعة يحيط بها بناء السجن المربع الأضلاع وكانت مزروعة بالحشيش .. وحين دخلت وجدت أناساً راكعين يتحركون على قراييصهم وكأنهم يبحثون عن شيء بين أعواد الحشيش وفجأه ينتفض الواحد منهم .. ويقف انتباه أمام أحد الضباط



ويصيح ناطقًا أرقامًا كبيرة مثل (27.859) أو (30 ألف و516) فيلطمه الضابط على وجهه بقسوة ويأمره أن يركع رافعًا ذراعيه إلى أعلى ليستغفر الله على كذبه ثم ينهال عليه بالكرباج ويأمره أن يركع ليعيد العد ..

نعم كانت الحديقة المربعة مقسمة إلى مربعات بخطوط بيضاء وكان على كل واحد أن يعد أوراق الحشيش في كل مربع تحت الضرب وعندما لم أفهم المطلوب مني ، انهالت عليّ اللكمات والطمات فانكفأت على وجهي والسجان يطاردني بأقذر ما يخطر ببالك من شتائم ثم قال :

- عايزين تحكموا البلد يا بغال وانتم حتى مش عارفين مبادئ الحساب يا أغبيا يا قلالات الذمة .. ياللي ما عندكمش ضمير .. المربعات اللي قسمنا الحشيش فيها قد بعضها بالضبط إزاي بقى كل واحد منكم يجيني بنتيجة غير الثاني .. وهات يا تشليط وتلطيش وطبعًا يعز على العساكر المنتشرين يسيبوه لوحده ينحر في نفسه ويعلمنا مبادئ الحساب ويصحي فينا الضمير .. فيهبون لنجدته كل بما في إيده .

بعد ما اتحكم علينا وزعونا على السجون الاحتياطي مش كلنا طبعًا .. فيه ناس بقيت في جحيم العذاب ده إلى أوقات أطول .. هنا جنة بالنسبة لجهنم (حمزة البسيوني) دي .. كنا أمام زنزانتة فدعاني لشرب الشاي .. وقال لي دا شاي حقيقي مش زي شاي السجن الحربي .. قلت له : وما الفرق ؟

قال : لا .. ما عندكش فكرة . وانا برضه ما كانش عندي فكرة . إلا ف يوم ظبطني الضابط وانا بضحك وانا على قرافيسي ولا أستطيع أن أحفظ توازني .. فصاح بي :

- بتضحك على إيه يا بغل ؟

ظن أنني أسخر منه مع أنني كنت أسترق البصر إليه لأتأكد أنه لم ير سقطتي .. ولم ينتظر ردًا مني .. بل نادى على (العسكري عباس) وقال له : خد البغل ده اسقيه شاي خفيف ..

وجرني (عباس) من قفايا وهو يرفصني بركبته مع كل خطوة وكفه الأخرى تعزف على قفايا أنغام حقد لا أدري له سببًا وأخذني إلى مكان تحت السلم .. وأمرني أن أستلقي على ظهري وأرفع ساقي وانهال بالكرباج على قدمي العاريتين حتى تقجّر الدم منهما .. وهو يسخر مني ويسألني إن كنت أحب الشاي أتقل من ذلك .. ثم يهددني .. أنا ح اخليه لك حبر يا ابن .. وأضف أنت أوسخ ما يخطر على بالك من سخائم ..

وشربنا الشاي .. الطبيعي وكل منا يحمد ربه لأننا في سجن (المنصورة) حيث لا نسمع سوى صفارة الصول (مصطفى) التي تنبهنا أن مأمور سجننا (الملاك) سيقوم بجولة يتقصد فيها أحوال مملكته .

لا تظنن أن الصمت الذي تخشاه عندما تغلق عليك الزنزانة يصبح متحكماً فيك أو مسيطراً عليك لدرجة أن يبتلع لسانك .. فأنت لا تكف عن الكلام وأنت وحدك بين الجدران الأربعة .. لأنك لو لم تفعل ذلك ستعطيه الفرصة كي يحاصرك حتى يقتلك . ساعتها لن يكف عن مهاجمتك صمت ثقيل أسود يكتم على أنفاسك حتى تختنق أو تصرخ. ولذا لا بد أن تتكلم لتجنب ذلك . أنت مضطر للكلام حتى بلا صوت أو حروف مع كل شيء وفي كل اتجاه .. مع نفسك إن عجزت أن تجد من يسمع لك غير ذاكرتك أو حديد النافذة .. أو أسفلت أسفل الجدران حيث تنام وتدفن وجهك لتجد في خطوطه وبقعه التي صنعها الزمن مساحات وأشخاصاً وأشباحاً ؛ مع ظهر باب الزنزانة والأشياء المعلقة فوقه والتي تتخذ هينات شخصيات بعينها بشر أو حيوانات .. مع نقطة الماء التي تتساقط متباطئة تغير إيقاعاتها من فترة لأخرى .. مع صوت الأقدام في الحوش , أو داخل العنبر فتحدد من قوتها مدى بعد الذي يحدثها عنك أو مدى قربه .. ومع الأيام تحدد شخصيته بل وحالته النفسية .. وإمكانية دعوته ليشاركك الثثرة لقهـر الصمت الكالح الذي يتراكم حولك مصروعاً تحت وطأة ما تخترعه من كلام صامت مع كل ما حولك دفاعاً عن نفسك وإثباتاً أنك ما زلت تتنفس وتعيش وتقاوم وتضحك على أشياء وتبكي حرقه على أشياء وتثرثر مع كل من تأسره خيالاتك أو تستحضره ذكرياتك وتجسده حياً ناطقاً قادراً على مبادلتك الحديث .. وحشد الحياة في فراغ الزنزانة .

وكان كسر الحاجز بيني وبين الأخ (كمال) من أهم معاركي لقهـر الصمت .. وخاصة بعد ترحيل (أحمد) و(عبد الحميد) وصرت بجوار (الإخوان الثلاثة) وحيداً مقطوعاً من شجرة عمن يتحدثون لغتي ويحملون أفكارى .. فازدادت علاقتي به توثقاً .. وطالت إلى ما بعد كل تصور الفترات التي نقضيها معاً نثرثر ونتجادل ونكتشف بيننا طباعاً وسمات بل وأفكاراً مشتركة , بالرغم مما بين الإخوان والشيعيين من ركام الشك والعداء والكراهية على مدى عقود من التاريخ المصري الحديث ..

كانت مسافة تتخلق لتباعد بينه وبين الآخرين تتبدى مظاهرها في نظرات عدم الرضا أو الجفاء كلما رأينا معاً مندمجين في حديث جاد . وكان نائب المأمور (عبد العظيم الريدي) كلما تصادف ورأنا نجلس على شباك العنبر الكبير أو أمام المكتبة نتجادل يرفع صوته مخاطباً (كمال) لأنه كان يتحرج من الحديث إليّ علنا باعتباري من المحرمات :

- يا كمال خلي بالك لا الشيوعي يبيلشفك .

فأتودد أنا متقرِّبًا منه :

- يا سيادة المأمور وليه ما تحذرنيش أنا .. إن هوّ اللي يأخُونِي .. أنا فين وهوّ فين ؟ ..  
ويضحك ثلاثتنا وسط نظرات السجانة المندهشة والمتسامحة . كان (كمال) (مصنّعًا) في  
المكتبة بينما كان (سامي) المنوفي يتولى تدريب الفرق الرياضية (سلة وطاولة وفولي بول)  
وهي فرق شجع على تكوينها من المساجين الرائد (الريدي) .. ليشارك بها في المباريات  
على دورات مع المعهد الأزهري ومدرسة المنصورة الثانوية ومدرسة الصنائع تحقيقًا لسياسة  
حديثة حيال المساجين والتي كان من أهم مظاهرها توسيعه للورشة , وتنويع منتجاتها من  
الأحذية والأثاث وأدوات النظافة والتي ازداد إنتاجها لدرجة أصبحت تدر أرباحًا كبيرة على  
السجن . ونالت شهرة كبيرة .

وأعطاني وجود (كمال) أمينًا للمكتبة فرصة لدخولها أثناء وقت الطابور المخصص لي ,  
والذي كان مازال محدودًا في الصباح والمساء يتحكم فيه ما يزال الشاويش سجان (أحمد  
عبد المتعال) , لكن (كمال) أقنعه ببعض التساهل اعتمادًا على تسامح المأمور وأحاديثه  
الودية إلينا كلما مر ونحن معًا ..

ولم أكن أجد تفسيرًا لمنع الكتب عني .. وتبين لي أنه عُرف لم تحدده قوانين لأنني شيئًا  
فشيئًا , أصبحت أستعير الكتب من المكتبة لنفسني بعد فترة كان (كمال) يزودني بها خلالها  
أقرأني كتب (سيد قطب) وكتبًا أخرى في التاريخ الإسلامي وغيرها . كان (الحاج وهبة) قد  
زود المكتبة بنسخ من كل منشورات مكتبته الشهيرة في (عابدين) ثم اكتشفت أن مكتبة سجن  
المنصورة تحوى كنزًا بكل المعاني ..

وجدت بها أعدادًا كثيرة من مجلة (المقتطف) ومجلة (العصور) و(الرسالة) . وكانت  
هناك سلسلة الألف كتاب بألوانها المتعددة وكتب مسرحيات عالمية والمسرح العالمي  
وإصدارات دار الشعب , ودار المعارف وفرنكلين . فتحت لي علاقتي بـ(رضوان) تلك  
المكتبة (الأخ كمال) .. باب جنتها على مصراعيه .. وأهم من ذلك أنها أزلت الحرج  
والتحفظ في علاقتي مع الرائد (الريدي) وكانت علاقته مع (كمال) تكاد تكون عائلية فهو  
يسكن في عمارة والد (كمال) .. والتي يقع أسفلها محل الأدوات الكهربائية خاصته ولذا  
سمحت صداقتي مع (كمال) بتقارب إنساني مع (الريدي) الذي بالصدفة سمع بعض أشعاري  
فصار يسألني عنها ويطلب أن أقرأ له الجديد منها ..

وسمح ذلك أن يكون وجودي في المكتبة وجوداً شرعياً كما صارت استعارتي لأكثر من كتاب أمراً مسموحاً به .. وتذكرت حكمة الشاويش (محمود سعد) عن الحكومة وكيف يمكنك أن تفعل ما بدا لك بشرط ألا تُريها (..).

وكان (الريدي) ولا أدري إن كان صدفة أو عمدًا قد تخلص من المخبر الذي كنت أراه يحوم في المكاتب من قبل , عقب مشادة انقلبت لخناقة شديدة تمادى المخبر فيها وتعدى على أحد السجناء فانتصر للسجان وطرده .

تناقشنا (كمال) وأنا وتجادلنا وانفعلنا وغضبنا وتصالحنا حول عشرات الموضوعات والتواريخ والآراء والفتاوى .. حول شعار الإسلام (دين دولة) . ولماذا لا يكون (ديناً وخلافة) أو (ديناً ومعاملة) أو (ديناً وإنسانية) باعتبار أن المسلمين لم يعرفوا الدولة الدينية حتى في أيام السلف الصالح وأن مصطلحات مثل الدولة الأموية أو العباسية أو حتى العلوية .. مصطلحات علمية حديثة . ولماذا لا يكون (ديناً وسلطة) باعتبار أن المطلوب هو الحكم أصلاً .. وجادلني في مشاعية الجنس عند الشيوعيين وزواج المحارم .. والخضوع لسياسات (موسكو) وأن اليهود هم الذين اخترعوا الشيوعية والوجودية وكل المذاهب الإلحادية الكافرة !! وحاورته حول مواقف الإخوان من الحركة الوطنية , ومقولة (واذكر في الكتاب إسماعيل (إسماعيل صدقي) أيام كان يذبح الطلبة في منتصف الأربعينيات وحكاية العربية الجيب والاعتقالات ولماذا ظهرت جمعية الإخوان في الإسماعيلية بالذات , وطلب مني تفسير دور (اليهود) في تأسيس المنظمات الشيوعية وحفلات المجون التي تقام لتجنيد الشباب وإغوائهم ..

في بعض الأحيان كان يثيرني فهمه السوقي للشيوعية وجهله الفاضح بتاريخ الحركة الوطنية أو تاريخ العالم الحديث .. وكان بحرًا في شئون الحديث وتاريخ الإسلام .. دعوته لقرءة (الفتنة الكبرى) وأن يتأمل ما جرى في (يوم السقيفة) وأن يفكر في علاقة كل هذا بدين الإسلام .. وفي ضرورة الفصل بين ما هو مقدس وما هو بشري . وقلت له أن كل هذا تشترك فيه كل الأديان وتناقشنا حول رواية النصوص والأحاديث وجمع القرآن ..

وخضنا في علوم الحديث والفقه وطالبته أن يفسر لى تقديس (أبي هريرة) بينما (عمر بن الخطاب) كان يطارده ويضربه وينهاه عن الكذب على رسول الله .. وحاولت أن أقنعه أن تاريخ الإسلام ليس تاريخ المسلمين فالدين ليس مسئولاً عن تصرفات (الحجاج) .. ولا إعدام

(الحلاج) .. كما أنه لا علاقة للدين بملابس البوابات الفاخرة وحياتهم المرفهة .. كل الأديان كانت في بدايتها تنتصر للفقراء وبالفقراء ثم صارت (نبوة محمد) ملكاً لـ(معاوية) أو قل ملكاً عضواً !!

فدخل بي في خضم مظالم (الستار الحديدي) والإعدامات بالجملة في عهد (ستالين) واعترافات كتاب كبار مثل (أندريه جيد) و(هوارد فاست) و(اثاسيلوني) بفساد التنظيمات الشيوعية .. وكلهم كتب تجربته ونشرها .. وساعتها قلت له إن تاريخ الشيوعية ليس تاريخ الشيوعيين !!  
واتفقنا في كثير من القضايا .. وأهمها أن السياسة العملية تقسد الأحلام وتكدر نهر الأفكار الإنسانية الكبرى وتضر بالدين .

والحقيقة أنه كانت لكل منا حدود يقف عندها ولكننا ارتحنا لأن كلاً منا اكتشف في الآخر ما يحبه وما يعجبه .. وتطورت خلال ذلك علاقتنا بقدر لم يرض (سامي) ولا الحاج (وهبة) لأننا لم نكن نشركهم في مناقشاتنا ولا فيما نختلف فيه أو نتفق ! ..

قرر نائب المأمور (عبد العظيم الريدي) والذي أصبح هو المأمور الفعلي منذ اختفى (الدماطي) وخرج ولم يعد .. قرر إقامة معرض لمنتجات السجن في المدينة يقدم فيه إنتاج ورش السجن التي اتسعت وتتنوعت من الأحذية الرجالي والحريمي وحقائب السفر وحقائب السيدات .. وأطقم السفرة والأنتريهات والدواليب , وخاصة أن كثيرين من المساجين كانت حرفهم الأصلية هي النجارة وأعمال الجلود وأيضاً كان بينهم خياطون . والحقيقة أن منتجات السجن كانت على درجة عالية من الجودة وكانت أيضاً أرخص كثيراً من مثيلاتها في السوق واقترح (كمال) عليه أن يصنع له (ماكيتاً) مصغراً للسجن يعرض وسط تلك المنتجات .. وقدم له رسماً تخطيطياً للعنبر والورش والمستشفى والمبنى السكني والحمامات والمطابخ والحديقة والمزرعة .. ورحب المأمور بالفكرة وأراد (كمال) أن يشركني في صناعة الماكيت معه ..

لكن المأمور تخرج من خروجي إلى العمل وسط المساجين . وكان المخبر لم يطرد بعد .. فاقترح (كمال) أن يستخدم الزنزانة رقم (1) في الربع المواجه لزنزيننا - كورشة صغيرة تُصنع فيها الأجزاء ثم يعاد تركيبها على القاعدة المجهزة لها والتي لا يمكن أن تتسع لها الزنزانة . وبالفعل نقل إليها ما نحتاج من أدوات وخامات وأتاح لي ذلك العمل معه في الماكيت وكان يساعدنا نجار ملتج من (شربين) وآخر من (المنزلة) ..

وبدأ الماكيث المأمول يتخلق ويتجسد . وبدأت في ابتكار أشكال من الورق الملون والليف المصبوغ لصنع نماذج لأحواض الزهور والأشجار ومسطحات الحشائش في الحديقة والزراعات المختلفة في المزرعة وحولها ..

ثم حدث أن جاءت إشارة للسجن لتجهيز المساجين الإخوان للترحيل إلى سجن القناطر حيث يجري تجميع المحكومين من الإخوان من سجون مصر المختلفة تمهيداً للإفراج عنهم , ولتوعيتهم قبلها بمبادئ (ثورة يوليو) للاندماج في المجتمع خاصة وقد استقطبت الحكومة عددًا من زعمائهم بل وأصبح بعض من مروا بمسالك السجن الحربي وطرة وزراء مثل (عبد العزيز كامل) ومن قبله (الباقوري)!!

وحتى يكتمل الماكيث أخلى المأمور عنبرًا من عنابر الدور الثالث الفسيحة والتي يشمل الواحد منها حوالي أربع زنازين وقرر أن نحوله لورشة لنستكمل بناء الماكيث وسمح لـ(كمال) أن يستخدم ما يشاء من الأيدي المساعدة والحرفيين المهرة فاجتمع في تلك الورشة المؤقتة محكومون من محكمة الشعب وآخرون من محاكم الجنايات بتهم مختلفة وجنح متنوعة .. وأنا لنظّل نعمل طوال الليل لننجز ويتم هيكل الماكيث .. قبل رحيل (كمال) وإخوانه ..! وعندما تأملت المنظر في العنبر تذكرت كيف حومونا أنا و(أحمد) و(عبد الحميد) من المبيت معًا طوال الشهور الماضية وتأملت هذا الجمع المتنوع والمتناثر معًا في غرفة واحدة فهمست ضاحكًا : معك حق يا محمود يا سعد !!

ولم نستطع إكمال نموذج السجن تلك الليلة التي تحمس للعمل فيها (شيوعي وإخواني واثنان من تجار المخدرات الصغار وثلاثة خبازين مسجونين بدلاً من أصحاب الأقران واثنان من الجنود المرفودين من الجيش لتكرار هروبهم وواحد غفير شونة ونجار وهجامان واثنين تجار أحدهما تاجر طيور والثاني صياد تاجر سمك !) ..

حتى موعد فتح السجن بقينا ساهرين للصباح نعمل في نشر الأبلكاش وقص الورق الملون وتقطيع الأسلاك الصلب وتشكيل ما يشبه البلاط وتقطيع فورمات مضلعة لبروزات حجارة المباني . وحين جاء سيادة الرائد ليفك هذا الارتباط ويرى النتيجة كان النموذج قائمًا وقد اكتملت له شبكة الكهرباء التي تضيء الزنازين ونماذج متعددة لهياكل بشر سجانة ومساجين .. صنعها أحد الجنود الهاربين لتنتشر في الحوش . وفي نموذج الورشة والمكتبة والمطابخ وغيرها .. فتغلبت ابتسامة الرضا على نظرة الإحباط التي صعدت إلى وجهه لأول وهلة .. وافعلت ابتسامة

تشجيع وأمل عندما وعدته وأكد وعدي كل الحاضرين أن الماكيث سيكون جاهزًا وحاضرًا في افتتاح المعرض الذي أرف موعده .. وطلبنا منه مؤكدين ألا يحمل همًا!..

ولما علمنا أنه من الصعب استمرار هذا التحالف من البيات معًا مرة أخرى قلت له :  
- في الورشه كله ح يكون جاهز .. فكل الرتوش والإضافات كأبراج الجنود على الأسوار والنافورة ووضع ملامح الواجهة والتلوين باللون الخاص بالسجن كلها أشياء ستتم في يومين على الأكثر .. ووعده أنني سأعمل وأنجز أهمها في نفس الليلة في زنزانتي لو سمح لي ببعض الآلات والأدوات البسيطة ..

وتفرقنا وراح (كمال) يستعد للرحيل مع (سامي) و(الحاج وهبة) وإنهاء إجراءات الانتقال للقناطر وكانت عربة الترحيلات ستأتي عند الظهرية ..

ونقل لي البعض ما أحتاج إليه من أدوات وخامات اخترتها إلى زنزانتي . كما تمت إعادة كل شيء إلى الورشة وإخلاء زنزانية رقم واحد .. من (البنك) والأخشاب أيضًا . وودعت جبهة العمل المشترك (كمال) بما يستحقه كقائد لكتيبة متناثرة استطاع أن ينجز بها تسعين في المية من حلم صغير , لافتتاح معرض منتجات السجن (المعرض الذي أهله فيما بعد أن يتولى منصب وكيل مصلحة السجون لشئون الإنتاج والتصنيع بعد أن نفي للواحات لمدة سنة !)

وكانت ليلة الترحيل والائتلاف تلك نهاية لمرحلة وبداية لمرحلة أخرى ازدادت فيها واتسعت دائرة علاقاتي بالمساجين وبالسجانة .. وبعد أن أنجزت على خير وجه بمساعدة أصدقائي طبعًا كل ملامح ورتوش الإكسسوارات اللازمة ليكون النموذج صورة طبق الأصل من الأصل . وفي الموعد المحدد ازدادت علاقتي بالرائد (عبد العظيم الريدي) توثقًا وألفة أطلق فيها سراحي في براح السجن وصرت أتجول براحتي ما بين الورشة والمكتبة والمكاتب والحوش والمخازن دون أن أحتاج لسجان يحرسني أو يتسلمني في كل مشوار .

وعندما اعتذرت له عن مصاحبة النموذج في المعرض منبهًا حماسه إلى خطورة ذلك لأتني في النهاية سألفت نظر المباحث إلى خطأ فادح قد يعطيهم فرصة للانتقام من طرد مخبرهم .. ازدادت ثقته في . وأردفت بطلب أن أعود لارتداء ملابس السجن حتى لا ألفت الأنظار بملابسي المدنية وسط المساجين ولأذوب في حياة السجن اليومية ..

• لا تصدق من يقول لك إن أيام السجن متشابهة - هي مبالغة .. فالأيام لا تشبه بعضها في المطلق . فالنسبية هي قانون أزلني من قوانين الوجود .. بالضبط كما أن التغيير قانون الحياة الذي لا يتغير ..

الأيام بعد ترحيل الإخوان اختلفت تمامًا عن أيام الشهور الخمس أو الست قبل ذلك .. كانت أيامًا غير الأيام .. تختلف اختلافًا جذريًا .. كالفرق بين أيام السجن الانفرادي وأيام الحرية .. اختلفت في طبيعتها وطعمها .. اختلفت في إيقاع حركتها ، في طولها ، وأيضًا في مدى الإحساس بها ألمًا أو انتظارًا أو حلمًا .. أو فائدة ..

في الزنزانة الانفرادية وحيث يقضي المرء أكثر من اثنتين وعشرين ساعة كل يوم خلف باب موصد بليد قبيح اللون والمنظر ، ومحاصرًا بجدران صماء لا تحس ولا تستجيب .. وشباك مربع تحاصر قضبانه وقواطعه السماء وتحبس السحب والنجوم وتكسر الضوء والظلمة ..

لا يكون أمام المرء إلا أن يقضم الوقت بأسنانه وأظافره وأحاسيسه لحظة بلحظة تمر ثقيلة كامدة .. فلا يتركه إلا جثة هامدة ثم يكتشف أن الوقت هو الذي أخلى سبيله وترك رقبتَه ليستطيع أن يحرر أنفاسه التي أرقها الصراع غير المتكافئ .. الذي يجبر الإنسان المحبوس انفراديًا على اللجوء إلى أحضان أوهام يللمم أشاتتها من حياته .. يستحضر بها أحاسيس



ومواقف من ذكرياته يتغلب إن نجح في تمثيلها - على طاغوت الصمت وجبروت الوقت .  
وتخيل معي ذلك الفتى الذي وصفه خاله التقى الورع وهو بعد صبي قائلاً :  
(هذا الولد لا تهدأ له حركة .. اشغله بالدراسة)

فيلحقونه في الرابعة بمدرسة البنات بصفة غير رسمية .. فيقود زميلاته إلى غزو أشجار التوت وإلى مخابئ العفاريت والجنيات ويدخل المدارس الابتدائية قبل سن الإلزام . ولا يكف عن مطاردة الغربان في أوكارها والعصافير في أعشاشها .. ويغزو الجنان المسورة بالأشواك مع صبيان ليسوا تلاميذ مثله ولكنهم معه يغزون خزائن جدته .. وحقول عائلته .. وزرائب جيرانه فيما بين حقول (الخمسة) و(السبخية) و(أرض الطير) و(التلول) بحثاً عن الضفادع وديدان الطين لصيد الأسماك ويخوض البرك والترع بحثاً عن ثمار الجميز وكيزان الدرة !  
هذا الذي لم تهدأ له حركة حتى بعد أن صار فتى ثم شاباً يعرف معنى تأميم القنال والحرس الوطني والنضال دفاعاً عن الوطن , ثم يقود مع زملائه أهل القرية كلهم لانتزاع حقوقهم المنهوبة في الجمعية الزراعية فيخطب ويرسم رسوماً كاريكاتورية ضاحكة ويكتب منشورات ويشارك في مجلات حائط تحت مسمى لجنة الوعي التعاوني !

هذا الذي حاصرته جدران الزنزانة (39) الدور الثاني في سجن (المنصورة) لتجبره على أن يقضي ساعات طويلة يقيس طول وعرض الزنزانة بالخطوة وبالقدم ثم يبتكر وسائل للقفز إلى رحم الشباك أو التعلق كالقرود ببطانية بفتحة الباب بحثاً عن مدى رؤية أكثر اتساعاً وإن حدث منه أسلاك الأسوار البعيدة لحائط السجن وأشجار غابة الجزورينا من ناحية ومن ناحية أخرى فراغ بطن العنبر المؤطر بالأسيخ الحديدية الزرقاء القاتمة والبلاط البارد وأوامر السجانة والحراس (انزل يا مسجون) فيعمد إلى اختراق الجدران إلى براح الدنيا فوق أجنحة الذكريات مستحضراً أفلام الفرسان وقصص القراصنة وحكايات رعاة البقر الملونة مستعيناً بذاكرة كانت في أوجها وصباها .. تعيد عرض الأفلام ورواية القصص وتجسيد الروايات ؛ وهو مكوم أو معلق أو مقرفص أو مُقعٍ أو نعسان في نفس المكان الذي يبدو في كل الأحوال ضيقاً عليه وضائفاً بذكرياته التي كان فراغ الزنزانة يكتظ بها حتى تكاد تخنق أنفاسه وتشل حركته وتقعده في مكانه الذي يزداد ضيقاً عليه ويزداد هو ضيقاً به .

والتي كانت أحياناً تتجسد بشراً يجلسون معه يحدثونه حديث الأصدقاء أو حديث الرفاق ؛ بكل جدية عمًا وراءهم من مهام وما عليهم من واجبات .

ناداه الأسطى (عبد السلام شطا) لينتزع من وسط زحام حول إحدى موائد قهوة النادي.  
زحام ضاحك يومي يشاهده في معركة دومينو لا تنتهي مع شقيق (عبد السلام) (مجاهد

شطا) أكبر حريف (دومينو) .. وسر المرح والضحك هو الحظ الغريب له ؛ إذ يهزم (مجاهد) الحريف باستمرار رغم أنه لم يكن يعرف من اللعبة إلا قواعدهما العامة التي يعرفها الكافة ولم يكن قد عرف بعد أن لكل رقم في الدومينو سبع مراتب ولم يكن قد اكتشف أسرار كشف المستور وحسابات الأرقام التي يتقنها المعلم (مجاهد) ولم يكن يدري أن لعبه العشوائي هو الذي يهزم دائماً خطط وحسابات خصمه الذي كان يثور ويلعن مثيراً ضحكات وسخرية رواد المقهى .. ويومها كان قد هزم (مجاهد) بطريقة فجرت موجة عارمة من المرح عندما ناداه (عبد السلام) وأخبره أن عليهما غداً أن يذهبا إلى موعد حزبي مع زميلين في قرية مجاورة وهي (الجواير) . كان أحدهما سائق جرار زراعي مثل (عبد السلام) وكان الزميل الآخر تاجر خردوات بسيط , لكنه حافظ للسيرة وراوٍ للحكايات الشعبية وصاحب جماهيرية فذه بين أهل تلك القرية والعزب المجاورة ..

ابتسم لنفسه وهو قابع في ركن الزنزانة عندما تذكر الوليمة التي أعدها لهما الزميل السائق. وكان متزوجاً من امرأتين ويقوم في دوار لصاحب الأرض الذي يعمل لديه .. وكان أمام الدوار جرن الحصاد تحيط به قناة الري الكبرى التي تغذي الأراضي خلف الدوار لمسافات كبيرة .. كانت الجلسة في المساء التالي بجوار القناة وفوجئ بأنهم مدعوون للعشاء وأكثر من ذلك .. لسهرة مزاج وفكر بجدية أن يعتذر عن شرب (الحشيش) .. لكنه أشفق على نفسه من رأي الزملاء السليبي في امتناعه باعتبار أن ما يفعلونه أمر يعيب (طالباً) مثله أن يفعله .. وسيكون رأيهم أنه مجرد (تلميذ) وهم ينظرون إليه باعتباره (مناضلاً) يقاوم قوى الظلم والاستبداد . وكانت معركة الجمعية لا تزال على بُعد عدة شهور .. فامتثل وابتلع اعتراضه ..

اكتفى بطلب تأجيل جلسة المزاج والعشاء إلى ما بعد عقد الاجتماع والذي كان أول اجتماع لهم كخلفية بعد أن تابع هو ووجه مناقشات (عبد السلام) معهم حتى جاء الوقت المناسب لضمهم للتنظيم . ولم تكن الحملة ضد الحزب قد بدأت وكانت البلاد تعيش جو قيام الوحدة وما صاحبها من ارتفاع نبرة المواجهة مع الاستعمار وتعمق العلاقات المصرية السوفيتية . ولم تكن قد اتضحت أبعاد المؤامرة البعثية الرجعية لاستبعاد الشيوعيين من صفوف الجبهة الوطنية ولم تكن ثورة العراق قد قامت بعد .

وبعد أن عقد الاجتماع الذي صال فيه طبعاً وجال ..

طبعاً شرحت الموقف السياسي بعد الوحدة وما جرى من حل الأحزاب واعتراض الحزب السوري .. وشرحت رأينا في أن الوحدة كان لابد أن تتم بطريقة ديمقراطية . وأننا كان يجب أن نطبق على مصر ما هو حادث في سوريا من تعدد الأحزاب لا العكس لأن النظام الحزبي هو الأكثر ديمقراطية وتقدماً . وضحكت بصوت عالٍ عندما تذكرت العبارات التي قلتها وراجعت

ملاحم الزملاء الثلاثة وهم يوافقون على ما أقول ، ويتعجلون انتهائي من مناقشة بعض الأمور التنظيمية والضرورات التي تفرضها المرحلة من سرية .. وانتقلنا فوراً إلى الفقرة التالية من الاجتماع فقام الأسطى وأحضر القصعة التي تتوهج فيها كومة من القوالح المشتعلة .. وتولى الزميل الخردجي تطعيم الحجر الأول وعزم عليّ به .. وفوجئت . ولم أستطع أن أرفض .. ولم تكن المرة الأولى التي أشرب فيها الجوزة .. فأنا زيون دائم بحكم صداقائي لزبائن قهوة عم (أحمد النادي) الذي هو في الحقيقة صاحب القواعد الجبرية في نظافة الجوز والذي طبقت شهرته آفاق (ميت سلسيل) وما وراء البحر الصغير .

أخذت نفساً عميقاً أشعل الحجر المطعوم ناراً .. وأشعل صدري . ولكنني تحاملت ورفضت أن أكح فكتمت قدر الإمكان وطار نصف دماغي .. مع الدخان الكثيف الذي لم يكن بالتأكيد يتلاءم مع وضعي الجامعي ولا الحزبي .. لكن السهرة كانت قد لفتنا روحها .. واندفعت الضحكات والنكات مع دوران الحجارة كالأفلاك وسط ليل ساج ونسمة صيفية . وفجأة قال الزميل (الخردجي) وأظن ذلك كان بعد الحجر السابع .. فللسابع دائماً دلالة في الحواديت الشعبية .

لأنه قال :

- صلوا بينا على النبي ..

صلينا وزدنا النبي صلا .. وأردف هو بعد أن أشعل حجراً آخر بقوة ..

- الحدوته دي بقى بتقول لك رأي الشعب في (الغلب) اللي مالي الدنيا ..

انتبهت للمدخل الذي يقوله ووجدتني أتوجه إليه بكل حواسي ..

- كان يا ما كان فيه راجل تاجر ما شاء الله ، تجارة وفلوس وقصر وخدم وحشم وابن واحد وحيد ماتت أمه وهو صغير .. فحلف ما يجيب له مرة أب ورباه لحد ما شاء الله ما بقى شاب يشرح القلب الحزين ..

شد نفساً من الحجر التاسع .. بينما قام الأسطى المضيف باستعجال العشاء فردوا عليه من الداخل أن العشاء سيكون جاهزاً بعد نصف ساعة ..

وعاد صاحبنا للحكي بينما راح (عبد السلام) يجهز حجراً آخر ويغمز لي أشد حيلي وأكون قدها .. فطمأنته وتناولت الجوزة بثقة وجدية .

- الراجل قال أنا كبرت وما عادشي باقي إلا إني أروح أزور النبي وأحج .. واهي أموالي دي كلها يا ابني مسيرها ليك إن آجلاً أو عاجلاً .. ياللا شد حيلك وانا ح اتفرغ لعبادة ربنا . وراح الراجل حج وزار ورجع منور واتفرغ للعبادة .

وقعد في أودة فاضية بسيطة ما فيهاش غير سجادة وقلة . يدخلوله الأكل بالمواعيد .. وهو نازل صلا وذكر لحد يوم نده لابنه . وقَعده قدامه وحط إيده على راسه وقال له خد آدي مصحف ربنا .. حط إيدك عليه لو كنت طاهر قال له : طاهر يا ابا .. إحلف إن اللي ح اقوله يفضل سر لحد ما توصي ابنك إنشاء الله نفس الوصية .. الأوده دي .. تقفلها بعد موتي وما حدش يفتحها بتأتا .. واعرف يا ابني ان دي وصية وصاني بيها ابويا ووصاه بيها جدي ووصاه عليها جد جدي سبع جدود يوصوا اولادهم جيل بعد جيل لحد ما وصلتني . وعهد الله بينا توصي بيها ابنك وتوصيه عليها .. جيل لجيل وحلفه على كده .. وحلف له الواد .. انه لا ح يدخل الأودة ولا يخلي حد يدخلها من بعده ..

وما فاتش يومين إلا وكان الراجل مقابل رب كريم ..

وهنا فتح باب الدوار . وخرجت امرأه تحمل طبلية وأخرى تحمل صينية نحاس عليها أنجر فته محترم .. وحطوا مشالهم وسطينا .. كانت ريحة الملوخية فايحة والفته بتقول كلوني .. وجوز فراخ محمرين لسه السمنة بتنز فوقهم عبد السلام لمّ الجوز .. وكانت بطونًا بتزقزق و(الحشيش) جوعنا ..

- والحدوتة !؟

- مش الراجل مات .. الله يرحمه ..

- بقى ده كلام .. دي عن سر (الغلب) اللي ملا العالم ..

- بعد ما نملا البطون .. نعرف سر (الغلب) !

قال (عبد السلام) ضاحكًا ..

- يا عم وانت يهملك إحكي وانت بتأكل .. الأكل كثير ما تخافش . واحكي على سطر وسيب سطر للأكل ..

وضحكنا .. وتجمعنا حول الصينية .. وكان الأكل شهياً لدرجة أنا حسيت إن بطني بتلعب عليّ وده كان عيب الذكريات اللي بتجرّي الريق وخصوصًا لو ما كان عندك اللي يسد جوعك .

لكن كان عندي ليلتها كوز حلاوة طحينية من الكانتين فقلت لنفسني :

على كل حال الحلاوة كويسة بعد (الحشيش) !

لا أذكر عاودت تذكر الحكاية في نفس الليلة أم في يوم آخر أو في ليلة أخرى وكان هذا أحد عيوب الاحتماء بالذكريات من صمت الوحدة وثقل الوقت في السجن الانفرادي .. فأحياناً تجسد الذكريات أمامك أحداثاً أو أشخاصاً ثم يسلمونك للنوم ويسلمك الصحيان إلى النسيان .. لكنني كنت قد أعجبت بكنوز الزميل (الخردي) .. ومعرفته الموسوعية بالحكايات والأمثال والنكت الشعبية .. لكنه بالتأكيد أكمل لي الحدوتة في وقت ما ؛ لأنني تعلقت بها خاصة وقد شدتني تيمة (الباب المحرم) هذه التي تجدها في كثير من الحكايات الجميلة ..

- المهم إن الولد بعد فترة من موت أبيه .. ملا القلق روحه وتمكن منه الشك فيما يخفيه هذا الباب . فصمم ذات يوم أن يطفئ نار الأسئلة التي ينبتها الشك في قلبه حول ما وراء الباب كلما مر عليه أو تذكره ..

أعطى لكل الخدم عنده إجازة ولما أصبح في القصر وحده أغلق أبوابه وشبابيكه وهرع إلى الحجرة ففتحها بلهفة لكنه فوجئ ألا شيء هناك .. حجرة خالية جرداء لا (طاقة بها ولا علاقة) .. وأرضها ترابية على عكس أرض الغرف الأخرى .. فورّته نفسه أن السر مدفون تحت الأرض فأحضر أدوات الحفر .. وخلع ملابسه إلا الضروري . وهات يا عزق وحفر حتى كاد التراب الطالع من الحفرة يغطي جدران الغرفة دون أن يعثر على شيء .. فعاود العمل ثلاثة أيام بثلاثة ليالٍ .. حتى وجد أخيراً (قنينة) صغيرة لا تكاد تظهر من قبضة يده ..

أصيب بإحباط شديد لكنه فكر في وصايا جدوده (جداً عن أب) فظن أن بها لابد بعضاً من (ماء المحاية) .. أو شيئاً ما مسحوراً أو سحرياً .. فجاهد حتى فتحها بصعوبة فاندفع منها دخان غريب ملاً فراغ الغرفة والحفرة وحاصره . ثم تجسد في مخلوق ضخم بشع الخلقه يشبه الإنسان وليس بإنسان وليس بحيوان وإن كانت له طبيعة الحيوان . زعق فيه زعقة ارتجت لها الأرض وعيونه تطق شرار نار فسقط مغشياً عليه ..

لكن ذلك المخلوق أيقظه قسراً وقال له :

- سبع أجيال يا متعوس وأنا نايم كافي خيري شري منكم ومن الدنيا .. تيجي انت وتقلق منامي .. دانا ح اقتلك شر قتلة .. يا أبططك زي الفطيرة يا أمزرك نسيرة نسيرة .. إختر لنفسك موتة ..

- إرحمني ؟ ..

- وانت قلقت منامي وقلبت راحتي ليه ؟

- إنت مين ؟
- أنا قدرك .. نصيبك .. أنا صديقك ..
- وصديقي وليه عايز تموتني ؟
- لأن ده قدرك معايا ..
- إرحمني ..
- إسمع أنا ح اخيرك خيرة وأعطيك فرصة إكرامًا لأبوك الطيب ..
- في عرضك ..
- إسمع .. إختار لك خيرة من الاتنين .. يا أعصرك قي قبضة إيدي لحد ما تطلع روحك ..
- يا أرميك بره القصر بالهدمة اللي عليك .. تمشي وما تبصش وراك وتنسى إن لك أرض أو قصر أو مال ..
- بكى الولد حتى حنت الجدران ولكن (صديقه) لم يحن عليه فقال :
- أختار اخراج .. خلق الله يا أرض الله واسيب لك الجمل بما حمل ..
- في لمح البصر لقي نفسه مع طلعة النهار ماشي زي العريان في طريق طويل جنب ترعة مالهاش نهاية . وشجر عالي على الجنين لحد الضهر , كده , كان تعب من المشي والبكاء حرقه م اللي جرى له . لمح على الشط الثاني راجل فلاح كان بيحش برسيم لجاموسته وميل بعد ما صلى الضهر .. وقعد تحت الشجرة يفك منديل غداه .. ولسه بيقول باسم الله . سمع اللي بيقول له :
- السلام عليكم يا ابويا ورحمة الله .
- سلام يا ابني ورحمة الله وبركاته .. اتفضل كل لك لقمة .
- الواد ما صدق سمع الكلمة كان الجوع اتمكن منه راح طابب في المية ومعدى التربة مبلول وقعد قدام الراجل .. صعب عليه وقال لنفسه دا لازم ميت من الجوع .. فقال له :
- باسم الله ..
- وعمل نفسه بياكل وساب له الأكل وهو بيقول لا حول ولا قوة إلا بالله ..
- الواد بعد ما شطب على الأكل .. راح مميل على الشجرة . وقعد يبكي بحرقه حرق قلب الراجل .. فطبطب عليه وقال له :
- يا ابني كله بيهون إنت شباب والدنيا قدامك .
- الواد قال له :
- أصل كنت باشتغل أجري عند ناس وكلوا عرقي وطردوني .
- أعوذ بالله دول ناس ما عندهم دم ياكلوا عرق الغلبان؟ إسمع أنا لا عندي عيل ولا تيل وعندي ثلاث بنات صبايا مستورين تعالى .. أعملك ابني .. وانا رجلي والقبر ..

وأجوزك اللي تختارها منهم وتراعيهم وترعى الفدان ده والجاموسة دي .. وربنا يعوضك  
خير ع اللي راح منك ..

ما فيش لا فرصة ولا وقت للاختيار .. وافق على طول وراح معاه .. اختار بنت من  
البنات والراجل حدد الخميس اللي بعد كده لكتب الكتاب والدخلة . ويا دار ما دخلك شر ..  
ومرت الأيام .. والواد أظهر للراجل عرفان بالجميل فاشتغل في الأرض وكانها أرضه .. لحد  
قبل يوم الخميس بيوم قال أسرح الغيط وأحش برسيم للجاموسة يكفيها ولو أربعة ايام علشان  
ما اتعبش حمايا ..

سرح وقعد يحش برسيم ويكوم ويحزم .. إلا ويبضرب بعينه لمح اللي جاي عليه من  
وسط الغيطان . سادد عين الشمس . ولما بقى فوقه كان حاله بقى عيضة من الرعب  
والخوف ..

قال له : خايف مني ؟

- إنت مين ؟
- ياه لحقت تنساني دا انا نصيبك .. صديقك .
- عايز إيه تاني مني ما سببت لك اللي ورايا واللي قدامي .
- لسه !! ما شفيتش غليلي .
- اعمل معروف أنا ما صدقت لقيت متوى .. عايز إيه تاني ؟
- روحك ؟ ..
- روحي ؟ .. حرام عليك .. إرحمني ..
- إسمع اختار لك خيره م الاتنين .. يا أدبلك يا أدبح الجاموسة دي !
- حرام عليك .. ذنبه إيه الراجل الغلبان تموت جاموستة .
- ذنبه إنت .. هه قلت إيه ؟

وبصوت متحشرج خارج بالعافية من زوره قال له إدبح بس فوتتي آخذ الجلابية تسترني  
قبل ما تطرطش عليها الدم . وطبعًا بعد ما حصل صاحبه اختفى . قال وانا ح اقعد أنيل  
إيه ؟ .. واقول للراجل إيه ؟ دبحت الجاموسة عشان فرحي؟! وخد بعضه واتكل ..

بلد تشيله وبلد تحطه وخايف يكلم حد لينحسه .. لحد ما لقي وكالة قماش في مدخل بلد  
كده . وراجل طيب قاعد مكتتب ينش وما فيش ولا زيون .. فضل راقم الراجل لحد ما مد إيد  
طلع م البنك لفة أكل واقعد ياكل .. فظهر بمنظره المسكين له .. الراجل رد السلام وقال  
تعالى كل يا ابني الجوع كافر قعد ياكل معاه .. في دقيقة والتانية الوكالة امتلت بالزبائن ..  
اللي عايز حرير واللي عايز صوف واللي عايز كستور .. لقي نفسه بيناول الراجل ويقطع

والراجل يقبض . هو يقيس ويقطع والراجل يقبض لحد آخر النهار كان الدرج ما شاء الله  
إتملا والراجل وشه نور والبسمة فرشت على وشه للودنين .

قال له : وشك حلو عليّ وقدمك سعد !

الواد ما ردّش وشكره .. الراجل طلب منه يشتغل معاه ما دام ما عندوش شغل والولد  
وافق . لكن لما قال له : ما دام ما لكش متوى تعالي أدبر لك متوى ف بيتي ..  
قال له :

- يفتح الله .. إذا ح تأمن لي أنام قدام الدكان يبقى كتر خيرك وكأني غفير ..  
الراجل بعد ممانعة صعب عليه .. طلع له (3) بطاطين وسابه وروّح ..

الصبح جه فتح ومعاه الفطار .. واللي كان امبارح حصل أكثر منه النهارده . ده يقيس  
ويقطع وده يقبض والناس أشكال وألوان لحد ما الراجل بعث يجيب بضاعة مرة واثنين ..  
اتعدوا واتعشوا والراجل ماشي مرووح ما هانش عليه يسيبه بره الدكان . عطاءه أجره بالحق  
والمستحق .. ما هو مش كل التجار جشعين . ولما جه يروّح قال له تخش تنام جوه من  
الطل ..

الواد الحقيقة بدأ يخاف وقال له : ما بلاش !!..

الراجل صمم وقفل عليه الدكان .. وروّح ..الواد من التعب نام زي القتل وهو مبسوط لدرجة  
انه ما حلمش بأي حاجة ..

مرت ثلاث ايام . نفس اللي حصل ؛ بيحصل . لدرجة إن التاجر الطيب ده عمل له  
نسبة بدل اليومية ..

وبعد ما خلص اليوم الثالث وراح الواد في النوم زي العادة وهو فرحان .. إلتقى اللي بيهزه  
بقسوة فقام مفزوع . واتفرع أكثر لحد البكا لما شاف (صديقه) مالي عليه الدكان وأنفاسه نار  
ح تخنقه ..

- عايز إيه تاني مني ؟ ارحمني .

- روحك - حرام عليك - اختار خيره - يا اقطم رقبتك يا احرق الدكان .

- حرام الراجل ذنبه إيه ؟

- إسأل نفسك الراجل ذنبه إيه .

- طيب خرجني من هنا والا حتحرقني فيه . تبقى فين الخيرة يا حدق ..

- تخرج ما تتلفتش وراك .

ولقى نفسه برّه الدكان ومن غير ما يبص . حس النار وشم الدخان - وطار يبعد عن  
المكان .. الجبان ؟



- الجبان؟! ليه توصفه بالجبن؟ لازم يهرب طبعًا يا روح ما بعدك روح ..
- يا شيخ؟ يا اشتراكي ياللي عايز وعارف إنك ممكن تتسجن عشان دماغك .. قصدي اللي ف قلبك ..

تنبهت وتذكرت أن المناقشه تلك لم تجر بالضبط كما أرويهها ولكن فيما يشبه ذلك .. فلا أذكر هل كان (عطية الخردجي) راوي الحكايات يقصد بالضبط أن يفرق بين (دماغك وقلبك) لكن ذلك ما استقر في الذاكرة لأنه قال ردًا على سؤال لي . هل جبان دي في متن الحدوتة أم إنها تعليق من الراوي؟ قال ..

- الحدوتة لا تحاكم أبطالها الراوي القراري لا يحكم على تصرفات شخصيات حوادثه ولا أبطالها لكن أنا الذي أصفه بالجبن فجنبه هذا هو الذي جر المصائب على الدنيا ..

- كيف؟ الراجل ماشي جنب الحيط بيدور على لقمة ونومة ..
- ما هو لو صبر القاتل ع المقتول كان مات لوحده وما اتشنقش . يا سيدي الحكاية نفسها اتكررت معاه .. لما وصل لمدينة زي (المنصورة) كده .. وقعد في جنبينة زي (شجرة الدر) يفكر ح يعمل إيه؟

كان فيه خواجه ومراته وابنه - طفل صغير بيلعب حوالهم .. يشاء السميع العليم إن الولد يتعلق بيه ويشبط وراسه وألف جزمة ما يروحوش إلا ودا معاهم . الخواجه يحايل ابنه بكل الحيل ما فيش فايده فيعرض عليه أن يلحقه بخدمته يرعى الطفل .. مكتوب .. واتكررت المأساة . بعد ثلاث أيام .. الواد - قصدي العيل عيط . وراسه برضه وألف صرمة ينام معاه في سريره .. الراجل الحقيقة اتفزع .. لكن المقدر والمكتوب ما منه هروب .. وبعد صديقه ما قتل الطفل .. خرج هربان من البلد كلها وهو بيموت نفسه من العياط وقلبه بيتقطع . ولقى مصلية على الریاح .. فنزل ويا الفجر استحمى واتطهر . وقعد يصلي لحد النهار ما طلع عليه نام من التعب ..

على الضهر كده . لقي راجل طيب بدقن بيصحيه عشان يقوم يتوضى ويصلي معاه الضهر جماعة .. أول ما صحي قرفص جنب حيط المصلية وقعد يعيط بحرقة وينهنه زي النسوان .. العجوز قال له :

- صلي على النبي يا ابني واستهدى بالله .. مالك؟
- لازم أموت نفسي يا عمي ما فيش فايده ..
- أعوذ بالله وتموت كافر؟
- ما انا عيشتي كلها كفر .. إيديه دول متلوثين بالدم وهو بيطارني .. ومش قادر أخلص منه ..

- استهدى بالله .. قوم اتطهر وتعالى احكي لي ..
  - نزل الرياح واستحمى وطلع . الشيخ قال له ..
  - قيم الصلا وصلي على النبي .
  - قام الصلا وكفت دموعه البكى وصلى ورا الراجل وكأن إيد طيبة مسحت على قلبه ..
  - شفت أهه ؟ فاق وعرف جريمته .. طب ما كان يقتل نفسه بدل الجاموسة ..
  - البصر أعمى عن القدر يا عبد السلام !!
- جاء (طاهر) السائق المضيف بالشاي وبمنقذ قوالح مشتعلة آخر لاستئناف جلسة الأنفاس .. فاستحلفته أن يؤجل هذا لاستكمال الحكاية .
- المهم إنه عرف إنه لازم يغير اختياره .. لكن الراجل الطيب بعد ما سمع منه الحكاية .. هز رأسه وقال له :
  - يا ابني ربنا اختارك .. ده درس كبير قوي يا ريت تفهمه . إسمع . أنا عندي سرجة قريبة هنا ومزيتة .. تعالى اشتغل عندي .. ولما يبجي (صديقك) يحلها ربنا .. بس تعمل اللي ح اقول لك عليه بالحرف لا تزود ولا تنقص وح نشوف .
  - يومين في ليلتين بقى ينام في السرجة مقفول عليه . في الليلة الثالثة جاله صديقه .. وخيره بين قتله أو تخريب السرجة وخط الزيت على السيرج .. فقال له :
  - اعمل ما بدالك .. بس بشرط تكتفني وتعلقني في السقف .
  - كان السقف عالي جداً .. ما يقدرش يوصل له إلا صديقه .. وحصل وكان الشيخ قد طلب منه ذلك ليتأكد من كلامه ومن درجة أحاسيس الندم عنده . لأنه لما جاء في الصباح لم يفاجأ بما حدث .. ونظر إليه وقال :
  - صديقك هو اللي شمطك في السقف كده !..
  - وجاب سلم فراشة وطلع فكه ونزله .. وقال له :
  - أناح انام جنبك الليلة دي ولما يبجي صاحبك ويخيرك .. تزغدي وتصحيني .
  - إنت ذنبك إيه ؟ ح يموتك صاحي ولا نايم ؟
  - اعمل اللي باقول عليه ..
  - طب ممكن نشرب الشاي عشان نمخمش ونستعد لنهاية الفيلم . ضحكنا من القلب ..
  - وشربنا الشاي وابتدأ (عبد السلام) يرص حجارة ما بعد العشا ..
  - واستأنف (عطية) حكايته :
  - بس يا سيدي ناموا .. وف نص الليل جاله صاحبه .

- مين ؟ ..
- صاحبك وصديقك (الغلب) نسيت .
- عايز إيه تاني ؟ مش عملت امبارح اللي عملته ..
- إسمع أنا مش سايبك وح افضل انكِّد عليك زي ما نكدت عليَّ وصحيتني من عز نومتي .
- عايز إيه طيب ؟
- كان قد أيقظ الشيخ فضل متظاهراً بالنوم حتى قال :
- يا اقتلك يا ادبح الرجل ده وأسبح دمه زي الزيت .
- فهب الشيخ صارخاً فيه :
- بتقول صديقة وصاحبه .. إنت كذاب .. فيه صديق يقتل صديقه ..
- اسكت انت يا شيخ .. خليك في حالك ..
- في حالي ازاي . وانت ناوي تدبحني وتسيح دمي أنا !
- ده اختياره مش اختيارك . لازم انتقم منه لأنه هو اللي صحاني من بعد سبع أجيال - نوم في العسل .
- نوم فين .. ؟
- في (القنينة) دي .. وفتح كفه الضخمة ليريه القنينة .
- انفجر الشيخ في الضحك وانتبه الأسطوات .. كانت الحدوتة قد وصلت إلى الذروة و(الصديق) يخير صديقه في ذبح أحدهما . والشيخ يضحك بهذه الطريقة التي أدهشت الصديق نفسه فلم ينطق وقال الشيخ :
- مش مكسوف من كذبك .. بقي انت كنت نايم في دي .. يا شيخ روح .
- مش مصدقني ؟ .. اسأله ؟
- أسأله ؟ هو أكذب منك . روح يا راجل ربنا يغفر لك ويعفي عنك .. قال هنا قال !! ..
- اغتاظ الصديق واهتز غضباً وارتعشت ملامح وجهه وهو لا يصدق نفسه .
- مش مصدقني ؟ .. طب هه ..
- وفي لحظة كان هذا المسخ المهل قد تحول إلى دخان اندفع شيئاً فشيئاً إلى داخل الزجاجاة وسمعه يصيح :
- صدقت ؟!
- فضحك الشيخ وهو يقفل حلق الزجاجاة ويحكم غطاءها وهو يقول :
- أنا مصدقك من الأول يا غبي ..
- قفز الشاب فرحاً بما حدث وبنجاته ..

- بس ح نعمل إيه دلوقتي ؟ ..

- لازم نحرقه ياللا ..

وبلا تفكير جمع الشاب أخشاب البراميل المكسورة وصب فوقها خليط الزيت والسيرج وأسرع الشيخ فأشعل في الكومة النار وظلت النار مشتعلة حتى الصباح وكانت بقاياها تزداد حجمًا شيئًا فشيئًا حتى صارت كومة هائلة من الغبار المحترق .. لا يحيطها نظر الغبيين اللذين صنعها .

قال الشيخ متشفياً :

- غبي .. وكان لابد أن نهزمه بنكائنا ..

واحتضن الغبي الشاب الشيخ الغبي وهو يبكي فرحًا لخلاصه .. لكنهما دهشا وكادت عيونهما تخرجان من محاجرهما وهما يراقبان في عجز ما يحدث .. قلنا كلنا في نفس واحد وقد بلغت بنا الإثارة والتشوق مداهما ..

- أبدًا .. هبت ريح عاصفة شديدة من الشمال تحولت فوق الكومة إلى (فساء عفاريت) دارت معها الأتربة المحترقة وارتفعت للسماء تبعثرها على كافة الجهات .. وتوزع بقايا (الغلب) المحترق على كل البشر ..

أذكر أنه ساد صمت لم تقطعه إلا كركرة الجوزة في فم (عبد السلام) !!

وتمتم راوي الحكايات الحكيم وهو ينظر مباشرة في عيوننا ومن هنا قال الشاعر :

- لكل داء دواء يستطب به إلا (الغباوة) أعيت من يداويها ..

قلت له :

- الحماقة !!

قال لي وهو ينفث سحابة من دخان (الحشيش) :

- وهل هناك فرق .. يا صديقي !!

وضحكنا كلنا مستكرين قوله . فقال :

- ما اقصدش والله . يا صديقي !

فقلت له متسامحًا ..

- انت اللي صديقي ..

وضحكنا كلنا في غياب .. ونمت ليلتها في الزنزانة تطاردني الكوابيس .

• طبعًا لا يمكن أن تتم مطاردة الذكريات بهذه الدقة السردية المتكاملة الدرامية .. خاصة وهي مطاردة من قبل نزيل زنزانة انفرادية منذ (50) عامًا أو يزيد .. لم تكن الأحداث تتوالى بكل هذه الدقة والاكتمال وإلا دخلنا في مناطق الافتعال . ويظن أنها حيل من حيل الكتابة وتتنوعات من فنون السرد التي لا أحيدها .

وتلك الذاكرة مهما كانت فلا بد أن أصابها الوهن الآن ولذا فمثل هذه الحدوتة قد تتجسد كما هي ولكن حسب سيناريو مختلف ونحن سوف نقابل أحداثًا وشخصيات أخرى كثيرة .. فعذرًا نطلبه مقدمًا لاختلاط التواريخ وفقدان التتابع المنطقي وسيكون هناك بعض التداخل ولكن أبدًا لن نفقد خط الصدق الذي سيكون مقدسًا كخط الحزب ..

ولأن الأمور الخاصة بطريقة الحياة في السجن اختلفت تمامًا بعد رحيل الإخوان واختلف معها إيقاع الأيام ؛ إن تصورنا الفرق بين ضيق الزنزانة أمام تلك الطاقة المكبوتة من الحركة والنشاط فلجأت للخيال والاحتماء بالذكريات لكسر جبروت الجدران وتخطي رهبوت الملل ، مقارنة بانفساح المدى والمجال بلا حدود ، بلا قيود !!

بعد إنجاز الماكيت المجسم للسجن نموذجًا دقيقًا وجميلًا تطلق نافورة حديقته المياه كما في الحقيقة وتضاء فيه الأنوار في كل بقعة مع الشرح المصاحب الذي يقوم به سجين فنان هو (عزيز) الرسام الذي صنع مجسمات دقيقة للمساجين وللجانة وحتى للأشجار والأزهار وكانت تضاء المكتبة فور التحدث عنها .. والورش أو المطابخ والحمامات أو المستشفى .. أو العنابر بالتوالي أو بالتبادل .

وبعد اعتذاري للرائد (الريدي) أن أقوم بهذه المهمة في العرض وهو الأمر الذي رآه معقدًا ولا يثق في غيري لإنجازه .. ثم قبوله لهذا الاعتذار بعد أن أقنعتة بقدرات (عزيز). بالإضافة إلى تقديره لموقفي لأنني لم أرد تعرضه لمخالفة أمنية لو علمت المباحث بهذا . وكانت ستعلم بالتأكيد مما قد يكون له عواقب وخيمة لم يكن منتبهًا لها .

صرت أغادر العنبر إلى أي مكان في السجن حتى المكاتب دون مصاحبة سجان لي كان يوقع في الدفتر على خروجي كما هي العادة فأصدر أمرًا لعم (حسن عطية) أن يوقع على خروجي من العنبر يوميًا . فأتسعت جدران الزنزانة لتشمل فضاء السجن بكامله . ولم تعد ساعات النهار بما فيها ساعتنا المقيال كافية لإنجاز ما تقضيه المهام التي أقوم بها في المكتبة أو الورشة أو لتمارين الفرق الرياضية .. وأتيح لي استعارة ما أشاء من الكتب من مكتبة السجن فأصبحت ساعات الإغلاق غير كافية لإنجاز قراءة ما يتاح من الكتب علاوة على الإجهاد الناتج عن حالة حركة ونشاط ذلك الشاب الذي وُصف صغيرًا بأنه لا تهدأ له حركة لأنه ممسوس .

كنت السجين السياسي الوحيد في السجن .. وعند المساجين نظرة لا تخلو من احترام وتقدير للسجين السياسي . ورثوها من أيام النضال الوطني الذي أضاف (للعبرة) في كافة السجون عبارة (زهرة الحركة الوطنية) .. ولأن زهرة الحركة الوطنية كانوا دائمًا ضد الإنجليز وضد السلطة يحاطون بهالة من التقدير والخوف يؤججها لجوء الحكومات وعساكرها دائمًا لمعاملتهم أشد من المساجين العاديين وتحيطهم بمحظورات وممنوعات لا حد لها ؛ مما يعكس عند المساجين خوفها هي منهم بل ورعبها من خطورتهم ، ولأنهم معادون لمن يحبسونهم ظلمًا كما يعتقدون ، ولأنهم كانوا يكتشفون حين التعامل عكس ما تصورهم الحكومة وأنهم شجعان في الدفاع عن حقوقهم وحتى عن حقوق غيرهم . تصبح لهم عند المظالم مكانة ومنزلة واحترام . أحاطوني به فحاولت أن أكون دائمًا عند حسن ظنهم قدر ما أستطيع ..

مرة واحدة .. تصرفت بشكل همجي ظننت أنه ضروري لأحافظ على المكانة التي وضعتني فيها - وحافظت عليها لشهور - يوم ظننت أن عدم تأديب (الشرمبيلي) وضربه عقابًا على سبِّي سبابًا بذيئًا أمام طابور العمل الذي كان يتوالى على السلام في طريقه للخارج ذات صباح مزدحمًا بالعمل ..

كنت مشغولاً في إنهاء الأعمال الروتينية للدور الثاني . وهي تسليم تذاكر السجن لمن قضى مدة (التجربة) . التحقيق ينزل إلى الدور الأرضي والمحكومون إلى الأدوار الأخرى ؛ حسب نوعية تهمتهم وتصنيفاتهم .. والمرضى إلى العيادة أو المستشفى .. ناهيك عن الذاهبين إلى المحكمة أو التحقيقات .. ووسط هذا العمل المكثف جاء (الشرمبيلي) يطلب تذكرته لأنه خارج .. جلسة .. كان متلهفًا يريدتها بسرعة حتى يتسنى له إعداد نفسه للعبور من التفتيش مخفيًا ما بحوزته بالضرورة من ممنوعات . ولم أكن أقصد مضايقته ولكن الزحام كان شديدًا وطابور

العمل المتجه إلى مرافق السجن يتدافع للنزول.. وفي يدي عشرات من تذاكر الذين انتهت مدة بقائهم في الدور .

طلبت منه الانتظار بكل أدب فظل يلح ويشد التذاكر بغباوة وقلة أدب من يدي وهو غاضب .. فنهرته .. فتراجع إلى الخلف وسط المساجين مفسحاً مساحة بينهم , وأخذ يسبني بالأم والأب ويصب على سخائم من المنتقاة .. فلم أتمالك نفسي وأحسست أن الأمر صار اختباراً أمام كل هذه العيون التي تراقب الموقف فأخذتني العزة بالإثم وبكرامتي وحفاظاً على هيبتني . وجهت إليه عدة صفحات رنانة وركلات كادت توقعه فتشبث بي محاولاً إسقاطي .. فوجدتني أخلع ما في قدمي وأنهال عليه ضرباً وتلطيشاً أثار دهشة الجميع .. وفوجئت بزميلين سجينين من زملائي في (الخلية) التي أنشأتها في السجن .. يفصلان بيني وبينه في غضب وقسوة .. وجذبني أحدهما بالقوة نحو مكتب الشاويش بينما ذهب الآخر ليواسي (الشرمبيلي) الذي انخرط في بكاء حقيقي لما لحقه من إهانة !!

جلست وأنا أنتفض .. ثم وجدتني أبحث عن تذكركه وأعطيتها لزميلي ليوصلها إليه .. فقد هزمني بكأؤه وأحسست بمدى همجيتي وقسوتي لدرجة أنني غالبت دموعي بصعوبة .. همس لي الزميل الذي أبعدي عن (الشرمبيلي) :

- إحنا لازم نقعد النهارده .. الكلام ده ما ينفعش .

نظرت إليه مستسلماً وموافقاً .. فمضى إلى العمل لكنني بعد أن أنهيت الأعمال الضرورية الخاصة بدور (2) استأذنت الشاويش (عبد المتعال) شاويش الدور وذهبت إلى غرفتي .. كنت مكتئباً فقررت ألا أذهب حتى إلى المكتبة وقررت البقاء في الزنزانة ..

\*\*\*

• كانت علاقاتي مع المساجين قد اتخذت مسارًا أكثر عمقًا وحميمية فوجودي دائمًا وسطهم في المكتبة والورشة وفي الملاعب ، ثم قيامي بتنظيم وتدريب الفرق الرياضية التي كونها من قبل الأخ سامي (المنوفي) أحد الإخوة الإخوان (بنج بونج) و(فولي بول) .. علاوة على مهمة استقبال الإيراد الجديد الذي يقضي النظام بتسكينه في دور (2) لمدة عشرة أيام يوزع بعدها على الأدوار العليا أو الدور الأول إن كان تحت التحقيق ..

كل هذا عمق علاقاتي بالنزلاء ومكنني من عقد صداقات وعلاقات دفعتني إلى ممارسة فكرة تجنيد الواعين منهم وذوي المواهب القيادية توقعًا لإمكانية التطور نحو اكتساب الثقافة والرغبة في المعرفة . فلم يكن هناك مجال لعمل سياسي مباشر . كان الجميع يعرفون أنني شيوعي .. فهي تهمة رسمية ومكتوبة على تذكرتي الحكومية التي تحدد هويتي . وبعد سقوط الموانع الرسمية التي حرمت عليهم التواجد في الربع الرابع من الدور الثاني حيث كان يسكن (الإخوان والشيوعيون) وأيضًا بعض المحكومين بالإعدام لابسِي البدلة الحمراء عقب الحكم عليهم إلى أن يرحلوا إلى حيث يتم التنفيذ بعيدًا في سجون أخرى ..

وحين كان الشاويش (عبد التواب) بحدته وجديته هو الصالح دائمًا لحكم الدور الثاني ، كان الربع الرابع عامرًا بالنزلاء (الخطرين) والسياسيين . كان الاقتراب منه جريمة تستحق العقاب والتأديب فتجنبه الجميع طلبًا للسلامة ..

أما وقد جاءت أيام كنت النزير الوحيد في ذلك الربع عدا (الشرمبيلي) في الزنزانة الأولى رقم (31) كنت قد انتقلت إلى الزنزانة (35) التي كان بها حوض وحنفية مياه . كانت زنزانة (3) نجوم وكان يسكنها الأخ (كمال) وألقتها . هجرت الزنزانة (39) التي احتضنتني منذ دخلت السجن وفي أيام وحدتي وعاشت معي مطارداتي الدائمة لذكرياتي لأفهر بها الوحدة والصمت وخطى الزمن الثقيلة المملة !



لعب الفضول دورًا كبيرًا في تمهيد الطريق إلى قلب وعقول من تصورت أنهم النخبة التي أستطيع أن أجد سبيلًا لشرح مبادئنا لهم . ولن أدخل في تفاصيل ذلك فقد كان أمرًا بطيئًا ومعقدًا مع الحملة الشرسة التي كانت خطب الرئيس تلهبها خاصة وأن تلك الخطب أحيانًا ما تكون من المواد الإذاعية التي تفتح فيها السماعات في العنبر وفي الحوش والمكتبة وغيرها .. مثلها مثل القرآن وكذلك بعض الأحاديث الدينية . وكان مجرد الوجود في السجن وفقدان الحرية ما يضخم ذلك الإحساس بالظلم عند الضعفاء حتى لو كان يدرك أنه أخطأ .. فوجهة نظر اللص للسرقة ورأيه فيما حصل عليه أو نزعه من المجتمع الظالم ما هو إلا حق له . ولذا فكل الأحكام التي يكبلونه بها أحكام ظالمة ..

كان (رأفت) لصًا منذ نعومة أظفاره .. كان والده يبيع الجاز المعبأ في برميل على عربة كارو . يدور بها في حواري المدينة وتطارده الشرطة باستمرار وبيتزه كل من هو (رسمي) مخبرًا أو شاويشًا يلتقيه فدائمًا ما سيدجد له بالتأكيد مخالفة ما .. وكان حالهم مستورًا فطلباتهم من الدنيا جد متواضعة .. إلى أن انفجر وابور الجاز في أمه فجأة فاحترقت واحترقت معها أخت له كانت رضية واضطر والده بعد معاناة شديدة أن يجد امرأة تزوجها لتدبر شئون معاشه . وظلت الأمور مرضية . ودخل الولد المدرسة وكانت المرأة راضية , إلى أن حملت وولدت ابنًا طار به أبوه على أجنحة الفرحة مما أزعج الفتى قليلاً . وما لبثت معاملة زوجة الأب أن اختلفت بالطبع .. واضطربت أحوال الولد .. وتكررت مرات رسوبه فذاق الأمرين من زوجة أبيه .. وكان يحاول إرضاءها بكل الطرق .. حتى قاده نكاؤه لحيلة لا يلجأ إليها إلا داهية شديد الذكاء والجرأة وقوي الملاحظة .. ذات يوم أرسلته ليشترى شيئًا من البقال وكان عدد كبير من الزبائن يتصايحون على الرجل الذي لم يكن يستطيع أن يلبي طلباتهم .. ووجدها الولد فرصة وعندما استلم البضاعة التي طلبها وألح عليها بشكل مبالغ فيه , استدار لكي ينصرف .. فطالبه الرجل بثمن البضاعة فما كان من الولد إلا أن صاح به ..

- جرى إليه يا عم حامد أنا عاطيك الربع جنيه قبل ما تحيب الحاجة ..

- ولد .. أنا خدت منك ربع جنيه ؟

ولبس الولد قناعًا قاسيًا غاضبًا وهو يقسم بالله ثلاثة أنه أعطاه الربع جنيه واستشهد بمن حوله .. فلم يستجب له أحد ؛ لأن أحدًا لم يكن منتبهًا إلا إلى ما يريده هو .

وفجأة انفجر الولد في البكاء شاكياً ظلم (العم حامد) الذي ينكر أخذ الربع جنيه وفتح الرجل الدرج كانت هناك أربع جنيهات لا حصر لها .. أخذ يقلب فيها حتى قال له الولد:

- حتى بالأمارة عليه حبر مدلوق .

وبالفعل وجد الرجل أكثر من ربع عليها بقع حبر مدلوق .. فمصمص شفثيه محرّجًا ..  
وأطلق سراح ياقة الولد وتركه يمضي بسلام ..

وانطلق (رأفت) عائداً إلى البيت تزفه إلى زوجة أبيه نشوة الانتصار .. وسلمها الزيت  
والصابون والحلاوة التي اشتراها بالربع جنيه المزعوم .. تفقدت زوجة الأب البضاعة ..  
وتكرمت عليه بنصف ابتسامة قائلة :

- طب يا فالح .. روح ..

عندها أخرج الولد الربع جنيه من عبّهِ ولوّح به أمام عينيها فبرقت مقلتاها دهشة وفرحًا ..  
حتى أخبرها أنه يعيده إليها لأنه يحبها فأخذت الربع جنيه وطوته في صدرها وضحكت  
مشجعة ؛ بل وقبلته لأول مرة منذ سنوات . وارتجف الولد لحرارة القبلة وعرف أنه عثر على  
مفتاح قلبها السحري .

قال لي (رأفت) وهو يهز رأسه معجبًا بنفسه :

- وشفت أيام هنا .. دلعتني . وانا كمان حبيبتها ..

- بقيت أراقب الدكاكين الزحمة وأرقم ورقة بجنية أو حتى ورقة بخمسة .. وفي اللحظة  
المناسبة أطلب طلباتي وأكثر من كده أطلب الباقي في ثقة وان عصلج التاجر على طول  
أبوق فيه واقول له على أمارات وعلامات في الحنة بخمسة اللي لسه حاططها في الدرج ..  
وصاغراً يعطيني البضاعة والباقي .. فبقيت أخش السیما مع شلة عيال م الشارع .. وبقيت  
أتأمر في البيت وهي تتحملني ما انا بأوفي بيتي بأكثر من طلباته .. وهي تحوش  
المصروف اللي ابويا بيديهولها للبيت لنفسها .

وفضل الحال على كده وباي باي للمدرسة .. لغاية ما كل البقالين شكوا فيّ فانقطع  
حيلي معاها لما انكشفت حيلتي . وضافت الدنيا بيّه . وهي رجعت تتكد عليّ وتشتكيني  
لابويا اللي صبح كل يوم يسكني علقة سخنة بسبب شكواها . وبسبب خيبيتي الثقيلة في  
المدرسة ..

وكان لازم ادور على سكة تانية .. فالتميت على ولد هفاف .. آه .. م اللي بيسرقوا الغسيل  
من على الحبال وعملنا كام عملة مع بعض . ومشيت الأمور تاني مع مرات ابويا لحد ما  
طلعنا سطح أنا والواد .. وبعد ما لمينا كل الغسيل اللي ع السطح .. الواد رجله عترت على  
سلك ضرب عشة الفراخ .. كان فيها وز .. صيح . والوز ما يسترش .. هو جري نزل  
السلام وانا من خيبيتي لبدت في عشة فاضية . قعد الوز يصيح لحد ما مسكوني . وعينك  
ما تشوف الاّ النور ربنا ما يوري لعدو ولا لحبيب . كل اللي صحبوا في البيت قعدوا يضربوا

فِيَّ .. اللي له غسيل واللي مالوش وكإن فيه تار بيني وبينهم لحد ما عجنوني .. حتى العيال يضربوا مع إني كنت ف سنهم أو أكبر ومع إن أي واحد فيهم كان ممكن يبقى مكاني .. لو ربنا رزقه بمرات أب .. أو أبوه مات .. الناس بتبقى قاسية كده ليه ؟ .. وانا وسطهم مش أكثر من أرنب .. ومن هناك لحد القسم وانا باتكفى م الأقسام والشلايط لحد ما رحمني ربنا منهم وسلموني للعساكر في القسم .. فاتولهم مهمة الضرب .. لكن أرحم .. فالضرب بقى ضرب ميري . واتسكيت ثلاث اشهر وكانت دي بداية طريق المجد اللي وصلني لسيادتكم ..

- لا يا شيخ لسيادتي أنا ؟ طريق المجد يا كويرك ح تشتغل عليّ ؟ يعني انت معترف انك سرقت وبرضه مظلوم ..

- وحياة معزتكم ما اعترفت . قدام النيابة أنا دخلت البيت بالغلط والواد الحرامي اللي هرب هو اللي سرق . بعد ما ضحك عليّ وقال لي ده بيته فدخلت معاه ..

- يا سلام

- طبعا دا اللي قلته , ما هو مش ممكن اعترف وأديني خدت جزاتي . قول لي بقى اللي ضربوني دول ودموني العافية .. مين يجيب لي حقي منهم ؟!..

على فكرة دي مش أول حكم . النهارده أنا خدت السكة بياذة بعد الحكم الأولاني (3) شهر في سنة .. في السنة اللي احنا فيها القاضي عطف عليّ كان مفروض يديني ثلاث سنين .. لكن ربنا نور قلبه عشان افضل هنا . وما اروحش اتغرب في سجون تانية . لكن برضه كل ده ظلم . وانا ذنبي إيه ؟ وحياتك عندي كنت كل مرة اقول خلاص توبة.. يرجع قلبي يتملي غل وحقد ع الناس اللي برّه حتى أبويا ومراته واقعد افكر ازاى انتقم منهم واخطط وادبر . وأول ما أخرج أطلطش في نافوخي . ومع أول واحد ياخذني معاه في عملية أروح وانسى اللي عايز انتقم منهم . ومش كل مرة كنت باقع لكن أول ما ارجع هنا أقعد افكر في الانتقام ..

وتذكرت أني كنت مثله يملأ قلبي هاجس الانتقام من (شاور) الذي أوقع بنا هنا بينما هو يستمتع طبعاً برعاية المباحث ويشق طريقه إلى النجاح .. كنت أخطط كيف سأعود لمصاحبتة كأن شيئاً لم يحدث .. ومرة أدعوه إلى نزهة في النيل في قارب وما أن نبتعد عن العمار حتى أفاجنه بضربة على أم رأسه تجيب أجله .. وألقي بجثته في النيل .. ثم أعود فأبحث عن طريقة أخرى حتى لا ألوث النهر . فأصحبه إلى محطة السكة الحديد وعلى حين غرة أدفع به تحت القطار ثم أقنع نفسي أنه من الصعب أن يتم ذلك ولا يراني أحد . والأفضل أن أدعوه وأغافله بدس أي سم حشري في الشراب أو في الأكل ..

وأخيراً في الغالب كنت أصرف نظر .. فما ذنبي؟! لقد جندوه لحسابهم وأوعزوا له بذلك . إن الذي يجب أن أنتقم منه ليس (شاور) فما هو إلا مخبر حقير .. أما الضابط (شوكت) فهو الذي يستحق ؛ إذ تخيلت أنه تتبعني وحطني في نافوخه منذ قبض عليّ ليلة السكاكيني .. حتى أمسك بي متلبساً بكتابة المجلة .. وأعود فأبرئه , فهو قد نصحني بالبعد عن اللعب بالنار وأنا لم أنتصح . ساعتها أسخر من نفسي أنني أفكر كلص الفراه أو تاجر المخدرات الذي يزج انتقاماً بمن وشى به إلى السجن .. وأن هذا إنما يتم عن قلة نضج وعيي وعدم إيماني حقاً بالقضية .. ذلك الوعي المرتبط باعتقائي الماركسية وقرآتي حول قوانين الجدل , وقوة مشاعري حيال العمال والفلاحين بل خوضي الصراع لتغيير وجه العالم وبناء الجنة على الأرض , وهو هدف تهون دونه حتى الروح والدم .. فلماذا أفكر مثل الجهلة والحمقى وأحصر قضيتي في شخص بعينه وكأن ما بيننا ثأر شخصي .. والأمر أكبر من ذلك بكثير . وأضحك من نفسي عندما أضبط نفسي أخطب في نفسي فخوراً بقدرتي على الصمود لأنني لست وحدي .. فمعي من الرفاق ومن جموع العمال والفلاحين جيوش تغطي خارطة الدنيا .. ولسه !!

الأمر المؤكد الذي كان يحدث عندما تتقمصني هذه المشاعر .. أن اليوم ينقضي دون أن أحس به . سلساً يمضي وأحياناً تسلمني بعض الشطحات إلى نوم مليء بأحلام أكثر جمالاً أو إلى كوابيس أشد بشاعة .

قضيت النهار بعد حادثة (الشرمبيلي) في الزنزانة واعتذرت لشاويش المكتبة الذي جاء يبحث عني بأنني مريض بعض الشيء وأحتاج لحصة نوم طويلة .. وبالفعل جاء كثيرون لزيارتي .. فوجدوني نائماً فتركوني ثم سمعت الزميل النجار من (شربين) والذي كان قد أبعدني في غضب عن (الشرمبيلي) وطلب أن نناقش الأمر . يقول:  
- صحّيه يا ابني . دا نايم من الصبح .. نوم الظالم عبادة صحيح لكن صحّيه .  
فقمتم أستجمع ذاكرتي ومشاعري وعرفت أن قوة العمل قد عادت وأن كثيرين يملأون الزنزانة حولي ..

حزنت لأن هذا الزميل بالذات يدعوني بالظالم .. ولكنني عذرتة وكنت قد توصلت إلى ضرورة نقد ما حدث مني والاعتذار عنه .. فسارعت أسبق العاصفة وقلت :  
- يا اخواناً أنا آسف جداً للي حصل مني النهاردة .. أنا غلطان لأنني اتهورت .. لكن هو شتمني شتيمة وسخة جداً ما ترضوهاش .

- هو انت زئيّه .. طب انت متعلم ومثقف .. و ..
- قاطعته حتى لا يحول الجلسة إلى اجتماع فقد كان هناك من هم لا ينتمون للتنظيم الذي هو عضو فيه .. ولتكن جلسة اعتذار عامة .. فالكل شاهدوا ما حدث . وبعضهم جاء ليطمئن عليّ لكن الزميل أصر على أن أذهب (للشرمبيلي) وأصالحه .. لم أعترض ولكنهم سألوا .. فوجدوه لم يعد من الجلسة بعد . وإذا كان قد تأخر لأن فلأبد أنه سيبيت في القسم .. قال أحدهم :
- أكيد .. مادام اتأخر .. وبعدين هو أكيد مرتب دا عشان يقضي مع أخوه الليلة في القسم .. ويمكن تكون اخته اللي ف سجن النسا معاهم ..
- أكد البعض أنها خرجت للجلسة هي الأخرى اليوم ..
- قلت :
- خلاص يا اخوانا أنا ح اعتذر له لما بييجي .. لكن انتو المهم تقبلوا عذري لأن شتيمتي قدام السجن كله ما كانش شيء يتسكت عليه ..
- برضه ح تبرر اللي انت عملته .. اللي حصل منك مش كان لازم يحصل .. بالجزمة وعلى وشه يا راجل !!
- خلاص يا زميل .. عشان أرضيك .. ح اعتذر له قدام السجن كله . أنا غلطان والخطأ راكبي من ساسي لراسي ..
- ضحك الزميل الذي جندته فإذا به يحاكمني .. وسعدت أنا جدًا بذلك خاصة عندما قال :
- الاعتذار واجب عشان ضميرك انت يستريح .. اعتذارك لنفسك أهم واعتذارك للسجن كله .. الناس يا أخي حاطينك في مكانة كبيرة .. وشوف نفسيتك النهارده حتى .
- خلاص أرجوك ..
- وأنقذتني صفارة التمام .. وصياح (بولجانين) الذي كان يومها (غفر ليل) في العنبر معلناً حضوره من عند البوابة بصوت يفتعل الغضب والشراسة :
- الله الله .. يا شيوعي .. إيه الزحمة دي اللي عندك .. دي ؟ عامل (كونفرانس) في الزنزانة !!
- أسرع الجميع إلى زنازينهم وجميعهم يحيي (بولجانين) ويراضيه !

\*\*\*

• تأخر (الشرمبيلي) في العودة إلى السجن لعدة أيام . وعلما من البعض ممن عادوا , أن الأسرة كلها كانت في المحكمة ماعدا الأب المتوفي من سنوات .. كان الباقرن كلهم معًا . لم تكن قضية واحدة . فلكل قضيته .. الأخت والأم والأخ القادم من اللومان . وبقية العائلة (الأحرار) من الإخوة والأخوات والأبناء .. والحقيقة أن الجميع حضروا كل الجلسات . كانت الأسرة تقضي مدة طويلة في ترتيب هذا اللقاء الجماعي الأسري مع المحامين أو مع إدارات السجن والنيابات التي يتبعونها سواء كانت التهم آداب أو مخدرات أو سرقة .. ظاهرة إنسانية شديدة التنوع تدعو إلى التأمل جعلتني أحس بالذنب الرهيب حيال (الجرم الذي ارتكبه بإهانة ذلك الإنسان الذي لم تكن تسمع له صوتًا في السجن) فكم هي كثيرة ومعقدة تلك الأمور التي يظل يفكر في ترتيبها وتدبيرها لتدبير مثل هذا اللقاء الأسري وما يترتب عليه من مهام لسد احتياجات أفراد الأسرة في الداخل وفي الخارج طبعًا . وفهمت سر غضبه لأنني عطلته قليلاً يوم الجلسة .

عندما عاد إلى السجن كان منشرحًا مرحًا وسعيًا وممتلئًا حتى وصل إلى الدور الثاني وكنت أجلس بجوار الشاويش على الدكة فأحسست أن حاله انقلب عندما رأيته .. تجهم ورمى تذكرته في حجر الشاويش وقال في حدة وهو يتراجع نحو زنزانته :

- من فضلك يا شاويش (عبال) افتح لي خليني أدخل . لا أنا مش طايق أشوف حد .

إبتسمت مرحبًا وأنا آخذ المفاتيح من الشاويش وأفتح له .. فتجاهلني وتعمد ألا يلمسني وهو يتخطاني مارقًا إلى الداخل . ولم يرد عليّ حين قلت له (حمد الله ع السلامة) لم يفعل سوى أن رمقني بنظرة متعالية . وردّ الباب في وجهي فانغلق . تكة واحدة .. فبلعتها, وذهبت إلى زنزانتي ..

انتفتت مع كل زملاء (التنظيم) على أن يكونوا جميعًا حريصين على الحضور في ساحة الدور الثاني ساعة نزول العمل في الغد . ساعتها كان (الشرمبيلي) يقف وهو يدخن سيجارة على باب زنزانته .. وفاجأته وفاجأت الجميع .. بأن توسطت المساحة فتجمع الطابور النازل من الأدوار العليا على السلم وتوقف . والتفت الذين سبقوا على السلم الهابط للدور الثاني .. وزعقت بصوت عالٍ لفت أنظار الجميع حتى هو :

- سمع هس كله يسمع .. وأول واحد يسمع هو المعلم المجدع (محمد الشرمبيلي) زميلي وحببي وجاري في الربع الرابع هس . كله سامع . أنا قدامكم جميعاً باعتذر له ع اللي صدر مني امبارح .. واتمنى على الله ولا يكثر على الله .. إنه يخليه يسامحني .. ومستعد قدامكم جميعاً لأي ترضية !

كنت أقول هذا وأنا أرقبه بطرف خفي .. فرأيته فاغراً فاه , ورافعاً حاجبيه دهشة أول ما سمع اسمه .. ثم تبينت أنه يكاد يرتجف ؛ لدرجة أن السيارة وقعت من فمه . وما أن انتهيت من الكلام والتفت إليه ثم أتقدم نحوه في ود .. فإذا به يندفع نحوي فسمعت شهقات محذرة من كثيرين , لكنه فرد ذراعيه واحتضنني واكتشفت أن جسمه كان يرتجف من الانفعال بل ومن البكاء .. فسالت دموع لا إرادية من عيني أنا أيضاً .

ولا أستطيع أن أصف ما جرى بعد ذلك .. إلا أن تصفيقاً مدوياً من كل مشاهدي المنظر .. وأحاطت بي وبه عشرات الأذرع وامتدت عشرات الأكف .. تربت وتططب . وانطلقت زغرودة مرحة رجالية .. علت بعدها صيحات غاضبة من السجانة تحاول إنهاء الفوضى وإعادة الضبط بأوامر حاسمة صارمة , ثم أعقبها صفارة وصيحة (انتباه) طويلة أخرست كل الضجيج فجأة وساد الصمت ..

ورأيت المقدم (الريدي) يدخل غاضباً إلى العنبر . كان صوت التصفيق قد انتزعه من مكتبه مسرعاً ليستطلع الأمر وكرر الصول (مصطفى) صفارته ثم صيحته (انتباه) أشد وأكثر حزمًا ..

توقف الجميع عن التنفس ووقف المقدم (الريدي) في صدر الباب وقفته الغاضبة التي اشتهر بها واضعاً يده اليمنى في جيب بنطلونه بينما استراحت يده اليسرى خلف ظهره .. منتصباً يدور بعينه محققاً في عين كل منا دون كلمة . ولما انتهى من استيعاب الموقف , استدار في حدة عائداً إلى مكتبه وهو يشير للصول (مصطفى) فضرب صفارته وصاح بكل قوته .. انتباااه !.

لم يتكلم أحد وانتظمت طوابير العمل و(الشرمبيلي) دخل إلى حجرته .. وعدت إلى تفاصيل العمل اليومي للدور اتنين . ولم يفتني أن أتابع زملائي لاستكشاف ردود فعلهم لما حدث .. فوجدتهم جميعاً راضين تماماً .  
بعد قليل .. جاء شاويش من المكاتب يطلب شاويش الدور والمسجون (سمير عبد الباقي) والمسجون (محمد الشرمبيلي) للمكتب ..

ودخلنا حسب البروتوكول إلى مكتب المأمور .. كان المقدم (الريدي) يرتدي قناع  
الجهامة الميري .. وهو يسأل عما حدث في حدة .

استأذنته كي أشرح له الأمر , والدوافع التي اضطررتي للاعتذار العلني أمام الجميع  
ل(لشرمبيلي) بعد أن أخطأت وأهنته أمام المساجين . طبعاً لم أذكر أن السبب كان انشغالي  
في الأمور الإدارية ساعتها . فالمفروض أنه لا يعرف ذلك . وعاد الاطمئنان لوجه الشاويش  
عبد العال وأكد (الشرمبيلي) أنه أخطأ في حقي واصطدم بي حين ذهابه لدورة المياه ..  
ابتسم (الريدي) ابتسامة العارف بكل شيء .. ونظر إلينا ساخرًا ثم أصدر أمره للشاويش  
(عبد العال) بحبسنا انفراديًا في زنانتينا بدون طوابير لمدة ثلاثة أيام !!  
وصاح الشاويش عبد العال وروحه تُرد إليه :

- انصرف .. يا مسجون انت وهو .. على العنبر !! بعد يومين جاءتني زيارة عادية  
(سلك) وتصورت أن الحكم بالحبس التأديبي سيمنع الزيارة .. لكن العقاب لم يكن بهذه  
الجدية .. رغم أنني التزمت الزنانة تمامًا طوال اليومين مراعيًا أن يصل للمأمور  
الانطباع الذي يرضيه ..

صحيح أن الأمر بعد القيالة كان دائمًا مختلفًا إذ كان يزورني الكثيرون من المساجين  
الذين افتقدوني في المكتبة وفي التمارين الرياضية وفي الورشة وكل (زملائي) تقريبًا ..  
وعندما ذهبت للزيارة فوجئت بالضابط (ميخائيل) ينتظرنى على باب مكتبه وصاح بي :

- رايح فين يا شيوعي ؟

- عندي زيارة سلك يا افندم ..

- هو انت مش في التأديب ؟

- ندهوا عليّ يا افندم .. ح اقول لأ !

- طب تعالى .. ادخل هنا .. زيارتك خاصة خش واقعد .

ودخلت مكتبه وقعدت .. ومضى هو بعد قليل مفسحًا الطريق لأمي وأختي وأخي  
الأصغر .. وكانت مفاجأة هزت مشاعري عندما علمت أن أهلي لم يحصلوا على تصريح  
زيارة خاصة وأنهم سجلوا أسماءهم للزيارة السلك كالعادة وأنهم مفاجأون مثلي تمامًا بهذا  
الكرم والتسامح رغم أن أمي لم تكف عن البكاء . وعرفت أن أخبارًا تسربت إليهم من قريبها  
(السائق) بالمباحث عما يلاقيه الشيوعيون في الواحات وفي أبو زعبل من تعذيب وأيضا  
أطلعني أخي الأصغر - رغم نفيها وأختي لذلك - على جانب من معاناتهم في القرية  
وتشهير البعض بهم كشيوعيين .. لكن ما لمسوه من ظروف في كان كافيًا لتكذيب ما يصلهم  
من أنباء عن التعذيب . لم أستطع أن أعود للعنبر قبل أن أشفي غليلي خاصة وأن دموع  
أمي كانت تؤكد أن لما سمعوه ولما يعانونه ظلًا ثقيلًا من الحقيقة .. ولذا بعد أن خرجوا ..



- شكرت حضرة الضابط (ميخائيل) وطلبت منه أن يسمح لي بالذهاب لحضرة المقدم (الريدي) لأشكره هو الآخر .. وبعد معارضة خفيفة دخل إلى مكتب المأمور , وسمعت طرفاً من الحوار كان واضحاً وكأن المقصود أن يصل إليّ .. سمعت المقدم يقول:
- وبعدين يا ميخائيل كده انت بتدلعه قوي ..
- خرج الضابط ميخائيل إليّ مرتدياً قناعه مرة أخرى وأشار لي أن أدخل .. فطرقت على الباب السلك ودخلت .. وهجمت على المقدم متهلاً كي أصفحه وأشكره فقال دون أن يغادر مقعده ..
- وبعدين .. اتفضل يا مسجون على عنبرك .
- مش قبل ما اشكرك حتى على أيام الحبس الانفرادي , لأن والله كان عندي كتابين ونفسي اقراهم ..
- لا يا شيخ .. إسمع إنت عارف وضعك كويس , لكن أنا أعجبت بموقفك من (الشرمبيلي) ..
- أنا اللي أسراني طريقتك الإنسانية في معاملة المساجين .
- ابتسم ابتسامة خفيفة ولم يعلق .. فأردفت :
- وعشان كده نفسي أسالك عن (الواحات) و(الأوردي) هو صحيح؟! قاطعني واقفاً في حدة .. وقال :
- إحنا هنا في سجن (المنصورة) .. اتفضل على عنبرك ..
- استدرت لأمضي .. فقال لي بصوت عالٍ :
- على فكرة .. المعهد الديني بيرتب لزيارة لنا ويوم رياضي . عايزك تشد ع العيال في الفولي والبنج .. اتفضل .
- تمام يا افندم .. إنشاء الله تمام .

\*\*\*

• عدت إلى العنبر سعيداً حاملاً خيرات الزيارة التي تعتبر إضافة دسمة إلى (النعيم) الذي أنتعم به بين جنبات السجن في (بلهنية) و(رغد) لم تستطع أن تمنع قبضة القلق الميرير الذي يعض قلبي . أشبه بتلك التي أرقتني حين المباحث أطلقتني فألقتني بين أنيابها ليلة اعتقلتني في المرة الأولى مع (حسين عبد ربه) وتركتني فعذبتني الشكوك حول ما سيظنه رفاقي وأهل (حسين) حين يتساءلون عن سبب الإفراج عني , لكن هذه المرة كانت موجة أقوى أغرقتني وأنا هنا وحدي وليس من رفيق ك(فتحي مجاهد) بجانب يمد يده بحكمة الفلاح لينجديني - لأنه الآن وحدك - أنت هنا في سجن (المنصورة) تقرأ الكتب التي تريد وتقرأ الصحف حين تريد , وتمارس الرياضة وتسرح في أرجاء السجن بلا قيود لدرجة السماح لك بالخروج لتري وترسم واجهة السجن من الخارج ليكون النموذج مطابقاً للحقيقة . وتتحول زيارة السلك إلى زيارة خاصة .. بينما رفاقك في المنافي تصل أخبارهم دامية إلى أهلهم ؟ .. فكيف ستشرح وتفسر ؟

إذا كنت أنت نفسك عاجزاً عن فهم سر هذا التناقض الذي يبدو .. وكأنه ... يا للهول .. لا أستطيع أن أهمس بها لنفسي أو أنطقها . وهل تكفي عبارة "نحن هنا في سجن المنصورة" لتفسير ذلك أو تبريره .. حتى لك أنت نفسك !  
وأنت أدري وأعلم بنفسك ؟

عذبنني هذا الشعور كثيراً وطاردني لفترة طويلة وقررت تجاهل كل هذا وأن أغرق نفسي في العمل ما بين المكتبة وتدريبات (الفولي والبنج) التي أوصى عليها العقيد (الريدي) ترقباً للمهرجان الرياضي القريب مع المعهد الديني بالمنصورة !..

كما توقعت وكعادته وجدته على رأسي .. تسلل حتى وقف يملأ فضاء الباب المفتوح .. وقد أسند كوعه الأيمن على جدار الفتحة يراقب حركتي وأنا منهمك أفض بكاره (الزيارة) التي دلفت من بوابة السجن ومن باب العنبر دون أن يفتحها أو يفتشها سجان .  
في كل مرة اعتاد أن يقف نفس الوقفة بعوده الممشوق وأناقاته التي تميزه عن جميع المساجين كاركية وسوابق ؛ محكومين وتحقيق كان (أبو العينين) شاباً في العقد الرابع من عمره وخط المشيب عارضيه , وأضفى بياض الشعر مع لون العينين الصافيتين الزرقاوين عليه وقاراً ووسامة توظرها ابتسامه ترحيب لا تفارق صفحة وجهه وتأسر الجميع لحديثه المرح الطليّ المطعم بحكمة تعددت مصادرها .. فهو قارئ نهم لا يفارق الكتاب ؛ أي كتاب يقع في قبضة يده . وكنت أكره فيه لفه للكتاب كأسطوانة يسهل حملها ويصبح في قبضته

وسيلة شرح ؛ ترسم مع حركة يده خطوطاً ودوائر وزججات تؤكد ما يسهب في شرحه لأي آراء يطرحها ..

كان (أبو العينين) متهمًا بالنصب والاحتيال . والحقيقة أنها لم تكن المرة الأولى فقد حُكم عليه بسنة في قضية منذ سنوات وبرّئ من ثلاث . وكانت هذه المرة كما يؤكد أخطرها جميعًا ولكنه كالعادة يجد ما يدافع به عن نفسه وسيخرج منها كالشعرة من العجين ..  
- المهم أن تمسك بطرف الشعرة !

وجدته على رأسي كعادته كلما عدت من الزيارة . يتفحصني ويراقبني وأنا أخرج كنوزها وأرتبها وكأنه يفتشها بدلاً من الذين تركوها تعبر في سلام ..  
- ما تخلص يا عم قبل ما يطب عليك (عبد العال) يقل بركتها .  
وقبل أن تتكون لديه فكرة شريرة عن قصدي .. أكون قد ناولته ما أعرف أنه يفضله عن غيره من الأطمعه - كفتة أو فخد بطة - ولا غير ذلك إلا علبة السجاير الونجز إن كان هناك ما يكفي . فألف له ما أنتقيه في ورقة أو كيس يتناوله بأناقة ..  
- أمشي انا بقى قبل ما يحضروا التتار أصدقاءك ..

كان (أبو العينين) شديد الذكاء والأدب .. ناعماً يمتص أي أستفزاز أو رغبة في العدوان أو ثورة غضب , لا تأتيه زيارات ولا تصله حوالات ولذا فهو لا يتعامل مع الكانتين .. ولكن يده لم تكن تخلو من السجارة , كان مدخناً شرهاً ..

- ربنا مسلطه يحرق دخان الخلق ..
- أنا يا أخي بروده هو اللي بيحرق لي أعصابي !
- يا اخوانا حرام عليكم .. دا لو كان في مجتمع سليم كان لابد يبقى فيلسوف أو دكتور جامعة ..
- وحياتك برضه كان ح يبقى نصاب .. دا نوع خاص ربنا خلقهم عشان يكشف غباء غيرهم .. هو يعني (روسيا) ما فيهاش نصابين ..
- أنا رأبي ف بلد تانية كان ح يبقى رئيس وزرا ..
- أو رئيس عصابة ..

ضحك الجميع بعد أن شاركوني غذائي ؛ إلا عبد اللطيف (النجار) وأحمد (غفير الشونة) وكمال (ابن العمدة) الذين كانوا رغم محايلاتي يكتفون بحبة فاكهة أو كوب شاي ..  
- ياعم لم نفسك بقى همه شايلين وطابخين عشان ترم جنتك وتفتكرهم ..  
- يا عم وانا وانتو إيه ؟ .. يعني لما بتجيلكو زيارات ما انتوش بتغرقوني ف خيركم ..  
- تفرق يا حبيبي إحنا مسيرنا نخرج لكن انت يا عالم ح تفضل لإمتى ..

- قوم .. قوم .. زمانك منفعل .. اقل بابك وريح دماغك سمعت ياما .. ومحتاج تفكر فيهم ياللا ياد انت وهو .. خلوه يقعد مع نفسه شوية . بيقول كده .. ياللا..

تعرفت على (أبو العينين) في المكتبة .. لفت نظري تنائيه المحسوب عن الآخرين مستغرقاً في القراءة بطريقة لم ألاحظها عند غيره .. فكثير من رواد المكتبة يحضرون إليها لأغراض أخرى .. تمضية وقت بعيداً عن العنبر .. اقتناص لحظات تحت ضوء الشمس . اقتناص أية فرصة للحصول على كهنة مشبعة بالجاز من البخار أو من الفرن وغير ذلك , لكنه كان يجلس للقراءة في استغراق ملفت للنظر . اقتربت منه وافتعلت فرصة لأسأله عما يقرأ .. كان يقرأ (الأحمر والأسود) لستندال . فرفعت حاجبي اندهاشاً ولكنه سخر قائلاً :

- الله . مستكتر عليّ القرارية ليه ؟ هو انتو بس الشيوعيين اللي لهم في الرطان . ما احنا برضه لسائناً سلاح مهم !!

- مين اللي قال ؟ .. فيه شيوعيين فلاحين وعمال يا دوب فكوا الخط لما بقوا شيوعيين .. الشيوعية مش قرارية وكتابة ..

- أنا ما قابلتش شيوعي إلا كان بيرطن بالسبعة .. شفتهم في سجن مصر . كان نفسي أتعرف عليهم .. لكن كان فيه مسجون معنا (لوميين) في قضية تزوير .. لقيتهم محتضنينه عشان بيقول زجل .. وكان فيهم شعرا .. صديقهم دا كان يحفظ أشعارهم .. وييجي يتباهى علينا ويقول هوّ اللي مألّفها .. ابتعدت عنهم ..

- لكن انت تهتمك إيه ؟ ..  
- نصب .. تعرف النصب والاحتتيال .. أنا بقى محتال ونصاب .. وابقى كداب لو قلت لك إن انا (أرسين لوبين) .. بانصب عشان أعيش .

- بس انت باين عليك متعلم .  
- طبعاً ومتألم .. أنا طلعت من تانية حقوق لما أبويا أكله سير المكنة . كان عامل في ملحج قطن والمكنة أكلته .. وما كملتش .. لكن دخلت جامعة الحياة ..

- لكن إيه اللي خدته على الشيوعيين غير الحكاية دي ..  
- شوف يا زميل .. مش بنقولوا لبعض كده .. أنا ما يهمني إنك تاخذ زجل زمايلك وتقول تأليفك مش مهم ما هو زيتكم في دقيقتكم .. لكن اللي يغيظ - القلاطة - الواحد منكم فاكر نفسه سقراط وفاهم في كل حاجة .. وإذا الواحد عطاكم ودنه تفضلوا تاكلوا فيها لغاية ما ينطرش وما عايش يسمع غير نفسه .

- إنت بتبالغ .. والناس مش زي بعض .. فيه ناس بتسمع برضه .

أعجبت جدًا بمنطقه .. وسحرتني بمعلوماته .. حدثني عن (جراهام جرين) وكان قد انتهى من روايته (الطريق إلى الهند) وعرج على (همنجواي) ثم انتقل إلى (شكسبير) .. في البداية كان الحديث ببساطة ثم بدأ يتقمص دور الأستاذ وهو ينتقل بي من (أهل الكهف) إلى (الفتنة الكبرى) وانحياز (طه حسين) للغرب .. قاطعته بابتسامة .

- انت بقي ناوي تاكل ودني؟!!

وانفجرنا معًا ضاحكين وأصبحنا صديقين واستدرك قائلاً :

- بس اسمع .. أنا عمري ما ح ابقى شيوعي ..

قلت له :

- ولا أنا .. أنا يادوبك بأحاول .

فاستغرب ردي الساخر ..

- لا يا راجل؟ قول كلام غير ده؟

- يا (ابو العينين) واسمح لي بقي أنده لك كده من غير ألقاب . الشيوعي دي كلمة كبيرة

قوي . وتحملك مسئولية كبيرة أقلها إنك لازم تسأل نفسك كل يوم .. يا ترى أنا كنت

النهاردة قدّها .. لازم تقيس وزنك كل يوم وتحاسبها .. أنا قالوا عليّ في المدرسة إني

شيوعي وأنا ما اعرفش يعنى إيه شيوعية وده خلاني أدور عليها لحد ما لقيتني متورط .

وجيت هنا !!

- ندمان؟!!

- لا يا شيخ أعوذ بالله .. بالعكس أنا لقيت نفسي كده .. كل يوم بادعي ربنا إني ما

اغطش - لا ف حق نفسي ولا في حقها !!

وعرفت منه - فيما بعد - أنه كاد يسألني مستنكرًا؟! (هو أنت مؤمن بربنا؟) لكنه ساعته

كتم السؤال خشية أن يكون في ذلك ما يجرح مشاعري أو يستفزني في أول تعارف بيننا .. لكنني

يومًا ما شرحت له بأسلوبي رأبي في هذه المعضلة الإنسانية !!

زارني الأصدقاء المقربون كلهم بعد عودة العمل وتوزيع (يمك) الظهيرة .. و(قريش) المساء

أو قل يمك الغداء وجبنة المساء . أخرجت علبة المحشي وطلبت منهم أن يشاركوني لقمة البيت

فتمنعوا وألححت .. منهم من تذوق إصبعًا ومنهم من أكل اثنين . والكل رفض أن يأخذ نصيبًا

من خيرات الزيارة .. مع إن هذا كان يسعدني بالفعل , لرد بعض جمائيلهم فكثيرًا ما أتحنفني

الحاج (بدوي) بقروانات من خضار السجن الخاص بالسجانة والموظفين أو بقطع من اللحم

المحمر .. و(عبد الفتاح) كان دائمًا ما يمر ليترك لي خبزًا (مخصوصًا) .. و(أحمد) دائمًا ما

يحمل لي المزيد من (الكهن) المشبعة بالجاز لزوم (التوتو) .. وغيرهم . وكنت أنتهز فرصة الزيارة لوصول حبل الوداد ..

كانت علاقتي بالزملاء الذين بيني وبينهم صلات تتراوح بين المعرفة وتبادل الود والصدقة وحتى الصُبية . كان من بينهم بمصطلحات واصطلاحات لغتنا السياسية من يمكن أن أعتبرهم مرشحين وبعضهم ترقى علاقتي لهم إلى مرتبة الزملاء .. ولكنني للحق وإن فاتحتهم في ذلك لم أعتبر موافقهم إلا موافقة مبدئية فنحن في السجن . مهما حصل , لا يمكن أن يتم عقد الاتفاق على أنهم رفاق إلا في الحرية .. فالإنسان يكون في السجن خاضعاً لضغوط تكبل حرية اختياره وتحمل ما يترتب على هذا الاختيار من مسؤوليات ..

وصحيح أن بعضهم كـ(عزيز) و(أبو عيش) و(أحمد) و(عم بدوي) و(عبد الفتاح) لم يكونوا يقلون في الوعي والاستعداد للتضحية عن كثيرين من زملاء الخارج بل وبعض من زملاء السجن , لكن الأمر كان من الواجب والضروري تأجيل الارتباط الحزبي إلى ما بعد الخروج , واختبار هذه العلاقة في ظروف الحياة الطبيعية .. ولم يمنع هذا من تجربة عقد اجتماعات شبه رسمية ومناقشة قضايا سياسية على خفيف .

لكننا مع تطور العلاقة المفتوحة مع المكتبة والفرق الرياضية , ومع نزلاء السجن , والتواجد في أعمال حساسة مثل المكتبة والمطبخ والفرن والورشة .. والإدارة .. كنا نتبادل المعلومات والأخبار , وما يقترحه البعض لتحسين ما يحيطنا من ظروف وجعلها أكثر إنسانية ..

ومن خلال ذلك تم الاتفاق مع زملاء الفرن على أن يتم الاهتمام بنظافة الدقيق عند نخله وعجنه , وكذلك تسويته . وكان هذا سهلاً لأن شاووش الفرن عادة لا يتدخل إلا في (الظبط) والرَّبط) والحرص على توفير شروط خبز السجانة والإدارة .. فكان المطلوب إقناع باقي المساجين بأن هذا الاهتمام بالمنتج سيعود على مجموع المساجين وعليهم ؛ حتى لو كان لهم استثناء ما فالأفضل أن يكون حقاً .. كان الكلام سهلاً والنتيجة ملموسة وجعلت مساجين الفرن يشعرون بحالة من الرضا عن النفس , مكنتهم من رفض أكثر من سؤال دقيق فاسد .

حدثت مشكلة مع أمين المخزن وكان (راجل فاجومي) ؛ لكن الأمر حين عرض على (الريدي) أمره بالامتثال , ولكن النتائج كانت أكثر وضوحاً مع المطبخ فالكرتة وعدم الاهتمام طبعاً إلى جانب الاختلاس الجائر الذي يتم بالاتفاق مع الجزائريين حتى قبل ورود اللحم للسجن واستلامه وكذلك في كميات الزيت والبصل كانت فظيعة .. وساعدت حكاية الدقيق في لجم

جشع أمين المخزن الفاضح .. كما تم إقناع مساجين المطبخ عن طريق الأصدقاء في أن تجنب ذلك كله سيصب في النهاية في صالحهم إذا ما اتخذوا صف زملائهم ..

كان الحاج بدوي يتحفي أحياناً بقروانة سبانخ أو ملوخية من التي تطبخ للسجانة . وطبعاً لمساجين المطبخ باعتبار طباخ السم بيدوقه . ولما سألت الحاج (بدوي) شرح لي أن الأمر لا يتعدى تغيير طريقة الطهي .. والاهتمام بتنقية أعواد السبانخ أو الخبيزة أو الملوخية من شوائب الحشائش من (دنيبة) و(غلت) و(حندقوق) ومن شجيرات نبات (فسا الكلاب) وكلها تغير طعم لا (اليمك) فقط ولكن تغير طعم الحياة نفسها . فتتقيتها ستتيح فرصة لغسلها جيداً .. والأمر لا يتعدى بعد ذلك إلا الالتزام بالطهي الجيد . وبإضافة كميات البصل والزيت الشرعية قدر الإمكان ..

وهكذا استطاع - بعد طلب إضافة قوى عاملة إضافية - إنجاز المطلوب .

وكانوا يوم حدثت مشكلة الدقيق قد كلفوني برفع الأمر للمأمور وانتهزت ساعة رضا فكلمته فاهتم بشدة واقتحم يومها المخزن واكتشف ظروف التخزين السيئة التي تجعل الدقيق يدود والفول يسوس .. وكان هذا رد فعل طبيعي من رجل مهتم في الأساس بتحويل طاقة المساجين إلى طاقة منتجة في الورش .. فأمر بإعدام الدقيق الفاسد وعدد من زكائب الفول وأمر أمين المخزن بتهوية المخزن وتشميسه دورياً .. وضاعف العمالة في الفرن والمطبخ .. ومكّننا هذا التجاوب من رجل كهذا - يمتلك قدرًا كبيرًا من الإنسانية منعت تحوله إلى أداة قهر صماء وخاصة أنه كان ابن عائلة من صناعات السفن والصيادين في (عزبة البرج) و(دمياط) حيث للعمل القيمة الأولى في حياة الناس - أن نقترح ذلك التطور الباهر الذي اقترحنا تنفيذه , وأقنعناه به بعد أن لاحظ التحسن الكبير في (اليمك) طعمًا ورائحة , فوافق على تحويل وجبة الغداء يوم الخميس من عدس سائل إلى (كشري عدس أصفر) وهي أكلة مشهورة في (الدقهلية ودمياط) وأجوارها .. وكان النجاح الذي حققه مساجين المطبخ يعود إلى ضبط كميات الأرز والعدس والماء والتوقيت المحدد الذي يهدأ فيه البخار لينضج على مهل . وهي خبرة أوعزت بها إلى (الحاج بدوي) تعلمتها من (الست أم سمير) حيث تساوي كميات المادة الصلبة (الأرز والعدس) وكميات الماء والتقليب عند الغليان فقط , ثم تهدئة النار وعدم كشف الآنية إلا بعد النضج . هي المفتاح السحري لتجنب تحول الطبخة كلها إلى عجين .

وقد دُهِش (الريدي) عندما ذهب إليه الحاج (بدوي) بأول طبق كشري أصفر ليتذوقه .. ولا بد أن ذكريات طفولته وقريته ورائحة طهي أمه قد حضرته حين تذوق الطبق بل وأكله كله في

شهية وحبور .. انعكسا على قراره باستمرار تلك التجربة الرائدة وفي مكافأة (الترفيه) التي أمر بها لمساجين المطبخ وشاويشه ..

ورفع ذلك من الروح المعنوية لزملائنا في كل مرافق السجن .. وكانت حالة الفرح الغامر التي اجتاحت العنبر حتى وصلت إلى صيحات وهتافات فرحًا بالأكلة الفذة التي تنتمي لعالم الحرية والتي أطلقها سكان العنبر حتى وصلت إلى أذني المأمور (الريدي) جعلته يخرج سعيدًا ليقف أمام باب المكاتب يراقب العنبر في اعتزاز وفخر ؛ وهو يضع كعادته يده اليمنى في جيبه ويسند ظهره المنتصب بذراعه اليسرى !

شجعتنا تجربة الكشري يوم الخميس إلى بحث قضية (طعمية الجمعة) .. أما لماذا الجمعة , فذلك لأن السجن يكون يومها في حالة هدوء ورواق . وغالبًا ما يكون الطابط (ميخائيل) هو النبطشي فتسود حالة من الود والتعايش , كما أن معظم المرافق كالإدارة والمكتبة والمستشفى أقصد العيادة اليومية والإيراد والمزرعة وفرق الرياضة تكون كلها في حالة راحة ؛ مما يتيح الفرصة لاستخدام عدد من المتطوعين .. لقد اكتشفنا أن حالة (الفول المسوس أو السوس المفلول) حالة مستعصية ولا علاج لها ولكن يمكن التخفيف منها بتحويله إلى فول مدشوش وتشميسه ثم غسله جيدًا فيمكن التخلص من أكبر كمية من السوس الفاضح ..

ودرسنا كل احتياجات الأمر .. ودبرنا توفير كمية الزيت من نصيب الأيام الأخرى . وقال زملاء المزرعة إن هناك دائمًا أحواض مزروعة بالكرات والبقدونس والبصل الأخضر والجرجير والفجل ولا يستفيد المساجين منها إلا بالجرجير والفجل لكن بعد أن تنمو وتشبخ وتزهو ليوزع بعضها مع اليمك كترفيه.. ولكن الأمر تم تدبيره مع الزملاء (فلاحي) المزرعة ..

وتقدم الحاج (بدوي) للمأمور بالمشروع منتهزًا فرصة رضاه عن (خميس العدس) وتلقى

الرجل الأمر بمزيد من الدهشة فقال ساخرًا أول مرة :

- ما شاء الله .. ما نعمل لكو (محشي) إنشاء الله .

ضحكوا في أدب . وقال أحدهم :

- وهو ده يصعب على سيادتك !

لكنه لم يوافق ..

في المرة الثانية .. قرر الحاج (بدوي) وزملاؤه القيام بتجربة , فعزلوا كمية من الفول ودشوها ونظفوها , ورقدوها وعجنوها .. وصنعوا منها طعمية رائعة .. ذهب الزميل (بدوي) بطبق منها إلى المأمور الذي ما أن شم الرائحة وتأمل الأقراص وذاقها .. حتى وافق على الفور وهكذا



استطاعت لجنة (الأصدقاء) هذه أن تحسن طعام السجن وتجعل من يومي الخميس والجمعة يومين بطعم الحرية!.

وقد لاحظت تحفظ الكثيرين منهم على إصرار (أبو العينين) على النزول من عنبره واقتحام جلستنا .. وكان بعضهم يسرع بالمغادرة .. أو يحول الحديث إلى وجهات أخرى كان بعضها ناجحًا .. ففي مرة من المرات .. طب (أبو العينين) وكنا نناقش أمرًا حول حرب بورسعيد (56) وكيف أن البعض أقنع (عبد الناصر) بعدها بأن الحرب مع الاستعمار قد انتهت .. وأن على الشيوعيين أن يدخلوا جهورهم , ففوجئت بالحاج (بدوي) وكأنه صنع مونتاجًا لحديث كان يكمله إلى سكة أخرى تمامًا .

- أنا أصلاً تاجر فراخ .. وكان ليّ رحلة أسبوعية لهنالك .. لـ(بورسعيد) أبيع اللي جاهز للبيع وكمان البيض اللي حوّشناه طول الأسبوع .

وكانت مراتي وعيالي كلهم مهموكين في تغذية وتربية وتنظيف السطح اللي كنت باربي عليه الفراخ والأنارب .. واستوعب الجميع تلك الانعطافة .

- وانت بقى كنت بتروح عايم من (الغوايين) دوغري على (البلط) ..

- يا ابني يا جاهل كان فيه مراكب وكان فيه لنش كهنة لكن من اللي متركب له مكنة ديزل بييجي عشرين حصان وكان بينقلنا بالبضاعة .. ما هو أنا ما كنتش لوحدي اللي بيسافر (بورسعيد) لكن كثير . اللي واخذ بصل واللي واخذ بلح وبرضه ناس تانية بفراخ لكن مش ده اللي انا عايز أحكي عنه .. أنا عايز أحكي لكم عن شيخ جامع هايل .. يا ريت واعظ السجن بتاعنا كان زيه . كان نفعنا بحاجة مفيدة .. الرجل ده كان عنده حكايات هايلة وفيها مواظ حقيقية شوف يا سيدي وما سيدك الا أنا ..

- انت ح تحكي .. ما تاكّلش دماغنا .. أنا قايم .

- طب والله ح تنبسط .. دي حكاية لذيدة ..

- قول يا قوال ..

- أقعد يا أستاذ (ابو العينين) انت اللي ح تفهمني اقعد واقف ليه يا راجل .. إفصح ياد

انت يا رخم وانت على وشك غضب الله .. زي الغضب اللي حط على وش الشيخ ساعة ما مخبر هلف قد الباب ده .. دخل وسط الحلقة بتاع الدرس .. درس العصر اللي بنحضره ونجري نلحق اللنش ..

الراجل ما يعرفش انه مخبر إلا لما قعد يبص في الوشوش كده وراح قابض على رقبة واحد وشده وشخط وقال (قوم معايا !)

الراجل وشه بقى أصفر من الكركم والدموع سحت من عينه وهو يقول :

- يا اخواناً ما تظنوش فيّه حاجة وحشة كده ولاّ كده أنا راجل شريف .. أرزقي وعائش يوم بيوم . وكل ما اخش في شغلانة تبوظ في إيديّه .. أخيراً بعث حلق واخلخال مراتي وقلت :

يوماتي ! أشتري حبة خضار من السوق وأجر عربية يد وألف بها ..

مرة تصيب ومرة تخبب ومرة يمسكني واحد زي أخينا ويعمل لي محضر - مرة بخمسة ومرة بعشرة - لحد ما قرفت والشغلانة يعني بتكسب كام خمسة جنيهه عشان ادفع فبقيت أهرب من المحاضر والغرامات ..

وأخونا ده ما بطلش يدور عليّه فين ما أروح .. وكان الخضار بيبوظ في معظم الأيام من العطلة .. وانا باترجاه يديني مهلة يومين وح ادفع ..

قعد الشيخ يتحايل على المخبر .. ان يسيبه ما فيش فايده .. فزعل . وطلع مندبل أبيض من جيبه ونده واحد من اللي قاعدين وناوله المندبل . وطلب منه يمر على القاعدين يطلب منهم ومن كل واحد دفع اللي يقدر عليه .. لينجدوا أخوهم في الإسلام ولما عاتب المخبر في أدب . قال له في قلة أدب :

- يا شيخ خليك في دروسك ومالكش دخل بشغلنا .

ولما انتهى الراجل بالمندبل كان قد جمع مبلغاً غير بطل .. أعطى قيمة الغرامة للمخبر وقال له تقدر حضرتك تسيبه في حاله !

المخبر عد الفلوس وجاي يمشي .. الشيخ قال له :

- لأ .. أقعد .. الحكاية ما خلصتتش يا حبيبي لازم تسمع للآخر .. أقعد .. وسّعوا له مكان ..

(أبو العينين) كان قد زهق وقام ليمضي . شده (بدوي) من الجاكتة يمنعه من القيام وقال له :

- جرى إيه يا أستاذ إنت تدخل بمزاجك لكن ما تخرجش إلا بمزاجنا .. هي دي الأصول .

- لكن يا حاج بدوي التمام قرب ..

- ما يقرب .. ما انا كمان ميعاد اللنش كان ح يفوتني .

انفجر الجميع ضاحكين وهو يكمل :

- آي والله .. لكن قعدت لآخر الحدوتة ..

وساد صمت وحّد بين الحاضرين وكأنهم يستمعون لذلك الشيخ الفلتة في جامع في (بورسعيد) .

صلوا بينا على النبي .. كمان زيدوا النبي صلا .. في يوم من الأيام كان فيه سلطان مدينة من مدن زمان .. لكن جت على المدينة أيام أصبح الفساد فيها للركب .. لا غني بيرحم فقير , ولا صغير بيراعي قيمة كبير .. وكتر فيها اللصوص والنصابين وبياعين السوق السوداء وانتشرت بيوت الفسق وساد الظلم والفجور .. حتى السلطان شاف حال المدينة قلبه انفطر وما بقاش عارف يعمل إيه ؟ لأن الفقر زاد والمرض والوبا انتشر .. وجمع السلطان الأمرا والوزراء .. وسألهم . وقعد كل واحد يفتي ويهلفط لأنهم نفسهم كانوا غرقانيين في الفساد وفي ظلم العباد . آخر ما زهق قال لكبير الوزرا :

- قدامك ثلاث أيام وتعرف لي ليه البلاء في المدينة وسببه إيه وإلا طيرت رقبتك !  
نزل الوزير يلف ويسأل المنجمين والحكما والعطارين , مافيش فايذة وفاتوا الثلاث تيام والوزير لا بياكل ولا بينام وشايف المشنقة حوالين رقبتة , والسيف وراه والنطع قدامه . لحد ما شاف واحد (حشاش) في ركن مهدوم قاعد يحشش قعد جنبه وقعد ينهنه . الرجل سأله . والوزير حكى له ع اللي فيها وقال له : (بكره رقبتى حتطير لو ما عرفتت سر المدينة) .

قال له : وانت خايف على المدينة بتعيط على الخلق ولا على رقبتك ؟

قال : خايف على رقبتى دانا عندي عيال .. ح انكر ؟

الحشاش خد نفس م اللي هو . وكتم وقال له :

- ما تخافش .. إنت تاخذني للسلطان بكرة وتخليه يجمع كل أهل المدينة في الساحة قدام القصر وانا بعون الله ح ادله على سبب الفساد في المدينة .

الوزير ما كدبش خبر ورجع للملك وخلاه يأمر بجمع أهل المدينة في ساحة القصر .. واتقدم الحشاش من الملك وقال له :

- بلدك يا سلطان الزمان بقت زي البيضة الممششة علشان مليانه اولاد حرام !!

الناس واقفة وكأن فوق روسها الطير .. والسلطان احتار اكثر واكثر وقال :

- وانا أعرف (أولاد الحلال) من (أولاد الحرام) ازاي يا مخرف ؟

قال له :

- تجيب كل واحد وأبوه قدامك .. وتأمر انه يضرب أبوه على قفاه عشرة أقلام .. واللي

يوافق ع الضرب تعطي له ثلاثين دينار ذهب واللي يرفض تعطي له ثلاثين جلدة قدام

الناس ..

وهوب ودارت المعركة ..

فيه رجاله بقت تتحايل على اولادها تضربها وتاخذ الفلوس عشان البيت ما فيهم كيشة دقيق والعيال ترفض . وناس تصعب عليها روحها تتحايل على اولادها ترحمها والولاد قلبها حجر

..

- وبعد ما دارت الدائرة على الجميع .. وقفوا اللي ضربوا وقبضوا ف ناحية .. ووقف اللي رفضوا وانجلدوا في الناحية الثانية ..
- وشد الحشاش نفس الإنعاش وقال :
- أهم يا سلطان الزمان .. اللي ضربوا وقبضوا دول همه (أولاد الحرام) .. والسبب في خراب وفساد مدينتك .
- إعدموا (أولاد الحرام) حالاً .. بالاً . خليها تتصف .
- الحشاش قال له :
- هأأو .. أو . دا انت بقى ما تبقاش سلطان في سلطنة لو فرطت فيهم .. أمال حتعمل (حرس وعساكر ومخبرين) منين يا ملك الزمان . همة دول سنديك وحمائتك !

وكانت صفارة التمام قد ضربت من مدة ولفنت الضجة والضحكات التي علت في زنزانتي نظر الشاويش (عبد العال) الذي كان ملخوماً في عد تمام الزنازين لوحده لأنني انشغلت عنه .. فجاء غاضباً يشخط وهو يقول :

- الله .. الله .. وسايبني لا يص .. وعامل حفلة يا مسجون ياللا فرّ منك له , كل واحد على زنزانته . جتكم البلاوي .. طيب !! ما هو الحق مش عليكم .. الحق عليّ أنا اللي سايبلك الحبل ع الغارب ..

انطلق كل واحد يجري إلى دوره وزنزانته وسط صيحات شاويشية الأدوار الأخرى .. وغفر الليل الذي كان قد وصل . وزغدني (عبد العال) في صدري .. وهو يناولني مفاتيح الدور ويدفعني في غضب .. لكي أتم على زنازين الدور !

أحياناً تتدفق موجات من الفلاحين على سجن المنصورة كدفعات المياه من هويس فتح فجأة أو ساقية دارت لأول مرة .. أحياناً تكون خليطاً من ميسورين وفقراء من كل الدرجات وذلك عندما تنشب خناقة بين قريتين على أمر من أمور الزراعة بحكم التجاور أو بحكم ركوب أرض قرية على زمام قرية أخرى فتقوم نزاعات حول مياه الري وخاصة في التحاريق أو في حالات صدامات دورية بين الأهالي وعساكر الحكومة .. عقب موجات غير دورية لتنفيذ الأحكام إذا ما عنّ لأحد المأمير أو العمدة تأديب قرية أو عدة قرى .

وفي أحيان أخرى يأتي الفلاحون إلى السجن في مجموعات قليلة أو أفراد لتنفيذ أحكام التبيد . وهي جريمة متكررة ودائمة لعجز الكثيرين عن سداد مديونياتهم لبنك التسليف أو بعضهم البعض , فتقام عليهم دعاوى تبيد وتصدر أحكامها بشكل روتيني متكرر ويذهب المحضرون للحجز على المحصول في الجرن أو على المخزون من القمح أو القطن أو الأرز في البيوت أو حتى على منقولات بعينها أو حيوانات .. ومن الطبيعي وفي غالب الأحيان ما يستهلك المحجوز عليه من القمح أو الأرز بحكم سد حاجات البطون , أو يباع المحجوز عليه من القطن بحكم الحاجة إلى تصريف المطالب الملحة .. فتصدر الأحكام فورية التنفيذ بالسجن , على أولئك الذين عينهم المحضرون أو مندوبو البنك حراساً على ممتلكاتهم ومحاصيلهم فبددوها وفي الغالب أكلوها .. وحينئذ تضيق سجون المراكز وحجرات التليفون في القرى .. فيرحل ذوو الأحكام (الكبيرة) إلى السجن المركزي سجن المنصورة لقضائها . وغالباً ما تكون من شهر إلى ثلاثة شهور .. فيأتون في الغالب في حراسة الغفر أو عساكر الريف . ويسلمون إلى السجن ويقعون مباشرة تحت قبضة أشد قسوة وأكثر خشونة لا تحفظ لمثلهم من البعيدين عن مناطق تحفظ لهم مركزهم الاجتماعي وهيبتهم بين أهليهم وأمام السلطات المحلية . فيجدون أنفسهم فجأه كمن وقعوا في هوّ من فراغ لا وزن فيه ولا اتزان وأحياناً لا كرامة فيه محفوظة للإنسان .

وأحياناً ترد إلينا (أتحدث هنا بصفتي سكرتيراً ملحقاً بخدمة شاويش الدور الثاني في عنبر سجن المنصورة المنوط به استقبال النزلاء الجدد فلاحين أو من أهل البندر) بعد أن تكون قد تلقت صدمة السجن الأولى بعد عبور البوابة ..

- ح تقلعوا هدمكم والا ح تفضلوا ملكية !؟
- إن كانوا لا يزالون على ذمة النيابة أي تحت التحقيق فيردون في مذلة :
- ملكية سعادتك .
- معاكم رصيد للمتعهد ولا أهاليكم اتفقوا معاه ؟
- يعني إيه يا بيه ؟
- عشان الأكل يا بهائم .
- أكل إيه يا بيه ؟
- أكلكم .. أمال ح تطفحوا منين ؟ معاكم فلوس ..
- ما عنأش يا بيه ؟
- طب اتتيلوا .. قيدهم أكل ميري ياابنى !

منهم من يبقى بملابسه وغالبًا ما يكونون من الميسورين قبض الله لهم بمساعدة سجنائهم أن يبقوا ملكية مع الأكل ميري . أما الآخرون فإنهم يخلعون الجلباب اليتيم الذي يملكونه للمناسبات

أما إن كانوا محكومين فإنهم يجردون من ملابسهم بالأمر . وتسلم إليهم بدل السجن التي غالبًا ما تطلب من المغسلة أو من المخزن على عجلة (وكليش كان) فيرتدونها كما قُسم . وفي الأعم ما تكون (مهرولة ومبهدة) ومختلفة المقاسات يرتدونها تحت رادع خرزانة السجان المتعجل للخلاص منهم أو تحت سطوة لسانه .. يسوقهم إلى العنبر بعد عدهم كالأغنام .. فيأتون إلينا في العنبر في منظر بائس كبقايا جيش مهزوم ...

ويبدون فريسة سهلة لـ(غريان) العنبر من لوميين وسوابق ونبطشية أدوار يحاولون افتراسهم أو انتزاع أية غنائم من سجنائهم أو خلافه بالحيلة تارة أو بالابتزاز . وفي غالب الأحيان ما يكون ذلك ساحة لمعركة لا تكافؤ فيها ..

فأولئك الذين لا يذهبون إلى البندر إلا محملين بذخيرة من التحذيرات من اللصوص والنصابين والغواني , يجدون أنفسهم مهددين بشدة من جيش من السوابق والمحتالين .. وغالبًا ومهما كانت درجة حرصهم واحتمائهم بحيل ومكر ودهاء تاريخي .

أقول غالبًا - ما يقعون فرائس سهلة لأنهم لا يعرفون شرائع المفزعة التي وقعوا بين أنيابها .. فيُجردون من سجنائهم أو حتى ملابسهم الداخلية أو بقايا الأطعمة التي نجح حرصهم البدائي على الإبقاء عليها خلال رحلتهم الصعبة عبر البرزخ ..

ولذلك .. كان استقبالي لمثل هؤلاء في الدور الثاني بمثابة البلم الذي يداوي جراحاتهم الخفية وينقذ ما تبقى لهم من ممتلكات .. والحماية التي تفرض نفسها لإبعاد (الواغش) عنهم .. والواعز للحفاظ على بقايا كرامتهم الإنسانية بحكم انتمائي لهم بحكم الأصل وأيضًا بحكم العقيدة ..

كنت أشرح لهم وهم في انتظار تسكينهم بعض ما غاب عني يوم عبرت مثلهم البرزخ مجردًا من ملابسهم .. حافي القدمين عاريًا أو أكاد .. وأقوم بتسكينهم في زنازين خاصة بهم دون خلطهم مع السوابق , وتسليمهم بطاطين وأبراشًا متماسكة أو جديدة قدر الإمكان .. فكانوا يشعرون ببعض الأمان .. وكثيرًا ما كانوا يطمئنون لي ويحسون وكأنهم وصلوا إلى شاطئ ما أكثر أمنًا .. وخاصة حين نتبادل كعادة الفلاحين المعلومات الحميمة عن البلد والعيلة والمعارف ..

وهكذا كانت تبدأ العلاقات بيني وبين العناصر المختلفة والجديدة عن التكوين العام لتركيبية أهل السجن .. وكانت مشاركتي للنزلاء الجدد والذين يدخلون السجن لأول مرة في تلقي صدمة

اليوم الأول والتخفيف منها على نفوسهم أثر كبير في عقد علاقة حميمية خاصة مع أغلبهم من الفلاحين أو الحرفيين أو المجندين الذين ألفت بهم أخطأؤهم أو تمردهم أو تكرار مرات هروبهم أو غير ذلك إلى المحاكمة والرفق والترحيل للسجن لقضاء مدة الحكم .

وكنت أحرص على تطوير هذه العلاقة مع العناصر الطيبة والتي يكون السجن تجربة ثقيلة الوطأة عليها حتى يكاد بعضهم يموت كمدًا .. فيعيد إليهم اطمئنانهم لي وما يصنعه وجودي من مساحات ومسافات عازلة بينهم وبين ما يملأ قلوبهم هلعًا ورعبًا من فكرة السجن وما يحيط بها عندهم من قهر وغربة , ويحفظ لهم بعض إنسانيتهم . وغالبًا ما كان ذلك يساعدني كثيرًا في محو ما ترسب في نفوسهم من دعاية خبيثة حول الشيوعية والشيوعيين .

بعضهم قادت خطواته المترددة إلى المكتبة وبعضهم ساعدته في كتابة خطابات إلى أهله , ليعرفوا كيف يزورونه ومتى . وأرسلت المرضى منهم للعيادة أو المستشفى إذ كان منهم من يكاد يقع من طوله مع كل خطوة . وتتطورت علاقتي مع بعضهم بسرعة وبعمق إلى صداقة .. وكان الكثيرون من قرى أعرفها ولي فيها أقارب أو معارف أو زملاء دراسة .. وأمدتني ساعات الجلوس إليهم ومشاركتهم بعض همومهم برصيد ضخم من التعرف على ألوان من الثقافة الشعبية وأمثال الفلاحين وحكاياتهم ومواويلهم وأغاني فرحهم وأحزانهم .

وتعودت أن أقضي معظم الوقت في المكتبة , حتى وقت القيالة .. وكان هذا يعطيني فرصة البقاء على تواصل حميم بكافة مرافق السجن .. فالمكتبة كانت في الطرف الغربي يفصل بينها وبين السور الغربي شارع بعرض (5) أو (6) أمتار ويفصل بينها وبين مرافق السجن الأساسية شارع آخر على جانبيه الحمامات ووابور البخار والمغسلة والمطابخ والكانتين التي تشكل مبنى على شكل حرف (U) في وسطه حديقة تمتد حتى النافورة ثم إلى باب المكاتب الذي يشكل مدخلًا للمبنى الرئيسي للسجن ؛ حيث المستشفى جنوبًا من دورين تحتها الإيراد وهما يفتحان على الحوش , ثم المكاتب والزيارة ومكاتب المأمور والوكيل بينهم طرقة تؤدي إلى سجن النساء . وفوقه منزل سكن المأمور الذي له مدخل خاص وسلم خارج السجن من الناحية الشرقية يتوسطه باب السجن الرئيسي أمامه مساحة لطابور الحرس والزائرين بعدها تمتد المزرعة بعرض السجن وحتى الشارع الرئيسي لمدخل المدينة .

وكانت قاعة المكتبة تشغل النصف الشمالي من مبنى طويل عريض بسقف جمالون , وتشغل ثلثه الجنوبي يفصله جدار - عن صالة ألعاب بها منضدتا (تنس طاولة) وعدة دواليب خشبية وحديدية بها أدوات رياضية كاملة لم تكن تستعمل منها سوى شبكة الفولي بول والسلة والطاولة وكور وملابس لمن يشاركون في هذه الألعاب حسب الظروف ..

وبعد ترحيل الإخوان طلب (الريدي) أن أقوم بتدريب الفرق الرياضية .. أو ما يعني الإشراف عليها مع الشاويش المسئول .. حتى ينصاعوا لي احترامًا كما كانوا مع الإخوان باعتبار أننا (يعني) أفندية .. وبالفعل كان هذا ضروريًا .. فالمساجين لا يطيعون مسجونًا منهم ويتلاعبون بالشاويش السجن , إذا لم يكن حازمًا .. وكان السجانة يتهربون من تولي مسئوليهم الفرق , لأنها غير مدرة لأية أرباح .. على العكس كان المساجين القرارية يبتزونهم ويحصلون منهم على سجنائهم !

ومن المكتبة رتبت مواعيد الرياضة .. وكنا في الشتاء يمكن أن نلعب في القيالة عندما يكون الجو صحواً ويمتد التمرين إلى قرب التمام .. أما في الصيف فكنا نقوم بالتدريب في الساعتين السابقتين لتمام السجن .. بما يسمح للفرق بالاستحمام وعدم التخلف عن التمام في زنازينهم ..

كان هناك يوم في الأسبوع مخصص للمكتبة لكل دور من أدوار العنبر .. بالضبط مثل الحمام .. وكان رواد المكتبة قليلون .. فمعظم النزلاء أميون ومن يعرف القراءة والكتابة منهم قليلاً ما يهتم بالمكتبة . فلكل لو كان لديه وقت , مآرب أخرى ..  
والحقيقة أنني استطعت أن أستمر على المنوال الذي اختطه (سامي الإخواني) مع الفرق .. وكنا نختار ذوي الأحكام الأطول وننتقي نوعية من المساجين أكثر هدوءًا وأيضًا المحبين للعبة أو الذين يعرفونها أو يستهويهم الهروب من القعدة في العنبر , ممن ليس لهم مصالح في السوق الداخلي لحياة السجن وهو سوق لو تدررون مريح وله قوانين وأسرار لا يعرفها إلا المحترفون والشطار .

وحرصت أن يكون وقتي موزعًا بانتظام بين المكتبة وتدريب الفرق كل في موعدها .. وكان الأمور كثيرًا ما يخرج لمتابعة التمرينات وأيضًا يمر على المكتبة أثناء جولاته المفاجئة على المرافق المختلفة بعد أن أبطل عادة أن يسبقه الصول (مصطفى) بصفارته وصيخته القديمة - (انتباه) كما كان يفعل سلفه (الدماطي) الذي لم يعد يذكره أحد .

وعين أخصائي اجتماعي جديد للسجن هو الأستاذ (عبد الجليل) (صار فيما بعد مديرًا لقصر ثقافة المنصورة وقابلته بعد خروجه) وأعجب الأخصائي الاجتماعي بالمكتبة - على عكس سلفه الذي لم تطأ قدماه أرضها - واتخذ لنفسه مقرًا بها .. كان يأتي للسجن يوم الإثنين من كل أسبوع .. فصار ذلك اليوم وقتًا لنشاط مكثف إذ كان شخصية مثقفة لين الجانب على درجة كبيرة من فهم وتقدير الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي تغذي السجن بكل هؤلاء .. الذين



يعتبرهم ضحايا ، ويسعى إلى تفهم ظروفهم بعطف وحب .. ولذا سرعان ما انعقدت بيننا أواصر صداقة لم يوهن منها أننا كنا على طرفي تقيض من ناحية العقائد .. إذ كانت ثقافته تقليدية محافظة رغم نزعة الإنسانية والاجتماعية . اقترحت عليه إنشاء مجلة حائط يحررها المساجين ويرسمونها ويكتبون فيها خواطرهم وأحلامهم وأيضًا تعليقاتهم على ما يقرأون .. وملاحظاتهم حول الحياة في السجن وطلباتهم من الإدارة ..

ونجحت المجلة نجاحًا طيبًا .. وأعجب بها الريدي (مع حفظ الألقاب) لدرجة أنه أخذ أعدادًا منها ليعرضها في معرض عام تقيمه مصلحة السجون مع جمعية رعاية المسجونين بالقاهرة .

و ذات يوم ونحن منهمكون في إعداد أحد الأعداد فوجئت بالضابط (ميخائيل) يدخل إلى المكتبة في صمت . وحين نبهنا أحدهم لدخوله الصامت اعترض على قيامنا لتحيته :  
- لآ .. خليك في شغلكم .. أنا مش جاي أعطلكم . أنا جاي أقدم لكم واحد عزيز عليّ , تقريبًا قريبي , وهو زميلكم (عزيز) وأرجوكم تشركوه معاكم في نشاط المكتبة .. يا أستاذ سمير (عزيز) مثقف وفنان أرجو أن تعاملوه كويس وتعتبروه زي إبني ..  
همس أحدهم - حماية يعني !! قال آخر - يا حضرة الضابط .. دا شرف كبير لينا كلنا .. تأمر

قال (أبو العينين) - أهلاً وسهلاً يا أستاذ (عزيز) دا حضرة الضابط (ميخائيل) هو بلسم السجن .. اتفضل ..

رحب به أبو العينين - وهو يقترب ليصافحه - لكنه عندما مد ذراعه يحاول أن يربت على كتفه نفر منه (عزيز) بطريقة عصبية وعدائية لفتت أنظارنا جميعًا . وتدارك الضابط الأمر ضاحكًا :

- معلش يا اولاد .. عزيز أصله جديد على السجن الملكي (عزيز) جاي من السجن الحربي .. من جهنم الحمرا ..

ثم قهقه بصوت عالٍ :

- وهناك مافيش أهلاً وسهلاً دي ..

وضحكنا كلنا إلا (عزيز) وأردف الضابط ..

- مسيره ياخذ عليكم وخصوصًا انت يا (سمير) لأنه ح يسكن جنبك انفرادي في الربع الحرام ..

وضحك معظمنا لأنه يعرف الاسم الذي أطلقه سكان العنبر على الربع الرابع من الدور الثاني . ربع السياسيين والإعدام (عندما يكون هناك أحكام بالإعدام !) ربع الخطرين المطلوب تشديد الحراسة عليهم ومنع الاتصال بهم . ثم انصرف الضابط بعد أن أوصاني

- مرة أخرى على الجار الجديد النفور .. الذي جلس في مكانه صامتاً يجبرنا على تأمله ..  
وتبادل ملاحظاتها عليه همساً .. همس لي (أبو العينين) في خباثة :
- دا أكيد وراه حكاية !! دا حلو قوي !!  
قلت له محاولاً التغطية على ملاحظته :
- طب شوف الخط اللي رسمته طلع معوج أهه ما تتعدل وانتي بتسطر . وتبطل نمّ  
والتقت إلى (عزيز) في ترحيب ..
- أستاذ (عزيز) حضرة الطابط بيقول إنك فنان . يا ترى بتعزف والا بترسم والا ..  
قاطعني بحدة ونفور :
- أنا رسام ..  
ثم تدارك في شبه اعتذار فابتسمت له في ود وتجاهلت حدته ثم تهللت محاولاً إذابة ما  
يحيط به نفسه من تعالٍ ورفض للتواصل ..
- حلو .. دانتي جيت في وقتك .. خد .. آدي ماكيت مجلة الحيط بتاعنا .. إسمها  
(السنبلة) بنحاول نعمل لها عنوان وشعار ثابت لكن كل مرة يطلع شكل مختلف ومش  
قد كده , بص عليه وشوف تساعدنا فيها ازاي ..
- وسحبت الماكيت من أمام (أبو العينين) ودفعت به على المنضدة الكبيرة إليه ..  
فانزعج , وكأن أحداً يريد أن يلقي به في البحر . وتراجع للخلف في هلع .. جعل الكل  
يستغربون رد فعله لكنهم سكتوا وسادت لحظة صمت , والماكيت راقد أمامه مباشرة كجريح  
يستتجد به أن يفحص جرحه . وأخيراً مد يداً مرتجفة وأمسك بالماكيت وأداره في بطء ليتأمله  
.. ولم يبد على وجهه أي تعبير .. كأنما يرتدي قناعاً عابساً .. ثم انفردت أساريه . وهو  
يتناول علبة الأقلام الملونة وانهمك في رسم وكتابة عنوان المجلة - (السنبلة) ..
- صيحة الإعجاب الجماعية التي انطلقت بتلقائية فرحة مصحوبة بتصفيق من الجميع  
كأنها أصابت (عزيز) بصدمة .
- كانت عيناه مفتوحتين لا من الدهشة أو المفاجأة لكن بما يوحي بمشاعر حادة من الرعب  
.. وبدا عليه كأنما يريد الانفلات هارياً من زحام الذين تجمعوا حوله فرحين بما أنجزه بهذه  
السرعة والبساطة . بدا كفأر مذعور وهو يزيح الأيدي التي امتدت تصافحه إعجاباً برسمه ,  
واحمر وجهه الأبيض (الأنثوي) الملامح مما جعلني أسارع إلى إنهاء الموقف الغريب الذي  
لم أجد له تفسيراً ؛ حتى في كونه قادمًا إلينا من جحيم السجن الحربي كما قال لنا قريبه  
الطابط (ميخائيل) ولم تفت (أبو العينين) ملاحظة رد الفعل الغريب هذا . فعاد يهمس لي  
في خبث غامض لم يفلح في إخفائه :
- مش قلت لك .. الواد وراه حكاية .. وما ابقاش (أبو العينين) لو ما جيبت لك قراره !

عندما عدت للعنبر وجدت أن الضابط أسكن (عزيز) بالفعل في الربع الرابع في حجرة (32) بجوار (الشمبيلي) وليكون تحت رعاية شاويش الدور .. وزود الزنزانة بمرتبة طبية وبطاطين جديدة قال لي (الشمبيلي) معلقاً :

- أيوه يا سيدي من كان النقيب خاله , بس دا واد حلو قوي على السجن !!

وبعد فترة طلب (عزيز) نقله إلى زنزانة (40) في آخر الربع بحجة أن الإضاءة فيها أنسب لعمله الفني . وكان مسموحاً له بخامات وأدوات وألوان ؛ إذ سيمارس الرسم في الزنزانة ..

والحقيقة أنه هرب من فضول (الشمبيلي) وحب استطلاع الذي لم يتفق مع نفوره الطبيعي من الصحبة , وخاصة بعد أن عرف عن جاره (السوابق) ما أزعجه من نظراته المتطفلة طول الوقت تدور في زنزانتة وشم رائحة الحشيش في أنفاسه بلا أي محاولة لإخفائها عنه أو عن غيره .

تأكدت من تصرفات (عزيز) أن وراءه حكاية , ولكني لم أتصور أن أسأله وتركت الظروف ترسم حدود علاقتي به طبعاً مع وضع قرابته للضابط (الطيب) (ميخائيل) في الاعتبار .

كان صامتاً طول الوقت .. مفضلاً العزلة , نفوراً من كل من يفرض نفسه عليه .. وكان يستغرق في الرسم كأنما الوجود قد انتفى من حوله .. وكان عندما ينتهي من لوحة أو صورة يحملها في استعراض قصدي . يريد أن يراها الكل وكأنما يريد أن يثبت لمن حوله أنه قادر أو مازال قادراً على الإبداع وبطريقة من يريد أن يؤكد لنفسه قبل الآخرين أنه مازال حياً , إذ كان لا يكاد يسمع له صوت .

قال لي الضابط (ميخائيل) - بعد فترة من وصوله وكان قد استدعاني ليشكرني لأنني استطعت أن أسحبه من توحده وعزلته إلى المكتبة معظم الوقت , كان (ميخائيل) هو الذي نقله إلى سجن (المنصورة) - أنه بعد ما خرج من الحربي بعد الحكم عليه بالرفق من القوات المسلحة وسجن مشدد لثلاث سنوات , في حكم محجف ؛ لأن قضايا هروبه كلها كانت بسبب اضطهاد ضباط له مجاملة لضابط كبير ذي نفوذ . حولوه لقضاء بقية مدة الحكم العسكري إلى سجن (الاستئناف) فكاد يجن وحاول الانتحار . لذلك سعى لنقله إلى سجن

(المنصورة) ليكون تحت رعايته بعد أن ماتت أمه قهراً عليه .. (والحكاية دي لها قصة طويلة مش مهم نخوض فيها) .. واحترمت وجهة نظره ولم أتطفل بالسؤال عنها . لأنني أعرف أن في السجن لا شيء يظل مجهولاً من سيرة أي نزيل أكثر من أسابيع قليلة! ..

- المهم انه رجع يرسم .. واحنا ح نعتبر إنتاجه من منتجات السجن عشان يبقى شغله رسمي . همتك معنا .. أنا سكنته قريب منك .. وممكن بعد فترة تعملو له معرض .

ظل (الربيع الحرام) قاصراً عليّ وعلى (الشرمبيلي) لشهور لم يستقبل سوى سكاناً قليلين بعضهم ارتدى البدلة الحمراء بعد الحكم عليه بالإعدام ؛ لبقى تحت الحراسة المشددة لأيام حتى يرحل إلى طنطا , أو إلى (الاستئناف) لأن سجن المنصورة لا يقبل إلا أحكاماً لا تزيد عن سنتين .. وليس به غرفة إعدام .. وأيضاً سكن فيه إلى جوارى صديقي (منتصر) السنبلويني تحت حكم الإعدام إلى أن قبل النقض . وتقرر إعادة محاكمته فنزل إلى الدور الأرضي على عهدة تحقيق النيابة حتى تنتظر قضيتته أمام دائرة أخرى ..

فيما عدا ذلك كانت حرمانية الدور قد تدهورت . وكثرت فيه الرّجل فأصدقائي كانوا دائمي التردد على زنزانتي , ومعظمهم من رواد المكتبة أو من العاملين في المرافق المختلفة , أو من أعضاء الفرق الرياضية . وكلهم من المعروفين لإدارة السجن التي كانت من المتبنين على ما يبدو لفلسفة الباتشاويش سجان (محمود سعد) ولرأيه القانوني في العلاقة بين أهل السجن من مساجين وسجانة وبين الحكومة !!

\*\*\*

قبل صعود (منتصر) إلى الربع الحرام مرتدياً بدلة الإعدام - وعودة الروح إليه وهبوطه لإعادة محاكمته وقبل حضور (عزيز) قريب (ميخائيل) وعودته إلى الحياة لفشل محاولته الانتحار في سجن (الاستئناف) واستئنافه الرسم وانخراطه على خجل في حياة رواد المكتبة ثم توليه أمر جريدة الحائط ؛ مقاوماً رغبته الدائمة في الانعزال نفوراً من الناس ورغبة غير المفهوم من التواصل معهم وتفضيله قضاء معظم الوقت سجين شرنقة الصمت ..

قبل كل تلك الفترة التاريخية العامرة بالحياة والحركة جاءتنا الأخبار من المكاتب أنه وصلت إشارة عاجلة إلى إدارة السجن أن تستعد خلال ساعات لاستقبال سبعة شيوعيين مرحّلين من معتقل (أبو زعل) إلى سجن (المنصورة) لحضور جلسة محاكمتهم في قضية التنظيم الشيوعي ؛ لأنهم من (المنصورة) التي كانت كذلك موقعاً لأحداث المتهمين فيها ومكان القبض عليهم .. وشددت الإشارة على ضرورة اتخاذ كافة الوسائل لمنع الاتصال بينهم وبهم , منعاً باتاً حتى موعد الجلسة , والتنبيه على ضرورة حضورهم في الموعد المحدد إلى محكمة جنایات أمن الدولة بـ(المختلط) !

حاولت أن أعرف معلومات أخرى عن القادمين من (أبو زعبل) دون جدوى . أسماءهم ؟  
موعد وصولهم ؟ تعميم كامل !! فمارست عملي المعتاد في المكتبة والتمارين الرياضية .  
ولما عدت للعنبر علمت أن (الريدي) أشرف بنفسه على تجهيز سبع زنانات ؛ اثنتين قبل  
زنزانتني (35) وخمسة بعدها .. وعرفت أن مناقشة دارت بينه وبين الصول الذي رافقه حين  
اقترح إخلاء زنزانتني ونقل أمتعتي لأخرى ليكون عزل السبعة كاملاً ..  
فقال له :

- مالوش لازمة تحبكها يا حضرة الصول قوي كده .. ما هم كانوا مع بعض ف معتقل  
واحد وجايين مع بعض . اصرف لهم بطاطين جديدة وجهاز الزنازين ومالكش دعوة  
بزنازة (سمير) .. أنا لو عليّ كنت سكنتهم مع بعض ومع (سمير) كمان في زنزانتين  
وخلصنا - مش ده هوّ رأيك يا شاويش (عبد العال) ؟ .. أهه شفت ؟ ابقى ابعث لي  
(سمير) المكتب لما يرجع العنبر ..

عندما عدت للعنبر لاحظت الزنازين المجهزة وعرفت ما جرى وذهبت على الفور لمقابلة  
المأمور

- اسمع يا (سمير) , أنا ما اعرفش ان كنت تعرفهم والّا لأ .. أنا ما يهمنيش , لكن  
انصحهم بالهدوء علشان ما يعكروش عليك عيشتك هنا .. وما تتشغلش بيهم قوي .. أنا  
عايزك تستمر في التمارين عادي - المهرجان مع المعهد الديني فاضل له كام يوم و ما  
تكسفونيش . عايز لعيبه بجد . أما زمايلك فإن عازوا حاجة تعالى قول لي .. إنت  
عارف نظامنا هنا .. خليهما ما يخربوش عليك ويا ريت ييجوا ويمشوا وما حدش يحس  
بيهم .. هه ؟!

- مش ح يسيبوا أي متاعب .. بس دول كانوا بيتعذبوا (واستدركت) حسب الإشاعات اللي  
سمعناها فياريت تكون مدتهم هنا مرتاحة . ودا تبقى إنسانية من حضرتك !  
- روح على عنبرك يا مسجون .. واعمل اللي قلت لك عليه ..  
قالها بعد ابتسامة مقتضبة ثم ارتدى قناع مأمور أميري حازم وأخذ يقلب في أوراق أمامه  
بجدية .

ظللت أنتظر وصول الزملاء لفترة طويلة . شغلت نفسي بالقراءة فلم أقرأ إلا قليلاً .  
وحاولت أن أشغل نفسي في تأمل ما جدّ من أحداث , وأقلب أفكاراً وراء أفكار ولكنني عجزت  
أن أبقى أي فكرة تحت المجهر ..

وأعادني الانتظار إلى أيام كانت الأيام انتظاراً ليلاً ونهاراً , ولكنني حاولت استخدام ما كنت أتغلب به على الفراغ والملل دون جدوى فلا الأفلام القديمة ولا ذكريات الطفولة البعيدة ولا أساطير الإغريق أو حواديت خالتي (أم يوسف) استطاعت أن تساعدني .. وتعبت فنمت .

حتى الضجة التي صاحبت فتح السجن بعد منتصف الليل وفتح العنبر وتسكين الزملاء كل في ززانتته عن يميني وشمالي وما تبادلوه من تعليقات حول وجود زميل لهم في تلك الزنزانة المغلقة الصامتة لم توقظني . وعرفت أن بعضهم حاول قرع باب الزنزانة للسلام علي فمنعه الآخرون .

- يا عم انت وهو ما تهدوا .. الصباح رياح ..

في الصباح ..

فوجئ زملاء أبو زعل أنني الذي أفتح عليهم الزنازين . (عبد عباس) كان الوحيد الذي ابتسم ابتسامة عريضة فرحة أضاءت وجهه . ورحب بي في مشاعر ود حقيقية .

- أهلاً - تحيا مصر .. الظاهر انت العمدة هنا ؟

(فؤاد حجازي) و(حسن بدر) كانا أقل ترحيباً مع أنهما كانا ضمن من قابلتهم مع (أحمد) و(عبد الحميد) في سجن مصر ولذلك سألتني كل منهم عنهما .. وكان ثلاثتهم من أعضاء قبيلتنا .

أما (زين) و(موسى) و(فرج) و(عبد المنعم) .. فلم أكن قابلتهم من قبل وردوا تحيتي بتحفظ شديد فخمنت أنهم من سكان الضفة الأخرى من النهر .. فلم أتوقف كثيراً عند هذا. واعتبرت أنه من الطبيعي أن أرحب بهم وأسألهم إن كانوا في حاجة لأي شيء .. وجلست إلى (عبد عباس) .. فأعطاني فكرة عن الجميع . عرفت أن (زين) و(موسى) من التكتل وينتمون تاريخياً إلى (الراية) أما (فرج) فهو من (وحدة الشيوعيين) .. السابع (عبد المنعم) وهو عامل نسيج من شبرا .. ألحق بقضيتهم رغم أنه ليس من (المنصورة) لعلاقة كانت بينه وبين (فرج) المحامي .

- كل دا مش مهم يا زميل المهم إننا , قصدي قضيتنا وقضيتكم , كما تأكدنا من إنتاج الأخ (شاور) !.. اللي سلم (عبد الحميد) .. وهو اللي سلم (حسن) بنفس الطريقة وكل دا مش مهم .. إنت أحوالك إيه ؟.. إحنا عرفنا ان (أحمد) و(عبد الحميد) أفرج عنهم عشان كده صدر قرار اعتقال لهم وأنا قابلتهم في (الفيوم) قبل ما نترحل لـ(أبو زعل) ودا أحسن لهم ..

ودفعني هذا لسؤاله عن وجه الرحمة في ذلك . وهل يعني ذلك أن ما سمعناه عن التعذيب في (أبوزعل) حقيقي ..

كان الزملاء الآخرون قد توجهوا لدورة المياه حسب ما طلب منهم الشاويش (عبد العال) وقال لي :

- خليفهم يشهلوا يا (سمير) أنا مش ح افتح باقي الزنازين إلا لما يخلصوا ..

كانت فرصة لعبه ليتهرب من إجابة السؤال الذي كانت نظرة الألم التي بدت في عينه , وحالة الأسى والألم التي غمرته كافتين للإجابة !! .. فتركته يذهب إلى دورة المياه وتوجهت مع (عبد العال) إلى دكة الحكم .. لأدبر له وأجهز تذاكر نزلاء الدور حسب حالاتهم المختلفة سواء من وفوا مدة اختبار الإيراد , أو طالبو العرض على الطبيب أو المغادرون لجلسة وغير ذلك .. ناديت على (عبده) حين خرج من الدورة , وأجلسته بجانبني على دكة السجن وأعطيته فكرة كاملة عن الوضع هنا . كنا صباح الأربعاء وكانت جلستهم يوم السبت وأمامنا يومان سيقضيانهما في ضيافتنا وشرحت له كيف تكون إقامتهم هنا طيبة .. وشرحت له .. كيف أن (الريدي) هذا ضابط مختلف إن كان هو أو (ميخائيل) . ولابد أنه لمس حسن معاملته لهم عند استقبالهم .. وطلبت منه إن كان لديهم أية طلبات أن يطلبوها منه وإن أرادوا أنقلها أنا إليه .. قال عبده أنهم اختاروا الزميل (زين) ليتحدث باسمهم فطلبت منه أن يذهب إليهم ليطمئنهم وأخبرته أنني سأنضم إليهم لنتفق على كيفية قضاء وقتهم هنا في أطيح حال .. وبدون أي مشاكل ؛ وإن كنت أرى أن يتركوا هذا الأمر لي .. أما إن أرادوا مقابلة المأمور فهو نفسه قد طلب ذلك من الشاويش (عبد العال) ولهم أن يختاروا .. وأردت بذلك أن أتخطى أية مشاعر تشكك أو عدم ثقة تكون قد ولدتها تحفظاتهم الخفية التي بدت عليهم بدرجات متفاوتة في ردهم على تحيتي لهم عندما فتحت بنفسني ززانتهم في الصباح ..

اجتمع (عبده عباس) بهم وطال الاجتماع ولم أنزعج . فقد كان علي أن أنهي أعمالي حتى لا يلوص فيها الشاويش وذهبت إليهم وقد بدأ النبطشي المساعد يفتح الزنازين الأخرى , ومعه الشاويش ليؤكد على المساجين سكان الدور بعدم التواجد في الريع الرابع .. وكان (العمل) قد بدأ ينزل من الأدوار العليا وعلا ضجيج يوم عادي من أيام السجن .. رحب بي الزملاء هذه المرة بحرارة وابتسام يليق بزملاء محنة واحدة وإن اختلفت مواقع الأقدام على شاطئها التعس . وأوكلوا لي الحديث باسمهم لدى المأمور وطلبوا أن يفكروا في موضوع الانفرادي إذ قد يكون أريح لهم وهم لشهور يعيشون معاً مقيدين لنفس السلسلة .. عندما عدت من عند المأمور أخبرتهم بموافقته على أن يجتمعوا في ززانتي إذا أرادوا .. وزودتهم بما كان لدي من صحف ومجلات وكتب .. وأوصيت الشاويش (عبد العال) عليهم ..



فأخبرني أن المأمور سيرسل الشاويش (عبد الله) ليصطحبهم إلى الطابور . قلت خير .. وتركتهم يرتبون أحوالهم ومضيت إلى المكتبة فقد كان لدينا عمل ينتظر .. كما أن هناك تمارين تنس طاولة استعدادًا للمهرجان المرتقب مع طلبة (المعهد الأزهري) .. واتفقت معهم إذا خرجوا للطابور أن يزوروني في المكتبة .

كنت في حالة من النشوة والسعادة بزيارة الزملاء (الزعبلاويين) . نشوة وسعادة لا تضاهيها سوى سعادة الخروج إلى الحرية . نفس المشاعر التي انتابتنني في (سجن مصر) يوم ذهبنا للتحقيق , فالحديث إلى الزملاء بعد كل هذا الانقطاع والعزلة عن حركة الحزب وأخبار النضال ومصيره , وتبادل الآراء حول الأزمة والحليف وأكثر من ذلك الحديث عن احتمالات المستقبل والوضع في الخارج .. لا في خارج السجن فقط ولكن أيضًا خارج الوطن وحركة الطبقة العاملة والأممية أمور ضرورية لمقاومة السجن وتحمل مرارة الوحدة لمن كان مثلي بعيدًا عن جسد الحزب وجموع الزملاء ..

كان بي شغف لمعرفة أخبار الزملاء في مختلف السجون وما جد من تحليلات الحلف الوطنى وحول الصمود خاصة , وإشاعات (التعذيب) الذي وصل إلى استشهاد بعض الزملاء خلال التحقيق معهم أو في المعتقلات المختلفة . كانت كثير من الأخبار تتوالى من بعض المساجين أثناء عبورهم سجن (المنصورة) إلى المحاكم أو حضورهم من سجون أخرى

..

كنت فرحًا مرحةً أكاد أطيّر وأنا أتحرك بين المكتبة والملاعب والفرن والمطبخ لأدبر وأوفر وسائل الراحة وأرتب لطعام طيب يعوضهم عن يمك المعتقل والفول المسوس . كان اليوم يوم (الكشري) فرتبت أن يحصلوا على كفايتهم وتوقعت مفاجأتهم به .. باعتباره أحد إنجازات زملاء لا يعرفونهم من السجناء .. وفعلت المستحيل لأوفر لهم إقامة مختلفة أود أن تجعلهم لا ينسون ذلك الزميل المنفي عن الحزب وحيدًا في سجن المنصورة ويتفخرون به .. زاروني في المكتبة أثناء خروجهم للطابور , مع الشاويش (عبد الله) فبهرتهم بما تحتويه من كتب في مختلف المناحي وخاصة المجالات القديمة والترجمات .. وكتب التراث .. زودتهم بالصحف المتاحة سواء من المكتبة أو التي استعرتها من مساجين (الملكية) ودبرت توفر الشاي ووسائل إعداده .. وإن خيب ظني أنهم فضلوا أن يبقوا في زنازين انفرادية ليتاح لهم وقت كافٍ للقراءة خاصة وقد حُرّموا منذ اعتقالهم حتى من ملمس الورق المطبوع ومن شكل حروف وصور ورسوم الكتب والمجلات , فعذرتهم ولو أنني كنت أعول كثيرًا على مساحة الليل لأسمع ولأعرف وأناقش ما ضاع مني من قضايا !!

حضرنا تمرين تنس الطاولة بل ولعب بعضهم معنا ودخلوا الحمام وتمتعوا بماء تحكّموا في درجة حرارته . وليس كما قالوا - تحت الضرب - باردًا جدًّا أو شنيع الحرارة .. وفي غمرة هذا الذي يبدو وكأنه رحلة خلوية لمجموعة من الزائرين السياح لسجن مختلف .. لم تخف عني تلك النظرة التي عرفتني من قبل - نظرة الشك التي تلازم من عاشوا عمرًا في إطار وظروف العمل السري .. وكنت أظن أسألهم التي لم ينطقوها .. والتي لا بد أن تدور حول وضعي (المتميز) في السجن وحرّيتي في الحركة , وكأنني لست مثلهم سجينًا وهم القادمون من جحيم (أبو زعل) بعد جولة أو أكثر فيما بين السجون الاحتياطية والمعتقلات المختلفة . وكنت قد روضت نفسي على احتمالها ..

وتركت الظروف تفعل فعلها في محو سحابات الشك وأسئلة (التصيد) التي ألقتها بعضهم ولم أهتم بالرد عليها ؛ تاركًا لثقتي في نفسي ولتصرفاتي الطبيعية والإنسانية مهمة الرد عليها .. وكان لليوم التالي يوم الجمعة وبقاؤنا في العنبر في مساحة الربع الرابع وزناناته المفتوحة طول الوقت فضل كبير في إذابة جليد الشك وإقامة روابط ثقة جديدة بزلاء درب واحد .. خاصة وأن الجمعة كان (يوم الطعمية) التي قدمها لهم في موعد الغداء بعض زملائي المحليين الذين تعمدت ألا أخبرهم عنهم شيئًا .. وتركت لهم أن يخمنوا مكانتي بينهم وتقديرهم لي وأن يفهموا إن أرادوا طبيعة علاقتي بهم .

طبعًا لم يكن هذا موقف زملائي في التنظيم (عبده) و(فؤاد) و(حسن) فقد قابلتهم في سجن مصر .. وعرفوا عني وعرفت عنهم كل شيء خاصة ونحن ضحايا وشاية مخبر واحد وهي صلة (وحق العيش والملح) وثيقة !!

ولكنني بذلت جهدًا كبيرًا في التقرب للآخرين وإزاحة غيوم عدم الثقة والتناهي التي هي أحد أمراض العلاقات بين من يقيمون على ضفة ومن يسكنون الضفة الأخرى من نفس النهر ؛ في ظل مخاوف العمل السري والخلافات التاريخية في قراءة الواقع دون الآخرين ..

ولقد نجحت بدرجة ما لما بذلته من جهد في إقناعهم بالاحتكام للمشاعر البسيطة الإنسانية .. (عبده عباس) طلب مني أن أوسط أختي (آمال) - عندما علم أنها تزورني بانتظام - لدى زوجته أخت (فؤاد حجازي) وهي مدرسة , حتى لا تخضع لضغوط المباحث التي تسعى للتفريق بينهما ؛ مستغلة مشاعر الضعف عند والدتها نحوه ؛ لظنها أنه هو الذي جرّ أخاها إلى هذا الطريق , فوعده ببذل كل جهد في سبيل ذلك , ولو تطلب الأمر أن أجعل أمي تصحبها في زيارة قادمة لأتحدث إليها بنفسي . (موسى جندي) تمالك نفسه وحكى لي عن التعذيب الذي تجنبه الآخرون بحجج مختلفة فروى لي كيف يتم الاستقبال للقادمين إلى (أبو زعل) وما يسمى (بالتشريفية) وإن كان طول الوقت يقارن بين عيشتي في سجن (المنصورة) - طعمية وكشري

ورياضة ومكتبة وجرائد وهلمة .. وهم هناك يشربون المر طول النهار فكل حركة وكل خطوة تتم تحت وطأة الشوم ونهش السياط . وكلمني عن (لف للتفتيش) صباحًا ومساء .. وعن (طابور الرياضة) و(طابور اليك) وكله جري في جري تحت وابل من ضرب الكرابيج والشوم على الجانبين - فين يوجعك !!

قال (فؤاد حجازي) :

- إنت فاكِر (الشارع الأخضر) اللي شرح معناه (ديستوفسكي) في كتابه (منزل الموتى) لما قال إنه عبارة عن تمهيد لعقوبة الجلد أو مقدمات عقوبة الجلد ؛ حيث كان مجرمو المنفى في (سيبيريا) أيام القيصر من قتالين القتلى ورجال العصابات والسياسيين برضه , عندما يُحكم عليهم بالجلد لأي مخالفة يمرون من باب العنابر حتى مكان التنفيذ بين صفيين عساكر في يد كل واحد كبراج ينزل به على ظهر السجين اللي ح ينجلد . الفرق بينهم وبيناً إنهم محكوم عليهم بالجلد مرة - لكن إحنا كنا طول الوقت عايشين في (الشارع الأخضر) وحوالينا العساكر بالشوم والكرابيج والجريد المقضب طول الوقت في التفتيش صبح ومسا وف طابور الأكل وطابور الرياضة , وفي الطريق للجبل وللمستشفى ما فيش إعفا .. طول النهار .. وأحياناً في الليل فجأة يطبؤوا علينا جوه العنابر . وإيه ؟ كله بالخطوة السريعة .. شمال يمين .. شمال يمين ..

وحدثني (زين سليط) عن (الزحف المقدس) و (الهتاف والغناء) وعن (لف للتفتيش) وإجبار ذوي النظارات على نزح البكابورتات .. وعن (زنزانة الخنازير) و(أمين جزار المستشفى) قصدة التومرجي وعن (هجوم الهكسوس) عساكر الدرجة الثانية في الجبل .

وحكى الأستاذ (فرج) .. عما جرى لـ(نجاتى عبد المجيد) عندما رفض الغناء (يا جمال يا مثال الوطنية) وعن مصرع فريد حداد .. وموت (علي متولي الديب) .. وزننازين التأديب . تفاصيل كثيرة وأمور لا يمكن أن يستوعبها عقل بشري أو يفسرها . كنت أختنق بالبكاء .. وأتماسك بصعوبة وأنا أتخيل (د. لويس عوض) وهو يحاول أن يقضي حاجته وكان لا يستطيع أن يثني ركبتيه . والدكتور (فؤاد مرسي) وهو يتسلل إلى زبالة القادمين الجدد ليبحث عن كسرات وبقايا خبزهم لينفضها ويدسها تحت ملابسه , وابتكاره لطريقة أكاديمية لأكل الفول المسوس .. وغيره وغيره .. فكنت عندما أخلو لنفسي بعد غلق الأبواب أجهش في البكاء ..

ولكن هذا الذي تبقى في ذاكرتي قاصر عن أن يقدم الصورة على بشاعتها للقارئ .. وأنا أحاول الآن أن ألم شتات هذه الصورة الشنيعة التي كادت تقتل صديقي الدكتور (هشام السلاموني) في الحمام عندما أغلق على نفسه الباب وجلس يقرأ كتاب (إلهامي سيف النصر) (أبو زعل) فأصابته حالة هستيرية مصحوبه ببيكاء شديد وصراخ أفزع أهل بيته فكسروا الباب عليه ؛ لعجزه عن فتحه ..

وها أنا الآن وأنا أكتب ذلك أعجز تمامًا عن عصر تلافيف الذاكرة لرسم الصورة ولذا قررت رغم مخالفة ذلك لأصول السرد الروائي ، وسيجد فيها نقاد الحداثة مثلًا ومخالفة لمبادئ البناء وتمزيقًا لحضور الراوي العليم .. لأنني أحضرت كل ما كتب عن (جسيم أبو زعل) لأقتبس منه ما يعوض ما أنستيه الأيام من أحاديث زملائي (الزعلابيين) .

وما المانع أن أصنع نصًا تسجيليًا من مجمل ما دونه أهل (أبو زعل) عن تلك التجربة التي لم تحدث إلا في عصور الرومان عندما كانت الوحوش الحقيقية تنهش أجساد المستعبدين ، أو عندما استباح النازيون أجساد من هم أقل منهم رتبة في جداول النقاء البشري وقد استعنت بكتب - (إلهامي سيف النصر) (أبو زعل) وظاهر عبد الحكيم (الأقدام العارية) ، والسيد يوسف (مذكرات سجين سياسي) ومأمون البسيوني (الفراشة واللهب) و(شيوعيون وناصريون) لفخرى لبيب وبكتاب (صنع الله) عن الواحات و(حسن المناويشي) (أبو زعل) وفوزي حبشي (سجين لكل العصور) .. وأيضًا بجميع الشهادات التي دونتها (لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية) في سبعة أجزاء (شهادات ورؤى) .. فقط لأتذكر دقائق ما رواه لي عن أبو زعل في سجن المنصورة خلال أجازة الراحة التي قضوها عندي والتي تعجز ذاكرتي الآن عن تجميع تفاصيل صورتها بعد خمسين سنة كاملة .. فليغفر لي البناء الروائي ونقاد (البنويّة) و(الحداثة) خطيئتي فلست أبغي من وراء ذلك سوى استكمال ما بدأت من سرد - لست محترفًا صنعتة - قبل فوات الأوان .

قال لي بعد تردد كبير ومحابلة مني أكثر :

- تصور عشرين زميل . كل اثنين مربوطين من إيد كل واحد في حجة واحدة في حلقة بيمر منها مع أيديهم الجنزير اللي فيه الحلقات .. هي نفس الحلقات اللي اتربطنا فيها واحنا خارجين من (القلعة) واحنا رايعين (العزب) .. واحنا راجعين من (الخارجة) واحنا منقولين (الفيوم) .. عشرين ومعاهم عزالهم مشحونين في صندوق عربية مصفّح ما فيهمش خرم لنقطة ضيّ ولا فيه شرخ أو فتحة لنسمة هوا .. ضلمة في عز النهار .. إيش حال لو الرحلة بالليل ، مهما حسبت طولها ما تقدرش تعرف رايعين فين !.. إنما من أصوات الدنيا حواليك تفضل تخمن .. دا طريق زراعي .. دخلنا بلد .. لأ دا احنا خرجنا من الصحراء .. دا كوبري .. وبعد ساعات في الضلمة

دي وصلنا (للأوردي) .. طبعًا ما نعرفش .. وقفت العربيات .. اسكت هس نطرق ودانا .. مش سامعين صرّيح ابن يومين . وفجأه وكأن جيش هجم عليك .. جزم بتدب في الأرض , أوامر عسكرية وتكات بنادق وخريطة وبعدين صمت مريب . واحنا بنخمن مش فاهمين . ثم رصاصة . ويرجع تاني صوت المشي والجري والأوامر . وشد أجزاء بنادق وبعض زخات رصاص مترليوز وندا وزعيق .. ولا احنا شايفين ولا عارفين إلا الخوف والرعب والقلق من المجهول .. ساعة - اتنين - أكثر - أقل .. والقلق يولد الرعب من تخمين اللي بيحصل برة ! ضلعة مافيش منفذ إلا الباب المصفح اللي اتحشرنا فيه .. اللي يقف مننا يشد معاه زميله واللي عايز يهرش أو يمسخ عرق لازم الكل يتحرك معاه والمعاصم تتجرح وتورم .. وخُلقك يضيق مع قلة الهواء والزنقة والحرارة بقت أربعين مع إننا كنا ف 8 نوفمبر (عيد الثورة البلشفية) ! وكل سنة وانت طيب .. ومش عارفين نوع الاحتفال .. إنما بشايره واضحة في الجو اللي نتيّن من طول الرحلة من غير هوا - غير اللي بنشمه هوّه هوّه اللي بنتجّه - عاديك - مع غازات اليمك والفول ابو سوس الغرقان في المرجرين .

ولما زادت حدة الأوامر وتراكضت الأقدام العسكرية متجمعة - تخمين - حوالين العربية وزادت الضجة المعدنية على الباب واتشد الترياس الحديد العتيق وافتتح الباب , عميت العيون المبلمقة من بهرة وشدة الضوء الشديد .. وظهر .. (مسعود) النوبي بيفك قفل الجنزير ويسحبه فنتفك قيودنا واحد ورا الثاني وعرفنا بعدين ان سيادة الشاويش (مسعود) النوبي بالعنية اختاروه خصيصًا لاستقبالنا لأنه صاحب ملف عامر بالجزئات عنده 80 جنحة اعتداء على المساجين ..

هيّ لحظة عينيك ترف يا دوب من الضلعة للنور تقف فيها أعمى .. وفجأة يهجم عليك اتنين فوارس على الخيل . وكل واحد بكرابجه على كتفك وراسك وما تسمع إلا زمجرة - ألف واحد فجأة بقوا على دماغك (- إجري يا ابن الكلب) .. كده اتحددت درجتك وما تلحش حتى تفكر .. فتجري والأحصنة وراك والكراييج على راسك عقلك يقف .. ومشاعرك تنشل من لسع وفرقة الكرياج . قول الكراييج .. وما تعرفش تلاحق الأوامر .. شيل حاجتك بسرعة اجري . ما تبصش وراك وشك في الأرض . وكل دا مصحوب بشتيمة منقية .. وتضطر تجري .. في الاتجاه اللي يبعدك عن مصدر الضرب والسع والشتيمة محاولاً الهرب لكن لفين .. غريزة البقاء هيّ وحدها اللي تمنعك من السقوط تحت سنانك الخيل لأن اللي وقع ما حدش رحمه من الفرسان اللي يسلموك لصفين من العساكر . يوصلك الواحد منهم للي بعده بعد ما يتيسر من صكات شوم أو لسعات كراييج ما تعرفش نازلة منين ؟.

فجأه تلاقيك وقفت أو اتصدمت في شلة من الضباط والجنود ملمومين حوالين ترابيزة قاعد قدامها أفندي وقدامه دفتر .. وكل واحد فيهم بيزعق ويضرب والكاتب يخط خط ويديك

بـ(اللكمية) ف وشك .. واسمك إيه يا ابن الكلب ؟ .. صوتك واطي يا واطي .. ارفع صوتك .. قول يا افندم يا ابن ال .. أعلى من كده يا خ .. كل ده والضرب نازل .. صوتك متحاش محشرج من المشوار , فيدي حجة للصفعات والعصيان والشتائم المنقية .. وتفوق تلاقيك واقف عريان وسطهم فريسة لنهشهم واتاريك نفذت أوامر ما كُنْتش فاكرها ..  
وتسمع صوت (نسوي) رقيع يقول ضاحكًا :  
- لسه الولد ده صوته واطي ..

فتزداد الطريحة لأن اللي قال الملاحظة دي (سيد الكل) (إسماعيل همت) ثم لا تلبث أن تتوقف .. ليقنحك رجل وفي يده ماكينة حلاقة ضخمة .. يجز بها شعر راسك .. وحواجيك وشنبك لو ليك شنب ثم ينزل بيها على العانة .. فيستأنف الضرب أشد وأنكى وتلاقي نفسك ماسك لفة . ما تقولش لأ .. وتطارذك الكرابيج تاني توجهك ناحية الباب .. يستلمك غيرهم .. لحد العنبر , فتترمي ع الأرض ويتقفل الباب ..

تلم نفسك وترحف شايل لفتك (البرش والبطانية) لحد ما تتسند على الحيط اللي قدامك .. تقعد مقرفص نفسك ومقطوع داخ , وعينك مغشقة غشيانة .. وألم بيحزف كل حنة منك زي السكاكين ولهايب طالعة من ضهرك .. وتبص حواليك .. ناس زيك شكلهم غريب .. لابسين لبس يضحك .. اللي اكمامه قصيرة واللي طويلة واللي جاكنته مهرولة .. واللي مقطعة .. وكلهم حالقين .. وفجأة تتعرف على بعضهم .. فلا تملك نفسك إلا عن شيئين يا تتفجر باكيًا . أو تضج بالضحك .. الذي غالبًا ما يشاركك فيه من يتعرف بصعوبة عليك ..

وفجأة تكتشف إنك مازالت عريانًا .. فتسرع لتتحسس (اللفة) التي حملتها طول الوقت فتجد فيها جاكته وبنطلونًا مثل التي يرتدونها .. وبرشًا وبطانية وطاقية مثل التي أضحكك على رؤوس زملائك المسجونين .

وتستمر اللعبة .. فيُفتح الباب وينكفي منه زميل آخر يدخل عاريًا ليتكرر ما حدث معك .. فيبكي أحدهم أو يضحك آخر . وتجد نفسك تجاربه وأنت تلعق جراحك .. وتتحسس مواضع الألم أو تمسح الدماء . وتتعود أذناك على سماع الحشرجات والتأوهات والأنات بجميع درجات السلم الموسيقي .. للشوم والكرابيج و(جريد النخل العالي) .. طاطي ورد السلام !.. أنا تعبت .. شوف حد غيري يسليك ويحكي لك !

قال لي :

- يا عم احكي لك عن إيه ولأ إيه ؟ .. كل يوم تفاصيل البرنامج بتتغير بابتكارات وتغانين جديدة . مش كل حفلات الاستقبال زي بعضها , لأن اللي يبقى حاضرها (إسماعيل

همت) .. غير اللي بيشرف عليها (حسن منير) .. ودول بقى غير المجنون (مرجان)  
.. اللي كان بيرقص وهو بيضرب (فنان) مريض لا يباريه إلا (يونس مرعي) أبو شعر  
مكتكت واللي ما بيكرهش قد اللي لابسين نظارات لأنهم ضعفت أبصارهم من القراءة .  
وكان حاطط نقره من د. (لويس عوض) لأنه مش بس دكتور وكان له منصب كبير في  
وزارة الثقافة لكن لأنه كمان قبطي وصعيدي .. وشيوعي !!

- دكتور في إيه يا روح أمك؟ ..

- دكتور في الأدب ..

- حلو .. ح نخرجك من هنا دكتور في قلة الأدب يا ابن المرة (ال .. كة) .

وكان يختار (ذوي النظارات) مخصوص لنزح الباكبورتات بالذات .. الفنان (حسن فؤاد)  
و(الدكتور عبد الرازق حسن) و(سعيد خيال) ود. (فوزي منصور) و(فيليب جلاب)  
و(زهدي) و(عبد العظيم أنيس) و(فؤاد حداد) .. تصوّر .. كانت كلمة فنان أو شاعر أو  
دكتور تجنّبه ما تعرفش ليه .. لكن تصرفاته بتعكس بالضبط موقف نظام يوليه من المثقفين  
موقف أصيل وجذري .. إلا اللي يخدم عليهم وانت لو فاكّر (عبد الناصر) وتريقته على  
(خالد محيي الدين) لما عزّفه على (سيد سليمان الرفاعي) الرفيق (بدر) اللي بهره بثقافته  
فقال له .. (وانت زعيمك ده - الميكانيكي)؟! في سخرية طبعًا .. وما فاتش شهور بعد  
يوليو إلا واتخلص من المثقفين في المجلس .. (يوسف صديق) الشاعر و(خالد محيي  
الدين) تلميذ الميكانيكي المثقف .. موقف أصيل ! (يونس مرعي) خير ممثل له .. هو اللي  
اخترع لحفلة الاستقبال دي إسم (التشريفية) اللي كل يوم بعد يوم تزداد وحشية وقسوة ولا  
إنسانية وخصوصًا لو كانت تحت إشراف (عبد اللطيف رشدي) طرق جديدة وغريبة ومريضة  
. مش بس ع البوابة لكن في كل مناحي الحياة وساعات النهار .. من أول (لف للتفتيش)  
مرتين في اليوم صباحًا ومساءً .. واللا (الزحف المقدس) . و(طابور الصباح) .. وانتقلت  
الابتكارات ليل .. (ليالي التفتيش) و(يوم العناء) .. ده بقى غير الجبل , وده حكاية لوحده  
و(طابور اليمك) .. والّا (هجوم الهكسوس) أحكي لك إيه والّا إيه ؟ خليك في حالك .. إنت  
هنا ف جنة (رضوان الريدي) .. ما تنقش على نفسك .. !

قال لي عبده عباس معاتبًا :

- انت مصر ليه تعرف تفاصيل التعذيب , حرام عليك ما تقبّش علي الزملا المواجه ,  
نفسهم ينسوا شوية ليه بتفكرهم .. باختصار يا زميل (أوردي أبو زعل) اختراع للمهانة

والامتهان .. وسحق كرامة البشر تحت قيادة العساكر كل شيء حصل مقصود .. لو كنا ف خلاف زي ما احنا بنحلل أو لو كنا ف حرب حتى وخذونا أسرى .. كانت تتطبق علينا قوانين معاملة الأسرى .. وأكد انت شفت أفلام عن الأسرى الأمريكان والإنجليز عند اليابانيين أو العكس . عمرك شفت قائد معتقل الأسرى بيهزأ القادة من أسراه قدام عساكرهم .. مش ممكن .. لأن القادة لما يتهانوا ينهار (النظام) ولذلك تلاقىهم بعلنوا عن رتبهم لعدوهم عشان يجبروه على احترامهم !  
هنا بقى همه عارفين كل الناس . والدليل على كده ترتيب التهم في القضايا اللي اتفبركت واللي حتى حقيقية حلفاءنا بقى صمموا على إهانة الزعما أكثر حاجة ..

وطبعًا قادة كثير صمدوا ورفضوا الإهانة . لكن الرفض والصمود للضرب ما ارتقاش لدرجة المقاومة .. للأسف تحت شعار تجنب العاصفة وتمرير الاستقزاز حفاظًا على الكادر .

- وليه ما قاومتوش !؟

- إسمع . إحنا منقسمين والحكومة عارفة إن الكراهية , أو خليها عدم الثقة , وما باقولش الخلاف بين الفصائل المختلفة أشد من اللي بين أي حد فينا وبينها .. باقول لك انت ح تقلب مواجع وجراح مخفية ..

فيه ناس معنا كانوا على استعداد يستنكروا ويخرجوا .. لكن المباحث أصرت على بقاءهم . وبالعكس وكانوا بيزودوا عليهم جرعة التعذيب عشان صراخهم وضعفهم يفت ف عزيمة الصامدين . واللي بيفكروا يصمدوا . إسمع اما أقول لك .

انت راجل ملتزم .. هل ممكن تخالف رأي وموقف حزبك اللي بيحدده القادة ؟

- ازاي .. والأعضاء والكوادر ورأي الأغلبية !؟!

- ما تبقاش ساذج .. انت كعضو ملتزم متكف لسجنين .. الأوردي والالتزام .. ولو فكرت تخرج على موقف الحزب ح تكون لوحدك .. تصور نفسك بتتنازل عن الضهر اللي انت بتتصور إن هو اللي بيحميك من القتل السريع .. فهمت ! على فكرة الاستسلام للواقع كان جماعي لكن الصمود كان فردي .. عشان كده كان فيه بطولات أو على الأقل محاولات جادة لإفشال خطة التكريع من عندنا ومن عندهم ..

- همّه مين ؟

- يا عم قصدي عند التكتل - زي اللي حصل مع (إسماعيل صبري) يوم الأربع الدامي .. لما (حسن منير) طلع عنبر واحد ووقف هو والضباط والعساكر والسجانة مسلحين بكل ما لديهم . والعنبر مش عارف هو خارج ليه وقال حسن منير :



- أنا مبسوط منكم يا اولاد ولذلك عايزكم تتعلموا الغنا.. واظن كلكم عارفين غنوة (يا جمال يا مثال الوطنية) مالكوش حجة ! ..

الزملا فهموا قصده فرفضوا يغنوا ورغم تهديداته وكان (إسماعيل صبري) في الصف الأول فشخط فيه :

- غني يا ولد ..

لكن إسماعيل رفض وقال له : أي غنوة وطنية مكانها برة مش هنا .. واحنا كوطنيين بنتشرف بأغاني مصر الوطنية .. لكن بنرفض نغنيها تحت تهديد الرشاشات والشوم .. بنرفض نغنيها تحت ظل الإرهاب .

وانفجر (حسن منير) وأحس إن رده إهانة له (كقائد قدام جنوده) وصب على الدكتور (إسماعيل) باكورة ألفاظ وشتائم قذرة . وطبعًا كانت دي إشارة إن الجنود البواسل يشاركوا قائدهم . فنزلت على (إسماعيل) عشرات الكرابيج والشوم لحد ما سقط وراسه بيثلب دم وطبعًا .. (الخير) لازم يعم وانضرب العنبر كله حتى أشرف عدد كبير منهم (إسماعيل) على الموت وسورق أكثر من ثلاثين .

طبعًا فيه قصص كثير زي دي لناس كثير حتى من عندنا . مع إن خطنا السياسي ما كانش ضد الغناء ل(جمال!) أو الهتاف له ! إسمع إوعى تفكر إن الصمود لكل ده ماهوش بطولة .. لما اتكرر (هجوم الهكسوس) وده تعبير أطلقناه على هجوم عساكر الدرجة الثانية , ودول غُشم حتى في الضرب فكانوا لما يعن لهم , يطلقوهم على الشغالين في الجبل سوى في التكسير أو التشوين أو نقل الظلط والتراب كبار وشباب . وع الصفارة تبدأ المطاردة والضرب الوحشي العشوائي . ولما أعجبتهم النتائج بقى يحصل كل ما يبجي في مزاج (الفارس) (عبد اللطيف رشدي) وهو فوق حصانه فوق الجبل يتسلى فيصفر . كان الشوم بيتكسر في إيد العساكر على عضم الزملاء .. لحد ما تضرب الصفارة على مزاجه ثاني ..

وعلى فكرة ياما زملا كانوا بيحموا زملاءهم . ويعرضوا أنفسهم لشيل طريحة الشوم عن غيرهم .. حتى لو كانوا من تنظيمات ثانية غير تنظيمهم .. أخوة في الإنسانية . قدام الموت وضد لافترا .. كثير حموا بأجسادهم زملاءهم في جدعنة .. تحيا مصر !! لدرجة طلعت نكتة لما كانوا العساكر بينهجوا من الضرب ويقعوا من التعب .. قالها بعض الزملا:

- إحنا وراهم لحد ما نموتهم من الضرب .. ضحكة ساخرة وسط المأساة لكنها كانت تشد أزر المضروبين ..

قال لي (أحمد فرج) . وكان يفصّل الصمت طول الوقت , وكنت قد استطعت أن أخترق جدار صمته .. وسألته نفس السؤال الذي سألته لـ(عبد عباس) .. فقد عرفت أنه قيادي في تنظيمه المستقل (وحدة الشيوعيين) :

- زملاءنا ناقشوا موضوع الهتاف مع زملاء (طلبة الشيوعيين) وأخذنا قرار بالامتناع عن الهتاف بحياة رئيس الجمهورية وكان رأينا إن الأوردي مختارينه بقصد زبانية النظام لتصفية الشيوعيين كل الشيوعيين .. والمسألة في رأينا امتحان للحركة الشيوعية . لأول مرة في تاريخها وف أول صدام مع السلطة , وعليها أن تثبت قدرتها على حمل لواء وراية الشيوعية والسير بها إلى الأمام .. ولذا كان لا بد من التصدي للهتاف بغض النظر عن النتائج فازاي نسمح لنفسنا نقول للطبقة العاملة إننا أخلص المدافعين عنها ضد الاستغلال والديكتاتورية , وبعدين لما نخطف من وسط الجماهير نطاقي وننخ .. بصرف النظر بقي عن مؤامرة قتلنا - أنا جدير بما أذعيه والا لأ ؟ ولما اتناقش زميلنا (نجاتي عبد المجيد) مع الزميلين (عدلي جرجس) (ورشدي خليل) وكانوا مسئولين الحزب عن القضية نمرة (3) اتفقوا على كده .. صحيح بعض الزملا رفضوا القرار واستقالوا من التنظيم .. لكن الاختبار جه سريعاً في نص يناير - ضرب البروجي .. وخرجوهم . وكالعادة كان فيه الضابط (سيد منصور) وحواليه جيش من الحرس . وأمروهم بالهتاف ، وكان (نجاتي عبد المجيد) - وده من اللي أيسوا في (51) النقابة العامة لعمال النسيج الميكانيكي . وزميلنا (عبد المقصود أبو زيد) في مقدمة الطابور فلم يهتفوا ولقظهم الضابط فأمر (نجاتي) و(عبد المقصود) بالخروج من الطابور فتقدموا برجولة فهجم الصول (مطواع) على (نجاتي) ولطّش له وهو يبصرخ: وشك في الأرض يا ابن الكلب وانت بتكلم البيه ! قال له : سيبه ما تضربوش وسأله : انت مش بتهتف ليه ؟

قال : أهتف للجمهورية . قال له : اشمعنى ؟ .. قال له دي بلدي . سأله : و(عبد الناصر) . رد وقال : أنا مش ح اهتف لـ(عبد الناصر) !

التقت (سيد منصور) لـ(مطواع) وقال له : إصرف الطابور وخلي العيّلين دول هنا !.. أنا ح اوريكم يا خونة يا اولاد الكلب !.. فبين العروسة يا (مطواع). جاهزة يا افندم - لكن كانت العروسة في الليمان فنزلوا عليهم ضرب باللكمات والركل والشوم لمدة ساعتين وكانت الدنيا برد - يناير .. وفضل يعيد عليه الأمر ونجاتي رافض يهتف لحد ما انهار ووقع على الأرض وبدأ صوته يروح .. (سيد منصور) أمر ينزلوه في البكابورت وشاله اتنين عساكر ودلدلوه في البكابورت لحد رقبتة . وطلعوه وجسمه كله محمل (بالخيرات) وكان جسمه سخن من كتر الضرب والجري والمجاري تلج فأصابته رعشة شديدة وبقت أسنانه تضرب في بعضها فخاف

ياكل لسانه فبقي يقفل بقله والضابط مصرّ إنه يهتف بحياة رئيس الجمهورية وهو جازز على اسنانه خوف يقضم لسانه لحد ما وقع على بطنه . قال جُرّوه للزنزانة ..

جروه للتأديب ورموه فيها . وفضل مرمي طول الليل وهو بينبش ويعض في الأرض من الرعشة والتعب . ورموا (عبد المقصود) في زنزانة تانية وإن كانوا ما نزلهوش المجاري - لأن (نجاتي) كان اللي بيرد على الضابط - لكن غرّقوا الزنزانيتين (بخيرات) المجاري .. وسابوهم طول الليل ..

ويحكى (نجاتي) عن حاله طول الليل وهو في الحالة دي ، والهواجس وعوامل الضعف اللي ملت دماغه وهو العامل البسيط . واتفكر مراته وابنه وحس إنه بييموت . واتفكر أمه وابوه وبقي يسأل نفسه : إنت مين وسط الشخصيات اللي في المعتقل ؟ ومعظمهم معروفين ومشهورين . واللي ح يجرى له حاجة منهم ح يلاقي اللي يذكره ، جوه وبره .. إنما هو مصيرك إيه غير النسيان . ولا حد ح يسمع عنك !!

ويقول نجاتي إنه اتذكر مناقشة مع المرحوم (رشدي خليل) وتذكر أنه كان قد قرأ قبل المعتقل كتاب (تحت أعواد المشانق) للمناضل والزعيم التشيكي (جوليوس فوتشيك) فاتذكر كلامه والنازيين يحيطون به ويواجهونه بأن أحداً لن يذكره .. وكان كل المطلوب منه كلمة تأييد لهتلر ، لكنه رفض وقاوم حتى النهاية . فبدأ يستعيد تماسكه ..

والساعة سبعة صباحاً فتحوا عليه الزنزانة .. وتراجع (سيد منصور) لأن الرائحة كانت فظيعة .. وقال له : نمت كويس يا ابن امك ؟ عجز حتى عن الرد عليه وكان بينتفض من البرد لكن بص له في عينيه بباقي قوته . فقال له : انت اللي جنيت على نفسك يا ابن الـ .. عايز إيه ؟ .. لما اقول لك تهتف - تهتف عايز تعمل زعيم ؟ مش ح تبقى ، وح نفتلك وندفئك هنا ياللا .. ح تهتف تدخل العنبر .

ولما لم يرد عليه .. سحبوه جزّ لبرّه بوابة (الأوردي) وكان هناك في انتظاره أشرطة عساكر بالجريد الأخضر . (سيد منصور) أمره بالوقوف ما قدرش . سندوه اتنين عساكر وفضل (سيد منصور) يلغم له وكان جاي جاهز بجوانتي الملاكمة (الكليطات) لأنه كان ملاكم .. فقعد يمارس هوايته في الضرب لحد (نجاتي) ما عدش يحس بحاجة وافتكر إنه مات . ولما أمره بالهتاف .. شاور له بصباغة رافصاً .. فغضب (سيد منصور) وهجم عليه يصرخ .. بصباغك يا ابن الكلب .. خده يا (عويس) .. خليه ينصف (المازوت) .

وسحبوه هو و(عبد المقصود) وكان في شبه غيبوبة لـ(المازوت) وكان يعني الترنش بتاع عساكر الدرجة الثانية برة الأوردي . وهناك أمره أن يحفر حفرة وهو يهدده أنه سيدفنهما أحياء .. لكن (نجاتي) كان عاجزاً تماماً .. فأمر العساكر بحفر حفرتين ومددوه في واحدة منهما .. ولقى

كلب ميت ومتعفن مرمي على مسافة فأمر العساكر جابوا الكلب ومددوه جنبه .. فحاول يستدير بصعوبة عنه لكن (سيد منصور) قال له :  
- لأ يا ابن أمك .. ح تحضنه يا ابن الكلب .

وبعد ما حضنه أمر العساكر يردموا عليهم بالرمل .. وكان الرمل سخن فخفف عنه البرودة .  
وسمع اللي بيقول : ده ما بيردش ولا بيتحرك يا افندم . ورد الضابط : سيبه يموت!! ورجع على مكتبه وكانت مراته بتستناه في المكتب !! وبص عمك (عويس) حواليه ولما اتأكد إن الضابط اختفى صرخ في العساكر .. هاتوا ميه يا اولاد الكلب منك له .. وخاف العسكري وقال له : ميه ليه ؟ .. علشان نسقيه يا حمار . ساعتها حس (نجاتي) بالعطش .. (عويس) جاب الميه وهو بيدمّع وسقاه وقال له : ليه كده يا ابني ؟ .. انت بني آدم كويس ومخلص - ما تعرفش المثل اللي بيقول (يا كنيسة أسلمي .. واللي في القلب في القلب) حرام عليك نفسك وحرام عليك ابنك ومراتك .. شوف ابن الكلب قاعد مع مراته في المكتب والا شوف الستمية زمايلك زمانهم بيتغذوا دلوقتي . وانت هنا بتموت .. وأدي المؤذن بدأ يأذن لصلاة الجمعة يعني الأكل زمانه بيتوزع . فبعث العسكري يجيب رغيف م العنبر .. وقال تقولهم ان (نجاتي) بيموت بره . لكن (سيد منصور) كان مكدرهم في العنبر همّه كمان مالقاش عندهم عيش .. بعث العسكري جاب رغيف م المساجين الجنائين ورجع مخبيه تحت السترة .. (عويس) ناوله لنجاتي وقال له : كل . قال له : إزاي وايديه كلها براز وبول . بقى يقطع العيش لقم ويناوله في بقه ! وكان الرمل الدافي رجّع له بعض الحيوية فبقى يمضغ بصعوبة .. وعويس يناوله لقمة بلقمة ف بقه ودموعه نازلة ..

اتلخ (سيد منصور) مع مراته . وكان جايها يفسحها ! ويمكن يفرجها على (العبيد) اللي بيتحكم فيهم .. أمرهم يرجعوه التأديب . وتاني يوم كان السبت وجاء (عبد اللطيف رشدي) و(حسن منير) فما بالك ! وكان (سيد منصور) مشهور إنه أحسنهم .. ونجاتي حسبها بعدما أمده موقف الشاويش (عويس) بطاقة لا حدود لها ..

وقال لك هيه موته والأ أكثر ؟ .. وقرر الاستمرار في موقفه مهما حصل . وكان الزملا كلهم طلوعوا الجبل يومها .

وكان اليوم اللي حصلت فيه أول هجمة للهكسوس فيما عُرف بالمجزرة الكبرى ..  
ورغم كده كان الكل بيحاولوا يقربوا من زنازين التأديب أثناء رجوعهم عشان نظمئن على (نجاتي) و(عبد المقصود) رغم إن ف ده مخاطرة كبيرة في وجود الزبانية دول على أرض المعركة .

وأخيراً استدعاه (حسن منير) . وكان يعرفه من الحبسة اللي فاتت في سجن القناطر . فراح له والعساكر جازينه قرفانين . لما قرب منه اتفزع من الريحه وقال له (خليك بعيد .. اسمع يا نجاتي .. سيبك من المواقف الهبله دي .. انت هنا مش في (القناطر) عايزين تسجلوا بطولات ؟ لأ .. شيلوا الحكاية دي من دماغكم .. هنا اللي يتقال لك تعمله - تعمله .. مواقف زمان دي في (القناطر) وف (سجن مصر) ما تتعملش هنا .. مطلوب تهتف - تهتف وحاضر يا افندم .. بس ..

رد عليه (نجاتي) : يعني مسلوب الإرادة . لأ .. عمري ما ح اكون مسلوب الإرادة مهما عملتم . في إيدكم تقتلونني .. إقتلونني .. قتل الناس عندكم سهل لكن إلا الإرادة والعقيدة .. صعب عليكم تكسروها .

وكاد يغمى عليه من المجهود الذي بذله ليقول هذا .. لولا سنده (عبد المقصود) .

وهنا شخط فيه (حسن منير) :

- اسمع انا مش عايز فلسفة .. إتفضل امشي .. إرجع عنبرك . ومش عايز اسمع عنك عملت كده تاني ..

وكان (عبد اللطيف رشدي) و(سيد منصور) و(مرجان إسحق) معاه في المكتب وما حدش منهم نطق بكلمة .. وجرهم العساكر على العنبر . وفي العنبر انفجر (نجاتي) في البكا .. لما كل الزملا قاموا وجابوا ميه سخنة من المغسل ونضفوه .. وكل واحد عايز يعمل حاجة لمواساته . وقام الزميلان (عبد العزيز عطية) و(محمود شديد) وكانوا متخصصين في علاج أورام الشوم وجريد النخيل بلبابة العيش والتدليك بعلاجه , والتخفيف من آلام أورامه ..

وف ساعة العشا .. فوجئ نجاتي بالعنبر كله يتبارى ليقدم له نصيبه من اللحمه .. لكن ما أثر فيه جدًّا وخلاه بكى .. لحمه الدكتور (لويس) اللي كان حريص عليها باستمرار , كطوق نجاه للحفاظ على الحياة !

وكان الدكتور لويس يشترط عندما يُطلب منه تقديم محاضرة ف العنبر ألا يحضرها العمال باعتبار موضوعاته خاصة فقط بالمتقنين لكن الموقف جعله يصر على أن يعطي لنجاتي نصيبه (الغالي) من اللحمه . وبعد يومين ثلاثة طلب الزملاء من نجاتي أن يحكي لهم اللي حصل معه , فحكى أيضًا عن مشاعر اليأس ووساوس الضعف التي هاجمته بطول الثلاثة أيام .. فما كان من الدكتور (لويس) إلا أن يقوم إليه ويحضنه بل ويقبله انبهارًا بموقفه .

قالوا لي :

- إنه في ليلة تالية لتلك الليلة ألقى الدكتور (لويس عوض) عليهم في العنبر محاضرة رائعة لم يمنع العمال عنها .. كانت المحاضرات تُلقى همساً لئلا يلفت الحديث أسماع الحرس الطائف حول العنابر , حيث تُعتبر مخالفة تستحق العقاب . جريمة ترك المعتقل لفرشته والجلوس على فرشة أخرى .. وكذلك تبادل الأحاديث ولكننا ابتكرنا أساليب شتى للتغلب على ذلك ..

وكانت محاضرة الدكتور (لويس) عن فيلسوف ومفكر فرنسي عاش في القرن السادس عشر .. وكان لأفكاره تأثير كبير على شروق شمس النهضة في أوروبا كان اسمه (لابويسيه) بذر بذور أفكار الحرية والمساواة التي تبنتها الثورة الفرنسية بعد ذلك .

تحدث في بدايتها عن ذلك القرن الذي ولد فيه هذا المفكر الحر وكيف انتقلت فيه أوروبا من ظلام العصور الوسطى . فكانت النقلة الكبرى من الظلمات إلى النور , باعتبار هذا القرن هو الحقبة الأخيرة من تطور بدأ مع نهاية القرنين الثاني والثالث عشر , حيث تم تطوير واستخدام أكبر لطاقة جريان الأنهار وهبوب الرياح وحتى حركات المد والجزر في حالات عديدة كطحن الغلال وغرلة الدقيق .. ونسيج الأقمشة ودبغ الجلود وأساليب استخراج الحديد والقصدير والفضة مما ترتب عليه من تطوير للأسلحة وأيضاً ابتكار محارث أكثر قدرة على تقليب وحرث تربة أوروبا الرطبة الثقيلة وتقليبها عميقاً فأصبحت أكثر قدرة على الإنتاج الزراعي . وكذلك استخدام المطارق الآلية والمضخات الهوائية في رفع درجة حرارة الأفران . واتسعت الرقعة الزراعية فزادت المحاصيل وصارت مزارع كثير من الأديرة مزارع نموذجية .

كذلك صاحب ذلك تجديد كبير في فنون الملاحة وصناعة السفن مما مكّن من شق البحار بدلاً من الالتزام الحذر للإبحار بالقرب من السواحل . ففتح هذا الطريق أمام الاستكشافات البحرية بالدوران حول (رأس الرجاء الصالح) ثم اكتشاف العالم الجديد .

وكذلك تم ابتكار ذلك الاختراع العجيب المدّش . وهو (الساعة) التي لا يمكن بدونها حساب وقياس الطاقة ولا تقنين معايير الإنتاج لتحديد الأجر ..

كما غير هذا الاختراع في العلاقات الاجتماعية بين الطبقات بل وأعضاء الطبقة الواحدة وصارعمال البناء مثلاً أقدر على التهديد بالإضراب وخاصة أنه من الصعب محاسبتهم بعدد أو مقدار المنتج بدون حساب الوقت . ومكّن هذا المجتمع كله من الانتقال من زمن مرتبط بالعبادة حيث الناس يتعرفون على المواقيت بقرع أجراس الكنائس فيما كان الشروق تعلنه الديكة والغروب مع الظلمة .. إلى زمن جديد كل الجدة لا ارتباط له بالصلوات ولا دوران الأفلاك فجر وصباح وظهر وعصر وغروب وعشاء وإنما تقسمه دقائق الساعات المقامة في الميادين بأمر الدولة ومازال هناك رصيف على نهر السين معروف حتى اليوم برصيف الساعة التي ظلت دقائقها المنتظمة منذ عام (1370) ..

وقد رفضت الكنيسة ذلك في البداية ولكن الأمر انتهى بها إلى قبول عقارب الساعة على أبراجها إلا الكنيسة الشرقية ظلت على رفضها . وكان سر حدوث ذلك في الغرب , وقبول الكنيسة الغربية إخضاع الزمن للمنافع البرجوازية وليس لاعتبارات الأبدية .. لأن في الغرب ظهر رجل جديد .. رجل الساعة ؛ الوقت عنده مال, رجل الأعمال . فعلى أثر زيادة الإنتاج التي صاحبت هذا التطور زاد عدد السكان الذين هم المستهلكون ومنهم أيضًا الطبقة العاملة .. وصاحب ذلك نمو كبير في مكانة وقوة التجار . خاصة تجار (البندقية) والمدن الإيطالية الذين كَوَّنوا ثروتهم بالتعامل مع العالم اليوناني والإسلامي والذين استعاروا منهم عقلياتهم ومناهج تفكيرهم .

وهؤلاء التجار الجدد كان لهم الفضل في انتشار (المدن) التي صار معظمها (دولاً) .. وتشكلت منهم الطبقة البرجوازية التي اضطرت طبقة النبلاء ورجال الكنيسة التي كان موقفها منهم في البداية حازماً (فالتاجر لا ينال رضى الله - إلا بصعوبة) .

ولكن بعد قرنين من التوسع التجاري ظهرت في المدن حرف جديدة . خرج بها العمل من دوائر الفلاحة . وأدرجت الكنيسة التاجر في زمرة العاملين الذين يصدق عليهم الحكم الإلهي المنصوص عليه في سفر التكوين (تكتسب عيشك بعرق جبينك) ولكن وعاظها ظلوا يتوعدون أصحاب الأموال والسيارفة باعتبار أرباحهم ريباً , وأنهم (بييعون ما لا وجود له ! ) (وسوف تعادل كمية الأموال التي يربحونها كمية الأخشاب التي توقد في الجحيم لحرقهم) !.. ولكن من يعطي الفقراء إن لم يعطهم الأغنياء ؟ ولذا صارت أعمال البر فدية لتطهير الريح .. فليعط التجار للإخوة الرهبان - خاصة الفرنسيسكان - ما يعينهم على فتح دور الله وتكريس مواهب أعظم فناني العصر لتجميلها بالرسوم والصور .

وأصبح الريح عطاء من الله .. إذ كل صفقة مجازفة .. وكل مجازفة هي بيد العناية الإلهية .. وصرح القديس (برنا) بأن توظيف الأموال يساهم في إصلاح نظام المجتمع !! إذ- إذا كان الإنسان لا يعيش بالخبز وحده , إلا أنه لا يعيش إلا به !!

وطبعاً لم يغفل رجال الأعمال الجدد عن إرضاء ضمائرهم , فأغدقوا على الكنيسة أموالاً .. كانت في أمس الحاجة لها في صراعها مع الأمراء ولم يتناسوا شراء أسهمهم في الجنة بالنص في وصاياهم على حصص تخصص للقسيسين لإقامة وإنشاء وإدارة مؤسسات المعونة والإحسان !!

وإذا كان رجال الأعمال قد سهل عليهم إرضاء ضمائرهم بحسابات ليوم الحساب , فقد تفاوتت علاقاتهم بطبقة النبلاء بين المزاحمة والإزاحة والاندماج .. وانتهت المزاحمة بالإزاحة دون عناء في مدن مثل (فلورنسا) اشتغل معظم نبلائها بالتجارة لكثرة مكاسبها . وتدهور الاقتصاد الريفي ذو النمط الإقطاعي . كما زحف العديد من نبلاء الريف إلى المدن وتكونت منهم ومن أثرياء التجار طبقة أرستقراطية جديدة . وحل الوئام بين هذه الطبقة الجديدة وبين الأرستقراطية القديمة محل الصراع .. الذي كان مداره في رفض التجار للمكوس والضرائب الباهظة التي كان النبلاء يعرضونها عليهم باعتبارهم من الشعب .

وتغير نمط الصراع الطبقي . وكان أحد محركاته أن طبقة التجار لم تعد تخشى النبلاء بقدر ما تخشى الطبقات الشعبية المكونة من الصناع وأصحاب الحرف التي صار كفاحهم يهدد استقرار هيمنتهم على التجارة الدولية والداخلية ويهدد معها قوتهم السياسية . ودارت مناقشات طويلة .. هامة لكنها حادة كانت تستدعي من المراقبين الكثير من التحذيرات كلما اقترب الحرس الطائف في الليل والذي كان في معظم الأحيان يروح في النوم .. وفوجئ الدكتور (لويس) بارتفاع الوعي لدى الذين كان يخشى حضورهم محاضراته , لأنه لا يفهمها إلا المثقفون .. ودخل في حوارات جادة مع بعضهم من النقابيين وتعرف إليهم وصار بعضهم له مريدين وأصدقاء ..

وظل الجدل قائماً لساعة متأخرة وخاصة عندما بدأ يشرح أفكار (لابويسيه) حول الديمقراطية والحرية والاستبداد , وحول فكرته عما يسميه (العبودية المختارة) وكانت أفكاراً مثيرة للتساؤل والجدل .. ولكن أمراً حزيناً صارماً أطفأ جذوة المناقشة لأن الفجر يقترب .. وعليهم أن يواجهوا في الغد يوماً صعباً آخر - ينذر به شروق الشمس .

طلب مني (عبده عباس) بشدة أن أكف عن نكأ الجراح , وألاً أحرك مشاعر الزملاء الذين من حقهم أن ينسوا ما جرى لهم في (أبو زعبل) وأن يعايشوا الظرف الإنساني الذي يعيشونه, وأن يتجهزوا نفسياً لجلسة المحاكمة حيث احتمالات لقاءات محتملة مع أهاليهم (قالها ضاحكاً) وأردف .. وأيضاً احتمالات الحكم بالبراءة أو حكماً مخففاً يتيح فرصة لاحتفال أجمل وهو الإفراج .. لأن عكس ذلك سيكون عودتهم إلى (الأوردي) .. وما في ذلك تعرضهم لحفل استقبال ثانٍ ليس له غير الاحتمال !.



واحترمت وجهة نظره وكبت رغبتي الملحة للتعرف على ما حدث .. وناولته قرص طعمية ساخن من بشائر القلية الأولى التي أحضرها لنا أحد زملاء المطبخ فدمعت عيناه عندما قضم منه بتلذذ أول قضة .

عاد الزملاء من المحكمة متأخرين مع أن الجلسة كما عرفت لم تستغرق وقتاً طويلاً . وحكمت المحكمة ببراءة الجميع لتناقض أقوال الشهود وعدم وجود أدلة على وجود الاتفاق الجنائي .

- وإيه اللي أخركم كده ؟
- أخذونا لمكتب المباحث ..
- عملتم إيه ؟
- أهه .. إحنا معاك أهه ؟ ما رضيناش نكتب .. فرجعونا ما عدا صاحبنا القاهري .. كان مرتب إنه يخرج .
- أفرجوا عنه !؟
- أيوه ..

\*\*\*

• خرج (عبد العظيم الريدي) .. وفي جهامة وجدية بارك لهم ثم قال : كنا نتمنى يفرج عنكم من عندنا لكن بقي ح تشرفوا سجن (المنصورة) لحد يوم الأربعاء .. أرجو أن تقضوا الأيام دي في هدوء زي اللي فاتوا . ياللا على زنازينكم .

مضيت معهم إلى العنبر محاولاً معرفة ما جرى , لكنهم جميعاً كانوا عازفين عن الكلام وكانوا مجهدين من الجدل مع رجال المباحث .. ودخل كل واحد إلى زنزانته عازفاً عن الكلام .. وقدرت رغبتهم في الاختلاء بأنفسهم وزودتهم بما تيسر من جرائد وكتب .. وقلت لنفسي أمانا وقت حتى يوم الأربعاء .. يوم الترحيل الروتيني في السجن لأعرف تفاصيل ما جرى .. الصباح رباح !.

قضينا ليلة صامتة .. حتى الجمل البسيطة التي أرسلتها إليهم حظيت بردود مبتسرة , ولكني طلبت من غفر الليل أن يلبي لهم أي طلب , ولكنهم لم يطلبوا شيئاً . (رجب الجن) وحده هو الذي حياهم أكثر من مرة بـ(عنبرة) خاصة تحيي شباب الحركة الوطنية بليدياته , أولاد المنصورة الشرفاء .. وتبشرهم بإفراج قريب !

لكن الصباح حمل لنا مفاجأة سخيفة , حتى إدارة السجن فوجئت بأن المباحث العامة أرسلت عربة مقفلة لترحيلهم على الفور إلى حيث جاءوا ؛ إلى معتقل (أوردي أبو زعبل) .. لم أتمكن من توديعهم كما يجب .. كانت فرقة الترحيل تستعجل الإجراءات . وكانت الحراسة مشددة أمام السجن وانهمكوا في حزن في تجميع أشيائهم ؛ إذ كانوا قد روضوا أنفسهم على البقاء في هذا (السجن المفتوح) كما قال لي (عبد عباس) .. ولكنهم راضون عن أنفسهم لأنهم يعودون إلى المعتقل بشرف , ومرفوعي الرؤوس ولم يتركوا المباحث تنتصر عليهم وكانوا يعلمون منذ البداية أن سابعهم كان يجهز نفسه لما حدث , لكنه دفع ثمن عدم عودته إلى (الأوردي) من كرامته ورجولته فقد كان منهاراً أمام تهديدات وإغراءات المباحث .. مما جعلهم يعمدون لإظهار ثبات موقفهم بمزيد من إظهار اللامبالاة .. بل والإصرار على التحدي ..

كنت أودعهم والدموع تكاد تطفر من عيوني . وأنا أرى محاولتهم تشجيعي وافتعال المرح والسخرية مبالغاً مشكورة لتقادي التفكير فيما ينتظرهم .. وهم الذين سيحظون دون الجميع بحظوة احتمال حفل الاستقبال على بوابة (الأوردي).. مرتين !

ومرت عدة أيام طويلة وثقيلة الظل , انتابني شعور بالفقد مثل ما حدث لي عقب ترحيل (الزملاء الإخوان) وقضيت يومها قلقاً بشدة عما يكون قد حدث لهم في (التشريفة) التي كانت في انتظارهم للمرة الثانية . وكانت تنتابني كوابيس شنيعة إذ كنت أقضي وقتاً طويلاً أتخيل سيناريوهات عديدة لما حدث لهم - وأتمنى أن تصلني إشارة ولو من السماء تؤكد لي عبورهم صراط العذاب , والشارع الأخضر المنسوب أمام بوابة الجحيم الذي عادوا إليه ..

\*\*\*

• عدت أغرق نفسي في التمرينات الرياضية استعدادًا للمهرجان واللقاء مع فرق المعهد الديني وكان (الريدي) يعول عليه بشدة .. كما أنني انتابني هاجس بوجي من محاضرة الدكتور (لويس عوض) التي لخصها لي الزملاء عن ذلك المفكر والفيلسوف من القرن السادس عشر (لا بويسيه) فأخذت أبحث عنه في الكتب العديدة عن الثورة الفرنسية وكذلك في أعداد مجلة (العصور) ومجلة (المقتطف) وكتب الفلسفة .. وقرأت (فولتير) و(جان جاك روسو) في اعترافاته و(آلام فتر) . وجرني هذا إلى عالم (فيكتور هوجو) وتاريخ أوربا و(ألفريد دي موسيه) حتى نسيت (لابويسيه) نفسه ؛ إلى أن وجدت كتابًا عن إرهابات الثورة الفرنسية وجدت به مقالاً عن (لابويسيه) أورد فيه الكاتب مقتطفات من مقال له عن (العبودية المختارة) كان بالغ الأثر في الرد على أسئلة كثيرة لم أجد لها إجابات عند زملاء (أبي زعل) .. وفسرت لي كثيرًا من جوانب النفس البشرية حين تملكها شهوة التسلط والاستبداد .. أو حين تصيبها نكبة الخضوع والاستسلام للقهر والرضا بالمقسوم .. وردتني كثير من عباراته وأفكاره إلى مقدمة (ابن خلدون) ورؤيته الفذة لطبائع البشر والمجتمعات وأيضًا تفسيراته لقيام وسقوط الممالك .. كذلك إلى كتاب (طبائع الاستبداد) .

استهواني أن أسجل بعض مقتطفات أعجبتني ووجدت فيها إجابات على الأسئلة التي شغلني بها الأوردي :

(لست أبتغي شيئًا إلا أن أفهم كيف أمكن لهذا العدد من الناس ، من البلدان ، من المدن ، من الأمم أن يحتملوا أحيانًا طاغيًا واحدًا لا يملك من السلطان إلا ما أعطوه .. ولا من القدرة على الأذى إلا بقدر احتمالهم الأذى منه ، ولا كان يستطيع إنزال الشر بهم ، لولا إيثارهم الصبر عليه بدلاً من مواجهته) .

(إننا ندهش إذ نسمع قصص الشجاعة التي تملأ بها الحرية قلوب المدافعين عنها) .

(إن الشرارة تستفحل نارها وتعظم , كلما وجدت حطبًا زادت اشتعالاً ثم تخبو وحدها, دون أن نصب عليها الماء . يكفي ألا نلقي إليها بالحطب كأنها عدت ما تحرق , فتهلك نفسها وتمسي بلا قوة وليست نارًا .. كذلك الطغاة كلما نبهوا طمعوا . كلما دمروا وهدموا , كلما مؤنّاهم وخدمناهم زادوا جرأة واستقوا وزادوا إمعانًا في الفناء والدمار , فإن أمسكنا عن تموينهم ورجعنا عن طاعتهم صاروا بلا حرب ولا ضرب عرايا مكسورين , ويصبحون كفرع أخضر عدت جذوره الماء والغذاء فجف وذوى) .

(إنني أرى بعض الاختلاف بين الطغاة ولكني لا أجد اختياريًا بينهم ؛ لأن الطرق التي يستولون بها على زمام الحكم متعددة ولكن أسلوب الحكم لا يكاد يختلف , فمن انتخبهم الشعب يعاملونه كثور يجب ترويضه , والغزاة يعاملونه كأنه فريستهم أما الوارثون فيعاملونه كقطيع من العبيد امتلكوه امتلاكًا طبيعيًا) .

(إن الأحرار يتنافسون كل من أجل الجماعة , ومن أجل نفسه . وينتظرون جميعًا نصيبهم المشترك من ألم الانكسار أو فرحة الانتصار . أما المستعدون فهم عدا هذه الشجاعة في القتال يفتقدون الهمة في كل موقف . وتسقط قلوبهم وتخور وتقرر عن عظيم الأعمال . وهذا أمر يعلمه الطغاة جيدًا فهم ما أن يروا الناس في هذا المنعطف حتى يدفعوهم إلى المضىّ فيه حتى يزدادوا استعاجًا) .

(الشيء المحقق أنه ما من طاغية يظن أن السلطان قد استتب له إلا أن يبلغ تلك الغاية التي هي تصفية المأمورين من كل رجل ذي قيمة ما) .

(إن الأمر يصعب على التصديق للوهلة الأولى ولكنه الحق عينه : هم دومًا أربعة أو خمسة يبقون الطاغية في مكانه , أربعة أو خمسة يشدون له البلد كلها إلى مقود العبودية . في كل عهد كان ثمة أربعة أو خمسة تنصت لهم أذن الطاغية . يتقربون منه أو هو يقربهم إليه ليكونوا شركاء جرائمه وخلان ملذاته وقواد شهواته ومقاسميه فيما نهب . هؤلاء الستة يدرّبون رئيسهم على القسوة نحو المجتمع , لا بشروره وحدها ولكن بشروره وشروهم . هؤلاء الستة ينتفع في ظلهم ستمائة , يفسدهم الستة كما أفسدوا الطاغية , ثم هؤلاء الستمائة بذيلهم ستة آلاف تابع , يوكلون لهم مناصب الدولة ويهبونهم إما حكم الأقاليم وإما التصرف في الأموال , ليشرفوا على نهمهم وقساوتهم وليطيحوا بهم متى شاءوا ؛ تاركين إياهم يرتكبون من السيئات ما لا يجعل لهم

بقاء ؛ إلا في ظلهم ولا حماية لهم من القانون وعقوباته إلا عن طريقهم - وما أطول سلسلة الأتباع بعد ذلك ! .

(ويقول الأطباء أن جسدنا لا يفسد جزء منه إلا انجذبت أمزجته إلى هذا الجزء الفاسد دون غيره , كذلك ما أن يعلن ملك عن استبداده بالحكم إلا التف حوله كل سقط المملكة وحثالته . ولا أعني به حشد اللصوص والموصومين الذين لا يملكون لبلد نفعاً ولا ضرراً , بل أولئك الذين يدفعهم طموح حارق ونهم شديد , يلتفون حوله ويعضدونه لينالوا نصيبهم من الغنيمة وليصيروا هم أنفسهم طغاة صغار في ظل الطاغية الكبير) .

(إن الشعب لا يتهم الطاغية أبداً بما يقاسيه . إنما يوجه الاتهام طواعية إلى من سيطروا عليه : هؤلاء تعرفهم الشعوب . ويعرفهم العالم أجمع حتى الفلاحون والأجراء يعرفونهم ويصبون عليهم ألف لعنة وألف سبة . كل أدعيتهم وأمانيم تتجه ضدهم وكل ما يلحق بهم من بلايا وأوبئة ومجاعات يقع اللوم فيها عليهم .. هذا هو الشرف والمجد اللذان ينالونه جزاء على جرائمهم) .

أضفت هذه المقتطفات إلى غيرها مما بدأت أدونه من اقتباسات ظننت أنها ستفنعني , بعد أن توفر لي الورق والأقلام , وكذلك إلى ما ألفته من قصائد كنت أسجلها بالمسماز على الحائط .. أو على كرتون علب السجائر ومغلفاتها البيضاء .. على أمل أن أطلقها إلى الحرية في أي مناسبة تتاح مع أحد المفرج عنهم أو بتسريبها في أي زيارة دون أن أقلق اطمئنان إدارة السجن إلى التزامي بالأصول !!

وكانت قد تجمعت لدي ثروة هائلة من هذه المقتطفات التي ظننت بتدوينها أنني أحتفظ بها للمستقبل ؛ لأن ملكة الحفظ عندي بليدة , وكان تنوعها يملأني فخراً أنني لم أضع فرصة أتحت لي لأجعل من زمن السجن قوة معي لا عليّ !..

كان بينها ما أخذته عن (سيد قطب) ومعها ما خطف عقلي من كتابات (خالد محمد خالد) و(سلامة موسى) , وما تبنيته من آراء (طه حسين) في الفتنة الكبرى بجزئيه وما أخذته من عبقریات (العقاد) وسيرة (ابن هشام) و(حياة محمد) و(فجر وضحي الإسلام) وقصص العرب و(كليلة ودمنة) و(رسالة الغفران) و(جحيم دانتي) وكتابات (دي لابويسيه) وآرائه في الحرية والعبودية . سحرني ما قرأته عن الثورة الفرنسية و(مارتن لوتر) و(كالفن) و(دي موسيه) و(هوجو) و(روسو) وحقبة عودة الملكية والنضال ضد (لويس فيليب) و(نابليون) وغزواته ونزواته .. وأضفت ذلك كله لقصائدي وأشعاري ..

لم يكن هناك خوف من مصادرة كل ذلك لأن الأوراق والأقلام والكتب لم تعد ممنوعة بل متاحة لأقصى درجة , لكن بذرة خوف كانت تعلقني . فأنت مهما كانت حرية حركتك في السجن مقيد الحرية . وحين يغلق عليك باب الزنزانة تراك كمن لا يصدق أن الفراغ ضاق حوله ولا يريد أن يتحملة فيضيق صدرك وتقضي مدة في الذهاب والمجيء والالتفاف حول نفسك في هذا الحيز الضيق .. فتنط بلا غاية متعلقاً في حديد شراعة الباب , أو في رحم الشباك يلا ضرورة حتمية ولا غرض إلا رفض الاستسلام لضغط ذلك الباب المغلق على مراوح صدرك . وتنمو بذرة الخوف على أوراقك فتتغفن في إخفائها .. في زوايا وسرايب البرش والحوض والجرادل .. لكن عندما أصبح وجودي في المكتبة يومياً وتحتررت حركتي ما بين فضاءات السجن ابتكرت مخابئ لأوراقى الثمينة تلك والتي عولت عليها أن تكون جزءاً من اجتهاداتي المستقبلية بتكثيفها وتركيزها الذي يمكن أن يغيب حتى عن قراءة تلك الكتب قراءة عادية ..

ولم أكن أريد أن أخرجها مع أحد من زواري حتى لا يحدث خطأ في صدفة تفتيش حمقاء فأهد ما بنيته من ثقة لدى (الريدي) الذي يطمئن من ناحيتي ، فأنا عنده مثالي في الالتزام بظروف ولوائح السجن .. ولكن حلمي أن كنز قراءاتي هذه سوف يكون أساساً كي أصبح كاتباً عميق الفكر تبدد كضباب صباح صيفي على يد الواد (حنيدق) !!

وكان لصاً قروياً من قريتي وقريباً لي من بعيد . لطّشت معه الدنيا مع أنه كان متفوقاً في المدرسة الإلزامية بشهادة أبي الذي حكى عنه كثيراً عندما أخبرته بوجوده في السجن فأوصاني به . كان (حنيدق) في سني تقريباً ولكن الكوليرا قضت على عائلته ما عداه هو وأمه النصف كسيحة وكانت تجلس على ناصية حارتهم تبيع ما تلتقطه من أعشاب الأرض كالجعضيض والسريس والرجلة والملوخية وغيرها .. وتزود بها بعض البيوت المستورة لغير الفلاحين والتي لا يخرج نساؤها حتى لجلب الماء من التربة ..

ترك (حنيدق) المدرسة كغيره وانطلق يحاول إعالة أمه وجبر خاطرها ووسطها المكسور فاشتغل كل شيء , كلاًفاً وصبي نجار وصبي حداد وعامل تراحيل يصاحب الأفواج التي تخرج من عزبة العجر والحواري الجوانية إلى تطهير الترع في موسم التحاريق .. أو لشتل الأرز أو جمع القطن وحتى لبعض عمليات البناء حسب التساهيل , وأخيراً وبعد تلطيم دائم وراء قروش لا تسد رمقاً ولا تجبر خاطرًا قرر احتراف السرقة وبدأ على خفيف من الحقول ثم بدأ يتقن في السطو على مخازن الغلال عند البيوت المستورة التي كانت في رأيه تشبع أكثر من اللازم .. وكان يخص البخلاء منهم باهتمام أكبر ..

ولكنه لم يسرق فقيراً أبداً . وأكد لي أنه أحياناً كان يترك ما استطاع الوصول إليه في بعض البيوت عندما يكتشف أن ما سيسرقه هو الذي سيحفظ لمن يسرقهم رمقهم الأخير !!

وعرف الناس كلهم في القرية أن (حنيدق) هو الفاعل في كل السرقات التي لا يضبط بطلها , والتي يسجن بسببها معظم غفر (ميت سلسيل) . وكان العرف أن يحبس الغفير الذي تتم سرقة في دركه إذا ما أبلغ عنها المسروقون وصار فيها محضر وتحقيق , وكان كثير من هؤلاء الغفر يرسلون إلى سجن (المنصورة) عندما تصل جزاءاتهم إلى شهر بعد تكرار استغفالههم أو إهمالهم .. وكلهم كان يخمن أن (حنيدق) هو الفاعل ولا أحد غيره مع أن في القرية لصوفاً آخرين محترفين ولهم سوابق .. ولذا كان بعضهم يتحرش به انتقاماً ويسوقه لمنجرة العمدة متهمًا إياه دون أي دليل .. لكن هذا لم يكن يمنع من (أكله) علة ساخنة تبرد نار الغفر بين حين وآخر .. وكان فشل الغفر في الإمساك به يروى كنكتة دائمة في سهرات القهاوي وجلسات المصاطب سواء في علو أو واطي البلد .

وكثيراً ما كان بعض الغفر يلتقون به في السجن , لكنه كان هنا صاحب أقدمية وليس (كاركياً) مثلهم فلم يكن في إمكانهم سوى الامتنان له لما يقدمه لهم من خدمات فور تعرفه عليهم - يا حمار .. أنا هنا في السجن ما تدور على مين اللي علم عليك المرة دي .. هو انا الحبيطة المائلة بتاعتكم يا اولاد الكلب .

وكانوا يقرون وجهة نظره ويسلمون له قيادهم خاصة عندما كان يدبر لهم طعاماً إضافياً أو سجاير . وكان قريه مني قد مكّنه من بعض الحركة في العنبر مستغلاً نكاهه في جمع كثير من الثمار .

المهم أنه ظل مستغلاً نكاهه هذا في ممارسة نشاطه في القرية تلاحقه سمعته دون أن يتمكن أحد من الإمساك به أو إثبات اتهامه له .. حتى أوقعه حظه النكد فقبض عليه متلبساً دون أي جهد من أحد , داخل مخزن عامر لأحد كبار أثرياء البلد ليلة موته المفاجئ . كان حنيدق قد سطا على هذا المخزن عدة مرات من قبل بالتعاون مع أحد ظرفاء القرية الذي يتخذ من السرقة نشاطاً ثانوياً في أوقات فراغه أو حين تضيق به الحال ؛ إذ كانت زوجته لا ترضى له أن يضاجعها إلا إذا دفع الثمن .. وفي تلك الليلة سبقه (حنيدق) إلى المخزن على أن يلحق به ويصفر له صفارة اتفقا عليها .. وطال انتظار (حنيدق) وكان قد أتى مبكراً فور أن لاحت له الفرصة .. كان مرهقاً .. فنام .. وبدلاً من أن يسمع صفارة رفيقة حاصره صراخ نساء البلدة كلها حزناً على وفاة الرجل . وكثرت حول المخزن أرجل أتباعه لترتيب إجراءات الجنازة الكبيرة والعزاء . وأسقط في يد (حنيدق). عندما اكتشفوا وجوده في المخزن مختبئاً بين زكائب الحبوب .. فأوسعوه ضرباً تنفيثاً عن غيظهم منه وبجحة عدم احترامه لملاك الموت ولمكانة الرجل العظيم الميت على الأرض وفي السماء ..



وقدم للمحاكمة تسبقه إلى المحكمة سمعته وسوابقه التي أظن في ذكرها الشهود فحكم عليه بسنة كاملة بعد سنة كاملة قضاها (كعب داير) في كافة أنحاء الجمهورية , بحثًا عن جرائم وقضايا تأديبًا له وانتقامًا منه .

وكان موعد الإفراج عنه بثلاثة أرباع المدة . كان عفو نصف المدة الذي يصاحب عيد الثورة قد فاته مثل كل مزاياها للفقراء .. وفكرت أنه سيكون أنسب شخص لأخرج معه كنزي الفكري إلى الحرية . فهو يدين لي بالكثير وأنا أو من بذكائه ووفائه . وبالفعل رتبت كل شيء بحيث يلتقي بأحد إخوتي فور خروجه .. وبحرفية وتأنيٍ رتبنا الأوراق تحت حزام من القماش حول وسطه , بحيث صارت جزءًا من جسمه أو كجلده !

وخرج حنيدق في أمان .. لكن الكنز الثمين لم يصل إلى بيتنا وانتظرت أن يصلني الخبر عن وصول ثروتي الفكرية إلى مرساها ولكن الزيارة التالية لم تشف غليلي . وطبعًا .. أرهقني الشك في (حنيدق) وتصورت مسارات عدة لأوراقى .. أقربها أن يكون قد سلمها للمباحث بحثًا عن مكافأة .. أو أن يكون قد تردد في الاتصال بأخواتي خوف اتهامه وعودته للسجن عقابًا على فعلته ، خاصة مع كل ما يحيط بالربيع (الحرام) وتعليمات الحذر منه وما استقر في ذهنه رغمًا عنه من أفكار حول الشيوعية والشيوعيين , وما يمكن أن يكون قد وصل إليه من أخبار عما جرى معهم في معتقلات المحروسة .. حتى فوجئت به يومًا قد أتى لزيارتي مع أبي الذي سمع منه قصته فلم يصدقها وأصر على أن يحضره ليحكىها لي بنفسه ..

ولم أتمالك نفسي من الضحك تخفيًا عنه لما بكى , وهو يخبرني كيف استهيفه سوابق قسم ثاني المنصورة , عندما بات فيه انتظارًا لترحيله إلى (المنزلة) .. فسطوا على سجنه ونقوده .. التي حاول مستسلمًا أن يصرف بها نظرهم عما حول جسمه .. لكنهم (قلّبوه) عندما لاحظوا قلقه وتوتره الزائد .. نزعوا عنه ملابسه و(سلخوا) عن جلده أوراقى .. ! ولما فوجئوا بحقيقتها بعد أن ظنوا بجشع أنه يحمل ثروة باهظة , انتقموا لخيبة أملهم بتمزيقها وحرقها لصنع أدوار الشاي طول الليل , وهم يضربونه ويسخرون منه رغم بكائه الحار واستعطافهم طول الوقت أن يبقوا على شيء منها . كان بكاؤه وحرصه على إنقاذ أوراق لا قيمة لها ولا أحد يفهم ما بها , يزيدهم تماديًا في إيذاء مشاعره والسخرية منه بقسوة لدرجة أنهم لم يشركوه حتى في الشاي الذي زردوه وازدردوه على لهب أوراق طموحي الفكري المجهض !!

• عادت الحياة العادية للركن الحرام بعد سفر زملاء الأوردي فأسكن (ميخائيل) قريبه الرسام بجوار (الشرمبيلي) الذي ما لبث أن طلب منه نقله إلى زنزانه (40) رغبة في الاندماج في عمله , والبعد عن الآخرين ولكن (أبو العينين) الذي لا تستعصي عليه قلعة أصر على التقرب إليه سعيًا وراء معرفة قصته . وقد نجح في ذلك حتى أصبح يقضي معظم وقته معه ولم يعد (عزيز) ينفر منه كالآخرين .. بل وصارت علاقتهما الحميمة مثار همس وأقاويل الكثيرين حتى زملائنا .. وأيضًا رواد المكتبة وأعضاء فريق تنس الطاولة . وكان (عزيز) يتقن لعب تنس الطاولة بطريقة شبه احترافية مما رشحه ليكون أحد ممثلي السجن في المهرجان المرتقب .

(أبو العينين) له عينان ماكرتان . تخترقان أي محاولة تقتلها لإخفاء سر يعرف هو أو يخمن أنك تخفيه ؛ كأنما تصلحان لرجل مخابرات عنيد يستخرج بهما ما يخفيه ضحاياه من معلومات أو أسرار .

كانتا سلاحه مع كل عتاوله السجن من تجار مخدرات وزعماء عصابات كسر الكوالين والخزن ولصوص الشوارع .. لكنه كان من البراعة والذكاء في جعلهما وسيلته لاكتساب صداقة الجميع . تساندتهما طريقة ناعمة في الاقتحام والمناورة واكتساب الثقة ومنح الأمان وإثارة الخيال , وتبسيط المعقد , وتسهيل المستحيل وفرش مساحات المودة بنسيج ناعم من الكلام . جعلته صديقًا للجميع وموضع سر الجميع ومقصدًا لحل مشاكل الجميع .. وأيضًا في إمداده - وهو المقطوع المفلس - بكل ما يحتاجه من السجائر التي لا تفارق شفثيه وأيضًا بلذيذ الفاكهة والطعام والكيوف .

وأعتقد أنها كانت سلاحه فيما قام به من عمليات نصب ناجحة لم يوقع به العقاب عليها إلا لصدفة أو لحظ سيئ أو لوشاية .

و(أبو العينين) طريقة ساحرة في سرد حكاياته وقصص مغامراته أو استعراض معلوماته عن الناس والحياة . وهي شاسعة وعريضة وعميقة عمق البحار والمياه ومتنوعة وثرية كأعماق بحيرات الأساطير في أشعار الرومانسيين الغلاة ..

وأنا هنا أستعير عنه بعض التعابير ومنها ما قرأته أو سمعت عنه وفيها ما أن سمعته منه حتى استقر في ذاكرتي لا أنساه . فهذا الذي جعلني أحفظ قول (جوته) .. (عندما ظهر الإله الواحد خرست الأشجار والآبار والأنهار والجبال وينابيع المياه ؛ وصمتت عن الكلام !!)

حدثني عن طبقات الرجال المحرومين من النساء من الفقراء والمضروبين بالعشق والحنين فيلجأون إلى تفرغ طاقتهم الجامحة بطرق أرخص وأسهل من الممارسة الفعلية للجنس . ومنهم (المدقراطي) و(المقشاتي) و(الملمساتي) و(الملمساتي) ومنهم أيضًا (الموصلاتي) .! وكان النوع الأخير هو الذي عجزنا عن فهمه على الفور فطلبنا أن اشرح لنا يا سيدنا فقال :

(المدقراطي): هو الذي يحب الزحام ويبحث عن الطيات الناعمة والوديان العميقة ليدس فيها عضوه في سكون ولؤم واستغراق يجبر ضحيته على الصمت والاستسلام .. ويدفع المحترفة منهن على التماذي معه في التواطؤ والهيام ..

أما (المحسباتي) فهو العابر فوق وحول الأجسام من خلف ومن أمام .. قاصدًا الحركة الخفيفة الرقيقة من بطن كفه أن تنقل أحاسيسها إلى قمم المرتفعات وأعماق المنحدرات . وهو أيضًا قليل الكلام مريض بعشق الزحام ولكن في الأماكن المفتوحة حيث تتيح له الحركة التنقل المحكم بين الهضاب والوهاد والولائم لتتويع الانسجام .. وهو أرق من (المقشاتي) .. لأن الأخير لا يلبث إن أحس بالموافقة والتجاوب أن تصبح صوابه كلاليب أو أسنانًا تعض وتهبش في رقة واحتشام كل الأماكن الحرام ..

لكن (الملمساتي) فهو أبطأهم حركة , ولكن أوسعهم مجالاً فهو لا يطمع إلا في الملامسة الخفيفة العابرة أو الحائرة مع أي جزء أو مكان وبأي طرف أو عضو كان .. فإن حدث فهو مكتفٍ شبعان لا يطمع في نظرة أو كلمة من أي قاموس كان . صحنًا به .. زدنا يا ألعبان :

فأقعى صامتًا لتشويقنا وقال : يكفيكم هذا يا أبناء الأفاعي . سألته في حب استطلاع .. ومن هو (الموصلاتي) إذن !..

فقال : إذا كنت قرأت ثلاثية (ابن محفوظ) فلا بد أنك تعرف (ابن السيد عبد الجواد) من زوجته السابقة المزواج (ياسين) لكنه عند (ابن محفوظ) كائن افتراضي على الورق .. يدفعه الكاتب لاستكمال غزواته وإشباع نزواته .. لكن (الموصلاتي) الواقعي الذي نعرفه .. فهو يكتفي بملاحقة الأنثى قاطعًا الطريق وراءها , متأملًا حركة رفارها وأردافها خطوة خطوة في وله ؛ مطلقًا لخياله العنان . حتى تصل إلى دارها ليستدير على عقبه متابعًا غيرها بنفس الاندماج وإن على موجة أخرى (من الخيال وانشغال البال ..) .

كان أبو العينين محدثًا بليغًا في الشر وفي الخير وفي حب الله . لما سألته عن هذا الطريق الثالث .. قال هو الطريق الذي تلاحقوني فيه بأسئلتكم التي تدل على جهلكم ولا تبغون منها إلى قتل وقتكم .. أي في العبث واللاجدوى فلا أنتم معتقون أيًا من هذه السبل التي أحكي ولن تغلحوا لو حاولتم .. فما أنتم إلا نتاج ما عثتم وما ضيعتم !!

كان يتحدث لكل طائفة بقاموسها . فهو مع الهجامين هجام قراري ومع النشالين خفيف اليد ساحر البيان .. سألناه عن أنواع اللصوص .. لنطبق معارفه على الواقع , ونحن نطمع أن نكشفه على الأقل لأننا سألناه عما نعرفه .

- الهجام يا كالون الغباء .. هو لص البيوت والشقق وهو ليس لصًا دنيء الطوايا ولا هو من الغباء بحيث يدخل بيتًا في الليل وأهله نائمون كي يزعجهم أو يوقظهم أو يشتبك معهم أو يؤذيهم .. وهو خبير في تسلق المواسير .. ونميس في ضرب الأقفال والترابيس .. ولا يغريه حيث يجوس في المكان في خفة التعلبان إلا ما صغر حجمه وغلا ثمنه ولذا لا تكتشف فعلته إلا بعد مغادرته المكان بزمان .

هذه تخصصات يا (كويركية) .. فالهجام لا يعمل نشالاً وإن صادفته محفظة تقول له انشلني ينوبك صواب لا يفعلها ، كما أنه غير فاتح الخزن لا يصلح أن يكون هفًا أو نتاشًا . قلنا لماذا : ما كله حرام وكلها غنائم ..

قال : يا جهلاء .. (الهفاف) يسرق حبال الغسيل ويحتاج لخبرة في معرفة حصيلة ضربته بنظرة واحدة .. و(النتاش) لابد أن يكون جريئًا سريع الحركة من الخطوة لكي يرتب طريق الهروب تحت وقع صرخات من لهف منها الحقيبة أو السلة دون الوقوع في يد المطاردين المحتملين أو المؤكدين . يا قللات الذمة والدين ؛ إذ يجب أن يتنكر أو يتبخر في غمضة عين!

استطاع أبو العينين أن يخترق حاجز العزلة والصمت الذي غلف به (عزيز) عالمه بما له من خبرة وسحر في ترويض الناس واقتحام عوالمهم وانتزاع اعترافاتهم بقدرات نصّاب قدير (لا يعترف بهذا التعريف الذي يطلق على مرتكبي جرائمه وما شابهها .. والتي لا يعترف هو بداية بأنها جرائم) .. فمثله لا يسرق إلا من هم لصوص بالأساس .. ولا يستولي على مال إلا من الطماعين الذين يدفعهم جشعهم لتصور أنهم إنما يسلبونه هو ما يملك , والذي لا يكون في كل الأحوال إلا وهمًا .. أو حلمًا مغريًا أو مطمئًا براقًا .. فهو حين استولى في يوم واحد على ما بين مائة جنيه أو مائة وخمسين جنيهًا من كل محطة من محطات البنزين في (الشرقية) لم يفتح خزائنها ولم يتسلل إلى أدراج إيراداتها وإنما هو أخذها بكامل حرية أصحاب ومديري تلك المحطات وإرادتهم الحرة رغم تمنّعه وتعفّفه الطويل بل هم من ساعدوه على خداع بعضهم البعض .. ولم يكلفه ذلك كله إلا التأكد من صحة بعض الأخبار - ومعرفة بعض الأسماء - مع بعض تحريات سريعة عن بعض أحوال بعضهم أو ظروفهم ..

فنقل مفتش شركة البترول التي تمدهم بالمواد من بنزين وسولار وغيرها ومعرفة بعض سلوكياته ومعرفة اسم وظروف صاحب أول محطة كانت كافية لأن يفتحها بصفته المفتش الجديد بعد مكاملة مزيفة لمديرها .. حول طباع وصفات ذلك المفتش .

ولأن كل أصحاب ومديري المحطات يرتكبون بالتأكد مخالفات مختلفة وبدرجات متفاوتة بين الغش التجاري أو التزوير في الفواتير وفي الكميات أو حتى التهرب من الضرائب أو خلط البنزين أو الجاز بالماء على خفيف وغيرها .. كل ذلك عادة ما يكون كافيًا مع ما يصنعه من خطة لظهوره ونظام لحركته وتصرفه بما يضمن استقباله بما يليق من خوف واحترام ويضمن توديعه بكل الاحترام أيضًا مع ما تيسر من إكرامية تتوقف عادة على مدى تورط مدير أو صاحب المحطة في مخالفات أو أخطاء يحاول إخفاءها .. وأيضًا على درجة كرمه ومدى مكاسبه مشروعة أو غير مشروعة ..

ويسرع (أبوالعينين) بعدها إلى المحطة التالية وهو متأكد أن اتصالاً هاتفيًا من المحطة التي غادرها يمهدها له ويسهل مهمته فيها . وبذلك غزا في يوم واحد أكثر من عشرين محطة بنزين على خط واحد .. وبنفس الخطة جمع غنائمه ولم يترك أي أثر يدل عليه غير حسرة كل مدير محطة أو صاحبها على خيبته وخسارته . عندما وصل المفتش الحقيقي بعدها بأيام ، أخفى كل واحد منهم ما جرى معه .. ولكن القصة انتشرت وكانت نكتة كبيرة أشعل افتضاحها لهب الغيظ في قلوب أصحاب محطات البنزين ..

لذا لم يكن ممكنًا أن يفشل في اقتحام قلعة (عزيز) فيصل إلى الحكاية التي تتبأ بأنها وراءه منذ اليوم الأول الذي قدم فيه الطابط (ميخائيل) قريبه الخجول إلينا ورد فعله ونفوره من ترحيبنا به ..

- من أول نظرة يا أستاذ ، أنا مش بالعب . واحد حليوة ونعّة زيه وفنان وقبطي .. وله قرابب ظباط .. إيه اللي عمله عشان ياخذ حكم هروب مشدد - سنتين ورفرت .. لازم وراه حدوتة . وأخوك يموت في الحواديت والدراما .. فعملته شغلتي لحد ما عرفت قصته .. ما انت عارفني (وشد نفس عميق من السجارة التي مد يده وسحبها من عليتي) واستطرد :

- الواد الحلو اللي زي ده ابن موت .. لكن حظه النكد ما نؤلهوش الشرف .. ده .. واد يتحب واد حبيب .. لكن حظه النكد كان راسم خط حب منيل .. حاجة درامية .. و تراجيدية .. كان لازم يبقى بطل قصة غرامية فذة .. زي (بول وفرجينى) زي (بلياس وملسندا) .. زي (روميو وجوليت) زي (حسن ونعيمة) بالضبط قصة (عزيز وياسمينة) شوف حتى إسمها لايق لكن لحظه التعس إنها مسلمة - هوّ قبطي وهيّ مسلمة يعني لو كان بالعكس كانت مشيت .. لكن حظه الاسود ربط بينه وبينها .. وكانت أخت لظابط كبير قوي .. لأ وخطبها ظابط أكبر منه

وصاحبه .. البت كانت بتموت في (عزيز) .. لأنه والحق حق وأنا صاحبك .. واد يتحب إذا كنت أنا ذات نفسي وقعت في غرامه ..

- أبو العينين ؟ وبعدين !!

- لأ .. لأ .. سيبك م اللي في دماغك .. لسه ما حبيناش بعض قوي كده .. انت برضه تعرف عني الداء ده ؟! لسه !

- أنا عايز أعرف اللي حصل ما تلفش وتدور .. هي عملت إيه لما اتخطبت لغيره ؟

- مغلوبة على أمرها .. صحيح همه كانوا جيران , والعيلتين مخلوطين على بعض .. عادي .. الكبار فاكرين ان كل ده مش اكثر من لعب عيال .. ومش باين .. الواد والبنت اللي الهوى شبكهم كانوا في غاية البراءة .. ولا يمكن حد يفكر ان بينهم أيتها حاجة جد . لحد يوم كتب الكتاب .. الكل فوجئ بهرب البنت . راحت له تطلب منه أن يتزوجها قبل فوات الأوان .. والواد أسقط في يده , اترعب واتشل تفكيره فأخذ يعقلها ويشرح لها تعقيدات الموقف .. الدينية والاجتماعية والاقتصادية .. لكن هي ركبت دماغها .. وهات يا عياط . (أم الواد) عرفت الموقف شقت هدومها ووقعت من طولها .. وخذت البنت .. ورجعتها لأمها اللي كانت قالبة عليها الدنيا . الأخ الظابط اتجنن وراح على بيت الواد .. وعينك ما تشوف الا النور وشوف انت أفكاره عن موقفه قدام زمايله وجيرانه ح يقولوا عليه إيه ؟ .. لما أخته تهرب لولد قبطي؟ فيه حاجة كده ؟! قول لي فيه ؟! عمره وحياته مش ح تكفيه فصم يخليه عبرة ..

الواد قبضوا عليه بتهمة التهرب من الجهادية .. ولقى نفسه في التجنيد خبط لزق .. ومتوصي عليه .. وانت عارف .. التوصية تبقى إيه ؟ ..

وقبل ما يتوزع .. كان ممسوك تحري .. وبرضه متوصي عليه . ما راحش الشرطة العسكرية إلا بعد ما بلوك أمين المباحث في القسم لفه كعب داير ع العشرين محافظة من غير ما حد يعرف عنه حاجة . وحظه .. النكد لاسود .. لأ المرّة دي حظه الكويس إن ما لقيوش اسم مشابه يكون عليه إعدام ، تأبيدة يلبسوهاله .. فرجع لكن إيه ؟ مستوي .. وأول ما رجع المعسكر كانت التوصية المرة دي من (عريسها) اللي كان رتبته أكبر من أخوها .. فاتفقت له تهمة ميري . وهوب لقي نفسه في (السجن الحربي) خبط لزق مع توصيات الظباط اللي بنتفصل ع المقاس .. في السجن الحربي بقى طلوعوا النجيل الاخضر على عينيه .. وما اقدرش اكمل .. لأن دي منطقة عسكرية .. وأنا بقى ما اقدرش أفشي الأسرار العسكرية .. دا مش من أخلاقي ..

- ما تبطل سخافة وقول إيه اللي حصل له ؟

- اللي حصل له ما كانش على باله . وكان أحسن له لو عدم خاله ..

- بطل بواخة يا ابو العينين وقول ..

- أصل اللي جرى ما يتقالش .. لأن ف جحيم (السجن الحربي) وخصوصًا للعساكر المتهمين , ما فيش خلاص .. الضرب والتعذيب طول الوقت .. والعسكري منهم يتمنى الموت كل لحظة .. ودي عايضة قلب بارد عشان يقدر يحكي تفاصيلها .. هو من حظه اللي مش عارف كويس ولا منيل .. إن شاويش نافذ ومتحكم , وسلطة , في الحربي وقع في غرامه .. فكان عشان يرحمه من الكرابيج والضرب والإهانة والجوع .. كان!! ماليش دعوة!! يا عم ما تخرجنيش بقي .. خمنها .. خمنها.. بقي .. أمال هو حالته النفسية اتدهورت ليه?.. واد حساس .. اتمزع يا عيني .

- بتسخر يا (ابو العينين).. دي مأساة .. فنان زي ده رقيق ومثقف .. وكل ذنبه إنه حب غلط .. يعني لا كان عايز يقلب نظام الحكم ولا كان ناوي يخون الجيرة ولا يخرج على الدين ورجع البنت لأهلها - يتسلط عليه كل جبروت الدولة كده .. تتدمر حياته وشخصيته .. وطبعًا كان لازم يحاول ينتحر .. ويكره الناس والحياة .

- يا عم أنا روحي فداه ..  
- إسمع يا (أبو العينين) .. إوعى تكون حاولت تهينه .. و ..  
- يا عم انا حبيته بجد ..  
- ما هي دي المصيبة ممكن يبدأ اندماجه وسطينا ورجوعه للرسم وسيلة لاستعادة كرامته وشخصيته ..  
- وانا عملت إيه ؟ .. دانا والله بحبه عذري لحد الوقتي .  
ولم أترك (أبو العينين) إلا بعد أن أقسم وتعهد ألا يحاول إهانته أو كشف ستره ..  
- وهو اللي قال لك على العسكري ده كده بالمفتشر ..  
- لأ طبعًا .. أنا اللي خمنت .. يعني ح تستكتر عليّ يا أستاذ إني أفهمها من .. طريقة كلامه .. ونظراته وتعبيرات وشه خصوصًا لما وصل للنقطة دي .. تخلي الغبي يفهم .. لكن وحياتك عندي .. الموضوع كله كان عشان أثبت لك , إنه وراه حكاية .. كان اختبار لذكائي اللي انت ما بتتكروش واحلف لك بشرفي انه مش ح يزيد عن كده .. يا عم هو أنا ناقص !!

- بشرفك !؟

- بشرفي !

وصدفته . كانت نبراته وخلجاته ونظراته تؤكد لي صدقه !

بيدو أن (عزيز) كان في حاجة أن يزيح عن صدره وأن يجد من (يفضفض) له . ويفض عن روحه ثقل السر الذي يخفيه ووجد في (أبو العينين) شخصًا يثق فيه .. لأنني لاحظت أنه صار

أكثر اندماجًا في مناقشات المكتبة شيئًا فشيئًا وصار لا يجد صعوبة في التعرف على أصدقاء جدد .. بل وصار لا يخجل من الاختلاف أو يهرب من الدفاع عن الخطأ .. واندمج في الرسم بطريقة أثارت إعجاب كل من رأى لوحاته . وكان في البداية يكتفي برسوم الطبيعة الصافية من زهور أو الطبيعة الحية من الخيال .. لكنه الآن بدأ يصور الحياة في السجن . عمال الفرن والورشة والمطبخ ويعطي للوحات لمسات حزن رقيق تعكس معاناة المساجين أو معاناته شخصيًا .. لكنه كان يبذل أكثر في رسم وجوه البشر , وإن كانت جرعة الحزن التي تتضح بها الملامح كانت تكشف بقوة بل وبقسوة عن معاناته الخفية !!

قبل المهرجان الرياضي ؛ وكنا منهمكين في الاستعداد له احتفلنا ببراءة (منتصر) من أول جلسة .. ركز المحامي على تقرير الطبيب الشرعي الذي أثبت أن الضحية لم تمت نتيجة أي طلقة من طلقات المدفع الرشاش الثلاثين والتي (استقرت كلها في جسد الحمار) .. وأن الرجل المجني عليه قتلته رصاصة بندقية لم يعثر عليها أبدًا .. أطلقها من أطلقها .. والذي ليس (منتصر) بالتأكيد الذي لم يكن يحمل سوى الرشاش .

كانت أم منتصر والتي كانت تلح عليه , وتطارده طول الوقت ليأخذ بثأر أبيه وهو يتملص ويتحجج , حتى بعد أن زوجته من حبيبة قلبه فائقة الحسن والجمال . ولم تكن تعلم أن حبها تملك منه وجعله أكثر حرصًا على الحياة . وكانت تظن أنها بتزويجه منها ترضيه وتخفيه ..

لكنها لم تياس وظلت كآلهة العذاب تتكد عليه عيشته فإن صادفته خارجًا من الحمام بعد ليلة انسجام , نكدت عليه . وإن خرج وهي جالسة أمام الدار تأكل كبدها .. شيعته بما يكسر نفسه , مذكرة إياه بأبيه , وبالخير الذي ينعم فيه والذي لا يستأهل شيئًا منه . وإذا رأته عائدًا للبيت يضحك أو يبتسم .. صرخت في وجهه مذكرة إياه بحسرتهم , ويتمهم من بعد قتل والده .. وأنه من العار أن تعرف ملامحه الابتسامة .. ولا أن تتذوق شفاته طعامًا أو شرابًا .. وأن عليه ألا تغمض عيونه ويحلو له نوم وهو يحمل عار مقتل أبيه صباح ومساء , و ليل ونهار , .. فطار وغداء وعشاء .. ونوم . حتى جاء اليوم الذي اندفعت إلى داخل البيت توقظه في غضب , وهي تشق هدمومها ؛ لأنه نائم بينما غريمه وقاتل والده يمضي مزهوًا راكبًا حماره إلى الحقل . متمتعًا بحياته بينما هو يتنكر لكل شرف ووفاء .. فقام وقد فاض به وتناول الرشاش من يدها ساخطًا وانطلق إلى الحقول خلف الرجل ..

ولم يخل عليها أمره وهو يصرخ فيها أنه سيريحها لأنه يريد أن يرتاح من نفها وكلامها المسموم وداخلها الشك أنه سيكمل المهمة فتناولت البندقية (المجهولة) وانطلقت وراءه .. وبينما هو في عجلة أفرغ رشاشه في جسد الحمار المسكين .. أطلقت هي في إصرار الطلقة الوحيدة التي لم يعرف مصدرها والتي أصابت الرجل في مقتل ..



واختفت البندقية ولم يُعثر لها على أثر .. ودفنت هي السر في صدرها وإن شفي غليلها ..  
وحصل ولدها على البراءة .. دون أن تقصد ..

احتقلنا (بمنتصر) الذي عاد إلى الحياة والذي تنتظره زوجة جميلة .. وإن كنت أشك أنه  
سيحصل على الراحة في صمت أمه الذي احتمت به لتخفي سرها الدفين فلم تعد تكلمه أو تكلم  
غيره ..

لكن خروج منتصر كان خسارة فادحة لفريق (الفولي بول) حيث كان خير من يسدد ضربة  
البداية التي لا تصد ولا ترد . وكنا نعتمد كثيرًا عليه في إحراز بعض النقاط رغم أنه ضيع  
الثلاثين طلقة دفعة واحدة في جسد الحمار .

بذل عزيز جهدًا فائقًا في تجميل وتزيين حوش السجن والملاعب , فقام بمساعدة أفراد (طلبة)  
بتخطيط ملعب الفولي .. وزين القاعة المجاورة للمكتبة وجهاز لوحات لجدرانها كما علق معها  
عدة أعداد من مجلة الحائط وزينها بأشرطة ملونة .

وكانت إدارة السجن قد طلبت منا بيانًا بما نحتاجه لكل ذلك من أدوات .. أحضروها كلها ..  
أوراق رسم وكرتون ودبابيس وألوان .. تحول كله بفضل (عزيز) وزملائنا إلى شيء مشرف  
وجميل إلى جوار معرض الصور .. كان هناك معرض لأهم الكتب الموجودة بالمكتبة .. وقام  
(عزيز) برسم عديد من الرسوم الكاريكاتيرية الضاحكة للمناسبة حيث المباريات ستكون سجالاً  
بين المساجين وبين طلبة المعهد الديني بزيهم المعروف ..

• صورة لطالب من المعهد يضرب كرة البداية أو (السيرف) ولكن بدلاً من الكرة كان  
يضرب عمامته !!

- وصورة لآخر يتلقى الكرة داخل عمامته وهو طائر يرفرف بأكمام وأطراف العباءة .
- وسجين يلعب تنس الطاولة بيديه معًا لأنهما مقيدتان بالقيد الحديدي .
- سجين يقفز إلى الشبكة بينما السلة التقليدية ذات الكرة الحديدية تشده للأرض .
- سجين يترك الكرة في عز احتدام المباراة .. لكي يحيي بالسلام الميري ظابطاً اقترب من  
الشبكة وهو يصرخ (تمام يا افندم) .

أضحكت تلك الرسوم مأمور السجن (الريدي) لكنه تحفظ عليها خوفاً من غضب المشايخ فقد  
لا يفهمون السخرية الفنية فيها . فأقنعناه بأنها ستمر وإن لم يحدث سنرفعها فوراً .. ونعتذر .  
وأمر أن تضاعف كميات الطعام والجراية لكل أعضاء الفرق وللمساجين الذين ساهموا في تجميل  
المكان حتى يوم المباراة ..

وعلق (عزيز) :

- ولو اتغلبنا .. لكم تجوعونا تأديب وتكدير .. حقنا !!

وضحك الجميع .. وكان أكثرهم ابتهاجًا الظابط (ميخائيل) الذي كنت أراقبه وهو يتابع سلوكيات (عزيز) مندهشًا مبهورًا . وهو يقترب مني ويهمس لي ..

- متشكرين يا شيعوي !!

وبادلتة الابتسام .. والفهم !!

انقضى يوم المهرجان الرياضي الثقافي . يومًا بطعم الحرية . فطلبة المعهد الديني ومدرسه ومشايخه اختلطوا بالمساجين ووزعوا عليهم الهدايا .. وكان السجانة بأوامر من الضباط في غاية الإنسانية واتخذ المساجين أماكنهم حول ملعب الفولي .. يشجعون زملاءهم بحماس بينما شجع عديد منهم فرقة المعهد عندما تعرفوا على بلديات لهم بين أفرادها من قراهم أو من أحبائهم .. وأعجب طلبة المعهد بالرسوم الضاحكة وبالمعرض .. وأيضًا بوليمة الغداء التي أقامها لهم المأمور , وشاركهم أعضاء الفرق الرياضية وعدد كلفني بتحديدهم من بين المساجين الرياضيين ورواد المكتبة .

كان يومًا جميلًا أثار عندي كثيرًا من الأسئلة وحرك لديّ العديد من المشاعر حول السلوك الإنساني للمكلفين بمهمة سلب الناس حرياتهم أو على الأقل منعهم من ممارستها تكفيرًا عن ذنوب أو جرائم ضد المجتمع؟! ولماذا يتحول بعضهم إلى وحوش آدمية؟  
لكنني استطعت تأجيل إلحاح هذه الخواطر حتى لا تقسد ذلك اليوم الذي لا يمكن أن يكون يومًا من أيام السجن على أي مستوى ..

صحيح أننا هُزمتنا في الفولي - ولكن بصعوبة - فقد كان فريقنا يفقد قوة (منتصر) أمام الشبكة كحائط صد .. وأيضًا قدرته على إرسال ضربات البداية التي لا تصد .. لكننا اسطعنا هزيمة (المعهد) في كافة مباريات تنس الطاولة سواء الفردية أو الزوجية وكنت أنا و(أبو العينين) و(عزيز) نشكل عصب فريق السجن وقوته الضاربة بالمضارب الصغيرة .

وبعد التمام .. وبعد توديع المساجين لطلبة وأساتذة المعهد في مشهد إنساني يفيض بالمشاعر والأحاسيس الإنسانية .. كان أكثر الناس سعادة هو (عبد العظيم الريدي) والظابط (ميخائيل) والأستاذ (عبد الجليل) .. وكان المأمور قد رتب عودة المساجين أولاً إلى العنبر , وإجراء تمام المساء قبل خروج الطلبة تحسبًا لأي خطأ قد ينتج عنه ما يدمر فكرة المهرجان من أساسها . الغريب أنه بعد إغلاق السجن ساد العنبر بل والعالم كله سكون وهدوء عميق ليس كما يحدث في الأيام العادية .

وتصورت ما قد يكون قد غمر المساجين من مشاعر . وتأكدت أن صمتهم هذا لم يكن إراديًا .. لأنه لا بد أن يملأ قلوبهم حنين جارف لشيء ما يحبونه ويفتقدونه بشدة . شيء إنساني ما .. نكرى أهل , أو أصدقاء , أو مكان , وتأكدت أن مشاعر الكثيرين قد فاضت بهم لحد البكاء لأنني شخصيًا بكيت !

وبعد فترة .. حلت محل ذلك الصمت الذي طال بشكل لافت وسادت روح هادئة من الضحكات والمرح والنداءات لتبادل الشاي والسجائر بل والزغاريد .. وكان أكثرهم مرحًا وسعادة أولئك الذين شاركوا في صنع تفاصيل ذلك اليوم .. لدرجة أن أعضاء الفرق وزعوا على الآخرين كل ما نالهم من جوائز ومن ترفيه وعلاوات من السجائر والحلويات .. وكنت أظن أنني وحدي الذي طلبت من حرس الليل توزيع نصيبي منها .

فوجئت بـ(عبد الله بولجانين) وكان غفير الليل الأول ليلتها في العنبر بيدي دهشته لأنني لم أكن الوحيد الذي طلب منه ذلك , يقول :

- إيه اللي حصل يا شيوعي ؟؟ .. إنت جندت السجن كله وأقنعتة بإعادة توزيع الثروة؟! بلشفتهم .؟ ثم إيه الحلويات والسجاير دي كلها ..؟

قلت له :

- ما هو للأسف انت ما حضرتش النهارده وشفنت بنفسك .. كنت شاركت ف يوم إنساني له طعم الحرية .

\*\*\*

• تخذلني الذاكرة في أحيان كثيرة ولكنها لا تخونني أبدًا . أذكر أننا رتبنا عدة مهرجانات رياضية وثقافية مثل ذلك المهرجان خلال عام (61) . بعضها كان ناجحًا لدرجة كبيرة , ولكن فرقنا هُزمت في بعضها الآخر لأن نظام الإفراج بنصف المدة مع أعياد الثورة كثيرًا ما أفقدنا أهم قوانا الضاربة في الفولي .. بالذات .. ولولا ثبات وجود (أبو العينين) و (عزيز) .. وأنا لكانت هزيمتنا بجلال في تنس الطاولة أيضًا .. ولكن الله سلم كما أذكر ..

وقد حدثت أحداث كثيرة خلال تلك الفترة لم يكن لها تأثير مباشر على الحياة في السجن , ولكن بعضها حرك مشاعري وأثار شجوني ؛ مثل حكاية (جاجارين) التي ملأتني فخرًا بانتصار الاشتراكية القريب وخفت كثيرًا من أحزاني . عندما قرأت عن زيارة (ناظم حكمت) إلى مصر .. وأنا عاجز أن أراه وهو أحد الملهمين الذين ملأتني أشعارهم حماسًا ودفعتني إلى التمادي إلى أقصى مدى , في الاندماج السياسي والانحياز إلى الفقراء والمقهورين بشكل فيه من المبالغة الكثير , والذي بلغ أقصى الحزن والغضب عندما وصلني خبر مقتل (شهدي) في إحدى حفلات الاستقبال (التشريفية) في (15) يونيو (60) على أبواب الأوردي , وبيد زبينة النظام ؛ مما ملأ قلبي حقدًا وغضبًا لم تستطع أن تخفف منه قرارات (يوليو 61) . ولم أكن قد قابلت (شهدي) سوى مرة واحدة في حياتي وكانت قبل أن أنضم إلى الحزب الشيوعي .. وكان نشاط مجموعة الطلبة في (ميت سلسيل) نشاطًا وطنيًا واجتماعيًا ملحوظًا ؛ لدرجة أن كثيرين لم يكونوا يصدقون أنه لا علاقة لنا بالتنظيمات الشيوعية , وأن اللجان التي أنشأناها واحدة تلو الأخرى , وتحت مسميات عديدة منذ تأميم القنال ليست بوزاع ولا تحريض من أي عنصر شيوعي .. طبعًا كان (حسين عبد ربه) مثقفًا على درجة عالية من الانحياز وكان تأثيره علينا كبيرًا , ولكنه لم يكن عضوًا في أي منظمة شيوعية طوال هذه الفترة التي امتد فيها نشاط الطلبة إلى كل المجالات فمن تجهيز تقديم مسرحية كل إجازة صيف , إلى تشكيل لجنة الإغاثة الوطنية لاستقبال وتسكين وتغذية جماعات المهاجرين من (بورسعيد) إلى البلدة حتى تنظيم أمورهم مع الدولة .. بجمع الطعام وتوزيعه وفتح المدارس لإيوائهم وتجهيز كشوف الأسماء انتظارًا لوصول مندوبي الإغاثة الحكوميين .. وساعد هذا كثيرًا في التخفيف من متاعبهم حتى عودتهم بعد انسحاب القوات من المدينة .

وكان هذا النشاط قد أظهر حاجة النادي إلى تمويل دائم لمواجهة أمور كانت إمكانياتنا تعجز عنها .. واكتشف (حسين عبد ربه) - وكان طالبًا بكلية الحقوق - أن قانون التعاون يؤكد أن النشاط الاجتماعي والرياضي له نصيب لا بأس به في أرباح الجمعية التعاونية الزراعية والتي كان لها أيضًا الدور الأساسي في توزيع المواد التموينية على أهالي القرية . وبذلك كانت تريح أرباحًا كبيرة ولكنها ولسنوات كثيرة منذ تكوين مجلس إدارتها الجديد ؛ مع نجاح الوفد في الانتخابات عام (50) وانتزاع الجمعية من (واطي البلد) وانتقال إدارتها إلى رجال (علو البلد) لم توزع أرباحًا أبدًا ولم تعقد أي جمعية عمومية توحد الله .

ولست بذكر ذلك أريد القص عنه ولكني أوردته لأدلل كيف كان المسؤولون ينظرون إلى هذا الحراك , والذي قاده لجنة (الوعي التعاوني) التي تشكلت من الطلبة وبعض شباب القرية من منطلقات اجتماعية وطنية بحتة فُتتَم بالشيعوية . ولم تكن شيوعيين بعد .. ويوم جمعنا القرية كلها على كلمة رجل واحد لكي نغير مجلس الجمعية .. أرسلت الحكومة رئيس الاتحاد التعاوني (محمد الجمال) بنفسه ليحاول تجنب أن يتم الانتخاب بناء على طلب أعضاء الجمعية لأول مرة في مصر ..

ولما رأى بنفسه احتشاد أهل القرية حولنا .. انتبذ بي مكانًا قصيًّا وهمس لي في ود مصنوع وأبوة زائفة :

- انت ف (حدثو) ولا في (الراية) ؟

ولم يصدقني طبعًا عندما أنكرت بشدة علاقة ما يذكره بنا .. ولم يكن أمامه بد من الخضوع لاحتشاد أهل البلد فأجرى الانتخابات على مضض . ولم أستطع يومها أن أفسر كراهيته لإجراء الانتخابات ؛ وكأنه سيرتكب إثمًا سيحاسب عليه . كنا في عام (58) ذلك العام الذي تفجر فيه الشعور الوطني الجارف بالوحدة بين مصر وسوريا .. ومقاومة حلف بغداد والتصدي لمشروع أيزنهاور والوقوف ضد غزو لبنان . كل ذلك لم يشفع عنده لقرية يتيمة أن تنتخب مجلس إدارة جمعيتها الزراعية انتخابًا حرًّا مباشرًا .. فظل يسعى طول الوقت لاستبدال المجلس بالتوافق أو بالتراضي تحت حجج ومبررات لا أنزل الله بها من سلطان .. ولما رضخ أخيرًا .. لإرادة الفلاحين والطلبة .. اضطر لإجراء الانتخابات . ووسط حماس كبير نجح المجلس الذي اختاره الناس . وخرجت البلدة كلها تهتف للأعضاء العشرة الجدد بفخر المنتصرين .. كان مذهولًا وغير مصدق بل أستطيع أن أقول إنه كان حزينًا مصدومًا وحين اقتربت منه أودعه قبل أن يستقل سيارته .. وضع ذراعه حول كتفي وجذبني إليه وهمس لي :

- بقى عايز تقول لى إن انت مش (حدثو) يا واد !!؟

وكدت أصرخ فيه يا عم ما اعرفش حد بالإسم ده ..

ولكني احترمت سنّه وقلت له هامسًا :

- كده .. وحياة اللي ماتوا ما أعرف حاجة اسمها كده ..

وهز رأسه للسائق أن يمضي .. وهو لا يصدقني !.. والحقيقة .. أنني تذكرت موقف (الجمال) هذا ساعة كنت أسمع أسماء الشركات والمؤسسات التي كان الراديو يذيعها مباشرة علينا . كنا قد توصلنا إلى اتفاق مع الإدارة .. أن تفتح الراديو في العنبر ساعة في الصباح وساعتين في المساء حتى نشرة أخبار الثامنة والنصف ؛ علاوة على حفلات الخميس من كل أسبوع .

وكلما كان المذيع يذكر شركة أو مصنعًا جرى تأميمه أخاف لأنه سوف يسلم طبعًا لأمثال (الجمال) الذين يكرهون حركة الجماهير بل ويحتقرونها ويكرهون الانتخابات أي انتخابات خاصة إذا كانت نتائجها لن تأتي على هواهم .. يومها تنبأت للقطاع العام - رغم فرحتي الجارفة بما يعنيه التأميم - بمستقبل أسود عندما - بالتأكيد- يتولى مسئوليته أمثال (الجمال) هذا .

بدأت أسماء بعض زملائنا تظهر في الصحف .. إذن لقد بدأت دفعات الإفراج عنا .. وحارت في النفس عشرات الأسئلة التي لا تجد إجابات . قرأت اسم (ألفريد فرج) و(لطفى الخولي) .. (ولويس عوض) وقرأت قصيدة (صلاح جاهين) .. غنوة برمهاة . وبكيت . فما هو (صلاح) يعتذر لساكني الصفيح .. اللي الدنيا كذب ف كذب وهمه صحيح . وكان بناء السد العالي يجري على قدم وساق .. في إطار موجة من الحماس الهادر .. لا تعني إلا شيئًا واحدًا .. هو أن مصر تتغير وتتحرر . ولكن الواحات مازالت تنن بأهات المنفيين .

ذات صباح صعد (عبد الله بولجانين) إليّ .. ووقف يسد الباب وقد ثنى كوعه الأيمن واستند به إلى الجدار .. وراح ينظر إليّ حتى انتبهت له . ونظرت إليه متسائلًا عما يريد , لكنه ظل سادرًا في وقفته الصامتة كعادته عندما يخفي شيئًا .. سألته :

- إيه يا (بو لجانين) ؟ خير ؟ مالك ؟

قال في مكر من لا يريد أن يصرح بما يعلمه :

- عملتوها ؟ ..

- مين ؟ إيه ؟ .. عملنا إيه ؟ ..

- قتلته !!

- إه .. مالك ؟ قتلنا مين يا ابني ؟ .. بتخرف بتقول إيه ؟
- وحياة أمي اللي ماتت بنت بنوت ما حد قتله غيركم .
- يا ابني ما تقسر كلامك .. وحياة أمك الغالية !
- (عبد اللطيف رشدي !!)
- أعوذ بالله .. إيه يا ابني اللي يخليك تصبحنا بالسيرة دي . ماله زفت ؟؟
- قتلته .. قول لي .. ح تخبي عليّه .. بقى دي تفوتكم ؟
- بجد اتكلم يا (عبد الله) .. فيه إيه ؟
- عايز تقول لي انك ما تعرفش إن (عبد اللطيف رشدي) اتقتل , وان انتو اللي قاتلينه..
- تتكلم جد ؟
- وانا من إمتى باهزر معاك يا شيوعي .

وحين تأكدت من مقتل السفاح راوغت (عبد الله) , وأخفيت فرحتي وكأني كنت أعرف من البداية لأوحي لعبد الله وكأني أعرف لأجعله يحتفظ بشكّه في أنه مات بأيدينا أو على الأقل بإيحاء منا . وألا أنكر ذلك ! إنه شرف لا أدعية وإن كنت من أعماقي أتمنى ألا يموت مثله إلا بأيدينا .

بدأت الأيام تمر ثقيلة بطيئة .. وبدأت أمل من حركة النشاط الزائد طول اليوم ما بين المكتبة والتدريبات مع متابعة أمور الدور الإدارية التي ألزمت نفسي بها حتى صار (عبد العال) يسلم الدور لـ(ياسين) وهو شاويش أجهل وأغبي . نُقل منذ فترة إلى (سجن المنصورة) عقوبة له على تورطه في تهريب نقود إلى أحد مساجين سجن القناطر , ثم يعود (ياسين) ليسلم الدور إلى (عبد العال) استنادًا لتفاني سكرتيرهما الشيوعي في إنجاز شئون الدور الإدارية المتشعبة !

صارت أيام السجن تسير في رتابة , إنك تتحرك في حرية تامة .. وفجأة تكتشف أن كل ذلك في حدود (السور المربع) الذي يرتفع عاليًا من الجهات الأربعة لا يسمح لك بلامسة الأفق .. كل الإثارة أصبحت تأتي من الخارج .. وأحسست أن مسار الأحداث المتسارع الذي كان سائدًا قبل (59) .. عاد ليصبح طابع الأحداث على مشارف (62) .. وأصبحت مرة أخرى أتلهف على قراءة الصحف والتنصت على ما يجري في الخارج .. حتى العائلة انتقلت إلى (المنصورة) هربًا من تهجمات البعض , واتهامهم حتى للأطفال بالشيوعية وتزوجت (أمال) في إحدى عزب الشرقية ولم تعد تجد الفرصة لزيارتي ..

وجود العائلة في المنصورة أتاح لهم علاقات جديدة .. الزميل (معين) ذهب إليهم وأخذ على عاتقه تدريس اللغة الإنجليزية لإخوتي .. وتعرف أبي على الأستاذ (عبد اللطيف الساعي) والد

(سعد) وقرر الرجل وضع العائلة تحت حمايته .. والتقت أمي مع أم (فؤاد حجازي) بعد أن دفعتها للتدخل في المشاكل التي انفجرت بينهم وبين (عبده عباس) زوج ابنتها من المباحث وساعدتها على اتخاذ قرار بتأجيل الطلاق الذي كانت المباحث تضغط به عليها لحين خروج (عبده) وعودة (فؤاد) .. فيكون حديث آخر .

قررت أن أخفف عن العائلة . فطلبت منهم ألا يزوروني أسبوعياً كما جرت العادة , وبما أن زيارتهم لي كانت تتم في مكتب نائب المأمور , ونبقى لأي مدة نريدها .. أقنعتهم بجعل الزيارة كل شهر . تخفيفاً من أعباء الزيارة الأسبوعية .

وخاصة أن ظروف في السجن صارت على أحسن ما يرام .. على أن يعوضوا ذلك بترتيب انتظام الجريدة اليومية . ولقي هذا استحساناً من والدي .

أصبح (عزيز) يحل محلي في المكتبة وفي متابعة الاستعارة وتنظيمها وقد أبلى بلاء حسناً واكتفيت أنا بمتابعة جلسات يوم الإثنين مع الأستاذ (عبد الجليل) . وأصبح (أبو العينين) مسئولاً عن فريق (تنس الطاولة) .. واكتفيت أنا بمتابعة فريق (الفولي) الذي لم يكن يكف عن فقدان عناصره بالإفراجات المختلفة , وأيضاً لندرة من يتحمس لهذه اللعبة , وصعوبة تجنيد محبين لها .

صرت أبقى في الزنزانة أغلب الوقت الذي أفضيه في القراءة وكأني في سباق مع الزمن؛ تحت إحساس ملحّ أن شيئاً ما سيحدث . إما أن أرحل أو أن أعلن بموعد جلسة المحاكمة أو في الغالب أن يتم الإفراج عني .. مع تسارع الأحداث في الخارج .. وما يثار حول مناقشات لجنة (المائة) .. ثم لجنة الميثاق .. إذ أصبحت الاشتراكية مطروحة على الساحة وهل هي اشتراكية عربية أم (صياغة عربية للاشتراكية) وتراجعت إلى حد بعيد نغمة العداة والكراهية المستفزة للشيعوية وللشيوعيين ..

حتى الخطاب الديني أصبح يستخدم مفردات اشتراكية وكثر الحديث عن (اشتراكية الإسلام) وعن (أبي ذر الغفاري) و(عمار بن ياسر) .. ولحنت لـ(بيرم التونسي) قصيدة (كان النبي والصحابة بيعدوا ع الأرض) . ووجدتني أكتب شعراً مليئاً بالتفاؤل الحر عن الفجر القادم , وعن آفاق المستقبل الذي سيحتضن لا مصر وحدها .. ولكن البلاد العربية كلها فما هي (الجزائر) تربط حريتها وحقوق الكادحين . ها هي شعوب (آسيا وإفريقيا) بل (أمريكا اللاتينية) بعد تحرر (كوبا) من طغيان (باتستا) .. تفتح ثغرة في (جدار) أمريكا الخلفي بمطارق لا (الاشتراكية) وحسب ولكن (الشيوعية) أيضاً .. وأصبح (ناصر والقاهرة) حديث وقبلة الشعوب شرقاً وغرباً .. وأصبحت الصداقة المصرية السوفيتية شعار الكل الأسهل والأعذب .



وقررت ألا أترك كتابًا في المكتبة قبل أن يفاجئني قرار ما يأخذني من هنا - دون قراءته .. وهكذا أصبحت أيامي مختلفة . طالت فترات اندماجي في القراءة .. وعاد (الربيع الحرام) ليصبح - خاصة في النصف الثاني من النهار - مزارًا للأصدقاء ومن بقي من الزملاء . صار لدي إحساس (فادح) مع حلول عام (62) بأن إقامتي أصبحت جد مؤقتة في سجن (المنصورة) .. ولك أن تتصور متعجبًا أن ذلك كان يثير في قلبي مشاعر حزن عميقة وأحيانًا رغبة في البكاء !!

\*\*\*

• كان الربيع الحرام باعتباره مسكن الخطرين من سياسيين وإعدام كان أيضًا مسكن الموغلين في الإجمام من قطاع طرق ورجال ليل وأفراد عصابات متعددة بعضها في البراري وما وراء (شربين وبلقاس) وأخرى في قرى (السنبلوين). وكلها تربي أعضاؤها وتلقوا تدريبهم من انتمائهم في عصر (فاروق) لعصابة (محمد أبو

إبراهيم) والتي كانت تروع الفلاحين وكافة سكان ما بين (بحر حادوس) و(بحيرة المنزلة) وأحراش براري (الحامول) لحساب عائلة (البدرأوي وسراج الدين) .. والتي نُسب إليها قتل (الكونت صعب) الذي كانت أراضيها تمتد حول (كفر سعد) وأجوارها .. حتى (جمصة) !.

ولما استولى الجيش على السلطة تاب (محمد أبو إبراهيم) وبنى قصرًا في قريته (فيلا !) رآها فلاحو (أشمون الزمان) قصرًا .. وتفرق أعضاء عصابته وعملوا لحساب آخرين , أو لحساب أنفسهم . يسرقون بهائم الأغنياء ويطلبون عنها (الهلوان) .. عن طريق سماسرة لهم .. كان كثيرون منهم ومن لف لفهم يمرون بسجن (المنصورة) بعضهم لأيام وآخرون لشهور إما لحضور تحقيقات عن جرائم قدمت عنها بلاغات حديثة أو جلسات عن جرائم قديمة ؛ تتلأأ كثيرًا في أروقة المحاكم وقد تصدر فيها أحكام بالبراءة أو السجن لكن أحدًا منهم لم يكن يخرج إلا بالضالين ؛ لأن أوامر الاعتقال تكون جاهزة تعوض عدم كفاية الأدلة .. وفي كل الأحوال كان (الربع الحرام) هو مستقرهم إلى جوارى في زنازينه الانفرادية .. وسمعة التحريم التي تحظر على المساجين العاديين التواجد فيه إلا لأغراض الخدمة السائرة والنظافة ..

جاورني كثيرون منهم لأيام مرور عابرة . فلم أتمكن من الاقتراب منهم كثيرًا . وفي حالات كثيرة كنت أتجنبهم لأن بعضهم لم يكن أليقًا .. يتبسط مع أحد .. بل يتعامل مع من يقترب منه في قسوة .. لا يطمئن لأحد .. ولا يثق في أحد ويقضي أيامه بيننا في غضب من كل شيء .. وكان السجناء خاصة الذين عاشوا حياة الليمانات وعاشروا كاسري الحجارة .. يتقنون التعامل معهم .. ويلبون كل طلباتهم حتى (الشاذة) منها باعتبار أنهم في رحلة للراحة ولاستثمار ما معهم من نقود أو من عملة السجن للتزود بما يحتاجه العيش في الليمان ..

صديقي (إبراهيم الضبع) خفيف العرج خفيف الروح والجسم والذي أصبح من بينهم صديقًا لي .. تمرد على (محمد أبو إبراهيم) وانفصل عن خدمة البشوات .. لأن أساليبه لم تعجب (الضبع) الذي كان يرى في الانحياز للبشوات وخدمتهم بترويع الفلاحين ندالة وقلة أصل , وتتناقض مع شرف أولاد الليل ..

كان (نصف فلاح نصف صياد) من قرية اسمها (الشبول) شرق مدينة (المنزلة) .. وقُبض عليه بمجرد أن انفصل عن (محمد إبراهيم) نتيجة لوشاية لكنه استطاع أن يثقب غرفة السلاح التي حُبس فيها بمركز (المنزلة) .. وأن يهرب بكل سلاح المركز . وانضم إليه العديد من رفاقه

السابقين .. وذاع صيته حول (بحيرة المنزلة) واستطاع في مدة قصيرة أن يكتسب تعاطف أهل المنطقة فتباروا في إخفائه وتضليل البوليس عنه ..

واشتهر الضبع بأنه قادر على التواجد في أكثر من مكان في وقت واحد فبينما تصل للبوليس معلومات أو شواهد على أنه عند عشيقته على (بحر حادوس) .. يكون منهمكاً في عملية سطو على شونة لـ(آل شلباية)!!

وتصل إلى البوليس إخبارية أنه يجهز لسطو على حظائر (أبو السعود السودة) فيحاصرها البوليس سرّاً للإيقاع به . يكون ليلتها نائماً في حضان امرأة أخرى وقع في حبها منذ أنقذها من زير نساء يعمل في شركة (فؤاد درويش) كان يعاشرها عندما يصل في العربة الوحيدة للشركة التي تمر على خط الشرقية ويتركها في بيتها المنعزل مستقلاً العربة العائدة في الصباح إلى (خط المطرية) .. ولم يكن يذهب إليها بانتظام .. وتصادف أن تعرف إليها (إبراهيم) في سوق (الجمالية) فبهره جمالها الفائق . وذهب إليها متودداً واستطاع أن يكتسب قلبها . ولما شكت له أن المفتش يعاملها بقسوة ويستولي على مالها ويضربها كلما زارها , جن جنونه حين شاهد آثار الضرب . كدمات وسحجات على أديم ظهرها .. فقرر أن ينتقم لها .. وانتظر المفتش ذات ليلة فأفزع وأوسع ضرباً .. ثم صلبه عارياً على عمود التليفونات . حتى جاءت العربة في الصباح فالتقطته ولم يعد للخط بعد ذلك .

وانتشرت قصة صلبه في المديرية وصار الأولاد والشبان الأشقياء يرسمون علامة (الصليب) عندما يقابلونه سخرية منه . كان (إبراهيم الضبع) شهماً عادلاً .. لم يسط على فقير أو يسرق محتاجاً .. وعنه قصص كثيرة متداولة .. عن إعادته جاموسة (عبده الزيني) التي سرقها للصوص فأجبرهم على إعادتها عندما عرف أن (عبده) رغم فقره الشديد يصر على تعليم أولاده الثلاثة في مدارس المركز , ويتحمل ما لا طاقة له به . ويوم أعاد له الجاموسة كان أولاده الثلاثة منكبين على طبلية خشبية في الحوش حول اللبنة نمرة خمسة يذاكرون وبكى (إبراهيم) والرجل يرفض أن يأخذ نقوداً عرضها عليه مع الجاموسة .. وهو يصر على ترديد جملة .. مستورة والحمد لله !!

عندما سمعت اسمه فيما بعد يتردد في فيلم (حياة أو موت) أثناء بحث البوليس عن (أحمد إبراهيم) صاحب الدواء السام , ضحكت فقد كان (إبراهيم الضبع) رغم التهويل من شأنه يعكس مدى تصور السينما لرجال الليل .. فهو إما غارق في الخمر , يا تايه في حضان النسوان , فزع مرعوب من خياله . فقلت لنفسى يا ليتهم شاهدوا (إبراهيم الضبع) الإنسان هذا .. وأحبوه مثلما أحببته كرجل كره خدمة البشوات وكرس حياته لمناهضة المفترين من المقترين والأغنياء ,

وحتى من اللصوص الجشعين الذين لا يختارون ضحاياهم حسب قوانين العدل الخارجة على القانون .

رجل الليل النبيل الثاني الذي انعقدت بيننا أوامر الصداقة عندما طالت جيرتنا وأنا منكب على القراءة .. هو المدعو (عبد العزيز الحريري) فلاح عملاق يجسد النماذج التي كان يرسمها (زهدي) للفلاحين عندما يهتف باسمهم تحيا الثورة .. وكان (الحريري) مثقفاً لم أره دون أن يكون معه كتاب حتى عندما يذهب إلى الحمام ليستحم فقد كانت عنده عادة القراءة حين قضاء الحاجة تلك العادة التي اكتسبتها أنا من خالي (فتوح) باش مفتش السكة الحديد وجه بحري . ولا أدري من أين ورثها (الحريري) .

كان الحريري مثيراً للدهشة , لكل ما يثيره من قضايا .. وكانت له رؤية نافذة . لم يرض عن الإصلاح الزراعي لأن تفتيت الأرض لا يخدم سوى الرأسمالية لتشجيعه الملكيات الصغيرة لتوسيع السوق الرأسمالي وكانت لديه نبوءة مؤكدة أن (السد العالي) سيكون وبالاً على الفلاح المصري حيث ستقل خصوبة الأرض وتتحول الترع لمصارف .. وكان يعترف أن من حق الفلاحين المؤكد الحصول على الكهرباء وأن يتمتعوا بمنجزات الحضارة الصناعية , ولكن ذلك لا يجب أن يكون على حساب ثقافتهم وطعم حياتهم الأقرب إلى حياة الطبيعة وحيث ينتجون ما يأكلون .

وكنت أجادله لأفهم منطقهم ولأتزود من زاده الذي لم يكتسبه من القراءة فحسب , ولكن من عراكه مع الحياة فعركته .. أعطيته يوماً كتاب (قصة الجنس البشري) الذي صدر عن دار الشعب حينها .. فسهر الليل كله عليه وجاءني في الصباح غاضباً لأنني لست صريحاً كفاية معه عندما يجرننا الحديث إلى ما وراء الطبيعة وقصة الخلق والرسالات وما إلى ذلك .. واتهمني بالنفاق فمثل هذا الكتاب البسيط يدحض الكثير من القصص الخرافي .. ولكنني كنت أشفق عليه من مواجهة الحقيقة العلمية الحاسمة فكنت أناوره وهو يسد علي المنافذ لأعترف .

كان عبد العزيز الحريري صبيّاً نابهاً يدرس في المدرسة الأولية . وكان أبوه المزارع يخطط أن يكمل تعليمه حتى لو كلفه ذلك قطعة الأرض الصغيرة التي لم تكن تكفي لسد جوعهم أو إعالتهم , فكان يزرع عدة أفدنة بطريقة المزارعة عند أحد البهوات الذين يملكون مئات الأفدنة المهرية من الإصلاح الزراعي بالتواطؤ والتزوير ..

وذات يوم ذهب إلى الحقل وهناك تصادف أن مشادة كانت محتدمة بين والده وبين البيك الذي كان يمتطي حصانه . ووجدته ينهال بالكرباج على رأس وجسم والده حتى وقع الوالد في القناة .. فاندفع الفتى غاضباً صارخاً وتناول ما طالته يده من حجارة وطين الأرض وهاجم البيك وأصابه ولوث ملابسه وهو يلعنه ويلعن أهله .

فإذا بعمه يسرع إليه ويحوطه بذراعه ويشل حركته , بل ويصفعه ويضربه ليمنعه من التماذي في قذف البيك بالطين والذي أصر على تأديب الولد بنفسه .. وتدخل كثيرون ليحولوا دون ذلك مستعطفين البيك حتى رضي وعاد مكتفياً بالصفعات التي انهال بها العم على وجه الصبي المتمرد . وبعد أن هدأ الجميع قال له عمه :

- يا ابني دول ناس يضربونا ما نعترضش . ويشتمونا ما نردش عليهم ولا نفتح بقنا ؛ لأن روحنا في أيديهم .  
لم يعد (الحريري) بعدها إلى البيت ولا إلى المدرسة ..

وجاءته فرصة الالتحاق بإحدى عصابات الليل في زمام (برج النور الحمص) والتي كانت منفصلة عن العصابة الأم نفسها عصابة (محمد أبو إبراهيم) .

وكان حنينه للمدرسة يدفعه إلى اقتناء الكتب بأي طريقة , ومن أي نوع . وشرقت به الليالي وغربت , لكنه أقسم ألا يعود إلى قريته إلا إذا كان في قدرته أن يضرب عائلة البيك والبيك نفسه ولا يجروء هو أو عائلته على الاحتجاج وأن يسبهم علناً وعلى رؤوس الأشهاد وفي عز الظهر , ولا يجروء هو أو عائلته أن يردوا عليه انتقاماً لكرامة أبيه وصفعات عمه .

ولما صارت له عصابته استطاع أن يعود لزمام (كفر النور) وأجبر البيك على تحقيق ما خرج متمرداً من أجله ؛ بعد أن طلع النجيل على جتته بما قام به من سطو وسرقة مواشي وخطف أعز أبنائه وحرق محاصيله وتدمير مخازنه حتى جاءه البيك مستغفراً مسترحماً نادماً على إهانة والده .. وعجز البوليس تماماً عن الإيقاع به أو إثبات أي تهمة عليه فاضطروا إلى اعتقاله .. وما أن دخل المعتقل حتى خرجت عليه القضايا المختلفة من أضايرها . ووجدت طريقها إلى المحاكم وكان في ذلك خير كثير . لأن الجلسات تتيح له عندما يحضرونه إلى (سجن المنصورة) أن يرى عائلته .. وأيضاً - كلام في شرك - أن يدير كذلك أعماله ؛ إذ يلتقي أيضاً برجاله ومريديه ..

كم كنت أتمنى أن أقابله في الحرية . كنت أتصور ذلك وأتخيل ماذا سيكون عليه حالنا , إذا كان مثل هذا ورجاله زملاء لمناقشة طويلة حول الصراع الطبقي . بدأت بتحليل موقفه من البيك ودوافع البيك , ومغزى الإهانة التي تلقاها والده . وتطرق حديثنا إلى تطور الثورات منذ ثورة العبيد حتى انتصار (ثورة أكتوبر) وكنت خلال المناقشة أستعيد فصاحتي القديمة عندما كنت أندمج فيها مع فلاحين وحرفيين ونجارين وسواقين , وأستعيد لياقتي النظرية . وكان يستمع بهدوء تام .. ويستوعب ويؤكد كلامي بأحداث ومشاهد وقصص واقعية .. لكنه كان في النهاية يفحمني بقوله :

- الثورة أيوه محتاجة لكل الكلام ده , لكن انتم ما بتعملوش حاجة غير الكلام . همه بيعذبوكم ويقتلوكم ويسجنوكم وانتم تتكلموا - يا صلاة النبي .. أنا لو معايا أربعين خمسين منكم بس ما ينكلموش كثير .. يشيلوا معايا السلاح - أنا مستعد استولى على (الدقهلية) من أول مديرية الأمن لآخر نقطة ع البحيرة واقلبها اشتراكية . أعظم وأكبر من جمهورية زفتى . وطبعًا كنت أجادله عنادًا وأكسر مجاديفه خوفًا أن يأخذها جد ويستولي على السجن ويعلنها جمهورية - (الربع الحرام الشعبية) !

ذات صباح وبعد خروج المساجين للعمل , فاجأني (عزيز) بزيارة لزنزانتى وكنت قد تناولت فطوري وأشعلت (التوتو) لأصنع كوبًا من الشاي وجهزت كتاب (الضحك) لبيرجسون لأستكمل قراءته . رحبت به ودعوته لمشاركتى الشاي .. جلس ولاحظت توتره . وفجأة .. أجهش في البكاء . فوجئت ولم أفهم . وحاولت التخفيف عنه - سألته عن السبب في بكائه . جاهد طويلًا ليوقف نشيجه . ناولته كوز الشاي .. وارتشف منه رشفة استعاد معها هدوءه وقال :

- أرجوك يا أستاذ سمير .. إبعد صديقك (أبو العينين) عنى !

نظرت إليه مندهشًا وسألته عما حدث .. فقال :

- أنا كنت غلطان إنى وثقت فيه وحكيت له عما جرى معى فى السجن الحربي .. أنا تعرضت لضغوط لا يستطيع إنسان أن يتحملها وصبرت . كنت فى كل مكان أذهب إليه أتعرض لضغوط لا قبل لأحد بها . ويبدو أن هناك من كان يقصد تحطيمي . كنت أتعرض لتعذيب منظم طوال فترة التحقيق معى عن تهم ما أنزل الله بها من سلطان .. ولو كنت تعرف فالعساكر الذين توجه لهم تهمة الشيوعية يتعرضون لأبشع أنواع التعذيب ولكنه لا يساوي عشر ما يتعرض له الجندي العادي على أى تهمة كالهروب أو تبديد السلاح أو التعدي على ضابط أو عدم الانضباط فهو عذاب مستمر حتى بعد انتهاء التحقيق والحكم عليه .. تعذيب الشيوعيين كان مرهونًا بالحصول على اعترافات بأنهم أعضاء فى تنظيم ما , أو أن فلانًا يعرف فلانًا .. فإذا ما انتهى التحقيق حسب ما يريدون يوقفون تعذيبهم وقد يرحلون إلى سجون مدنية لحساب أمن الدولة .. أو إلى المعتقلات .. بينما تعذيب الجندي العادي غداء يومي لا نهاية له ولا أمل فى توفقه . كانت جرعتى منه مضاعفة لأن هناك من أصدر تعليمات بذلك دائمًا ..

- يا أستاذ وسط هذا الجحيم المستمر . انهارت روجى المعنوية وفكرت كثيرًا فى الانتحار؛ حتى تल्प شاويش المغسل وضمنى إلى قوة الغسيل ..

في البداية عاملني برفق . وكدت أصدق أنني نجوت أخيراً ولم أكن أعطي اهتماماً لمبالغته في تدليلي , والتربيت عليّ ؛ حتى فوجئت ذات يوم أنه يحاول تقبيلي . ولما نفرت منه .. أبدى قسوة وغلظة أربعتني .. وتأكدت من نواياه .. فضريني بقسوة وهددني بإعادتي إلى الطابور .. وما أدراك ما الطابور . فتوسلت إليه وكدت أقبل قدميه .. لكنه أصم أذنه .. وكنت قد تمرغت على الأرض الرطبة محاولاً تقبيل حذائه فأمرني بالقيام .. والدخول إلى الحمام لتنظيف نفسي وهو يتلطف معي .. دخلت إلى الحمام وخلعت ملابسني بعد تردد ونزلت تحت الدش ففوجئت به .. مرة أخرى أجهش (عزيز) في البكاء بحرقة وبصعوبة أكمل وسط دموعه :

- فوجئت به يغلظ باب الحمام ويحتضني في جنون وقسوة .. و .. ويحيطني بأذرع الضخمة ويكومني تحت جسمه الضخم .. و .. ينتهكني .. ولم يتركني إلا جثة ملوثة منتهكة .

تركته يبكي براحته . وقد شعرت أنه في حاجة للبكاء . هيأت له كوباً آخر من الشاي .. وجلست أنتظر أن يسترد أنفاسه . ولما هدأ وكف عن البكاء .. تمتعت في هدوء :

- وما دخل (أبو العينين) ؟ .. ماذا فعل ؟

- لم أكن في حاجة إلى أن أسأله .. ولكنني لم أكن أعرف كيف أقول كلاماً آخر ..

- أنا تصورت أنكما صرتما صديقين .

- أنا لما رحلت سجن الاستئناف تعرضت هناك لأسوأ من هذا .. وكنت قد استعدت نفسي بعد أن كف شاويش المغسل عن الاعتداء علي .. بعد التمرد الذي قام به العساكر المجندون ضد التعذيب والإهانة ..

- إيه ده ؟ في السجن الحربي ..

- أيوه تمرد وثورة قتل فيها أربعة من العساكر واثنان من السجانة أقصد حراس السجن .. لكن المهم .. أن هذا أعاد لي روعي .. وتماسكت . وبعد أن أنهينا الاعتصام وأوقف التعذيب رحلوني إلى (الاستئناف) بعد أن لفقت لي قضية وحكم عليّ .. وهناك تعرضت لأبشع مما حدث لي في السجن الحربي .. فقد سبقتي قصتي هناك ؛ مع ما يليق بتصويري كعاهرة . وهناك وقعت فريسة معلمي السجن الذين يحكمون الإدارة والسجانة .. من تجار المخدرات ورؤساء العصابات .. حتى ضعت . فهناك كانت غابة أضعف حيواناتها هم السجانة .. فأقدمت على الانتحار وأنقذت في آخر لحظة .. وعرضتني النيابة على طبيب نفسي .. ولولا أن أهلي اكتشفوا مكاني الذي كان مجهولاً لهم طول الوقت .. ساعدني الطابط (ميخائيل) . وبناء على اتفاق مع الطبيب أن

أرحل إلى هنا .. ووجدت بينكم سماحة وأعادني اندماجي معكم إلى الرسم .. وتصورت أنني طويت تلك الصفحة الدنيئة من حياتي .. لكن (أبو العينين) الذي كنت أظنه .. وانفجر مرة أخرى في بكاء مرير شلني .. وشل تفكيري , ولكن بعد كوب الشاي الرابع تماسك قليلاً وجلسنا صامتين لفترة .. اكتشفت فيها أن الإنسان عندما يفسد فإنه لا يفترق عن أية خنفسة أو ضفدعة ..

وأخذت أتأمل وجهه الطفولي وكيانه الرقيق ؛ معجباً بقدرته على الاحتمال بقلبه العامر بالحب للناس والذي أوقعه في تلك السلسلة من الانتهاكات الدامية ورماه ضحية لكل هؤلاء الأشرار . من أول الضابط شقيق حبيبته الذي ثار لحماية (دينه)!! لذلك الطابور الأطول من الضابط الذي تزوجها رغم فارق السن الكبير بينهما , لذلك الطابور الممتد عبر القسم ورحلة (الكعب الداير) حتى السجن الحربي .. وشاويش المغسل , وجبابرة سجن (الاستئناف) .. حتى (أبو العينين) !! الذي كنت أحسبه قد تغير حين اندمج معنا في النشاط الرياضي والفني .. فإذا به كان حية رقطاع يزحف في صمت ونعومة كي يقترب أكثر .

- أبو العينين ؟! ..

وكأنني ناديتهم رغم أن اسمه لم يتجسد على لساني .. وجدته واقفاً بعرض الباب ينظر بدهشة للمنظر . كان (عزيز) يجلس مقرصاً ؛ وقد وضع رأسه بين ركبتيه وعاد ينشج في ألم ويأس .. نظرت إلى (أبي العينين) نظرة تنضح لومًا وكراهية فقال :

- فيه إيه ؟ ..

- مش عارف فيه إيه يا سعادة البيه ؟ دا اللي اتقنا عليه , أنا مش قلت لك تبقى محترم وتفضلك من تصرفاتك الدنيئة .

- أنا ماعملتش حاجة وشرفي ؟

- غالي .. وشرفك أغلى .. خلاص ضاقت الدنيا ف وشك عشان تحطمه أكثر .

- عزيز ! انا آسف .. والله العظيم ما كنت أقصد .. أنا يا نهار اسود .. أرجوك سامحني .. انت فهمتني غلط .. أضرب نفسي بالصرمة القديمة عشان تسامحني ..

أرجوك يا (عزيز) أنا مستعد لأي ترضية تطلبها .. بس سامحني ..!

انتهى المشهد (الدرامي) إلى نتيجة مرضية شيئاً ما .. وتعانق الصديقان دون التباس في المشاعر .. ولكن (عزيز) لم يستمر على حالة الاندماج في العمل .. توقف عن تدريبات تنس الطاولة .. وأصبح يقضي كل وقته في زنزانته يرسم ؛ إذ سُمح له بالرسم في الزنزانة فكان يظل طوال النهار وجزءاً كبيراً من الليل يرسم .. وأعتقد .. ويكي أيضاً ..

كان في الفترة الماضية التي قضاها وسطنا يظن أنه تخلص من آثار الحادث الرهيب الذي أدلّه .. وأنه استطاع أن يستعيد صورته الأولى في عيون من يحيطون به .. إلا أن ما حدث من



(ابو العينين) كان قاسياً .. فالشخص الوحيد الذي استطاع أن يخترق جدار شرنقته التي بناها حول نفسه بعد محاولته الانتحار .. الشخص الوحيد الذي وثق فيه وحكى له مأساته .. لم يسن ثقته .. وظل يتحين الفرص .. ليكشف عن ذات الدوافع الدنيئة كغيره من الحيوانات ولم يفسر (عزيز) سلوك (أبو العينين) بما حمل له من عاطفة ولا بما جُبل عليه (الأشرار) من طينته وإنما .. عزأها إلى أن جرحه وعاره سيظل يطارده مدى الحياة وكأنه طُبع على جبينه , فانكفاً يرسم ويبدع غازلاً شبكة عزلته مرة أخرى . واحترمنا هذه الرغبة لديه . وتفاهمت مع (ميخائيل) على ضرورة تركه يعالج جرحه بموهبته وإبداعه .. لحين يستطيع أن يستعيد نفسه مرة أخرى !

كانت الترحيلات العادية من السجون الأخرى ترد إلى سجن (المنصورة) في يوم الأربعاء من كل أسبوع . وذات أربعماء جاءني أحد نبطشية المكاتب يبلغني أن زميلاً شيعياً قد أحضره إلى السجن دون حراسة مشددة . كنا في فترة بعد الظهر وكانت الترحيلات تصل عادة في الصباح .. فطلبت منه أن يعرف لي اسمه ومن أي معتقل أو سجن جاء .

كانت قد وصلت إلى السجن أول هذا العام (62) أول دفعة من الأسرة الحديدية ثلاثية الأدوار . فكانت تُصرف حسب الأوامر للملكية تحت التحقيق ذوي الإمكانيات وحسب أوامر الطبيب .. ولكن الحقيقة أنه لم يكن هناك أوامر بذلك .. ولكن الأمر كان ترتيباً بين المخازن وشاويشية الأدوار لتصبح الأسرة الجديدة (سلعة) عزيزة .. تُصرف بأوامر (مدفوعة) ! . وبما أن الدور الثاني وخاصة الربع الحرام كان مقر الخطرين والسياسيين وبما أنني علاوة على خطورتي أقوم بأعباء إدارة الدور , فقد دخل السرير الثلاثي الأدوار إلى زنزانتني وكذلك لعدة زنازين أخرى . (عزيز) رفض لأن السرير سوف يبلغ ما يقرب من نصف الزنزانة ويعطله عن ممارسة الرسم .

وكانت اللوحات والأدوات والحامل الذي صنع له في ورشة السجن لا تكاد تعطيه فرصة لفرش نمرته إلا ساعة النوم وبصعوبة !..

المهم أنني رجوت الشاويش أن يصرف سريراً زودت به الزنزانة المجاورة لي كي يسكنها الضيف الشيعي الزائر , وحتى لا يظن الشاويش أنني أعطل مصالحه , غمزته بعلبة سجائر وينجز كاملة رفض أن يأخذها إلا بعد تمنع مفتعل .

عاد إليّ نبطشي المكاتب وعرفت منه أن الشيعي قادم من الواحات وأنه من دكرنس واسمه (محمد طه) .

لم أكن أعرفه شخصياً ولكنني سمعت عنه . فعندما انقسم الحزب عقب فصل قادة حدتو الأربعة (خليل) و(فاروق) و(عاكف) و(المرحوم شهدي) , كانت لجنة دكرنس كلها من عناصر

(الموحد) و(حدوتو) , لكن أعضاءها اختلفوا إذ رفض بعضهم بشدة الخروج من الحزب تضامناً مع الرفاق وفضلوا البقاء في الحزب بدعوى الكفاح من الداخل من أجل عودتهم جميعاً . ورفض الانقسام باعتباره مرضاً تاريخياً تعاني منه الحركة الشيوعية في تأسيسها . وكان منهم (محمد) .. وطبعاً تبودلت الاتهامات كالعادة بقسوة واستخدمت فيها كل أسلحة الردح السياسي من التكتلية إلى التآمر فالخيانة .. وخلف هذا جراحاً لدى الجميع. ولأننى و(حسين عبد ربه) ولجنة (ميت سلسيل) قد خرجنا بالفعل بحكم علاقة تاريخية لـ(عاكف) بميت سلسيل .. ولأن مسئولنا الحزبي كان الشيخ (عبد السلام الخشان) الذي حصننا ضد (التكتل) بما يكفي من تلك العبارات المختارة القادرة على تصوير خصمك الذي كان بالأمس رفيقاً لك ؛ في صورة الشيطان الرجيم تحرم الثقة أو التعامل معه ..

كنت قد تخلصت بصعوبة من بعض محظورات هذا الغباء والتعصب والانحياز خلال الفترة التي عملنا فيها في الجامعة بفضل الاحتكاك المباشر والنضال المشترك وخاصة بعد يناير (59) في مواجهة الخصومة الحادة مع النظام والخطر المشترك والدفاع عن النفس ؛ وإن ظل كلٌّ يحرص على نقاء جنسه والتحفظ حيال خصومه .. كنزعة تاريخية مقدسة !

بهذه المشاعر السلبية المربكة - التي حاولت التغلب عليها ونجحت لحد ما مع زملاء (الأوردي) - انتظرت لقاء (محمد طه) بما يكفي من الرغبة الصادقة في تجاوز هذا الموقف . ووقفت أنتظره أمام (دكة) الشاويش الذي كان جالساً يدخل اللعبة التي لهفها أجزراً للسريير .. وهلاً علينا الرفيق (محمد طه) بعوده النحيل المنتصب . يسير في كبرياء فلاح سيخوض حرباً ضد أهل البندر .. ولما صعد السلم تقدمت منه في ترحاب وحب قائلاً :

- أهلاً بيك في المنصورة يا رفيق (محمد) .

فقال بعد نظرة شلمتني من فوق لتحت :

- لازم انت (سمير) بتاع (ميت سلسيل) ؟

فقلت ببعض السخرية الخفيفة محاولاً جعل عبارته نوعاً من الود المشترك :

- أيوه . يا (محمد) يا بتاع (دكرنس) .

وضحكت مشجعاً له على التباسط وأنا أفرد له نراعي لكي أعانقه مرحباً , لكنه مد كفه إليّ

على طول ذراعه قائلاً في جدية :

- (زين) و(موسى) حكوا عنك كثير . وشكروا لينا كثير فيك لما جم هنا من (أبو

زعل) .

- يا رب يكون خير . و(عبده عباس) و(فؤاد) ما حكوش حاجة عني ؟

لكنه رد متقادياً قصدي .. وقال : يعني .. وجهات نظر !

ناديت النبطشي وجعلته يحمل حقيبه عنه :

- وديها زنزانه (36) يا واد يا (رفعت) .. وخذ م المخزن جردل جديد للبول نضيف..

قال محمد طه كأنه يأمرنا :

- وجردل ميه نضيف يا ابني .

فقلت له في مرح متجاوزاً لهجته الجافة :

- لأ .. الميه ف زنزانتك م (الكوبانية) .. انت اتغديت ؟ غداك جاهز .. لكن شوف ح

تحتاج إيه قبل التمام .

تركنا ومضى نحو دورة المياه .. وكان وقت التمام قد حل فجعلت النبطشي (رفعت) ينقل الطعام

الذي جهزته له إلى زنزانه .. وانطلقت صفافير التمام .. مع عودته من دورة المياه قائلاً :

- على فكرة أنا كنت طلبت من الطابط إني أبعت رسالة البلد لأخويا أو اكلمه في

التليفون يمكن ما يكونش عرفوا . والوقت ضيق , ميعاد جلسة المحكمة يوم السبت

فرفض بحجة أن المكاتب قفلت والموظفين روحوا , وقال لي روح ادخل انت عنبرك

وزميلك اللي هناك ح يتصرف ؟ .. إيه الحكاية ؟ همه كمان مركبين لك تليفون في

الزنزانه والا إيه ؟

- ما تشغلش بالك .. جهز انت الرسالة والصباح رياح ح نفتح لك كابينة مخصوص !

في الصبح أرسلت أستدعي (القص) و(رجب الجن) . وكان رجب قد عاد لقضاء حبسة

جديدة , عقوبة على قضية قديمة . استدعيتها وطلبت منها أن يقوم بالاتصال عن طريق

التليفون الهوائي بمن يظهر في الخارج من أهلها أو أعوانها .. اعتذر (رجب) لأن أحدًا لن

يزوره اليوم . بينما استطاع (القص) أن يعطي العنوان والتليفون الخاص بشقيق (محمد طه)

لابنه , مع توصية لزوجته أن تتولى الأمر بنفسها وتقوم بالاتصال وإبلاغه بموعد الجلسة ,

والتشديد على حضوره مع التأكيد عليها إن لم يفلح الاتصال التليفوني أن تصل إليه حتى لو

اضطرت للسفر , أو إرسال رسول خاص إلى (دكرنس) وأن يبلغنا بما تم في المساء ..

ولم يصدق (محمد طه) أن ذلك سوف ينجح . وظل قلقًا طوال الوقت متخذًا من هذا القلق

وسيلة لتجنب محاولاتي لكسر حاجز التحفظ الذي صد به محاولاتي طول اليوم للتودد إليه

وإلحاحي للتواصل لمعرفة أحوال الرفاق في صحراء المنفى .

حتى جاء الرد كما توقعت . قبل التمام بقليل حضر إليّ (القص) بعد أن أجرى اتصاله

التليفوني اليومي عبر نافذة الدور الثالث مع زوجته التي أخبرته أنها ذهبت بنفسها إلى (دكرنس)

وقابلت شقيق (محمد) الذي أكد لها أنهم يعرفون موعد الجلسة وسيكون الجميع في انتظاره ..

وساعد اطمئنانه لحضور أهله الجلسة ونجاح الاتصال بهم على كسر تحفظه حيالي قليلاً وتسامح في الحديث معي . وسمح لنفسه أن يحكي على سجيته كيف رتب مع شقيقه أن يعيد إلى الحياة قضية قديمة راكدة حول نزاع على قطعة أرض .. وتشبث المحامي بإعلانه في المعتقل طالباً ضرورة مثوله أمام المحكمة حفظاً لحقوق الورثة القصر .. واستجاب القاضي لطلبه وأرسل أمراً باستدعائه من الواحات .. ولم يكن أحد منهم يصدق أن ذلك يمكن أن يحدث , لولا أن الظروف كانت تمضي إلى ما صارت عليه في بدايات عام (1962) .

كان يوم الخميس يوماً صعباً مع (محمد طه) إذ ظل جدار التحفظ الذي احتفى خلفه غليظاً صامداً ضد كل موجات التودد التي هاجمته بها .. جرائد وكتب ومجلات وشاي يحمله له أصدقائي وزملائي من المساجين واحداً بعد الآخر ..

لم يكن يناديني يا زميل .. بل كان يعتمد أن يقول لي يا أستاذ (سمير) . وعرفت أنه مازال يحمل لي وللمنقسمين آثار الصراع الفكري بينه وبين (الخشاش) و(السيد يوسف) ويحملني إثم علاقتي الحميمة بهم ولكنني لم أياس .. وحين حان وقت توزيع عدس الظهيرة , وكنا في يوم الكشري الأصفر حملت له بنفسني قروانة العدس المميزة ودخلت بها عليه .. متهللاً :

- خد يا عم .. وكأنك في (دكرنس) كل العدس ده بقي وادعي لزملاءنا هنا في السجن إذ لولاهم لما انقلب حال اليمك ليصبح عدساً ملكياً بل ملوكياً هكذا ..

رائحة الأرز بالعدس التي كانت تفوح مع بخار القروانة وهجوم الود الذي حاصرت به آتيا أكلهما .. ومع أول معلقة تناولها انهار جدار تحفظه وتدافعت الأسئلة مندهشة تريد إجابات :

- ده عدس السجن ؟ .. معقول ؟ .. ودايمًا هو كده ؟ لا .. لا ده أكل الملكي ؟ .. واياه حكاية الزملاء دي؟

واستطعم ما بغمه بمزاج فلاح دقهلاوي يقدر طبخة العدس الأصفر بعد يوم شقاء طويل .

- معقولة ده يمك السجن ؟ ..

- قوم بنفسك وشوف .. واسمع .. مافيش صريخ ابن يومين . كله منقض في صمت على قراونته يتمتع ببعض من طعم الحرية يا زميل !

وبينما جلس منفعلًا يستمتع بطعامه .. وصل (عبد اللطيف) من المطبخ بقروانة تانية واحتج قائلاً :

- ليه كده يا زميل .. أنا كنت عامل حسابي أعزمه أنا .. لكن مش مهم خد يا زميل .. أنا عارف ان الكشري يحلو بالبصل .. ومد يده إليه بثلاث بصلات متوسطة الحجم

.. فتهلل (محمد طه) .. وشكره .. ثم هرس إحداها بين بطني كفيه بعد أن قضم تاجها سعيدًا وهو يأكل بشهية كبيرة .

- ياه .. سنتين ونص يا زميل يا سمير باحلم بطبق العدس ده .
- بالهنا والشفا .. الفضل في ده يرجع للزميل (عبد اللطيف) .
- هو اللي اقترح الحكاية دي ع المأمور وما وافقش الا لما داقه بنفسه .

وكنا قد جلسنا حوله نتناول طعامنا بعد أن زوده عبد اللطيف بـ(كمالة) محترمة من القروانة التي أحضرها ..

- إنما إيه حكاية الزميل دي يا زميل (عبد اللطيف) ؟
- وبسرعة احتمى عبد اللطيف بقواعد الأمان فقال ضاحكًا :
- ما احنا هنا في السجن كلنا زملا .. ولا انتو بتستكتروا ع الغلابة اللي زينا يتزاملوا , كلنا في الهم شرق . أقصد كلنا في السجن زملاء .. والا إيه ؟ ..
- كان محمد طه قد اكتفى من الطعام .. ورفض ما قدمه إليه (عبد اللطيف) من قروانته وهو يشكره مشيرًا إلى بطنه مكتفيًا وقال :
- تعرفوا ؟ في الإضراب الكبير اللي عملناه في الواحات واللي استمر أكثر من (16) يوم .. ما كانش بيعذبني إلا ريحة ومنظر (دست) الأرز بالعدس ده وهو بيحفح على الموقدة في دارنا .. يااه .. الله يخرب بيوتكم قلبتوا علينا المواجه ..
- نسيبك لذكريات مواجهك وأكد ح تنام لك شوية .
- آي والله .. البصل نفخ في نافوخي .. متشكرين يا زملا ..
- قالها ببساطة وهو يتمدد فوق البطانية فقمنا خارجين إلى زنازيننا .. وأنا أبتسم .. لقد انهار جدار التعصب الخايخ أمام قروانة عدس الخميس المغفل .. طعم ورائحة الحرية عندما ناداني يا زميل (سمير) .

لم أكن أتوقع أن أزمة (عزيز) ستتطور إلى هذه الدرجة حين شاهدت الضابط (ميخائيل) في صباح الجمعة يزور ربنا الحرام مهتمًا .. صبَّحت عليه فردَّ في عدم اهتمام أو على الأصح في عتاب واضح . ومضى مسرعًا إلى زنزانية (عزيز) في آخر الربع . وقفت على باب زنزانتني أراقبه وهو يفتح باب زنزانية (عزيز) ويدخل .. وقفت أنتظر عودته لأعرف منه تطورات الأمر . كان (عزيز) من مدة قد اعتزلنا واندمج في الرسم في زنزانتته وكف عن النزول إلى المكتبة لدرجة أنه ترك العدد الأخير من المجلة غير مكتمل .. وشكا لي زملاؤه في المكتبة . وحاولت أن أراجعها ولكنه عاملني بقله أدب وأغلق الباب في وجهي .. وعذرتة مقدراً ما يمر

به من أزمة . وعرفت أن بعض المساجين قد عادوا للتحرش به - كان آخرهم .. معتقل جنائي أقام ليومين بجواره وكان كعادة أمثاله عندما يرحل إلى سجن احتياطي يأمل في إطفاء حرمانه .. فحاصر (عزيز) ذات يوم في فترة القيالة , ولكن (عزيز) صفعه بضراوة وطارده بعود من الخشب انتزعه من برواز إحدى لوحاته فشحج رأسه . ولم يتقدم المعتقل بشكوى ودفن رشوة للشاويش كي لا يحولهم لمكتب المأمور .. مكثياً بملازمة زنزانته حتى رحل . وتكرر الأمر في الحمام , وكان (عزيز) يعتمد الاستحمام وحده في أوقات يكون الحمام فيها خالياً حتى لو اضطر للاستحمام بالماء البارد بعد قفل البخار .

وقد حاولت أكثر من مرة أن أعيد (عزيز) إلى العمل الجماعي ولكنني فشلت حتى في الحديث إليه .. وكنت قد خففت من اندماجي في العمل في المكتبة ومع الفرق الرياضية . وقد صار غيري يقوم بهذه المهام الأساسية بدلاً مني وكنت قد قررت الاستغراق في قراءة مجموعة الكتب الإسلامية لـ(سيد قطب) وكتاب تفسير (القرطبي) ؛ علاوة على عثوري على عدد كبير من مجلات (المقتطف) والعصور مجلدة ومهداة لمكتبة السجن من أحد بشوات الدقهلية . وشغلني هذا عن (عزيز) ومشكلته .. ويبدو أن هذا هو سر نظرة العتاب التي رمقني بها الضابط (ميخائيل) . لأنني لم أف بوعدي وأهملت الاهتمام بقريبه الذي كنت أول من عرفه بي وأوصاني به ..

انتظرت الضابط (ميخائيل) حتى أنهى زيارته لـ(عزيز) واعترضت طريقه . حاول أن يتخطاني ولكنني أصررت على محادثته :

- أنا يومياً بأحاول الحديث معه وهو يصدني بقسوة . وأحياناً يتناول عليّ ولم أفهم لماذا فتركته براحته ..
- يا أستاذ (سمير) هو مجروح منك انت أكثر من أي حد ثاني ..
- أنا .. ! إوعى يكون بيدعي إني ..
- مش كده .. انت أكثر واحد وثق فيه وشكى له همه . إنت و(ابو العينين) الله يججمه مطرح ما راح .. وما كانش متصور أن تفضحوه أنتم بالذات اللي اعتبركم أصدقاؤه, ما كلمش حد هنا غيركم ..
- أقسم بشرفي ما حصل شيء من ده . وأنا متأكد إن (أبو العينين) بكل عيوبه ما يعملهاش ..
- أمال يعني إيه اللي حصل وخلا الأمور كده ..
- يا حضرة الضابط .. هو بقى له أكثر من أربع شهور . وكان اندمج في المكتبة والمجلة وفرقة البنج بونج . والحاجات دي ما حصلتش إلا في الأسابيع الأخيرة .. اللي

انا فيها بعدت شوية وانشغلت .. كان مصاحب كل دول .. إيه يضمن إن ما حدش منهم وثق فيه وفضفض له بهومومه زي ما عمل معانا .. لا يا حضرة الضابط مش أنا اللي يتكلم عن حد كده .. خصوصًا إن انت وصتتي عليه وانا شلت مسئوليته شهر وأيام ..

- خلاص .. يا سمير .. هو تعبان جدًّا ويأس .. ومتصور انه مش ح يقدر يخرج من الحفرة دي بعد كده .. أنا ح احاول أدبر تقرير طبي .. وأنقله لمستشفى علاجي . دا الحل الوحيد ...

- وتركني ومضى إلى المكتبة بينما الشاويش ينادي على راس السلم مودعًا إياه .. بانتباه طويلة وسلام عظيم .. !

دفعني إحساس بالذنب إلى الذهاب إلى زنزانة (عزيز) . كان الباب مغلقًا (تكة أولى) . دقيت على الباب في رفق فجاء صوته غاضبًا صارخًا ..

- مش عايز اشوف خلقة حد منكوا اتفضل غور من هنا ..  
أجبتة في هدوء ورقة :

- أنا سمير يا عزيز تسمح اتكلم معاك ؟

- مش عايز أكلم حد ولا حد يكلمني .. اتفضل حضرتك !!

فاتخذت من إجابته (اتفضل) حجة وظننت أنها ستكون طريقة ضاحكة لتخطي غضبه .. ففتحت الأكرة بالضغط عليها وقلت ضاحكًا :

- يدوم فضلك يا سيدي كنت متأكد انك مش ح تكسفي .

ثار (عزيز) ثورة عارمة وتشنج وهو يصرخ في وجهي دون أي اعتبار لما كان بيننا من مودة واحترام :

- اتفضل يا أستاذ يعني غور مش تدخل .

- انت غلطان يا ابني .. وفاهم غلط . أنا مش ممكن أخون ثقك في . ولو على رقبتي

..

كان جسمه كله يرتعش وهو يشوح ويتلفت باحثًا عن شيء ما يضربني به وصوت صراخه يعلو ..

- إتفضل من هنا .. غور مش عايز اكلمك ولا اشوف خلقكوا يا اولاد الكلب ..

فضلت أن انسحب فقد كان الرد عليه ضريًا من الجنون .. فتراجعت وأغلقت الباب كما

كان . في الوقت الذي انهبد فوقه شيء ما كان يقصدني به !

عندما لزمتم زنزانتي مكتئبًا على غير العادة في صباح الجمعة .. توالى توافد الزملاء عليّ حتى أولئك الذين في طريقهم إلى المطابخ لإعداد طعمية الجمعة ..

- مالك .. إيه يا زميل ..؟
- لأ مافيش .. أنا بس زهقت من السجن .. لأول مرة أزهدق من السجن . وكأني لسه جاي امبارح ..

سخر مني (عبد اللطيف) وهو يقوم مغادرًا ..

- إيه أمور المراهقة دي يا زميل .. قوم اعمل طابور رياضة وانت تبقى فل .. سلام ..
- ح ابعت لك النهاردة طعمية عمرك ما دقتها .. قصدي هنا .. لأول مرة ح ندق لها كرات مصري ..

وجاء (محمد طه) وقد ألقه تأخري عليه :

- إيه يا زميل مالك ؟ على وشك غضب الدنيا ليه ؟
  - صابح شايل طاجن سته ..
  - أبدًا يا جماعة بس حالة الواد (عزيز) صعبة قوي ..
  - وانت مالك .. هو انت ولي أمره .. خاله !!؟
- قام (أحمد) و(كمال) زهقانين من كآبتي وبقي (محمد طه) الذي اتخذ لنفسه موقعًا وجلس في مواجهتي :

- مين (عزيز) ده يا أستاذ ..
- ده ولد فنان رسام . اللي ساكن في آخر زنزانة انت ما شفتوش لأنه داخل في حالة اعتكاف . حالة تقوقع وهروب من قبل ما توصل ..
- يا سلام دانت محلله نفسيًا .. وهريان من إيه حضرته ؟
- ده أصله حكايته حكاية طويلة .. مأساة مصرية ..
- يا سلام .. ما كل الخلق دي مآسي مصرية .. حتى إنت ؟

حكيت له باختصار حكاية (عزيز) . وقصة حبه لفتاة مسلمة هربت إليه يوم كتُب كتابها .. لكنه وأسرته أعادوها لأهلها رافضين التورط .. ولكن أخاها الضابط لم يغفر له هذا الجرم ؛ فدبر تجنيده بعد أن دبر له (كعب داير) بهدله بين الأقسام والمراكز .. وزاد الطين بلة أن عريسها وكان ضابط هو كمان وزَّ عليه اتلقت له تهمة دخل بيها السجن الحربي . ووصى عليه فاتوصوا بيه . مع إنه ولد حساس رقيق .. رسام هايل .. لو شفت رسومه ولوحاته .. تتجنن ..

- كان في السجن الحربي؟! قوم عرفني عليه يمكن أكون قابلته هناك .. أخرجه من الحالة ..



- لا .. لا .. دي تبقى مصيبة .. ح تفكره أكثر بمأساته !.. ده هو مش طايقني عشان  
شكى لي م اللي جرى له هناك .. ومتصور اني ما صنتش سره !..  
- آاه .. فهمت !!

- السجن الحربي ده مش سجن . دي مقبرة كبيرة وسط الصحراء . مبنى ضخمة مصمت  
ما عدا طاقات زي مغازل ضرب النار .. جدار مربع بيضم عدة سجون .. أول ما تخطي أول  
عتبة تلاقي نفسك معزول عن العالم .. كل أصوات العالم الإنسانية تموت . ولا تسمع إلا  
أصوات غريبة , خليط من صيحات ألم وصيحات استغاثة .. وعواء كلاب وحشية . لا تسمعها  
في أي مكان ثاني .. وكل ما تخطي عتبة ويتقل عليك باب ورا باب تحس ان انت بتتحول  
لرقم . هنا انت تحت سيطرة زبانية من الجحيم لهم سلطات خاصة لا يسألهم أحد عن اللي  
بيعملوه . هيّ اللي تحاسبك وتعاقبك .. انت صرصار وقعت تحت شبشب الدولة الهائل وفي  
قبضة كيان جبار رقد على اكتافك ولا مفر من الاستسلام .

- أول ما وصلت من المخابرات بعد ساعات يا دوب ما فُتّش م الرعب حتى الحرس اللي  
خدني هناك كان بيترعش م الخوف .. سابوني لما وصلنا قعدت على كرسي أحاول أن أفهم  
زيهم إيه الحكاية .. دخل ظابط قصير وخذ كل حارس منهم قلمين وطردهم والنقت لي وقال  
: سابوك تقعد يا ابن الكلب .. فِرّ قوم .. اسمك ؟ سنك ؟ إجري .. سريعًا مارش.  
وخذ عندك ألف إيد نازلة على وشك وراسك .. غير الرفص شمال ويمين - انت شيوعي  
؟ يا كذاب اعترف .. تعرف فلان ؟ .. آه بدأنا !! قول تعرفه من فين؟.. مين كان معاك ..  
عايز تقلب نظام الحكم ؟ .. بتخبي ليه ؟ كلهم اعترفوا عليك ؟ .. شافوك وانت بتوزع المنشورات  
يا كلب ؟ وما قبضوش عليّ ليه ساعتها ؟ إخرس .. اعترف ؟ .. امضي ع المحضر ! ولما  
وصلت السجن كنا بعد الظهر وبعد الظهر يبقى الوضع مريّح شوية .. أول ما دخلت م الباب  
الأولاني لقيت لك غول بشري نص عريان مقيّل جنب تمثال . عرفت بعدين إن دا وحش السجن  
(ياسين) .. وكنت طبعًا داخل جري بتطاردني الضربات والصفعات . عدينا على شاويش إسمه  
(أمين) بص كده واتأمل هيكلي واتأوب وأصدر حكم المدخل (الإكرامية) :

- خمسين كراباج ..

وكان ورايا ثلاثة .. عسكري ووكيل أمباشي والأمباشي تالتهم . وحاصرني عواء الكلاب -  
ديابة مش كلاب بتاكل في نفسها وتعض سلاسلها .. كل ما تسمع صراخ العساكر والكرابيج .  
العسكري أمرني صارخًا .. إقلع هدومك .. يا ابن الكلب . كله والكرابيج لا تكف وكل ما تنزل  
الكرابيج تهيج الكلاب اكثر ..

المصيبة التي اكتشفت ان كل ده مش محسوب من الإكرامية .. خدوني لعنبر له جمالون  
ربطوني من رجلي وعلقوني في عمود من عمدان السقف .. ده علشان آخذ (الإكرامية) .. الحكم  
اللي أصدره الشاويش الأولاني .. وخذ عندك .. (الإكرامية) إكرامية الدخول إلى جحيم هؤلاء  
الزبانية ..

وتتقل عليك الزنزانة .. رحمة .. تلم جسمك المجرح وجلدك المقطع وتلحس دمك .. وكل ده  
وانت مش عارف ليه كل ده .. انما تحس إنك وقعت ف جب مالوش عمق وصمت رهيب  
مافيش حس .. وتحس إنك بقيت كلك اودان .. زن رهيب صامت بتسمع معاه أخف خريشة  
حشرة على الجدار .. هو بس عويل وعواء الكلاب اللي واصل لك .

- والعساكر العادية كانوا معاكم ؟

- لأ .. انت في الزنزانة تحس إن كل المبنى ده ما فيش غيرك . مع الجدار  
الخارجي . ده بيضم عدد م المباني أو السجون .. لكن أكبرهم هو السجن الكبير .  
وده اللي فيه العساكر العادية .. اللي قضاياهم مش سياسية .. ودول بقى بيتعاملوا  
معاملة العبيد وأسوأ .. لأن أيام العبيد كان النخاسة أرحم بعبيدهم . لأنهم عايزينهم  
في صحة كويسة .. ومش عايزين يشوههم ولا يبوظوا خلقهم .. إنما عبيد (السجن  
الحربي) دول اللي راحين يقضوا الواجب الوطني - مجندين مالهمش أصحاب ولا  
أهل .. من أول ما يستقبلوهم بالضرب , لازم كل واحد منهم يختار إسم (مرة)  
ينادوله بيه طول مدة سجنه . لأنه أصبح ملكية خاصة للزبانية .. لدرجة انتهاك  
رجولتهم لإذلالهم ..

- آه .. إيش حالة واحد وصّى عليه حد كمان ! المعتقلين السياسيين لعذابهم آخر ..  
لأنه مرتبط باللي همه عايزين يعرفوه عنهم أو يعرفوه منهم عن بعضهم أو عن  
ناس تانية .. وخلص ..

إنما العساكر المجندين فدول عذابهم زى عذاب جهنم كده مالوش آخر .. أبد الدهر

..

على فكرة العساكر المجندين دول عملوا ثورة .. تمرد رهيب .. ما كانش حد يتوقعه  
وزلزل الجيش كله ..

كانت الطعمية قد وصلت سبقتها رائحتها الفواحة فقطع (محمد طه) حديثه متشمماً الرائحة

بشغف - إيه ده ؟

فقلت له :

- دي مفاجأة .. عشان تعرف الفرق بين جحيم السجن الحربي وجنة سجن  
(المنصورة) .. مع إن المساجين هنا بيقولوا .. قُطع السجن ولو في جنينة .  
فأضاف ضاحكًا :

- يا شيخ .. بس من غير طعمية ؟ ما تبقاش جنينة !!  
قمت لاستقبال الطعمية وسرحت فيما يحكيه وأنا أفكر في (عزيز) .  
- والله لو حتى بالطعمية يا زميل . قُطع !!

كان نصيب كل نزيل أربعة أقراص ولكن المطبخ أرسل لنا قروانة مليئة بالأقراص تحية  
للضيف . وكانت أقراصًا مميزة من نصيب السجناء ..  
خطف (محمد طه) قرصًا من القروانة وأكله بتلذذ كسَى وجهه الصارم ملامح إنسانية  
طيبة..

قسمت القروانة إلى اثنين .. وطلبت من النزيل الذي يوزع الطعمية أن يحمل معه النصف .  
ويوصله إلى (عزيز) في زنزانه في آخر الربع .. وجلسنا نأكل الطعمية قبل أن تبرد .. وفجأة  
انفجر قتال رهيب . وجاءنا خليط من السباب مع صوت ضرب على الحديد . واندفعنا لنرى  
النزيل حامل الطعمية وهو يطوح بالكانتين المليء بالطعمية يريد أن يضرب رأس (عزيز) الذي  
كان يصرخ وهو ممسك بتلابيبه وصراخه ينادي التائهين ..

اندفعنا لنخلص بينهما . كانت أقراص الطعمية مبعثرة على البلاط تثير الجزع .. وأبعدنا  
النزيل عن (عزيز) الذي عاد وهو يسب ويلعن الجميع ثم يغلق باب زنزانه بعنف في وجوهنا ..  
ولكن النزيل ظل يسبه بشتائم مفرجة ومحرجة .. ملمحًا إلى مصيبيته التي كان يظنها سره  
وعاره الخفي . طوقت النزيل بذراعي ووضعته كفي على فمه لأسكته في عنف وسحبته بعيدًا  
عن الزنزانه .. حيث كان (عزيز) في الداخل تتدافع من فمه عواصف السباب للجميع .. يصفنا  
بالصراصير وبالكلاب والأوساخ في ارتباك وعصبية توحى بحالة انهيار عصبي تام ..  
قال النزيل :

- أنا ما عملتلوش حاجة دانا فتحت الباب وباهزّر معاه وانا بأقدم قروانة الطعمية  
واقول له أصحابك في المطبخ باعتين لك هدية يا عم .. بالهنا والشفا . فوجئت بيه  
يسبني وبيلطّش لي , ولبّسني القروانة وهرس الطعمية في وشي .. ما اعرفش ليه  
ابن الكلب الخول ده ..

- خلاص يا ابني بلاش شتيمة .. ولم حاجتك وقوم كمل شغلك .

- أنا عايز حقي ؟ من ابن ال..

- طيب بس لم الموضوع دلوقتي حقك عندي أنا ..
- ومنعته أن يكمل ..
- ياللا .. مش عايزين الموضوع يوصل للضابط (ميخائيل) عشان الموضوع ما يكبرش ..

كان المساجين في الأدوار العليا قد اصطفوا يطلون على المنظر .. ويتبادلون التعليقات والضحكات في تشفٍ واضح ..

- ياللا يا مسجون منك له . كله على زنزانته بلاش تناكة إيه ده ؟ .. ياللا .. كله على فرشة أمه وإلا ح اطلع لكم يا اولاد الهرمة .. ياللا ..

صرخ فيهم الشاويش (غريب) الذي استلم الدور بعد نبطشية حرس الليل وأخذ يهددهم بعصاه الشهيرة التي يبلغ طولها ضعف طوله . وسرعان ما عاد الهدوء للعنبر وانشغل الجميع بالطعمية .. وأقلقني ما وصل إليه حال (عزيز) وردود فعله العصبية حيال كل عبارة أو إشارة يراها عدوانية دون أي إمكانية للغفران .. بعد أن صارت لعنته التي لم يستطع التعايش معها على رؤوس الأشهاد !.

سألت شاويش غفر الليل أكثر من مرة أن يحيطني علمًا بأحوال (عزيز) الذي أغلق زنزانته ورفض أن يفتحها حتى لشاويش الدور عند التمام مكتفياً بالرد عليه باقتضاب .. وأخبرني غفر الليل أنه أغلق (النضارة) من الداخل ولذلك اضطر للتعلق بشراعة الباب ليراه .. وأخبرني أنه يشتغل في عصبية وقد خلع سترته وانهمك في خلط الألوان والرسم باستمرار وبسرعة .. وفي مرة ثانية أخبرني أنه يرسم على الحائط الشرقي للزنزانة بفرشاة كبيرة وهو يدندن بأهات أشبه بالنواح .. وفي مرة أخرى ازداد هياجه وغضبه عندما أغلق النور في موعده فصاح مطالبًا إياه بإضاءة النور وإلا سيستغيث بالمأمور ويوقظ الوزير من نومه ..

- يا عم سيب له النور ما دام يرسم ده غلبان .
- ما أنا ولعت له النور تاني .. صعب عليَّه ..

في الصباح لم يلحظ النبطشي الذي أعطاه شاويش الدور المفاتيح ليفتح علينا أبواب زنازين الربع الحرام .. وذهب بعضنا إلى الحمام وبدأ (محمد طه) يستعد للذهاب للمحكمة .. وكانت طوابير العمل في طريقها إلى خارج العنبر عندما صاح السجين المكلف بمسح وتنظيف الطريقة وهو يصيح فرعًا ويلطم أمام زنزانة (عزيز) فلفت أنظار الجميع الذين تزاحموا ليروا ماذا حدث .. كان (عزيز) ملقى على ظهره وقد مد ذراعيه في وضع أفقى كالمصلوب وبركة من الدماء تسيل من رصغيه .

الأفطع من ذلك كانت اللوحات على الأرض .. مشكّلة امتدادًا رهيبًا للوحة جدارية رهيبة ترتفع فوق الجدار الشرقي .. عبارة عن صليب ضخّم بني تضيئه بقع صفراء وعليه مصلوب (مسيح) ضخّم في ملابس السجن يميل وجهه على رقبتة وعيناه شاخصتان نحو الجمع المتزاحم على الباب وخارجه .. وفيهما نظرة اتهام نارية تخترق المسافة بينها وبيننا في حقد لا يلائم مسيحيًا مصلوبًا .. تصيب مشاهدتها بالهلع بينما تناثرت أحذية عسكرية ضخمة تهرس صلبانًا محطمة فوق الحائط وعلى الأرض .. وكانت الدماء التي تسيل من الذراعين المسمّرين في خشب الصليب تضيء على المشهد كله دموية ورعبًا يجمد الدم في العروق ..

استجاب (محمد طه) غضبًا لنداء الشاويش الذي جاء يستدعيه للجلسة والذي صعد يستعجله فرأى المنظر الذي شدنا جميعًا وسمّرنا على باب الغرفة .. فانطلق بعد أن سحبه معه إلى الإدارة متعجلًا غاضبًا ليخبر الأمور بالكارثة ..

جاء الأمور بعد أن أرسل في أثر (ميخائيل) الذي كان قد انصرف مع غفر الليل .. وسبقه إلى العنبر تسبقه (انتباه) عصبية مرعبة شتتت زحام المساجين ..

وأمر الأمور كل شاويشية العنبر بإدخال المساجين إلى الزنانات فورًا ..

ذهل (الريدي) عندما رأى منظر (عزيز) ووقف يتأمل الرسوم للحظة وأمر أحد السجناء أن يسرع ويستدعي التمرجي المستشفى لينقل (عزيز) إلى المستشفى إن كانت فيه الروح . ويستدعي الطبيب على وجه السرعة , لكنه كان قد تأكد أن الولد قد مات إذ كان وجهه مريدًا غاضبًا لدرجة أنه لم يلاحظني وهو عائد يلقي بأوامره للسجانة ألا يقترب أحد من الزنانة ويمنع نزول مساجين من الأدوار العليا .. وأن تستدعي عربة إسعاف لنقله إلى المستشفى العام ..

لكنه بعد أن خرج من العنبر عاد مسرعًا يتبعه بعض السجناء .. وأمر بفتح الزنانه (39) وأمر بنقل فرشة (عزيز) إليها كما هي , ثم نقله إلى تلك الحجرة مع أشياءه الخاصة جدًا .. والمصرح بها لكل سجين , ثم أمر بعض الحرس بنقل كل حوامل الرسم واللوحات وأنية الألوان كلها إلى الصالة المجاورة للمكتبة . وصاح في التمرجي والشاويش :

- خلى بالك منك له .. حاسبوا عليه لحد ما يبجي الدكتور يكشف عليه .

وعلى الفور استدعى شاويش الدور .. وأمره هامسًا في حزم وهو يشير إلى زنانه (عزيز) .. وكنت قد احترمت ما هو فيه . ووقفت وراء الباب الموارب أراقب ما يجري دون أن ألفت نظره ..

وعلى الفور أحضر شاويش الدور ثلاثة من المساجين يعرفهم ومعهم فرش وجرادل واندفعوا إلى الزنزانة (40) وقاموا باللائم فأعادوا تبييض الجدران ونظفوا الأرض وأعدمو الجدارية المذهلة للفقيد على صليب العسكر .

وجاء الضابط (ميخائيل) وعيناه محمرتان من البكاء وبصحبته اثنان أحدهما وكيل النيابة وكتبها .. ودخلوا الزنزانة (39) .. وتأمل وكيل النيابة فراش (عزيز) الملوث بالدماء ثم غادروا ..

وأذيع نبأ وفاة (عزيز) وهو في طريقه إلى المستشفى . وشهد (ميخائيل) في المحضر أنه كانت له محاولة انتحار من قبل في سجن الاستئناف . ومر الأمر دون تعليق , على هذا التحقيق ..

ولكنني بعد انصراف كلٍ لشأنه .. ذهبت إلى الزنزانة (40) تلك التي كان فيها يوم دخلت السجن الزميل (معين) الخرمان دائماً . وأخذت أتأمل نظافتها الحديثة وجدرانها المطلية بالجير الذي أخفى تحته أروع ما رأيت عيني من لوحات الاحتجاج الإنساني ضد التعصب الديني وبربرية العسكر الذين سحقوا أحييتهم روح وجسد ذلك الفتى الفنان المبدع الذي مزقته أنياب وأظافر التلسط والتعصب ..

كانت ملامح وتفاصيل اللوحة التي بهتتها الجير تبرز لعيني عاصية على التلاشي .. فيقشعر بدني ويرتبك وجداني .. وأجدني أبكي وأصرخ في الشاويش :  
- يا شاويش عبد الله .. لسه الحيطان عايزة وش تاني عشان تداري فضيحتنا كلنا ..

\*\*\*

- أعلنوا حالة الطوارئ في المديرية النهارده علشان خروجكم للمحكمة يا اولاد .. !!  
هكذا علق عم (حسن عطية) على الحشود العسكرية التي جاءت لأخذنا للمحاكمة ..  
وانتشرت على جانبي الطريق من أمام السجن حتى المختلط حيث المحكمة !  
- والنبي دي حكومة هبلة .. بقى لو قالوا هاتهم يا عم (حسن) في إيدك وتعالى ..  
كنتو تهربوا مني !؟

- والله يا عم حسن لو قالو لنا حصلونا ع المحكمة لرحنالهم من غير ما نتعبك ..  
كان أحمد وعبد الحميد قد عادا من معتقل (اليوم) يوم الأربعاء الماضي .. وكانت الجلسة  
قد حددت صباح الأحد (اليوم) لمحاكمتنا وكان حضورهما حدثًا هامًا بعد الحادث الأليم الذي  
عشت في إثره أيامًا حزينة لا أكاد أخرج من زنزانتني .. وقضيت هذه الأيام منذ وصولهما في  
استعادة نفسي بالاحتماء من الحزن بإحياء ذكريات الأيام التي عشناها معًا نتصور أننا سنغير  
العالم بطبع عدد من مجلة (صوت الفلاحين) على رونيو خشب بدائي لم تجرب الطباعة عليه  
أبدًا . ليلتين قضيناها (في الحرية) .. على القهوة .. وعلى الطريق الزراعية المجهولة إلى قرى  
لم ندخلها أبدًا من قبل .

ضحكنا كثيرًا من سذاجتنا إذ كنا نظن أن أحدًا لن يعرف ما نفعل , ولا من نقابل ونظن أن  
الاسم (الحركي) يكفي ليخفي شخصية الواحد منا حتى في البلد التي يعرفه فيها حتى الأطفال  
.. تذكر أحمد سائق العربة الجيب الذي أكملنا معه الطريق من (طناح) إلى (ميت فارس) بعد  
أن ورمت أقدامنا من المشي وكيف ظل طوال الطريق يؤلف نكتًا ويضحك عليها .. فنضحك  
مجاملة طبعًا ..

- فإفكر نكففة عن (عبء الناصر) !. وإنه سابهه فف المنصورة (فخطب) فف كل الرءاوى والقهاوى لكنه لم ففء (عروسة) واحة ءرضاه عرفسًا.. ! عشان مءءوز ومخلف كمان .
- وءنكرنا نظراء الرعب ءة كانء ءلوح فف عفون البعض عنءما فعرفون لماذا أءفنا إلفهم , أو الءفن أنكروا وءوءهم فف بفوءهم أو ءءى أنهم ما زالوا على قفء الءفاة !
- هو أنء كنف عافز كل الكلام ءه عن الشفوعففن (الكفرة) اللف بفءءوزوا اءواءهم , واللف ء فاءءوا الأرض , ففربوا الأطفال كلهم مع بعض ف الملاءف . ففر أءبار ءءءفب ءءى الموء فف المعءقل . ففرءبوا بفنا !
- لأ واللف بفقول ءا مفن ؟ رففس ءمهورفة ووزفر المعارف . قصءف ءرفبفة وءءعلفم الشاوفش الءكفم (كمال الءفن ءسفن) .
- ءصوّر فا (سمفر) فف الففوم من كءر ما صوورنا لعساكر الءرءة ءاآفة أنا (كفار وشفاطفن وعفارفء) .. العساكر كانوا بففرعوا فف عز اللفل ولما ففروءوا ءورة المفه بفشفوفا عفارفء فعلاً . وعفارفء شفوعففن وفصرءوا لو سمعوا فف الضلمة أو ءسوا ءركة صرصار - إءقوا الءقونف عفرفء شفوعف عفرفء شفوعف!!
- وكاء عبء الءمفء فءءنق وهو فءاول مقاطعة ضءكءه لفءكف عن ءلك العسكرف الءف كان فءءسس ءءء شباك عنبر (2) وكان هناك زمفلان فلعبان الشءرنء فإءا بأءء هما فقول (لأ ءه ءورف ء آكل العسكرف ءه) فانءلق صارءًا فسءءءء بالفارة وهو فزرع .
- الءقوا .. الشفوعففن عافزفن فاكلوا العساكر . ء فاكلونا فا سفاءة المأمور!! .. وقال أءمء :
- إءارة السءن كانت ء ءءءنن , إزاف كل اللف فف العنابرف بفءفقوا على نفس الكلام .. فف نفس الوقت وبءأوا فبءءون عن أءهزة لاسلكف ءففة أو أسلاك مءقونة ءءء الأرض .
- مش كل العساكر هبل زف العسكرف ءه .. كان هناك شاوفش كل ما فأمرف المأمور بءء ءء من الزملا .. كان فءرف .. ءمام فا افءم وفصم هو اللف فنفء الأمر . وكأنه مءمن بء الشفوعففن .. بعض الزملا فكروا فف الانءقام منه ومعاقبءه على ءذا الإءمان المرصف لءء ما (فاروق ءابء) ءءل ءءءفب مرء بعء بءءه .. وكانء زنازفن ءءءفب بءب الإءارة . فنشأء بفنه وبفن الشاوفش ءه صءبفة , بعءءا (فاروق) اكءشف ففه إنسانفة ءففة ءءء قناع القسوة . وف ساعة صفا سأله عن سر لهفته الءائمة وءطوعه لءنففء البء بكل ءذا الءماس!



- يا أستاذ فاروق .. العساكر اللي هنا غشيمة جاين من ورا الجاموسة وما يعرفوش الأصول ولا الرحمة , أنا راجل بقى لي سنين وسنين في المخروب ده وغيره . واعرف إزاي أضرب من غير عُشْمِيَّة . أنا لو سبت البهايم دول يضربوا كانوا ح يضبشوا .. يقلعوا لده عين ويكسروا لده ضلع أو يموتو له كلية .. الجلد ده (فن) عشان ما يبقاش قتل .

وتأملت سلوك هذا الشاويش مقارنة بشاويش السجن الحربي المعروف بالغول والذي استجاب لتوصية ظابط مافون فافترس (عزيز) المسكين وهتك عرضه . فدمر نفسيته وخرب روحه - التي لم تحتل ولم تجد عودته إلى طبيعته واندمجه في الرسم والحياة العامة واكتسابه لصداقات جديدة لا تحكها الأغراض , فظل يطارده عاره حتى دمره .

رغم ما كان يحاصرنا من حزن قمت بتدبير ليلة ترحيب بعودة الزميلين فجهزت لهما صحفاً وكتباً وسجائر وطعاماً وكانني أسعى لإبعاد شبح زيارة (محمد طه) وما صاحبها من مأساة (عزيز) .

وَألف رجب الجن (عنبرة) مخصوصة كعادته لتحية الضيوف (زهرة الحركة الوطنية) مثلما فعل أكثر من مرة في زيارات الزملاء السابقة .

وتصادف أن (عبد الله بولجانين) كان في داخل العنبر ليلتها فوضع نفسه تحت تصرفنا لخدمة من يريدون تحية ضيوفى ونادى (عبد الله) على (أحمد يوسف) الذي تعلق بالباب . وظلا يتسامران وكلاهما حكاء لا يبارى طوال فترة النبطشية ..

بينما ظل (عبد الحميد) يحكي لي عن معتقل (العرب) الذي كان يشبه معتقلات (النازي) في مكان موحش بالقرب من دير (الأنبا إبرام) على بعد حوالي (15) كيلو جنوب مدينة (الفيوم) حيث مقابر المسيحيين . وعلى بعد نصف كيلو تقع مقابر المسلمين . ووسط الصمت الرهيب للمقابر توجد بوابة (الآخرة والموت) على شكل عنابر (معتقل العرب) تحيط بها الأسلاك الشائكة ومساحات من المستنقعات . حيث ترتفع من السور الأساسي أبراج الحراسة الخشبية والكشافات الضوئية التي تلمس المنطقة مشفوعة بنداءات الحراس حاملي المدافع الرشاشة يزعمون (واحد تمام .. اثنين تمام) ليل نهار . وكان مبنى الإدارة يقع على يمين العابر للبوابة التي تسد الطريق مكونة من عدة طبقات من السلك الشائك . وعلى اليسار كانت هناك ثمان عنابر كل أربعة متوالية في ناحية وبينها أسوار شائكة أخرى وسطها طريق عريض من أول المعتقل لآخره يفصل بين العنابر ودورات مياهها التي تقع كل واحدة في صف خلف العنابر . وهي دورات لا آدمية بلا أبواب أصلاً وفي كل منها حوض من الصاج الصدى يفصل بينهما وبين آخر عنبر مساحة

كبيرة . وليس هناك سور يحيط بالمعتقل من الطوب كغيرة من السجون . ولذلك تصبح مساحة المعتقل كلها حرة للريح الباردة في الشتاء لا تحجزها موانع ..

وفي الطريق الوسطى كانت خيام جنود الهجانة الذين يضافون ليلاً إلى حراس السجن بكرابيجهم المنقوعة في الزيت على الدوام وجاهزة لتنفيذ أوامر الضرب عندما يحل أوان التأديب والتكدير . والعنابر مستطيلة تغطيها جمالونات من الخشب المغطى بالصاج وبذلك تصبح ثلاجات زمهريرية قارسة في الشتاء وتتحول في الصيف إلى نار جنهم ..

وتحكم هذا المعتقل عصابة من أردأ الضباط الجهلة الذين سُحنوا بالكرهية ضد الشيوعيين الكفرة . وزاد حقدهم علينا أنهم حرّموا من (بقرة) تجار المخدرات الحلوب التي كانت تدر عليهم المئات من الجنيهات . ولم يكن لدى الشيوعيين ما يقدمونه لهم تعويضاً عن خسارة مكاسبهم من التستر على النزلاء السابقين فضاغف ذلك من حقدهم وقسوتهم ..

في شهر يونيو الماضي وقبل وصولنا قررت قيادة المعتقل السياسية مواجهة هؤلاء الوحوش .. الأبواب مغلقة طول اليوم إلا قليلاً .. وهناك ساعة واحدة كل يوم لقضاء الحاجة والغسيل والاعتسال . وكل شيء ممنوع تقريباً .. حتى تبادل الحديث بين المعتقلين خلال ذهابهم ودعودتهم من دورة المياه .

كان الجلد هو الإجراء العادي عقاباً على أي شيء , حتى لو شك الجندي في هزّة رأس زميل باعتبارها (كود حركي) له معنى سياسي . وكان الغذاء هزيباً لا يسد جوعاً . وتسربت معلومات عن كمية ونوع الطعام المفروض صرفها . وكان نصفها تقريباً يُنهب لحساب قائد وإدارة السجن الذي حرّم أي شكوى من الطعام ضد المتعهد .. وزادت حالات المرض بين المعتقلين ولما طلب المرضى العرض على الطبيب قام قائد المعتقل باستدعائهم وجلدهم ..

ولذلك كان قرار المواجهة بالامتناع عن استلام الطعام للضغط لوقف عمليات الجلد . وتحسين الطعام والسماح للرسائل وطرود الأدوية من الأهل . وكانت عزلة العنابر والحراسة المشددة عقبة في تبليغ هذا القرار والاتفاق على موعد موحد للتنفيذ .. كانت هناك استحالة .. وتوصل (زهدي) الرسام إلى حيلة , فكتب بطريقة فنية على جردل البول وبخط فني لب القرار وموعده ومضى حاملاً إياه ليراه الزملاء في النصف الثاني ..

وفوجئت إدارة المعتقل برفض كل العنابر في وقت واحد استلام الطعام وُجُنَّ جنون قائد المعتقل (أحمد منير غالي) وهو يستمع من كل العنابر بنفس الإصرار على نفس المطالب . والتمسك بنفس الموقف . واضطر إلى الرضوخ ووعده بوقف الجلد وتحسين الطعام .. ولكن استقر في أعماقه أن هناك قيادة وراء هذا كله ولا بد من تأديبها . وبدأت الحرب .. فشدد قائد المعتقل من الرقابة والمنع وتسارعت وتواترت حملات التفتيش ..

بينما ابتكر المعتقلون وسائل للاتصال .. بدأوا باستخدام ورق البفرة في تبادل الأخبار والتحليلات . وكانت الأوراق المكتوبة من أشنع الجرائم ولكن المعتقلين تقننوا في تبادلها وإخفائها . وانتقلت الرسائل السرية على علب الدواء . وانتقيت مخابئ في أماكن بعينها في الفناء وفي دورات المياه .

وحدث في شهر سبتمبر الماضي أن ضُبطت أوراق بها تقرير حزبي مع طالب اسمه (حمدي) كان يحاول إخفاءها في دورات المياه . فألقوا به في زنزانة التأديب . وأشبعوه ضرباً وركلاً وجلدًا حتى اعترف أن (فوزي حبشي) هو الذي أعطاه الأوراق , وكلفه بإخفائها وأنه المسئول الحزبي في عنبر أربعة فرموه في التأديب بعد نفخه حتى كاد يموت بين أيديهم .. وشعر قائد المعتقل بانتصار يمكنه أن يعيد به الحال إلى ما كان عليه .. وفي يوم (9 سبتمبر) استدعوا فوزي للإدارة وكان زي ما انت فاكر يوم ذكرى شناق (خميس البقري) . قاطعنا أحمد يوسف :

- ذكرى قانون الإصلاح الزراعي .. برضه يا زميل !!-

لم نعلق على الملاحظة الساخرة فاستمر (عبد الحميد) يحكي في أسى خفي . وكان استدعاؤه للإدارة حيلة لإبعاده عن العنبر . إذ كان قد حدث احتكاك بينه وبين أحد الضباط رفض أن يسمح لاثنين من زملائنا بالذهاب إلى دورة المياه ..

ولكن الاحتكاك كان حجة لإبعاده في الانفرادي كتأديب .. فالمأمور كان يخفي ما هو أخطر . إذ علم الزملاء أنه اتصل بالمباحث العامة بعد ضبط التقرير واعتراف (حمدي) .. وتاني يوم وصلت للمعتقل عربية سوداء صغيرة وأخرجوا (فوزي) من التأديب ليجد فرقة من العساكر في انتظاره ليجردوه من ملابسه تمامًا . وأحاطوا به يتوسطهم ضابط مباحث الفيوم واسمه (عبد العزيز شاكر) ومعهم (منير غالي) قائد المعتقل ووكيله (التونسي) وملازم (اسمه فتحي) وانهاال الضرب عليه من كل اتجاه عشوائياً بالشوم والكرابيج السوداني زي المطر على كل أجزاء جسمه لدرجة ما بقاش همُّه إلا أن يحمي عينيه . وقد نزف الدم من أنفه وفمه بغزارة وغرق جسمه .. لكنه تماسك حين قال له (عبد العزيز شاكر) إنهم عرفوا (إنك انت الزعيم بقي اللي بتحرّضهم .. عايز منك بقي تحكي لنا التفصيل .. ورد عليه (فوزي) أنهم لن يحصلوا منه على أية معلومات . فازدادت كثافة الضرب على كل أجزاء جسمه حتى غطاه الدم ..

وجاءوا بالولد (حمدي) من التأديب . فاقترب منه وهو متكوم كالذبيحة . وقال له : (قول لهم وارحم نفسك , أنا عذبوني لحد ما قلت عليك فاختر السكة واعترف) .. ونظر إليه (فوزي) مشفقاً وأدار وجهه الدامي عنه . ولما طالت الكرابيج عينه صرخ فيهم يا اولاد الكلب عيني

راحت . وهجم على الزبانية الجالسين يتابعون المجزرة فضربه أحد العساكر بشومة في رجله فانكسرت عظمة الساق .. وضربه أحد العساكر على دماغه فسقط على الأرض لكنه تحامل للوقوف حتى لا يلوث جراحه .

جرّوه إلى الزنزانة على الأرض . وقد حاول العساكر سحله فعلاً ولكنه قام فاغتاظ الضابط شاكر وأصدر أوامره باستمرار الضرب مادام لسه فيه نفس وحين لمح (فوزي) الوكيل (التونسي) وكان أقلهم ضراوة - من الآخرين - خلع دبلة زواجه من يده وناولها له وقال له : (سلمها لاولادي ومراتي بعد موتي !!) .

مقابض الكراييج انخلعت من الضرب وراح عسكري لمخيّم الهجانة يطلب منهم كراييج غيرها فهاجوا عليه وسبوه .. (اخرج يا ابن الكلب مات الرجل في إيديكم وجايه كمان تطلبي كراييج يا كلبة إمشي ..) ورفضوا أن يشاركوا في الجريمة التي تحدث أمامهم بينما (فتحي) الملازم يأمر العسكري يجيب كيس ملح كبير من العربية ودوبوه في الميه وصبوا الميه على جسم (فوزي) فقادت النار فيه . وكانوا طبعاً يقصدون بكده أن تصيبه صدمة أو سكتي قلبية .. لكنه قدر يخيب أملهم وبالعكس الملح طهر وخفف الجروح .

ثم سنده عسكري حتى أدخلوه زنزانة التأديب الخالية حتى من البرش فسقط على الأرض خائر القوى مغشياً عليه .

كنت أثناء ذلك أستمتع (لعبد الحميد) وأنا أجهز العشاء . كنت قد استعرت (توتو) كبيراً من إحدى الزنزانات علاوة على (توتوي) الأصغر لكي أحسن من مذاق قروانة (اليمك) التي أهدانا إياها (عبد الله) ولأعيد صياغة قروانة اللحم التي كانت هدية من المطبخ للضيوف ..

والتوتو - ليس هو التوتو المعقد ذو الشرائط الذي عند السوابق والمعلمين الكبار . ولكنه ابتكار بسيط يكفي لشئون زنزانة فرداني . عبارة عن (كوز) من الصفيح , علية (سلمون) أو علية (درويس) أو (كاكاو) يتم تخريم دائرة من الخروم أسفل الحافة العليا بحوالي 1.5 سم .. وأعلى القاع بحوالي 3 سم حيث توضع (الكهنة القماش) المشبعة بالجاز أو السولار .. والتي تشعل وتوضع القروانة فوق الكوز مباشرة . فيخرج اللهب من الخروم العليا أزرق نقياً .

وبعد أن حمرت البصل نصف تحمير وأضفت له اللحم بعد تقطيعه مع حبة قوطة صنعت طبقة شهياً .. ونفس الشيء مع طبق السبانخ الحكومي .. وجهزت معها سلطة ملكي وبصل أخضر . وكان (السجين) القاطن في الزنزانة تحت مني قد أرسل دجاجة (سنبلاوني) محمرة ترحيباً بالضيوف مع محشي كرنب فلاحي .. وكانت رائحة الطعام تقاطع (عبد الله) وحكايته

وتتعجله أن يفرج عن (أحمد) المعلق خلف الباب . وأمهلنا حتى موعد دورته القادمة (لضرب الفيش) .. سألته ضاحكاً لأداعبه ..

- وصلتكم لفين ؟ العمارة ؟ والا ابن اخت إليزابيث ؟
  - وانت مالك يا شيوعي .
  - أنا بس باطمئن على (أحمد) قبل ما تغسل له مخه ببطولاتك مع الانجليز .
- قال أحمد :

- لا .. احنا داخليين على جوازة اللوا (المسيري) .
- تركه (عبد الله) ليقوم بواجب الحراسة وتلبية رغبات المواطنين . قلت لأحمد :
- بص على الحيط اللي جنبك ح تلاقي رقم تليفون . وابقى راجعه مع الرقم ح يذكره بعد شوية .

- وده رقم مين ؟
  - لا .. أصل أنا طبعاً كنت أظنه ينخ . لكن الحق لا بد إن للحكاية أصل .. ده حكى لي الحكاية دي مرات كثيرة وكأنه بيحكىها لأول مرة كل مرة ! أنا كتبت الرقم عشان قال اكشفه وإنه بيألف الحكايات دي فوري أول بأول . لكن يا أخي .. قاله هو هو بعد أسابيع وبالضبط ..
- قال عبد الحميد :

- إيه يعني ما هو بيحكى نفس الإسطوانة فلانم يحفظها . زي ما انتو بتتسلوا عليه هو بيتسلى عليكم ..

صَفَّقَ (أحمد) وهو يرى المائدة الفاخرة :

- إيه يا ابني دي عزومة ؟
  - هو احنا ح ييجي لنا أعز منكم .
  - .. وعبد الحميد وصل في (إسطوانة العزب) لحد فين ؟
- احتج (عبد الحميد) دون غضب :

- أنا باحكي له على اللي حصل (لفوزي حبشي) لما الواد (حمدي) اعترف عليه ..
- تلاقت أعيننا دون أن نقصد فاحمر وجه (عبد الحميد) للحظة وساد صمت ثقيل لثوان
- لكن (أحمد) صرخ كاسراً الحرج ومغيراً الجو :
- جرى إيه يا زملا .. حد يشوف المائدة دي ويتكلم في الاسطوانات ؟؟ إيه يا ابني ..
- انت هنا في البلهنية دي على طول ؟ .. واحنا بنكافح في ميادين البرد والجوع .

- لأيا حدق دا ترفيه بمناسبة وصولكم مش على طول .. دي مائدة من السماء للمحرومين والمضروبين من من أبناء العالم الثالث المحبوسين ما بين (الواحاحات والفيوم) .

وما أن بدأنا نأكل حتى سمعنا خطوات بولجانين الإبلية تدق فوق بلاط الطرقة وتهز العنبر :

- إيه يا شيوعية .. إصعد إلى النخلة !

- إنت لحقت .. اتفضل معانا يا بولجا..

- دانتو بتاكلوا بقى .. طب خدوا..

ومد ذراعه ببساطة من فوق الباب . كانت كفه تحمل برتقالة بصرة كبيرة وقام عبد الحميد وتناولها منه فأتبعها بأخريين .

- خدوا ..

- يا عم متشكرين ..

- أنا بقى ح اضرب بلطة في العنبر وراجع لكم . وعلى فكرة (القص) عازمكم على الشاي .. ما تكلفوش روحكم ..

وأصر (أحمد) على إرسال عليه سجائر كاملة لـ(القص) وأخرى (لرجب الجن) الذي ارتفع صوته بعنبرة خاصة يسمى بها على (زهرة الحركة الوطنية) و(أبطال الشيوعية) .

- شفت آدي انت اعترفت بالتهمة اللي ح تلبسك بكرة .

- يا سيدي بجملة .. شرف نتماه وتهمة لا ننكرها ..

ولاحظت أن (عبد الحميد) قد اختلجت عضلة خده وبريش بعيون غائمة وقال :

- على فكرة أنا في الجلسة ح اعترف بالعضوية واعمل دفاع سياسي ..

ونظر إليه أحمد نظرة عتاب ولوم .

- ما تتخنهش بقى يا (عبد الحميد) مش فيه قرار من الحزب .

وكان الحزب قد أبلغهم أن خروجنا في هذه الظروف أمر مهم لكي يعيد العافية للتنظيم في الخارج . ولذا فهو يسمح للأعضاء بكتابة تعهد بعدم الاشتغال بالسياسة إن كان هذا هو شرط الخروج وليس أكثر .

وكنت قد اعترضت على القرار . أبلغني به (أحمد) إذ ذكرني بتحليل (محمد طه) لما حدث بعد قرارات (61) وما ذكره أن تنظيمنا يتخذ منها تبريراً لخطئه بحجة أنها هيأت الظروف أكثر لانعطافة نحو اليسار ولكن الكثيرين يقولون (طالما بقي) الشيوعيون وراء الأسوار فإن النية

مازالت مبيّنة لتصفية الشيوعيين . وأن الخروج بالكتابة وبالإقرار بعدم الاشتغال في السياسة لا تفرق عن الإقرار بالاستنكار . فكلاهما يجردان الإنسان من هويته وإرادته وتسلبه مصداقيته كسياسي واشتراكي . إذ كيف يمكن لنا أن نواجه زملاءنا في الخارج بتعهد بعدم الاشتغال في السياسة ونحن سندعوهم للعمل معنا . وكيف نجندهم إلى صفوف الحزب إذا كنا نتخلى عنه بتحويله إلى نادٍ أو جمعية غير سياسية .

- باقول لكو إيه ؟ ما تسدوش نفسنا على الأكل .. القرار ترك الحرية لكل زميل أن يختار . وليس ملزماً ..

- خلاص أنا شخصياً شايف انه يلزمننا الدفاع السياسي .  
- يا زميل (عبد الحميد) ليه التطرف ده ؟ ماتكتبش إقرار وخلاص .. لأنه مهم لنا اننا نخرج . والزملا رأيهم إن المدة اللي قضيناها يادوب هي اللي ح يحكم بها القاضي في الظروف دي .. بعد الدفعات اللي خرجت والاتجاه لتصفية المعتقلات . ثم إن دا مش قرار دا توجيه أو توصية والحزب ترك الحرية للزملاء وانت تستطيع الموافقة على توجيه الحزب أو رفضه .. إيه لازمة الاعتراف دلوقتي .. خلاص .. ولكن (عبد الحميد) الذي ظل طوال تلك المدة يؤرقه اعترافه (بنصف) اسمي في التحقيق باعتباره سقطة لم يغفرها لنفسه . خاصة وقد عذبه عند وصولهما إلى معتقل العزب ما جرّه اعتراف أحد الزملاء الطلبة باسم مسئوله (فوزي) في العنبر وكيف كاد أن يؤدي بحياة ذلك المسئول ويلقي به على مشارف القتل .

كنا قد انتهينا من العشاء وأشعلنا السجائر وجاء (بولجانين) بالشاي فأخذت سمت المسئول وقلت بحسم :

- خلاص اطلع يا (احمد) كمل الفليم وعبد الحميد ح يلتزم .. احنا مش ح نكتب أي إقرارات لكن لو الأمر احتاج دفاع سياسي فأنا المسئول .. ودا مرهون بظروفه لكنه قراري أنا .

ضحك عم (حسن عطية) وهو يسلمنا لتقييدنا إلى ثلاثة من حراس الترحيلات :

- هيه برضه حكومة هبلة اللي قايمه على رجل بسببكم .
- ليه يا عم حسن ..
- لما تخرج ح تعرف وتشوف .. لكن برضه ما انتو خطرين .

وضحكنا خاصة عندما ظهر نائب المأمور (عبد العظيم الريدي) على باب المكتب وقال في ابتسامه ذات مغزى وكنت قد علمت أنه سيقوم بأجازة ..  
- بطل كلام مع بعض يا مسجون انت وهو .. ياللا بالسلامة أنا عايز ارجع ما لاقيكوش في السجن . ياللا إنشاء الله تروحوا .  
وخرجنا ضاحكين لنفاجأ في الخارج بالعدد الهائل من رجال البوليس ورجال قوات بلوك النظام المنتشرين على الطريق وكأنه حصار للسجن استعدادًا لاقتحامه .  
وعلى طول الطريق حيث أركبونا عربة جيب مغطاة تسير أمامها سيارتان ملاكي بهما ظباط وخلفنا عربة جند كبيرة محملة بالجنود المسلحين بالرشاشات ..

الحقيقة كان منظرًا يثير السخرية لدينا . فكل هذه الاستعدادات وكل هذا الهلع لنقل ثلاثة شبان عزل (طالب وتاجر و .. ترزي) إلى المحكمة ..

كان الزوار الملتقون حول السجن والذين جاءوا للزيارة كالعادة متعودين على رؤية مساجين يخرجون يوميًا للمحاكمة على جرائم قتل وسرقة وخطف وقطع طريق . وعلى مساجين من كل نوع قتلة وهجامين وتجار مخدرات ، ولكن حصرهم هذه المرة بين عشرات العساكر المسلحين وجدار السجن أثار دهشتهم . وعندما تبينوا هويتنا وشاهدوا هيتتنا تحولت دهشتهم إلى تعاطف وخاصة أننا أخذنا نلوح لهم في براءة وصدقة جعلتهم يبادلوننا التحية ..

ولما هتقنا (تحيا مصر .. عاش كفاح الشعب المصري) كان الذي أدهشنا نحن هذه المرة أنهم ردوا علينا رغم غضب العساكر وعصبيتهم ورغم أنه لم يكن هناك أحد من أهالينا الذين كانوا طبعًا محتشدين عند المحكمة في المختلط ..

كان هناك عساكر على طول الطريق إلى المحكمة مما أعطانا إحساسًا بالزهو والأهمية . وحين وصلنا إلى باب المحكمة ورغم عدد الظباط الكبير وكان بينهم عدد من ذوي الكابات الحمراء والجنود الذين كانوا يصنعون حاجزًا مزدوجًا لنمر منه - تدافع الأهالي وكان (أحمد ومحمد) قد تعرّفوا على أقارب لهم ومعارف من (ميت الحلوج) ..  
- أمي هناك هي ..

قالها (عبد الحميد) وهو يكاد يختنق بالدموع .. جعل السيدة العجوز لا تبالي بمن أمامها واندفعت نحوه .. ساعتها ازداد غضب الظباط . لكن (عبد الحميد) اندفع نحوها جاذبًا إياي معه وكنت مقيدًا إلى يده من ناحية فشق طريقًا إليها .. وهي لا تكاد تظهر من بين أجساد العسكر والأهالي .. فمد يده يلمس ذراعها الممدودة فغضب ضابط كبير ودفعها إلى الخلف فكادت تسقط



وسط الزحام ووجدتني أصرخ وأقفز جاذبًا الجندي المربوط معي إلى حيث الضابط فأطاحت يدي بقبعته ذات الشريط الأحمر إلى الأرض :

- يا اولاد الكلب دي أمه يا ظلمة يا كفرة . فيه إيه ؟

وكاد الأمر أن يتطور خاصة وقد رفع عدد من العساكر عصيهم لإنقاذ كاب اللواء من الدهس تحت الأقدام . وتكتلوا ودفعونا إلى داخل صالة المحكمة فخف الضغط قليلاً فتشبتت بلأرض ورفضنا جميعًا التحرك إلى داخل قاعة المحكمة إلا بعد السماح بدخول أهالينا .. ولم يكن الحراس يتوقعون هذا ولكن يبدو أن من حشدهم إلى هذه الدرجة , أدخلوا في روعهم أن من جاءوا لحراستهم على درجة قصوى من الخطورة وأن أشياء رهيبية سوف تحدث . فقد فوجئت بالضابط اللواء الذي أسقطت كابه غصبًا عني يكاد يحتضن (أم عبد الحميد) وهو يسندها ويقودها نحو القاعة ويصدر أوامره للعساكر بإفساح الطريق أمام الأهالي للدخول ..

- أهالي المتهمين بس .. ما حدش تاني يدخل . افتح الطريق منك له ..

وشكرته لأعلمه أنني لم أقصد إهانته .. فأوصل والدته (عبد الحميد) حتى الداخل وكأنه يفعل هذا بكل إرادته ..

كانت واقعة عادية لم يتعمد أحد وقوعها .. ولكنني أذكرها لأنها طارت على أجنحة الخيال الشعبي لتصبح في (ميت سلسيل) قصة تروى عن (ابن عبد الباقي) وكيف (مرمط) باللواء الأرض .. مثلما قيل لي من قبل من أحد الخفرء الذين جاءوا لقضاء عقوبة الحبس في السجن لأن سرقة حدثت في دركه والذي كان في البلد بالتأكيد ليلة تفتيش بيتنا - بأن الحكومة قبضت علي وأنا أوزع منشورات الحزب الشيوعي فوق (دمياط ورأس البر) في طائرة هليكوبتر !! المهم ..

في داخل القاعة كان هناك القليلون من (ميت الحلوج) من أصدقاء وأقارب . وأيضًا الحاج (محمد) الأخ الأكبر (لأحمد) لكن معظمهم من النساء تحسبًا كما قال لي من اتهام باقي رجال العيلة ، وكفاية (سيد) . كذلك كان هناك والدي وأخي (عادل) وأخي (جمال) وكان في الثامنة من عمره .. وكان أبي قد أجلس أمي وأختي (سميرة وحسنا) بالقرب من القفص . مما أتاح لي ولهن تبادل الحديث والرؤية القريبة بينما جاء هو يستقبلني عند دخولي القاعة واحتضنني قبل دخولي القفص .. كان جسمه ينتفض بين ذراعيّ المقيدتين . سألته عن (آمال) فأكفهر وجهه وقال : عندها ظروف .

فكوا قيودنا بعد دخولنا إلى القفص وجاء المحامون لمقابلتنا .. وكنا قد اتفقنا مع بعضنا على إلزام المحامين بالدفاع القانوني ومنعهم من سب الشيوعية أو ذم الشيوعيين وصرخ (عبد الحميد) منفعلاً عندما دهش محاميه لموقفنا .

- هو أنا لو متهم بالسرقة ح تتطوع لشتيمة الحرامية !  
قلت له :

- إهدا يا (عبد الحميد) .

وخاطبت المحامين في شخص الأستاذ (عثمان زكي) الذي كان والدي قد وكله للدفاع عني :

- يا أستاذ (عثمان) .. أرجوكم تلتزموا بالدفاع القانوني وبس .
- إنت كده بتقيد حريتنا في المرافعة .. يا إما مش عايزين براءة .
- عايزين كرامتنا قبل البراءة .. أرجوكم .. لو مسيت الشيوعية أو الشيوعيين في مرافعتك أنا ح اضطر أوقف الدفاع واعمل دفاع سياسي .. !
- لأبقى .. انت كده ح تشلنا .. أنا وعدت والدك بالبراءة .
- أستاذ (عثمان) .. إنت سمعتك كمحامي فوق العادة .. لكن احنا .. وبلاش احنا .. أنا شخصياً أفضل السجن والإدانة على البراءة على حساب المبدأ . ولاحظ ان النيابة أفرجت عنهم الاتنين .
- ومع ذلك إحنا متضامين معاه ..
- أرجوكم .. النيابة ح نتحمل سبابها وشتيمتها لأن ده شغلها وان كنا بنطالبكم بالرد عليها ..
- يا أستاذ احنا بنأيد حكم عبد الناصر وقراراته الاشتراكية .
- المجلة اللي تحت إيدكم بتتطق بكده .. إقروها ..
- ثم إحنا دخلنا بورسعيد وحاربنا . زملاءنا من (ميت الحلوج) وطناح وغيرها .. واستشهد منا شهداء في كل المعارك الوطنية .
- إحنا مش أقل وطنية من القاضي ولا من وكيل النيابة ولو انهم بيقبضوا على وطنيتهم مرتبات ..
- أنا مستغرب يا أستاذ (سمير) من موقفك .. أنا عايز لك البراءة .
- الكرامة يا أستاذ (عثمان) الأول .. ده موقفنا وأرجوكم ما تخرجناش ح يجرى إيه؟  
نقعد ثلاثين شهر تانيين مش ح نموت !
- جاء أبي يستطلع الأمر لما طال الجدل مع المحامين .. ولما أخبره (عثمان زكي) بما جرى انفعلي وقال لي :

- إيه يا ابني .. هو انت ما تسترش أبدًا .. إحنا طافحين الكوتة بسببك وانت مش حاسس .. شوف أمك واخواتك اللي قاتلهم البكا .. والا اخوك الصغير , دي (آمال) كانت ح تتطلق بسببك .
- يا بابا .. أنا كل اللي بطلبه م الأستاذ (عثمان) هو الدفاع القانوني . كفاية النيابة ح تشتمنا .. ح نخش معاها سبق في الكذب . ما ينفعش . (آمال) اتطلقت قبل كده عشان كرامتها وهي أدري بمصلحتها .
- هدأه الأستاذ (عثمان) وأعاداه إلى مكانه حيث تجلس أمي وأخواتي وعاد إلي ..
- خلاص يا أستاذ سمير .. ح احاول . بس في الحالة دي البراءة صعبة .. انتو كده بتضيعوا مستقبلكو .
- مش على حساب كرامتنا والمستقبل في علم الغيب ومش بإيد حد .
- كان ردنا جماعياً والتزم المحامون به .. وكان الأمر أسهل بالنسبة (لأحمد وعبد الحميد) .. لأن تقرير خبير الخطوط أثبت أن خط مقالات (صوت الفلاحين) كان خطي أنا رغم محاولاتي إخفاء ذلك وتلاعبي بطريقة الكتابة والحروف . وقال القاضي إنه يراعي في حكمه صغر سن المتهمين وقلة خبرتهم بالحياة وأنهم بالتأكيد تعرضوا للتضليل ولذا فهو سيكتفي بالمدة التي قضوها في السجن كدرس ينبغي عليهم كشباب استيعابه .. وحكم بناء على ذلك بسنتين لكل منا وب(3) آلاف جنيه غرامة ..
- وارتفعت هتافات متفرقة .. يحيا العدل . باعتبار أننا كمن بحكم ببراءتهم فالكل يعرف أننا قضينا المدة والمصاريف ! وبالتالي كان الحكم يعني خروجنا إلى الحرية .. وارتفعت زغاريد بعض النسوة .. ولكني نظرت ناحية أمي مبتسماً ومشجعاً لها ولأخواتي . لكنهم جميعاً كانوا يبكون أو يكادون .. كانوا يعرفون كما أنا متأكد أنهم لن يفرجوا عنا .
- فأمر الاعتقال ل(أحمد وعبد الحميد) مازال قائماً .. وعلى الأحرى ينتظرنى بالتأكيد مثله . فأنا الذي كان موقفه أشد سوءاً في القضية ..
- وأعادونا إلى السجن ..
- اختُطفنا عقب النطق بالحكم .. ووسط إحساس زائف بالخروج إلى الحرية لم نجد فرصة لوداع أهلنا كما ينبغي فقد عم لدينا وهم أننا أمضينا مدة الحكم وليس هناك سوى ساعات قليلة ونكون في الشارع أحراراً نتبادل الأحضان والقبلات حتى نزهق ..
- وعادوا بنا إلى السجن في لمح البصر ..
- وفي السجن اكتشفنا أننا بصدور الحكم لم نعد ننتمي إليه ولا إلى لوائحه ..

وصلنا السجن في ساعة القيلولة حيث الزنازين والحوش ليس فيه سوى أعداد قليلة منشغلة بأعمال مختلفة ..

أبلغونا أننا سوف نرحل على الفور .. فالسجن لم يعد بيتنا . واستبقى حرس الترحيل حتى ننتهي في أسرع وقت من إجراءات الإفراج واصطحبنا أحد السجانة إلى الزنازين مع تعليمات مشددة بالإسراع ليحضر أشياءنا الشخصية وكان الكاتب جاهزاً لتسليمنا مالنا في الأمانات . وكان الرائد (الريدي) قد قام بأجازته وحضرة الضابط (ميخائيل) يجلس مكتئباً لا يتدخل .. وكان هناك ظابط مباحث وعدة مخبرين .

أخذت على مشمّي فقد كنت أتصور أنه سيكون هناك وقت على الأقل لتوديع زملائي من المساجين والسلام عليهم وترتيب ما يجب من وسائل لاتصالي بهم سواء خرجت أو رُحلت .. وكان أمني ضعيفاً أصلاً في الخروج .. أو في البراءة وأن لدي الوقت الكافي لألم كل تلك الخيوط المبعثرة التي فوجئت بها مع حكم المحكمة الذي يكاد يكون بالبراءة ..

كانت الزنازين مقفلة ونداءات الإسراع تطاردنا . فلم أستطع سوى الانفلات متجاهلاً صيحات السجان إلى المطبخ وودعت زميلي هناك وطلبت منه أن يبلغ زملاءنا بما حدث وأني سوف أعمل المستحيل للاتصال بهم سواء خرجت للحرية أو رحلت إلى المعتقل . وخرجنا وسط حراسة مشددة إلى القسم للإفراج عنا ..

فنحن الآن من رعايا وعهدة المباحث العامة ..

وسط فرحة الإفراج لم ننتبه إلى أننا قد استهلكنا تقريباً معظم رصيدنا من النقود والسجائر . وبتنا في (قسم أول) على أمل أن يأتينا المدد عندما يعرف أهلنا إلى أين سارت بنا الأمور . كان إخوتي في مدارسهم وذهب والديّ إلى سجن (المنصورة) فقد كان اليوم موعد زيارتي الروتينية . ولكنهما فوجئاً بأنني قد أفرج عني بالأمس .. واستطاع عم (حسن عطية) أن يخبرهما أننا لا بد في القسم لأن المباحث العامة هي التي استلمتنا ..

ولم أر والذي قبل ترجلي ولم أشاهد وجه أمي وكنت قد زودت (أحمد وعبد الحميد) اللذين كانت وجهة ترجيلهما إلى (الفيوم) معروفة بما يكفيهما في الرحلة , اعتماداً على أن المسائل ستتحسن إذ لا بد أني سأحظى بزيارة دسمة قبل الترحيل فنحن مازلنا في بلدنا وعلى بُعد خطوات من أهلي .. لكن ذلك لم يحدث ..

\*\*\*

- رحلت إلى القاهرة وأنا شبه مفلس من عملة السجن ومن عملة الحرية . وجدت نفسي مرة أخرى في مواجهة (لاظوغي) ..  
يوم دخلت المبنى في المرة الماضية منذ ثلاث سنوات كان يمور بالحركة . عربات تزمجر خارجة وأخرى تأتي .. حراس في كل مكان , صيحات ونداءات وأوامر وأصوات أسلحة حول البوابة الكبيرة . ومع أننا كنا في ساعة متأخرة من الليل إلا أن الحركة والإضاءة كانت توحى بأن لا أحد هنا يتهيا لنوم أو يفكر في راحة ..

هذه المرة قادني الضابط الذي صحبني والعسكري المقيد لمعصمي نحو البوابة بعد أن حاسب التاكسي الذي ركبناه من محطة باب الحديد إلى الداخلية .. وقدم ورقة لمن يتحكم في البوابة .. فسمح لنا بالدخول .. كان الحوش الرئيسي هادئاً .. والحركة قليلة وروتينية . واصطحبني إلى حيث أشار له الحارس . فركبنا المصعد إلى الدور المقصود . ووجدتني في نفس المكان الذي أعرفه .. كنا على ما يبدو في فترة راحة ولا أحد في مكتبه . وقابل الضابط ضابطاً آخر يرتدي الملابس المدنية .. فسلمني له واستدار العسكري منصرفاً بينما فتح الضابط المدني نفس الغرفة التي أودعت بها في المرة الأولى ودعاني للدخول .. وبلا كلمة جذب ضلقة الباب وأغلقه عليّ ومضى ..

وجدتني أتأمل المكان .. وكان كما تركته في المرة الأولى . نفس المكتب الكالح والكرسي اليتيم .. واللمبة التي غطاها وغطت سلكها فضلات الذبابات والتي تضيء باستمرار لتزيد الغرفة الكالحة ظلاماً . وكوب الشاي ذو البقايا المتخّم بأعقاب السجائر .

كنت جائعًا وخزمنًا - كانت آخر سيجارة شربتها هي تلك التي عزم عليَّ بها الضابط ونحن في القطار .. وأخذتها بعد تمُّع إذ كان يعرف أنني لا أملك أي سجائر .

جريت كل ما جربته من قبل من محاولات لتمضية الوقت الممل وإن كنت (أول مرة) أود أن تدفئني الحركة إذ كنا في عز الشتاء .. أما اليوم فالجو أدفأ .. ولكنني مضيت أدور حول الغرفة وأقطعها من ناحية لأخرى لتمضية الوقت لا أكثر .. ولكن الوقت لا يريد أن يمر .. والنافذة المغلقة منذ سنوات لا يوحي ما يلوح منها من ضوء بأي تغير أو تبدل .. والصمت يتراكم بمرور الثواني والدقائق طويلة لا تحس .. وأخيرًا تعبت .. فأسندت الكرسي على الحائط .. مائلًا وجلست تاركًا ساقِيَّ معلقتين فوق ساقيه المرتفعتين عن الأرض وضممت ذراعي على صدري ورحت في النوم ..

كان التعب شديدًا لا يسمح إلا بالتفكير فيما مر بي حسب ما تسمح به ملامح هذه الحجرة الرمادية الثقيلة الظل ..

وجدتني أتسلل برأسي عبر شريط الضوء الساقط على أرض الغرفة من الباب المفتوح حيث لا حركة ولا صوت وما أن عبرت رأسي الباب حتى صرخ أحدهم مهددًا ..  
- خُش جوه ..

وسحبت رأسي في التو . لكن بقاء الحال على ما هو عليه - لا أحد يأتي ولا أحد يتكلم شجعتني مرة أخرى على التسلل خارجًا إلى الطرقة الصامته والسلم البارد .. حتى وجدتني في الشارع وأنا أؤكد لنفسي أنني حر فقد قضيت مدة عقوبتي وأكثر . ولذا فلا أحد سيمانع أو يعترض على ما أفعله .. وتحيرت ساعتها إلى أين أذهب . فلا يمكن أن تكون شقة (السكاكيني) على حالها . ولا يمكن أن تكون شقة (عابدين) تنتظر . وقد قُبض على كل من فيها من قبل فقد مرت شهور بل سنوات على ذلك .. ولا أحد يعلم الآن بمكاني حتى أبي لابد أنه عاد إلى القسم بعد أن اكتشف أنني غادرت سجن المنصورة .. ولا بد أنه صُدم عندما لم يجدي . ولا بد أنه غضب وتشاجر مع أمي , لأنها هي التي اقترحت عليه أن تذهب لزيارتي في السجن ، وهي لا تعرف أنني رحلت لأنني مفرج عني بعد قضاء مدة حبسي قانونًا وأشفقت عليهما وأنا أرى مقدار إحباطهما ويأسهما والعساكر في القسم يأخذون منهما الأكل والسجائر بحجة توصيلها إليَّ ، بل يأكلون طعامي ويدخنون سجائري أمامهما لإغاظتهما وإغاظتي .. فلم أحتمل وهجمت عليهم غاضبًا .. فاختل توازن الكرسي وسقطت به أو سقط بي على الأرض القذرة .. فانتبهت ..

قمت ألملم أطرافي .. كانت الغرفة كما هي بالضبط مثلما تركتها في المرة السابقة وإن كانت أكثر قتامة . لا شيء تغير بعد كل هذه الشهور سوى أن بابها مغلق ولا ضوء ينسكب على أرضها من بابها المفتوح .. فزادتك حلقة بينما كان الضوء يغمر الطريقة كما حدثتني الشراعة الزجاجية أعلى الباب والتي أكدت لي أن النهار قد مضى وحل الليل ..

الضجة التي فُتح بها الباب انتزعتني من تخيلاتي وقذفت بي على صخور الواقع الحادة .. إذ دخل (البهي) نفس الضابط الملكي الذي جاء بي إلى هذه الحجرة في شتاء (1959) - الأسبق .

- تاني يا ابن عبد الباقي .. ؟ .. ليه كده يا ابني؟ أنا مش نصحتك ملكش دعوة بالناس دي !!

- بتهياً لي ان انا أكبر شوية من إني أكون ابنك يا باشا !

- تاني .. لسانك ده هو اللي وداك في داهية .

- والله لسانني مش هو اللي جابني هنا ..

- أنا مش نصحتك .. إن (حسين عبد ربه) ده واللي زيه ح يودوك في نصيبة ، مش كنت تراعي أبوك وسنه واخواتك ؟  
الترمت الصمت ولم أرد عليه ..

- إيه .. ؟ مش بتتكلم ليه ..؟

- أنا مش ملزم أتكلم .. ثم إن انتو خطفتوني من قسم أول المنصورة وانا على لحم بطني وبما إنكم فوق حكم القاضي والمحكمة ومصرين على اعتقالني رغم إنني بحكم المحكمة حر .. فأنا مش ح ارد احتجاجاً على حبسي وتجويعي .. ح اوفر طاقتي ..

- أفهم من كده إنك ما اكلتش من الصبح . ولسه لحد دلوقتي على لحم بطنك؟  
لم أرد ..

- ولا شاي ولا سجاير ؟ .. دا باين ولا فيه كمان .. مش ممكن .  
ظلت صامتاً جامد الوجه لا أجيّب ..

- بس انت مالكش حق .. كان لازم تنبهنا لكده ..

لم أعلق .. فانطلق خارج الباب ثم عاد بعد قليل متلهلاً .

- خلاص يا سيدي .. كلها دقائق ونصلح غلطتنا .. مبسوط ؟!

بقيت صامتاً ساكناً .. فأخذ يرمقني بتمعن , كأنه يمتحن صلابة موقفي .. ثم تحرك إلى الخارج .. وترك الباب مفتوحاً .. بعد دقائق .. جاء أحد الأفندية ضخام الجسم رأيت فيه (غول)

السجن الحربي .. وجهه الملحم وحواجبه المحترقة وشفته الجميلتين وشعره الأغبر الذهبي  
فملأني بالنقرز حتى كدت أن أتقيأ .. صاح بفجاجة ..

- تعالى .

وخرج من الغرفة ووقف ينتظر أن أتبعه .. فتماسكت متجاهلاً غلظته واتجهت نحوه بهدوء  
فسبقني إلى الحجرة المجاورة التي كان بها مكتب عليه أباجورة وبعض الأوراق . وأمامه عدة  
كراسي جلدية وسطها منضدة عليها لفة ورقية توحى أن بها طعاماً .. قال المخبر في حدة وهو  
يفض اللفافة فأخرج منها .. خبزاً وطبقاً ورقياً به كباب وكفتة .. وعلبة طحينية وطرشي وأشار  
إليها بحدة وقال :

- تفضل !!

وكأنه يقول .. إتسمم .. وعلى الفور زال إحساس الجوع هارياً وقلبت الرائحة بطني ..  
ولكني تغلبت عليها بأن تناولت قطعة خيار مخلل .. أعادت لمعدتي استقرارها .. فجلست  
صامتاً . دخل (البهي) وجلس خلف المكتب مبتسماً :

- أنا بهدلتهم .. إزاي يسيبوك كده .. دا احنا معرفة قديمة , بس أنا زعلان ..

وأخيراً لاحظ أنني لم آكل ..

- الله .. انت مش بتاكل ليه ؟ .. اتفضل عشان نعرف نتكلم . عشان نخلص  
الإجراءات ونتفضل تروح .. إيه ياللا .. كل .

- ما عايش لي نفس ..

- دماغك ناشفة لسه .. يا ابني أنا نصحتك في المرة اللي فاتت وكنت ع البر ..  
قلت لك (دار الفكر) والناس دول ما وراهمش الا الخراب فاسمع نصيحتي دلوقتي .  
ياللا خالص عشان نخلص .. أعتقد انك بعد التجربة اللي مريت بها تسمع نصيحتي  
المرة دي .

- حضرتك مش ملاحظ إنني ما سمعتش نصيحتك وانا ستي عشرين سنة تفنكر بعد  
ما بقيت (23) وعرفتكو على حقيقتكو ح اسمع لك نصيحة !!؟

- يا ابني بلاش سفسطة . خد اكتب الاستمارة دي .. وبعدين ح اسيبك تكتب اللي  
انت عايزه .. بكيفك . كل اللي احنا عايزينه منك نبذة عن سيرة حياتك من (ميت  
سلسيل) لحد هنا .. ياللا تنفع عنوان قصيدة (من ميت سلسيل للاطوغلي) وما  
تلفش وتدور .. احنا أكثر منك عايزينك تروح . بس واجبنا حيال البلد يحتم علينا  
أن نتأكد إنك استوعبت الدرس . وح تبعد عن بلاوي السياسة وطريقها الأغبر ..  
كل الأول .. وح ابعث لك الشاي .. وخذ آدي علبة سجائر بحالها .. بعد ما تاكل



.. تيجي هنا على مكتبي وتقعدي مكاني وتأخدي راحتك .. إملا الاستمارة . وكلهم ورقتين ثلاثة واختصر عشان تلحق تروح الليلة .. بالكثير .. ياللا .. يا سمير ..

وقام وخرج وأغلق الباب خلفه ومضى .. كانت معدتي قد عادت تتحرك فأخستها . وتناولت سيجارة من العلبة الملقاة على المكتب وأشعلتها وعدت إلى المقعد . وحرصت على ألا أتحرك من مكاني .. كان لدي شعور حاد أنني تحت المراقبة فأمنعت في الاستمتاع بالسيجارة مسترخياً .. إندفع (البهي) بعد أكثر من نصف ساعة مقتحماً الغرفة غاضباً وهو يصرخ في :

- فيه إيه ؟ احنا بنهزر !؟

و استطعت استيعاب خضة الضجة المباعثة قبل أن أرد :

- طبعاً أنا مش باهزر .

- ما كتبتش اللي قلت لك عليه ليه ؟ عشان تروح !

- أنا مش عايز اروح .. وأنا أصلاً مش عارف اكتب إيه ؟ وليه ؟

الاستمارة ؟ .. أنا كتبتها من ثلاث سنين هنا وكل المدة دي أنا من ممتلكاتكم وما اتغيرش فيها حاجة .. يبقى لازمتها إيه؟ ..

- وما كتبتش تاريخ حياتك ليه ؟ ..

- أنا مش مغرور للدرجة دي يا بيه .. تاريخ حياة إيه ؟ اتولدت وكبرت ورحت الجامعة وانتوا حبستوني .. يههم مين الكلام ده ؟

- لا .. دانة زودتها خالص .. أنا مطول بالي عليك لحد هنا .

- والله سيادتك ده كرم منك وان كنت شايف ان كل ده مالوش لازمة .. اذا ح تروحوني , روحوني واذا ح تعقلوني .. خلصوني .

بلع ريقه بصعوبه وتماسك مبتسماً .. وقال :

- عندك حق .. ما يهنش تاريخ حياتك .. بس عشان تخرج خد اكتب .. مجرد تعهد إنك مش ح ترجع تاني للسياسة .

- آسف .. مش ح اكتب أي تعهد لأنني مش ضامن عمري وبعدين هو انتو كنتو حابسيني مخدرات ؟ .. حابسيني سياسة .. وما اقدرشي اخرج على بند غير

السياسة .. أموت !

- يعنى مصرّ ؟!

- حضرتك اللي مصرّ ..

نفخ نفخة حارقة في وجهي واستدار وخرج في غضب شديد . وجلست أعاود النظر فيما قلته وما فعلته وأقيمه بهدوء فرأيت أنني لم أتجاوز حدودي .. بل على العكس أعجبت بنفسي جداً .

وملأني هذا بالثقة فأنا أعلم أن هناك كثيرين قد أُفِرَج عنهم .. وأن تصفية المعتقلات صارت أقرب وأدنى مما يظنون .. وأن قليلاً من الصمود والعناد ضروري على الأقل لصحتي النفسية وأنه على رأي أمي - (فات الكثير ما باقي الأليل) . وهزت جسدي قهقهة صامته ارتعش لها جسمي كله من أخصص قدمي حتى النخاع .. فانتفضت نشوة وإن لم أنبس ببنت شفة .. ولا نفس!!

ضجة فتح الباب أعادتني مرة أخرى إلى أرض الواقع . دخل (البهي) وهو يفسح الطريق باحترام مبالغ فيه أمام كيان ضئيل يرتدي بذلة كاملة لم تفلح في أن تختصر البون الشاسع بين ضالة حجمه وأبهة الاحترام التي يحيطه بها (البهي) الرياضي القوام , والشحطين الذين دخلا خلفهما ليزيد ما شغلاه من فضاء الغرفة من ضالته . وليؤكد لي ما يظهرانه من ولاء كلابي أنه لا بد أحدهم ! أحد كبار قادتهم الأثمين الكبار .. وتخليلت إمكانية أن يكون (حسن منير) أو (إسماعيل همت) . وجاءني صوته المخنث يصيح وهو يعتلي منصة استقبال الأوردي :

- أنا مش سامع صوت الولد ده يا (رشدي) .. دوس عليه شوية لجل بسمعني صوته  
..!!

وبعد أن استقر خلف المكتب في عصبية قال لتابعيه :  
- هاتوا له شاي ..

والنقت بعصبية للشحطين الذين كانا قد استقرا خلفي . ولأنني لاحظت طول الوقت أنهما كانا يرمقاني بنظرة الصياد الذي يقيس ويدرس أين يقتل ضحيته .. ومع تصوري أن (هاتوا له شاي) دي هي كلمة السر - لكنهما لم ينقضاً عليّ بل ذهب أحدهما إلى الخارج فعلاً .. فصحت بصوت اجتهدت ألا يظهر فيه ضعف ما ..  
- مش عايز شاي ..

فرمقني بنظرة مستطلعة وقال في عطف لئيم :

- إيه يا ابني يا سمير ؟ .. ليه مزعل (البهي) بيه ؟ .. ده بيحبك . إنت ناسي إن هوّ اللي اتوسط لك المرة اللي فاتت عشان نسيبك تروح ؟ ..  
- أولاً .. سيادتك غطان أنا مش ابنك أنا أسيرك .. سجينك من ثلاث سنين .  
- ما يبقاش طلقك حامي كده .. إحنا لحد الوقتي مطولين بالننا عليك .. أقعد وخذ الورق واكتب اللي طلبه منك عشان تروح .. إخلص ..  
- أنا قلت لحضرتة إن انا مش ح اكتب حاجة ..  
- ح اوديك ورا الشمس .. تعفن في الواحات . ما حدش يعرف لك طريق جُرّة . وح ندفنك هناك زي الكلب .

قمت منتفضًا من فوق الكرسي وواجهته بينما تشنح الشحطان خلفي ولكني لم أعرهما اهتمامًا .

- أولاً حضرتك أنا مش كلب .. أنا شاعر وطالب في الجامعة وسنيّ ثلاثة وعشرين سنة . وأسير عندكم من ثلاث سنين . سمعت فيهم عن بلاويكم وشففت على إديكم اللي ح تتحاسبوا عليه مهما حصل . والا حضرتك فاكر إن دم (محمد عثمان) و(شهدي) و(فريد حداد) ح يروح هدر . ده منطق التاريخ لو كنتو بتقروا واللي بيقول إن آخرة كل طاغي وظالم .. معروفة وأكيدة .

- لا .. انت طويل اللسان وعايز تتأدب .

- أنا في غاية الأدب وانت تقدر تعمل اللي انت تقدر عليه . لكن أنا مش ح اكتب حاجة . سنين الزنزانة الانفرادي طول المدة دي مش ح تروح هدر .. كلها أيام وأسابيع أو حتى شهور وح نخرج .. وح يبجي اليوم اللي نحاسبكم ع اللي عملتوه .. يا (بهي) .. الواد ده فاكر نفسه ح يخرج .. وشرفي العسكري إن ما كتبت ما انت خارج ..

- الظروف اتغيرت يا سعادة البيه .. مصر داخله على سكة تانية .. والاشتراكية رايتها مش ح تنتكس أبدًا .. وزملاءنا اللي خرجوا غصبن عنكم شاهدين على كده .. وح نبني الجبهة الوطنية وكل أعداءها ح يكنسهم التاريخ .. انفجر الرجل في قهقهة غاضبة .

- خرجوا إيه يا روح ماما ؟ غصبن عنا ؟ .. بتثبت زي ما قال (البهي) بيه إنك تلميذ .. ساذج .. ما حدش خرج إلا اما كتب . ما حدش بيخرج إلا بإرادتنا .. وبعد ما يحقق اللي عايزينه .. اتصرف معاه يا (بهي) ومش عايز أشوف خلقته ..

هب مغادرًا بعد أن ضرب المكتب ضربة قفز معها كوب الشاي الذي كان أحد الشحطين قد أحضره .. ولما خرج تبعه (البهي) وأحد الشحطين .. بينما اقترب مني الشحط الآخر , وظننت أنه سينقض عليّ فتوتر جسدي وتصلبت مراقبًا يديه .. فقال بصوت خفيض محاولاً شحنه ببعض التعاطف .

- ليه كده يا ابني ؟.. دي حته ورقة .. بيلوها ويشربوا ميتها .. اكتبها وروح لحالك .. كلهم كتبوا .. انت مش عارف ده مين اللي كان بيتحايل عليك .. ده (حسن بك مصيلحي) يا ابني اللي ح يبقى وزير الداخلية .

- شالله يبقى رئيس وزارة - أن مالي ..

خرج الرجل .. وارتفعت على الكرسي منهكاً .. رغم الدماء التي تمور في عروقي لم تستطع ساقاي أن تتحملاً أكثر من ذلك .

اصطحبني (شحت) منهم دون قيود إلى قسم عابدين القريب .. واستلمني الضابط النبطشي بعد عدة اعتراضات أنهتها عدة مكالمات تليفونية .. وبعد أن وقع أوراقى انصرف (الشحت) على عجل وكأنه تخلص من مصيبة .. وتأملني الصول النبطشي طويلاً وهو يهز رأسه مشفقاً أو غير مصدق .. ثم طلب منى الجلوس على الكرسي بجانبه حتى يفرغ من أوراق بين يديه ..

\*\*\*

• جلست أتأمل المكان . كان الشباك خلف الصول يطل على مسرح الجمهورية وكان يعلن عن عرض مسرحية (جميلة . لعبد الرحمن الشرفاوي) فاستبشرت خيراً .. وأخذت أفكر فيما حدث .. وفي هذا التراخي في حراستي لدرجة أنني فكرت لو أنني أقوم من مكاني وأتسلل في أي لحظة من لحظات غياب الصول أو توهانه فيما بين يديه وما حوله من هرج .. ولكنني كنت مفلساً وجائعاً .. وأقنعت نفسي أنها مجرد سويغات ويُفرج عني .. وإلا لكانوا شددوا عليّ الحراسة ، أو على الأقل نبهوا الصول لذلك .. وأيد اقتناعي هذا الطريقة التي تعاملوا بها معي .. ورد فعلهم المضطرب - كما أقنعت نفسي - باستكمال ما أظهرته من تماسك وصلابة !!

فجأة دوت صيحة انتباه على باب القسم . واعقبته أصوات إصطكاكات كعوب بنادق , وكعوب أحذية على البلاط ودخل ظابط كبير لم أتحقق من رتبته إذ شغلني انتقال الصول بالتحية وابتعاد الناس أمامه إلى الأركان .

نظر إليّ الضابط مستكراً .. وشخط في الصول .

- انت مقعدّه جنبك يا أفندي .. انت مش عارف انه خطر .

لم أتحرك من مكاني بحكم المفاجأة فقال ساخطاً .

- قوم فزّ يا يا أفندي .. وانت وديّه الحجز وشدد عليه الحراسة .. وامنع المساجين

من الاتصال به .. وتعالى لي بسرعة . هوّ احنا ناقصين شيوعيين تاني ..

واستدار إلى مكتبه بينما ارتبك الصول . وتقدم في عدم فهم ممزوجاً بخوف شديد وأمسك

بذراعي . وترك كل شيء وسحبني إلى الحجز في الجهة المقابلة من صالة القسم وشخط في

الحارس الذي أسرع يفتح قفل الحجز وتربّاسه .

دخل الصول معي وكان الحجز مكتظاً . وكانت ضجة المأمور قد أربكت هدوءهم فوقف الكثيرون منهم واستيقظ النائمون على الأرض يستطلعون الأمر الذي أجبر المأمور على الحضور فأريك مسار الأمور ..

صاح الصول محاولاً التعلق بأكبر قدر من إظهار الجدية والحسم :

- اسمع يا واد انت وهو .. مش عايز حد يتصل بالأفندي ده أو ياخذ ويدي معاه في الكلام مفهوم .. وانت .

أشار لآخر واحد في الركن فوق الدكة الخشبية التي تحزم أسفل الجدار من كافة النواحي

..

- قوم من هنا . وانتو إبعدوا عنه .. اتفضل يا افندي هنا .. ومالكش دعوة بحد منهم , مفهوم ؟ خليك في حالك وهم في حالهم .

قالها في رجاء واهن واضح .. ثم استدار وأخذ الباب وراءه . وساد صمت كامل .. وأنا أدور بنظري متأملاً الوجوه حولي وخُيِّل إليّ أنني رأيت الكثير منهم في سجن (المنصورة) فابتسمت ورفعت صوتي في ود :

- مساء الخير يا رجالة ..

وفوجئت بحجم الرد وارتبাকে وعمق نبرته المترددة . ووجدتني أضحك رافعاً صوتي ..

- مالكو .. إنتو برضه ح تصدقوهم .. طول عمرهم بيهولوا وبكذبوا .. بيخوفوكم مني .. أنا إسمي (كذا) وطالب في الجامعة محبوس من ثلاث سنين . ومفروض أخرج إفراج فوراً بحكم الحكمة . بيتلككوا أنا زيكم بالضبط ضحية للي حاكمين البلد بالظلم والعدوان ؛ لدرجة إنهم خدوا سجائري وسايبييني خرمان وجعان .. عشان م الصبح خاطفيني على لحم بطني . حد منكم يرضيه كده يا جدعان !؟

فاجأتني لهجتي والنبرة التي قلت بها خطاب (العرش) هذا . عندما جلست على دكة الحجز الخشبية مستنداً إلى حقيبتي القماش مثلما فأجاني رد الفعل الباهر من هذا الجمع (الشعبي) الذي تعودت عليه طوال الشهور الطويلة السابقة . فللذين يقعون في قبضة الحكومة ملامح يكتسبونها من اللحظة الأولى , أبرياء أو مذنبين . أنت لو أمعنت النظر ستلاحظ سمات وملامح البريء المظلوم تختلف عنها عند السوابق أو معتادي الأمر . ولكنها لا تبدو مختلفة على وجه العموم ..

ولذلك ظننت أن كل من مدؤا نحوي أياديهم محملة بالسجائر ومصرين كلهم على قبولها كانوا معي في سجن المنصورة . وبيننا عشم الزملاء وألفة العيش والملح . وعندما تناولت أقرب سيجارة لي أصر كثير من الآخرين على وضع سجائرهم إلى جواربي في المساحة الخالية التي

ضاقت كثيرًا عندما احتلها الذي أشعل لي سيجارتي ، وبادلني ابتسام المحبة والتواصل ..  
وبادلته كلمات وإجابات أسئلة التعارف .

- ألا قول لي يا أستاذ .. هيَّه إيه حكاية الشيوعية دي ؟ وانت صحيح شيوعي ؟  
قالها رجل يجلس متربعا فوق سجادة مربعة ويستند إلى مخدة حقيقية ويرتدي جلبابًا أفرنجيًا  
من الحرير الأبيض المزين بخيوط طولية فضية لامعة . كان جميع الجالسين حوله حريصين  
على عدم التعدي على حدود سجادته الفاخرة . قلت في ود واهتمام وابتسامة عريضة تكاد تُسمع  
:

- وانت رأيك إيه ؟ مش باين عليّ ؟  
- وهيّ الحاجات دي بتبان على اصحابها ..  
هو انا اقدر أعرف مين مسلم ومين مسيحي في البهايم اللي حوالينا دول والأمين  
فيهم لا مؤاخذه كافر ؟

لم أندھش عندما ضحك من سمعوه ولم يغضبهم وصفه لهم بالبهايم . مما أكد لي أنه  
صاحب مكانة مميزة يعرفها جميع أهل (الحي) .. كانت تبدو وعليه سمات النعمة لم يستطع أن  
ينفيها عنه جسمه النحيل الذي يكاد يكون (جلد على عضم) كما يقولون . كان مدخنًا شرهًا تكاد  
تسمع صوت أنفاسه في صدره خاصة عندما تدهمه بانتظام نوبات السعال الحاد ، فيسرع  
أحدهم بتقديم منديل إليه بينما يناوله آخر كوب الماء ، ويكون ثالث قد انتهى من لف السيجارة  
التالية يقدمها له مشتعلة لا تخفي رائحتها النفاذة على أحد ..

- عندك حق يا معلم .. لكن همه بيصورونا على إننا وحوش لنا ضوافر وبناكل لحم  
البنّي آدمين ! مش كده ؟

- لا .. لا بيقولوا إنكم كفرة ما تعرفوش ربنا . وانكم لا مؤاخذه يعني .. بتتاموا مع  
اخواتكم ، وما بتعرفوش بحكاية الجواز والولاد دي .. ! أهو كلام ..

- وانت مصدقهم ؟ ..  
- بيقولوا ؟ هو أنا اللي قلت ؟ دا الراديو والجرانين .. هات يا ابني اللفة اللي في  
الكيس ده ..

وفرد أحدهم جريدة سحبها من الكيس وفتح اللفة وفردها على السجادة .. كانت لفة  
كبيرة تحتوي على كباب وكفتة وطرب وسلطة خضار وطحينة في علب ورقية وفاحت  
الرائحة فقلبت عليّ إحساسي بالجوع .. وفاجأني قبل أن أرد عليه .

- انزل الأول .. اتفضل عشان الكلام ح يطول وانت على لحم بطنك ياللا .. يا  
افندي .. يبقى عيش وملح .

ونزلت طبعًا وتربعت في مواجهته بعد أن خلعت حذائي ولما لاحظ ترددي قال بجزم ..

- مد إيدك أنا أصلي اتعشيت قبل ما انت تدخل .. اتفضل يا راجل .
- وتفضلت .. فقد كنت جائعاً بحق .. وفجأة أحسست بعض الحرج فقد كان هناك عيون كثيرة ترمق الطعام وتراقبني لم يكن بينهم المحيطون به ..
- فضحكت وأنا أقول ..
- ما ينفعش كده .. يا معلم أنا ح أكل لوحدي؟؟
- يا سيدى ده نصيبك وعشاك .. إحنا سبقناك فعلاً قبل ما تدخل ..
- مش ممكن دا كتير .. طب بعد إذتك بقى .. يا اخوانا
- التقت أخاطب الأبعدين الذين أحسست جوعهم من تطلعات عيونهم :
- اللي ما اتعشاش يجابر يزاملني .. والا حتى يجاملني .. خد يا ابني ..
- وبدأت أضع في كل رغيف بعضاً من اللحم أو الكفتة . وأناوله للأقربين من الذين لم يتجرأوا على النزول إلى الساحة . وانكسر جدار الحرج وعلت أصوات العرفان لصاحب الأكل :
- متشكرين يا سيد المعلمين ..
- ما نتحرمش من خيرك يا معلم (جابر) .
- ربنا يجبر بخاطرك ..
- فارتفعت ضحكات هنا وهناك . فتحت الطريق لتعليقات وأحاديث شتى قربت بين الجميع وأسست لحالة من المرح
- على فكره يا سيدنا لفندي .. المعلم (جابر) ده سيد جدعان حارة (البلاقسة) و(عابدين) والشرق الأوسط كله ..
- بس اللي ما يتسموا حاطين نقرهم من نقره . وكل يوم والتاني يشحططوه على هنا ..
- إخرس يا واد يشحططوا مين ؟ ما عاش اللي يشحططه . المعلم (جابر) سيد الناس برّه وجوّه .. القسم ده كله يحركه بصباعه غيرشي هوّ اللي قلبه على البيوت المفتوحة على حسه وبنفسه ..
- بأنفاسه يا حمار .
- ورنت ضحكة جماعية مرحة , حولت الزنزانة المعبأة بالدخان إلى حالة إنسانية هدمت الجدران .. جعلت حارس الحجز يفتح الباب فجأة غاضباً ..
- إيه يا واد منك له الدوشة دي .. إخرس منك له ..
- قفز أحد رجال المعلم ناحيته وحياه وهو يناوله علبة سجائر وينجز .
- يا معلم جابر أنا عامل لك انت خاطر .
- اتفضل يا باشا .. عفر .. عشان خاطر المعلم .



- بس مش كده وطوا صوتكم .. الضابط النبطشي على وشك .
- ثم خرج وأغلق الباب بهدوء .
- سادت فترة صمت أعقبها نوبة سعال من المعلم , فلما استرد أنفاسه التفت إليّ وكنت قد عدت إلى موقعي فوق الدكة :
- أيوه يا سيدنا لفندي .. يرجع مرجوعنا بقى للمهم .. إيه حكاية الشيوعية دي ؟!
- بس كده .. شوف يا سيدي .. إيه رأيك في الأكلة العظيمة اللي انت عزمت بيها علينا دي ؟!
- وإيه دخلها بس .. يا عم كله من خيرك !
- أيوه أهه خيرى ده .. لو كنت ماعزمتش بيها علينا كان ح تفضل في لفتها للصبح .. عشان لا مؤاخذه من (كتر خيرك) إنت اتعشيت .
- أصل لا مؤاخذه النسوان بتوعي أربعة في عين العدو . عاملين مسابقة لا مؤاخذه كل واحدة منهم عايزة تثبت لي إنها الأصلية فيهم ..
- ربنا يزيد ويبارك وأنعم وأكرم .. أهه .. كل الأكل كان ح يفيض ويفضل بلقته للصبح .. كويس .
- لأ مش كويس . لأنه كان بيرد ويدهنن ويترمي .
- ويمكن ياكلوه الغلابة اللي مش لاقيين نسوان تخدم عليهم .. حلو ..
- جايز برضه .
- وفي الحالة الثانية كنت لما عزمت عليّ .. ح اتعشى .. وطبعًا مش ح اقدر آكله كله .. ح اكل اللي أقدر عليه والباقي يترمي ..
- أكيد ..
- لكن أنا .. وزعتة على زملاءنا في الحجز .. فكلوا وانبسطوا ودعولك من قلبهم .. يبقى الأحسن إيه ؟ .. أنهى حالة هيّ الأحسن في الأحوال الثلاثة ؟
- والله .. اللي انت عملته ده حركة حلوة ..
- أهى دي الشيوعية يا معلم !
- يا راجل ! طب وإيه اللي يزعل الحكومة من كده .. أكلي وأنا حر فيه ؟!
- آه شفت . أي بلد في الدنيا .. بتملك أكلة كبيرة قوي لكن مش كباب وطرب بس .. لكن قماش وعربيات وقمح وقطن وفواكه وملابس .. كده يعني .. الثروة اللي بينتجها الناس اللي بتشتغل فلاحين وعمال وصيادين . والدول بقى يا إما .. كل الأكلة دي ياكلها واحد لوحدة قصدي يعني يملكها واحد أو ناس قليلين يتصرفوا

فيها زي ما هم عايزين , أو تتوزع على الكل حسب تعبهم فيها أو احتياجهم .. زي  
اخوانًا اللي كانوا جعانين زيي واتوزعت عليهم أكلتك اللذيذة ..

- لكن أكلتي دي أنا اللي تعبت عليها .. قصدي نسواني همه اللي اشتروها ..  
وطبخوها .

- ومين اللي بيتعب عشان يطلع أو يطبخ كل الأكلة بتاع أي بلد .

- العمال والفلاحين والتجار والصناعية والمهندسين .

- عليك نور .. لكن اللي بيلهف معظمها مين؟

- التجار وأصحاب الورش يعني واصحاب راس المال .

- عليك نور .. انت أستاذ ؟

- لكن ربنا هو اللي عمل كده وقسم الأرزاق !

- يا راجل هو ربنا يرضى الظلم .. ربنا رحمن ورحيم وهو العدل والحق صح !.

- بس احنا كده بنتدخل في اللي قسمه ربنا ..

- ما هيّ هنا المشكلة .. اللي واكلين الأكلة كلها .. بيقولوا كده .. واللي بيشتغلوا

ومش بيطولوا حاجة .. بيدعوا ربنا يعدل الحال .. ويكون على الظالم .. واللي

واكليها في كروشهم .. عاملين عساكر يحرسوهم ويحرسوا أموالهم . وعاملين قانون

ودستور يحفظ حقهم .. ويقولوا ربنا اللي عمل كده .. وهم اللي عاملينه واللي

بيقولوا لأ .. بيقولوا عليهم كفرة وضد الدين . ويغلوشوا .. مع إن الأنبيا كلهم كانوا

فقرا اللي نجار واللي راعي غنم واللي صياد .. ما كانوا اولاد بشوات . لا همه ولا

أصحابهم ..

- بس كان فيه في الصحابة ناس أغنيا .. زي (أبو بكر) و(عبد الرحمن ابن عوف).

- آه .. لكن ما اتأخروش أبدًا عن توزيع الأكلة على الفقرا لو لقيوهم جعانين زيي كده

في الحجز .. أو لو حصلت مجاعة ..

- داننت خطير ..

- أنا ؟ هوّ انا قلت إلا شوية كلام ..

- بس قلبوا دماغي .. هو أنا بعد كده ح ييجي لي نفس أكل لقمة إلا اما اتأكد ما

فيش معايا حد جعان !

كان الكل يستمع للمناقشة . فالمعلم هو الذي يديرها مع الأفندي . وكنت أتمنى أن ينطقوا

بالأسئلة التي لاحت على وجوههم .. لكنهم كتموها .. وساد صمت .. لأن المعلم بعد نوبة

سعال حادة استغرق في النوم .. وابتدأت سيمفونية الليل الموسيقية !

\*\*\*

• قضيت في حجز عابدين ثمانية عشر يومًا . كان ضمنها عيد ميلادي الثالث والعشرين واحتفلنا به احتفالاً رائعاً .. بالنسبة لليل الحجز في قسم من أكثر الأقسام شعبية وازدحاماً .. وتلقيت فيه أجمل هدية تلقيتها في عيد ميلاد .. ولكن ذلك سيحين الحديث عنه في موعده ..

لم أستطع النوم في أول ليلة لي في الحجز .. ليس فقط للسيمفونية الليلية التي تُعزف كل ليلة , بآلات نفخ من كل الأنواع لأنوف وأفواه مجهدة أهلكتها السجائر الرخيصة والجوز , ولبطون أربكتها الطعمية والمخلل والفجل والكرات والفول والبصل باعتبارها لزوميات تسهيل الهضم المعقد - ولكن أيضًا بسبب جيوش البق الزاحفة من شقوق السقف الخشبي وثقوب الحوائط المجهدة القديمة .. وأيضًا من ثنايا أخشاب الدكة التي تحزم الحوائط والتي يجلس وينام عليها (الكاركيّة) أمثالي . فذوو الخبرة والمعلمون الكبار .. يدركون أن الدكة فخ للأغبياء الذين لا يدركون أنها ليست ميزة لأنها بمثابة الخط الأول الذي تهاجمه جحافل البق العطشى للدماء تحت ستار الليل ولذلك يفضلون النوم في وسط الميدان بعيدًا عن جبهاته الأربع وهو أمر أدركته بعد هزائم متكررة أهلكت ساقيّ وقفاي ..

في الصباح تبدأ كشوف الاستدعاء في النداء على الأسرى . هؤلاء الذين عندهم جلسات محاكمة . يحلم أكثرهم بالخروج وعدم العودة كل حسب وضعه القانوني وظنون خبرته في التعامل مع الأدلة الجنائية .. والآخرين الذين يستدعون لاستكمال أو بدء التحقيقات معهم يأملون في الإفراج عنهم وكلهم يلقي بأحماله على الله .. حتى ولو كان قد أوكل أمره لمحامٍ أو لأي كان .. فهؤلاء الذين يشكلون حصيلة الصيد اليومي لأجهزة الدولة يضعون مصيرهم بمجرد الإمساك بهم أو يدسونه بين يدي العدالة الإلهية .. لأن القانون غالبًا ما يتخطاهم أو يدوسهم وهم بلا حول ولا قوة .. أمام الافتراء والتلفيق واستعراض القوة الذي تمارسه أجهزة لا قبل لهم بها .

تمتد حدود قسم (عابدين) من حدود قسم (السيدة) الذي يقاسمه في منطقة (الناصرية) عبر (باب اللوق) وحتى شواطئ قسم (الموسكي) وتخوم قسم (الخليفة) وكلها مناطق شعبية تموج بالمقاهي والورش بمختلف تخصصاتها , ميكانيكية ونجارة وسيارات وهدايا ومحلات صناعة

الأثاثات وملحقاتها حول شارع (محمد علي) و(باب باريز) دون (باب الخلق) بما فيها من مطابع ومصانع حلوى مع كل ملحقات هذا .. وهي منطقة في مجملها تزدهم بالدكاكين على اختلاف أنواعها وأحجامها والوكالات وشركات النقل عبر المحافظات .. علاوة على المنطقة غرب (السراية) حيث مساكن خدم القصر سابقًا وحاليًا من طبّاخين وسفّرجية نوبيين بجوار حارة (البلاقسة) الشهيرة التي تشكل ممرًا حيويًا يضج بالحياة والحركة ؛ واصلًا بين (عابدين) و(السيدة زينب) .. حيث أكبر عدد من الباعة الجائلين لكل ما يرد إلى ذهنك من بضائع ومأكولات وخضراوات ولحوم .. منطقة تقع مباشرة على حافة الاصطدام الطبقي الحاد .. الذي يلقي بضحاياه لقسم (عابدين) كما غيره من الأقسام حتى يكتظ متخمًا لحلقه بشحاتين ومتشردين ولصوص وبلطجية وباعة جائلين وموزعي مخدرات وعاجزين عن دفع غرامات إشغال الطريق أو مخالفات التسعيرة أو الإخلال بوزن الدقيق في الأفران وطلبة يتحرشون بالبنات ، وعصبجية وفتوات من منتصف النهار تقريبًا حتى منتصف الليل أو قبلها بقليل إذ يمتلئ الحجز تمامًا ويضطرون في أحيان كثيرة لتحويل بعض الوارد إلى قسم (الموسكي) أو يرّجلونه إلى (السيدة) ..

وفي الصباح تبدأ نداءات كشوف المحاكم والنيابات المختلفة مهمتها في تفرغ الحجز رويدًا رويدًا حتى الساعة التاسعة ! تحملهم عربات التراحيل حسب العدد لكل نيابة أو سيرًا على الأقدام بقيود أو بدون ، حسب الوجاهة الاجتماعية مع حراس مخصوصين متذمرين غاضبين أو راضين ودعاء لأن كل شيء بثمنه .

ويخلو المكان تمامًا وكأن لم يعرف بشرًا .. وتكون أسراب البق قد عادت إلى مرابضها إلا من عاقته ثنايا الملابس فدخل مع الراحلين إلى مصائر مقدره .. وأبقى أنا وحدي وحيدًا بلا رفيق أو سمير . يخلو الحجز إلا مئّي ..

يُدخل الشاويش الحارس رجلين من المحكومين بالمصاريف بالقسم .. يندفعان إلى دورة المياه ويفتحان الصنابير على آخرها ؛ لإزاحة آثام ونفايات سكان الأمس .. ثم يمسخان أرضية الحجز كله واضطر لرفع نفسي فوق الدكة أنا وحقيقتي والبطانية التي تركها لي المعلم. الذي خرج أول يوم فحصل على الإفراج . وبعد أن ينجز (المصاريف) مهمتهم . يفتح الشاويش الباب لناولني أربعة أرغفة (جرايتي) طوال اليوم . وذات مرة احتججت مطالبًا بتوصيل احتجاجي للمباحث العامة لأنني في عهدتهم ، ولا أقبل هذه المعاملة . الشاويش قال لي : (إحمد ربنا إنهم فاكرينك) ، ثم أغلق الباب ثم عاد وفتح الباب لناولني قرطاسًا به 4 أقراص طعمية صغيرة قائلاً : (إذا احتجت أي حاجة هات وأنا أشتريك اللي انت عايزه) وتذكرت أنني مفلس فسكت !.

وضعت الطعمية في أحد الأرغفة وغيّرت ريقى .. ثم ساد الهدوء .. فأسرعت إلى دورة المياه وخلعت ملابسى ونفضتها خوفاً من البق العالق , ثم فتحت الدش . وألقيت بنفسى تحت سيل الماء البارد .. فانتعشت وجففت جسمى فى البيجامة التى لم أرتدها بعد فأحسست بالدفء , وخرجت منتعشاً . طبقت البطانية ومددتها على الدكة ووضعت الشنطة تحت رأسى .. وفردت البيجامة فوقى لتجف ..

ورحت فى النوم . وصار هذا برنامجى اليومى الصباحى فيما عدا طعمية العسكرى لأننى صرت أوفر بعض الغموس من طعام العشاء الجماعى لفظور الصباح .. ولكن ساعات النوم الصباحية ساعدتني على السهر , فلم أعد فريسة غائبة عن الوعى لجيوش الأعداء الليلية وغالبًا ما كانت تتوفر لى جريدة أو مجلة تساعدني على الصمود ليلاً للصراع مع البق بعيون مفتوحة ؛ وإن زاد هذا من حدة الوقوع فى أسر سيمفونية الحلوq والأنوف والبطون المريرة المجهدة !!

\*\*\*

الآن أحس أن أيام حجز قسم (عابدين) كانت بمثابة (البوست جراد ويد) بعد ثلاثين شهرًا في (الأندر جراد ويد) في سجن المنصورة الذي كان بمثابة كورس في دراسة معاناة الشعب المصري في قبضة جهاز القهر الطبقي من غفر ومخبرين وضباط وعسكر وسجانة منمكين في إدارة ماكينة الاستغلال الجهنمية التي لا تهرس إلا الفقراء والضعفاء عرايا الجنوب والظهور .. أما من كان له ضهر فهو لا يضرب على جنبه أبدًا .. وكما أن أصابعك ليست كما بعضها .. فالظهور أيضًا تختلف فهناك من ظهر (ماله) ومن ظهره (ثقافته) زي حالتنا . وإن كان هذا الضهر يبدو ضعيفًا في حالة أن تكون (التهمة سياسية) . وهناك من ظهره عائلته وما يكون عندها من علاقات نافذة . وهناك من ظهره شبكة علاقاته كتجار المخدرات الكبار وأصحاب الأملاك . وأغلب من يدخلون السجن العمومي هم ممن فشلت علاقاتهم في إقناع النيابة بقوة ظهورهم فيفشلون في (لغلة) قضاياهم بتوفير وسائل الدفاع أو شهادات الزور .. ورغم ذلك قليل منهم من يقضون أوقاتًا قليلة تحت التحقيق . ففي أسوأ الحالات يدفعون كفالات كبيرة . وإن حكم عليهم بعد كل ذلك , تكون جرائمهم أعقد وأكبر من أن تسمح بالتغاضي أو التخفيف . ولم يكن ذلك واضحًا بما فيه الكفاية لي أثناء وجودي في السجن العمومي .. لكنها كانت ظاهرة حادة تخرق العين في قسم (عابدين) حيث طاحونة الصراع لها ضجيج عالٍ يسمح بالغلوشة على كل التجاوزات . فلم يكن يبيت في الحجز حتى ليلة واحدة أحد من أصحاب الظهور المحمية أو الأجناب غير المكشوفة .. ومن يخطئه الحظ في الصباح تنجده نيابة الليل فتخرج عنه .. على خلاف الآخرين الذين تطول أيامهم قبل أن تتجلي الغمة عنهم أو تظهر براءاتهم .. وقد تتعدد مرات القبض عليهم لدرجة يومية في كثير من الأحيان .. لأن هناك من الطباط أو أصحاب النفوذ من وضعهم (في دماغه) كما يقولون سواء لغرض شخصي أو نفعي أو استنادًا إلى القانون .

ويهيأ لك في القسم أن الجميع يحيون بالمخالفة ؛ لأن الأصل في مجتمعنا أنه لا حق لنا في الحياة إلا تجاوزًا .. وأنا جميعًا في أي من تصرفاتنا نقع دون أن ندري تحت طائلة القانون , وأن نجاتنا من طحن هذه الآلة .. يكمن في قدرتنا على الالتواء أو الاختفاء عن أعينها , أو أن نكون أصحاب حظ باهر حتى لا تترانا تلك التي تملك ملايين العيون ..

يبدأ تقاطر الرواد مع صعود الضحى إلى الظهيرة .. وأحيانًا كثيرة ما يداعبني أثناء النوم ترام ش (عبد العزيز) فأتصوره ترام (الجماميز) وأجد نفسي في السكاكيني مع (زينب شارع النزهة) ويرتجف جسدي لذة وأنا أمسك يدها في قارب على النهر أو في

ظلام سينما (سهير) رغم أننا لم ندخلها معاً أبداً .. ثم ينتزعي من يدها فتح الباب عندما تبدأ طلائع رواد الحجز في التتابع ..

ويتصل حبل الحديث والتعارف وأجدني أصبحت صديقاً للجميع ؛ فكل من يُحشر معي يكون متشوقاً لحكاية حكايته . وسرعان ما كانت تتعقد بيننا الصداقة ، ففي كل الأحوال ؛ كان مظهري يوحي بالثقة والمعرفة ، وكل يريد أن يشكو ما حلَّ به إلى من يثق فيه ، لعله يجد عنده مخرجاً .. وأحياناً كانت بعض القضايا تُبحث بشكل جماعي وصريح علناً وعلى رؤوس الأشهاد وكل يدلي بخبراته لعلها أو للالتفاف عليها . فلكل تجاربه العديدة مع شبكة الصيد التي كثيراً ما وقع فيها الواحد منهم أكثر من مرة .. وكانت الحياة بسبب هذا التواصل غالباً ما تصبح شبه جماعية وفيما عدا حالات قليلة شاذة .. كان الطعام في معظم الأحيان يصبح لكل فيه نصيب .. حسب ما تسمح به الكميات وحسب رضا وكرم أصحابه الذين كانوا في أغلبهم أولاد بلد .. يعيدون إنتاج ما فعله المعلم (كرم) تاجر المخدرات ابن حارة (البلاسة) الذي لم تخل الساحة من أمثاله سواء كانوا تجار المخدرات أو أصحاب مقاهٍ أو جزارين وكلهم أولاد بلد - قطيعة واحدة . ذات مساء وبعد أن أحصى الشاويش عدد الموجودين بالحجز ليقدم التمام إلى المأمور ، دخل إلى الحجز ضابط على كتفه ثلاث نجوم قصير وأسمر خُيل إلي أنني رأيته من قبل ؛ للوهلة الأولى .. صاح الشاويش : انتباه ..

فوقف جميع الحضور . والحقيقة أنني دون تعمد تباطأت قليلاً . وطلب الضابط من الشاويش إعادة التمام مع النداء بالأسماء . وكان الضابط يتابع مع الأسماء والوجوه حتى نطق الشاويش باسمي .. وأجبتة (أفندم) .. هز الضابط رأسه وهو يتأملني ثم استدار ومضى .. دون أن يهتم ببقية التمام . وأحسست أنه كان يريد أن يتأكد من وجودي أنا بالذات .. ولم يمض وقت طويل .. حتى وجدت الشاويش قد عاد وحده . ولما دخل نادى عليّ .. وطلب منِّي أن أتبعه فمضيت خلفه . في الطريق سألته : إيه الحكاية يا شاويش ؟ فرد بلا اهتمام : سيادة اليوزباشي عايزك !

دخلت حجرة الضابط ففوجئت به يقوم من خلف مكتبه مأداً يده .. وهو يسألني

- إنت (سمير) ابن (الأستاذ عبد الباقي) ميت سلسيل ؟

وقفزت صورته على الفور إلى ذاكرتي :

- يبقى أكيد انت (فتحي عيد) الكردي !

وتبادلنا الضحك والأحضان .. ثم طلب مني الجلوس ونادى أحد العساكر وسألني :

- إتعشيت ؟!

- شكرًا .. أصل أنا متعود أتعشى مع الجماعة جوه . وضحكنا معًا ..
- طب تشرب شاي .. هات لنا اتنين شاي يا شاويش سكر برّه .. اتفضل يا (سمير) .. قصدي يا أستاذ سمير والدك أستاذي .. و(عادل) أخوك كان زميلي في تخته واحدة في مدرسة بلدكم ..

وطال الحديث بيننا . سألني عن ظروفي وسجني .. وسألته عن عمله .. وتدفق الحديث بيننا حول ذكريات مشتركة في (ميت سلسيل) و(الكردي) وهي قريته المجاورة . وعن زملائنا المشتركين من القريتين . كانت صورة (ماجدة الصباحي) تملأ النافذة حيث كانت مرسومة بحجم كبير فوق واجهة المسرح .. ولما عرف ظروف ترحيلي بعد الحكم والحديث الذي دار بيني وبين (حسن مصيلحي) بدأت سحابات من التحفظ الميري تتصاعد بيننا مع دخان السجائر وبخار أكواب الشاي ..

- أفهم من كده إن ما معاكش فلوس ؟ ..
- خيرك موجود . أنا بس طلبي منك أن أكتب جواب لوالدي لأنه ما شافنيش لما رحلوني .. وهو ح يبيعت لي .. أو لو أمكن تدبرها انت لو كنت مروح بلدكم قريب ..

أخرج من جيبه ثلاثة جنيهاات وأصر على أن آخذها وهو سوف يأخذها من والدي .. وبشرني بقرب الإفراج عني فليس هناك أي شيء يحول دون ذلك . وأضاف :

- لكن بلاش موضوع الجواب ده .. ثم إنهم على ما يردوا عليك ح تكون خرجت اعتبرني هنا بدل (عادل) يا سيدي .

وشكرته واستأذنت أن أعود إلى مكمني خاصة وقد بدا مشغولاً بأعمال لا أعرفها .

وعدت إلى الحجز وعند الباب سألني الحارس :

- انتو قراب ؟ .. والا كنتم زملا في الدراسة ؟

فأجبت في اقتضاب :

- بلدياتي وكان زميل أخويا الصغير في المدرسة ..

- ده راجل أمير جدًا فتحي بيه ده ..

فتح الباب وهو يبتسم ابتسامة كبيرة ذات مغزى وأغلقه ورائي .. ولم يستدعني فتحي بيه مرة أخرى ؛ حتى رأيتاه عند ترحيلي . وبعد يومين من خروج المعلم (كرم) ناداني الشاويش الحارس وكنا في المساء . ولما خرجت إليه قال لي (لك زيارة) .. وظننت أن الضابط (فتحي) اتصل بأهلي فحضرنا فبلغ انفعالي بالأمر مداه .. ولما صرت خارج الحجز لم أرأ حدًا من أهلي لكن الشاويش أشار إلى امرأة غاية في الجمال ؛ ذات عود مفروود من الذي حكى عنه شاعر



الربابة . كان لها خال على خدها اليمين يسحر الأبواب وذات غمازتين بلورتهما ابتسامتها  
المرحبة التي أريكتني . تقدمت مني وهي تقول :

- مرحب يا أستاذ . المعلم (كرم) ما يببطلش يجيب في سيرتك .. دا الظاهر عليه  
بيحبك قوي .. إتفضل ..

ومدت إليّ ذراعًا كالجمار يشع بياضه المؤطر بالملاية اللف على خلفية جلاباب حريمي  
بلدي كبستان من الأزهار كشفت عنه الملاة .. ووجدت نفسي كالمنوم أتناول منها  
اللفافة التي قدمتها لي ؛ ولولي أسنانها يبرق مع كلماتها :

- المعلم بيعتذر لك إنه اتأخر عليك .. لكن أصله بعد ما خرج طلح اسكندرية ف  
شغل غصبن عنه ..

خُيل إليّ أن كفها لمس كفي بعد أن أخذت اللفة فارتعدت فرائصي .. ولكني تمنيت أن  
يطول الأمر ..

- وليه التكليف ده .. قولي للمعلم ان انا اتصلت بأهلي . حتى استني عشان أجيب  
لك البطانية .

خيل إليّ أنها غمرت مستكرة أو أنها ضحكت ضحكة ساخرة وهي ترد في غضب حبيب  
..

- يا عيب الشوم عيب عليك يا أستاذ . المعلم يزعل .. دي حاجات بسيطة .. كلنا  
في خدمتك ..

- العفو يا ست الكل .. لكن ما قلتاش حضرتك مين ؟

- حضرتي ..؟ يجبر بخاطرك .. أنا مراته الثالثة . إوعى تعوز حاجة ولا تبعتش  
للمعلم .. أي مرسال بس يقول المعلم (كرم) على سن ورمح ألف مين يشاور عليه  
..

- أرجوكي .. ما تكلفوش خاطرکم .. دانتي جيتك كتيرة عليّ .. دي جمایل أنا مش  
قدها .. اشكري لي المعلم .. وانشاء الله لو عزت أي حاجة ح ابعت له .. هه ؟  
- هه ! فُتْكَ بالعافية .

لم أدر هل قلت لها . الله يعافيك والّا مع السلامة .. لكن ضحكة الشاويش الذي شاهد  
ارتباكي أعادتني لنفسني . وتبين لي أنني لم أستطيع أن أنطق ببنت شفة .

في صباح أحد الأيام وكنت قد استحمت بالماء البارد كعادتي بعد خلو المكان من الرواد ..  
ورغم الجو البارد بعض الشيء أحسست بدفء محبب وكانت البطاطين التي تركها لي  
الأصدقاء من رفاق الحجز وأعيان المنطقة قد زادت وأصبح في حوزتي ثلاث بطاطين أفرش

اثنتين فوق الدكة الخشب وألف جسمي بالأخرى .. وأعطاني ذلك إحساسًا افتقدته من زمن أنني  
وكأنني في بيتي .. فغرقت في النوم كما لم يحدث لي منذ فارقت زيزانتني الغالية  
(35) في الربع الحرام من الدور الثاني في سجن (المنصورة) . حُيِّل إلي أنني سمعت صوته:  
- يا شيوعي ..

آه لابد أنه (عبد الله بولجانين) أو (عم حسن عطية) ولكن عم (حسن) كان يناديني (يا  
زميل) .. إذن هو (بولجانين) .. ولكن يقيني بذلك اهتر عندما سمعت صوتًا نحيلًا يصرخ ..  
- يا أستاذ (سمير) !!

فتحت عيني وتأكدت من النداء . بعد أن تعرفت بصعوبة على المكان فنفضت البطانية  
وركلتها . وقفزت إلى شباك الحجز المسلح بالحديد والشباك المطل على شارع (عبد العزيز)  
وتعلقت به لأرى (مجدي) وهو شاب في الخامسة أو الرابعة عشرة , كان قد ألقى في الحجز يوم  
الخميس الماضي متهمًا بالسرقة .. فرحت جدًا لأن النيابة أفرجت عنه كما تتبأت . وجدته يلوح  
بلغافة في يده ..

- الشاويش مش عايز يوصلها لك .. أرجوك يا أستاذ (سمير) قول له أو ياخذها  
ويديها لك .

- ليه كده يا مجدي يا ابني .. متشكرين .. روح انت وكأني خدتها .

الولد بكى فعلاً . وأصر على أن أكلم الشاويش ليسمح له بتوصيلها ولم أجد مفرًا إلا أن أنزل  
عن الشباك , وأدق الباب وأحاول الشاويش ألا يكسر بخاطر الولد المسكين .. وعصلج الشاويش  
ورفض لأن اللغافة فيها ماكينة حلاقة وده كان ممنوع .. فطلبت منه أن يأخذني للمأمور أو  
لفتحي بيه .. لكنه لان وقال وليه كل ده .. فظرفته السجارة .. فوافق .. كان (مجدي) قد وقف  
في مدخل الصالة بعيدًا ينتظر . فلما أشار إليه الشاويش أسرع ناحيتي ودموعه تملأ عينيه .  
وأراد أن يحتضنني وهو يبكي .. وبصعوبة شكرته ولم يعطني الشاويش فرصة للحديث وبسرعة  
أدارني نحو الباب .. واستدار مهددًا الشاب فمضى وخرج .. أسرعت إلى النافذة .. وكما توقعت  
وجدت (مجدي) هناك يشير لي مبتسمًا ومشجعًا ..

- انت عملت إيه ؟

- النيابة أفرجت عني زي ما قلت لي . وريتة كرنيه المدرسة .

- وح تعمل إيه ؟

- صاحب المطبعة اللي كان بيديني الكتب شغلني عنده ح اتعلم صف الحروف ..

- والمدرسة ؟ لأ طبعًا .. ح أكمل وح ادخل الامتحان .. ربنا يفك سجنك مش عارف  
أشكرك ازاي ..

- على إيه يا ابني .. ربنا يوفقك وخلي بالك من نفسك .

كان (مجدي) أول من دخل الحجز قبلها بيومين وأحدث الشاويش ضجة كبيرة وهو يضره ويلقي به إلى الداخل - طبعًا لأنه لم يجد معه أي رسوم للمرور الآمن . واستيقظت على صوت الشاويش الغاضب وهو يغلق الباب بعنف . فركت عيني فوجدت صبيًا نحيلًا يرتدي بيجامة وشبشب .. مرعوبًا تكوم على طرف الدكة الخشب ؛ بعينين باكيتين يتأمل المكان الذي لا بد قد سمع عنه ما يجعله يرتجف من الخوف . لم أقترب منه حتى لا أزيد من خوفه، لكنني جلست مكاني وخاطبته في هدوء .

- هدي نفسك يا ابني وما تخافش .. إنت اسمك إيه ؟

قال متلعثمًا محاولاً التقاط أنفاسه :

- اسمي (مجدي عبد الغني شحاتة) .

- عاشت الأسمامي .. ممكن تبطل عياط وتبقى راجل .. السجن للرجال وخصوصًا لو

كانوا أبرياء .. وجاي في إيه ؟

- ملفقين لي تهمة سرقة . وحياة رحمة أمي ما سرقت ..

سألته إن كان يدخن فنفي بشدة فأثتيت عليه ..

- ما هو عشان كده .. لو كان معاك سيجارة ما كانش الشاويش افتزى عليك لكن

معلش .. إهدا بس واحكي لي حكايك .. وريح لأنك مش حتروح النيابة إلا يوم

السبت ومن هنا ليومها ح تفضل تعيط .. ما ينفعش . الحجز ح يتملا دلوقتي من

خلق الله ولازم تكون قدامهم راجل .. تعالى افطر معايا .. ما تنكسفش احنا هنا كلنا

اخوات ..

استطعت أن أكسب ثقته فحكى لي قصته التي سمعتها كثيرًا عبر شهور سجن الطويلة ..

إنه يعمل عند سيدة كبيرة وعائلة محترمة . إنها أم لضابط ومحام وطالب في كلية الطب ،

وجدها كان يعمل في (سراي عابدين) في خدمة الملك (فؤاد) ولذلك فهم يسكنون في فيلا في

مواجهة السراية .. قديمة وأكل عليها الدهر وشرب ولكنها علامة العز القديم .. وطبعًا ، انتهت

علاقتهم بالسراي حتى قبل أن تقوم الثورة وقامت الست على تربية أولادها فزوجت ابنتين وتعيش

في البيت مع أولادها الثلاثة ولديها خادمة وطباخ من بقايا العز القديم .

واشتغل عندهم بفضل معرفة الخادمة بأمه التي توفاهها الله حزنًا على زوجها .. قدمته للسيدة

فعطفت عليه وعاش في البيت كخادم يرعى شجيرات الجنينة ويقضي كافة طلبات المنزل من

السوق ويساعد في تنظيف المكان ولكنه لم يكن راضيًا عن حاله .. وكان يطمح في تغير مسار

حياته .. فالتحق سرًا بإحدى المدارس الليلية ليحصل على الشهادة الإعدادية بمساعدة رجل

عجوز من أهل الحي صاحب مطبعة صغيرة . أكبر فيه طموحه وشجعه وكان يمدّه بالكتب الدراسية والأدوات اللازمة ..

لكن السيدة اكتشفت ذلك السر بعد أن لاحظت سهره .. وانهماكه في الدرس وتأخره كثيرًا خارج المنزل . وتراخيه المتزايد في العمل , وكانت تعتمد عليه في الكثير من المهام داخل وخارج المنزل . حتى عثرت على كارنيه المدرسة فأيقنت أنه يرتب لترك الخدمة .. فاعتبرت ذلك من قبيل الخيانة ونكران الجميل وبدأت في التضيق عليه . لم تجد وسيلة إلا أن تتهمه بالسرقة ووافقها أبناءها المتعلمون أو على الأقل تواطأوا معها وشهدوا ضده وحبسوه ..

كان يحكي لي ودموعه تسيل وقد عزت عليه نفسه بسبب الخسة التي عومل بها من سيدة (راقية) كتلك تقانى لعدة سنوات في خدمتها وخدمة أولادها بكل إخلاص وأمانة .. وأطلعني على كارنيه المدرسة باعتزاز .. فطيب خاطره وأقنعت أنه براءته واضحة لكل عين , وأن وكيل النيابة بالتأكد سيصدقه عندما يعرف القصة الحقيقية ويرى بطاقة المدرسة ..

لم يصدق (مجدي) أن الأمر بهذه البساطة فكيف سيصدقه وكيل النيابة ويكذب شهادة مثل تلك السيدة بنت الأكابر وأولادها الثلاثة بمراكزهم المرموقة .. ولكنني ظلت أؤكد له ثقتي القوية في أن بطاقة المدرسة كافية ليبصر وكيل النيابة براءته واضحة كالشمس :

- حاول بس أن تشرح له قصتك بهدوء . واذكر له أنك خدمتهم بإخلاص طوال سنوات وكنت مثال الأمانة كما قالوا هم أنفسهم في المحضر . فلماذا يرتكب مثل هذا العمل وهو على وشك دخول الامتحان والحصول على شهادة يمكن أن تغير مستقبله إلى الأبد ؟ صدقك سينجيك !

\*\*\*

• بعد أسبوعين في حجز عابدين تسارعت الأحداث حولي . علمت أن الزعماء الخمسة وعلى رأسهم (بن بيلا) قد وصلوا إلى القاهرة . وقيل لنا إنهم كانوا في طائرة كانت تقلهم إلى فرنسا معتقلين وأن مصر اختطفتهم إلى القاهرة وعُدَّ ذلك انتصارًا كبيرًا . وكذلك مات (صلاح سالم) والآن يختلط الأمر عليّ فلم أعد أدري أي الحداث حدث أولاً .. ولم يعد كل ذلك مهمًا فالمهم أنه ليلة ماتم (صلاح سالم) وقيل ليلتها إن (جمال عبد الناصر) سيحضر بنفسه العزاء في (عمر مكرم) .. ازدحم الحجز ازدحامًا شديدًا .. لدرجة لم يكن هناك مكان لقدم . وعلمنا أن كل الأقسام المحيطة مكتظة لمتها وكان معظم الإيراد قد قبض عليهم في المساء من منطقة (التحرير) من المشتبه فيهم حول السرداق الكبير ، وفي الطرق حوله وكلهم من غير أبناء المنطقة ..

لفت نظري بشدة رجل من أولاد البلد يرتدي قميصًا وبنطلونًا نظيفين للغاية فوقهما (شرز) متوسط العمر ، ولكنه محترم وكان الرجل مرعوبًا يبكي طول الوقت . ويظن أنه اعتُقل ولن يخرج إلى الحرية أبدًا .. وعذرتة عندما علمت أنه من (بهتيم) وهي امتداد صناعي لـ(شبرا الخيمة) . ولما سألتة عرفت أنه قُبض عليه من داخل سرداق العزاء نفسه . وهذا ما أدخل في روعه أن القبض عليه ليس مجرد اشتباه ولكنه اعتقال . فهو يعلم أن كثيرين قُبض عليهم من جيرانه ومعارفه منذ ثلاث سنوات ولم يعودوا أبدًا حتى الآن .. وكان كلما تذكر ذلك انخرط في بكاء مرير . فقد كان أبًا لأطفال صغار في عين العدو خمسة - والأكثر إثارة للحزن كان تقيعه لنفسه لأنه حشرها في ذلك الموقف مدفوعًا بالرغبة في تلاوة زجل ألفه حزناً على الفقيد . وكان يود أن يتلوه على أسماع الزعيم ، لما عرف أنه سيتلقى العزاء بنفسه في رفيق ثورته الغالي . وكان هذا هو أكثر ما قرب بيننا وتبادلنا قراءة الأشعار والأزجال وصفا مزاجه . وعادت إليه طبيعته فتماسك وكف عن البكاء واندمج معنا .. وأكل ودخن وشرب الشاي ..

وانعقد سامر من عدد كبير وكان معظمهم من العمال والموظفين الصغار الذين جاءوا لتقديم واجب العزاء في رفيق (الزعيم) الذي قيل إن وصيته (التي لم يعرفها أحد حتى الآن) أصر أن يقولها لـ(الزعيم) في أذنه قبل أن يموت وأنه أوصاه بالفقراء خيرًا وبمصر ..

كان الرجل يمتلك مقهى صغيرًا في (بهتيم) يرتاده عمال (إسكو) وفقراء الحي الشعبي الذي يسكنه الكثيرون من عمال شبرا الخيمة . وكان يعشق (عبد الناصر) ويتحدث عنه بتقديس وتقدير يليق بما فعله للوطن وللشعب وخاصة لفقرائه .. ونسي الكرب الذي تعرض له في غمرة

روح المودة والألفة التي سادت الحجز ، والترحيب والإعجاب الذي قوبل به زجله المرح الساخر الجميل ..

واحتدمت بيننا المناقشات حول (صلاح سالم) وثوريته والزعماء الخمسة وثورة الجزائر والانتصار المؤكد للشعوب ، وقرارات (يوليو) والتي كان يعتبرها غاية المراد من رب العباد ؛ لأنها قطعت ذيل الرأسمالية وقلمت أظفارها .. كان يتحدث بحماس وإيمان ونسي أنه اقتيد من السرداق إلى الحجز في مهانة ونال من الإهانات ما جعله يبكي بكل هذه الحرقه عندما تذكرها بعد أن كان قد نسيها في غمرة اندماجه المرح والإنساني ..

طلبت منه أن يقوم ليغسل وجهه ويروق وينسى . وبالفعل قام إلى الحمام وغسل وجهه وعاد متهللاً ضاحكاً ، وتبادل مع الكثيرين التعليقات الضاحكة ودخل في قافية حول الحجز والسجن ثم حول السرداق وما رآه هناك ، ثم طلب منا الصمت ليحكي لنا حكاية ضاحكة عن (هلف) مثله اشتد حزنه على موت (صلاح سالم) فأصر كما فعل هو على أن يذهب إلى السرداق .. وجلس بالفعل بعد أن زاحم حتى اقترب ليكون في مرمى نظر (الزعيم) .. وانخرط في بكاء ونحيب شديدين حتى لفت نظره .

كان يحكي بجدية من يروي واقعة شاهدها بالفعل .. لا حكاية اخترعها وصرنا كلنا آذاناً صاغية واندماج هو يصور في اندماج الخبير :

- الرئيس شافه محروق قوي فاستدعاه . إيه يا ابني ؟ .. معلش .. كلنا لها .. خلاص يا ابني .. انت حزين قوي للدرجة دي ليه ؟ هو انت قريب المرحوم ؟ .. لأ .. صاحبه ؟ أبداً .. كنت معاه في الحرب ؟ اشتغلت معاه مراسلة ؟ أبداً يا ريس .. لازم بقى بلدياته ؟ لا والله .. وازدادت دهشة (جمال عبد الناصر) وكاد صبره ينفذ فنهره قائلاً برفق أمال مالك محروق قوي وح تموت نفسك من العياط؟

التقط صاحبنا أنفاسه ثم قال :

- ما هو أصله مش معقول ، الشعب يفضل مستني عشر سنين بحالهم عشان يمشي واحد منكم .. يبقى ح نقعد كام عشر سنين عشان تحلوا عن سمانا يا ريس !!

ساد صمت أربه .. حتى ظن أنه ارتكب جرماً لا غفران له .. لكن الجمع كان يحتاج لثوانٍ كي يلتقط معنى النكتة ثم ينفجر الكل في ضحكة واحدة صاحبة أدهشته . فتخلص من خوفه وأذهلني تحوله من متعبد ينظم زجلاً من القلب في وداع فقيد الثورة إلى مؤلف نكت ساخرة منها ؛ بفضل حراسها الأشاوس الذين أهانوه وجرجروه لينشد زجله على جمع من ضحايا حشرتهم معاً في شبكة صيد الصراع الطبقي الذي لا يدرك مداه ولا مغزاه أحد منهم

قلت لنفسى ليلتها .. هكذا يموت الحب على حافة الرعب .. ولكنى نسيته حتى تذكرتها وأنا  
أستعيد ذكريات حجز (عابدين) إذ أفرج عن جميع فرائس ليلة موت (صلاح سالم) في الصباح  
الباكر . وراح كل إلى حال سبيله . وقد وعى الدرس جيداً .. وكم كنت أتمنى أن أزور هذا  
الزجال الجميل في مقهاه في (بهتيم) بمجرد خروجي .. ولكن تقدرين وتضحك الأقدار فقد مر  
بي تاركاً أثراً لا ينكر لكنه ضاع مني وظللت لعدة سنوات أحاول أن أتذكر ولو اسمه لأعاود  
الاتصال به دون جدوى . وغابت ذكراه عن ذاكرتي مثل مئات مثله من بشر مبدعين .

\*\*\*

فوجئت ذات صباح بالمعلم (كرم) يوقظني من النوم بعاصفة من سعاله المميز . فقامت منتفضًا وأنا أظن أنني أحلم .. ولكن كان هو بلحمه وشحمه .. أعني بجلده وعظمه - فضحكت مرحبًا به ثم مستكترًا :

- إيه يا معلم ؟ فيه إيه تاني ؟ ..
- قال وسحابة حزن يا نوسة تحوم حول وجهه النحيل .. وأنا أسرع لأساعده في حمل أغراضه ورصّها على الدكة التي وقع عليها وهو ينهج :
- يا سيدي لما زهقوا مني .. اعتقلوني ! .. وأديني مترحل بكرة على المعتقل .. وجيبت عشرين واسطة مافيش فايده .
- إنت النيابة مش أفرجت عنك لبطلان الإجراءات ..
- هوّ كان فيه أصلاً إجراءات ؟ دي تلاكيك .. إنت أصلك مش عارف . شرطة المكافحة دي هيّ عصب تجارتنا . المخدرات دي احتكار لناس كبار قوي .. وكلنا شرطة وتجار بنشتغل عندهم .. والمفروض نثبت باستمرار إن الشرطة صاحبة .. ويلزم قضايا كل شوية .. ولازم نورّ على بعض أو نسلّم بعض عشان الأمور تمشي ..
- يا نهار إسود .. أنا شفت حاجات كتير زي كده بس على صغير في سجن (المنصورة) .
- ده قانون ؟ .. ده غير الفردة المستمرة والدائمة من أول المخبر السكّة اللي قاعد لنا ع القهوة للباشا الكبير اللي مشغله ومشغلنا .. ملك وتدبيره في إيد صاحب الملك ..
- وانت إيه اللي خلاهم يعتقلوك امال ..
- عينهم فارغة .. وما يحبوش حد يتحداهم أو يمشي عدل . واهو اللي حصل بقى .. هو أنا ح ابقى أقوى من الحكومة . لكن وشرفك ما ح اسكت .. دانا ورايا ناس تاكل اللحم نية . ناس مش هفأ .. ناس كبار في مجلس الأمة وف الاتحاد الكؤمي ده غير المحامين .. وكلهم شغالين عشان أفضل هنا أطول مدة لحد ما يتلغى أمر الاعتقال .. ألا بالمناسبة إنت ما رحلوكش ليه ؟
- أهو زي ما سيبنتي وأنا قاعد باحرس لك المكان .. وعلى فكرة أنا متشكر جدًا ع اللي عملته معايا .
- يا عم .. دانا لو كان بالي رايق دانا كنت جيت لك كل يوم . لكن كنت ف حرب وآديني خسرتها .. لكن مؤقتًا .. بس أكيد انت ما صدرش ليك أمر اعتقال .. وإلا كانوا رحلوك .. أه ..



- تفكر؟!
- أفكر إيه؟. دي خبرة .. لو كان صدر أمر باعتقالك ما كنتش قعدت هنا ساعة واحدة . دول بيحاولوا يطلعوا لك أمر اعتقال .. لكن أكيد فيه شيء مانع ده أو معطله . إلا إذا كانوا نسيوك بقى !
- وأنا أعرف كده ازاي ؟
- أنا صدر أمر الاعتقال ليّ ومعاه أمر ترحيلي للمعتقل لزم . دا احنا عملنا المستحيل مع المحامي وجبنا شهادات طبية علشان يتأجل ترحيلي لبكرة.. ولولا كده ما كنتش شفنتك .
- وظلت تتواتر وتتعاقب الإمدادات عليه ليس فقط من نساءه الأربع اللائي كن يتسابقن لغمره بالطعام والدخان .. ولكن أيضًا من شبكة صبيانہ .. ومن المعلمين الكبار .. زملائه الذين حفظوا له امتناعه عن الإيقاع بأحدهم .. ليفتدي نفسه حسب ما طلبت منه المكافحة ..!
- أكد لي ترحيل المعلم (كرم) في اليوم التالي وفي الصباح الباكر قبل أن تستيقظ قوات الدفاع عنه , أنني لم يصدر في حقي أمر اعتقال , وأن المباحث العامة ألقّت بي في هذا الحجز الصغير لحسابها دون استناد إلى أي شريعة .. ولأنني هذا غضبًا لا منهم فقط ولكن من سذجتي وجهلي , فعقدت العزم على التصدي لذلك على الفور ..
- ولما خلا المكان كالعادة فتح الشاويش الباب . ونادى عليّ ليسلمني جراية اليوم .. رفضت استلام الأربعة الأربعة .. وقلت له في حزم واضح ..
- بلغ المأمور ان أنا مضرب عن الطعام .. !
- نظر إليّ الشاويش في دهشة ..
- جرى إيه يا أستاذ سمير .. خليك عاقل .. خد الجراية .
- إنت زعلان ليه ؟ .. انت ما عليك إلا أن تبلغ رياستك بالموضوع .. بس .
- أخذ الخبز وانصرف .. ولم تمض نصف ساعة حتى انقلب قسم عابدين رأسًا على عقب ..
- وسمعت نداءات جمع للعساكر .. ثم صيحة انتباه عالية .. وصوت أقدام وهرولة ثم فتح الباب .. ووجدت المأمور بنفسه واقفًا يسد الباب بقامته الفارعة ..
- إيه اللي عملته ده يا ابني ؟ .. خد جرايتك وعيب .

- العيب سيادتك إني أتعامل كده .. أنا تبع مين بالضبط ؟ ومين المسئول عن وجودي هنا أكثر من أسبوعين لحد دلوقتي .. أعيش على الخبز والميه .. أنا مضرب حتى الموت أو الإفراج عني ..

وتركته والتفت ماضيًا إلى حيث الدكة وجلست مستندًا على البطاطين .. ونفخ هو غيظًا واستدار إلى مكتبه . وظل الباب مفتوحًا وتجمع أمامه عدد من العساكر . كان بعضهم يطل ليرى ذلك الذي قلب الدنيا .. وعكر مزاج المأمور هكذا . وسمعت صوت المأمور يصرخ غاضبًا في التليفون :

- ده مش كلام .. مش مسئوليتي .. انتم بتحدفوا علينا البلاوي دي ليه ؟ لو سمحت أنا عايز احمي نفسي قانونًا .. لأ .. لأ ده مخالف . وأنا باخلي مسئوليتي . تعالوا خدوا البلاوي اللي بليتونا بها دي .. لأ .. حالاً .. أنا مش ح استنى أكثر من كده .. وإلا ح اضطر إني أتصرف قانوني .. أنا مش ناقص بلاوي ..  
ويبدو أنه لم يكن يطيق البقاء في مكتبه فأسرع العساكر بإغلاق باب الحجز .. وسمعت صوته بالقرب من الباب وهو يصدر أوامره :

- إسمع يا عسكري .. إخلي الأودة دي ودخلوا فيها (الإيراد) اللي بييجي وما تخلوش حد يدخل عنده .. وهاتولي (فتحي بيه) من تحت الأرض .. يشوف له صرفة مع بلدياته ده !!

ساعتها عرفت لماذا تجنب الضابط (فتحي) التمادي في إقامة صلة معي طوال هذه المدة . وعذرتة لمحاولة تجنبي , وعدم القيام بأي من الخدمات التي طلبتها منه ؛ حتى أبسطها .. فحتى أمثاله يخافون .. فهم هنا تحت النظر المباشر للمباحث العامة ؛ لدرجة أن مأموره يقبل أن يحتفظ بي كل هذه المدة دون أمر حبس , ودون أمر اعتقال ؛ متحدثًا حكم المحكمة بالإفراج عني !

وتذكرت (الريدي) و(ميخائيل) وما فعلاه معي في سجن (المنصورة) طوال تلك الشهور , ولكنهما كانا يتحلمان في مملكتها الصغيرة النائبة . أيضًا كانا يتبعان حكمة الشاويش (محمود سعد) وهما بعيدين عن أعين الحكومة ..

وتذكرت أيضًا ما حدث لهما من رعب عندما كاد انتحار (عزيز) أن يهدم كل شيء فوق رأسيهما ، وما فعلاه لكي يجعل الحكومة لا ترى إلا ما أراد لها أن تراه بحيث لا تطالهما يد القانون .

وأكد لي كل ذلك أن هذا البنيان الطاعي الفاجر المتحكم ما هو إلا هيكل من قش يكفي أن ترفع يدك أمامه لينهار . وأكد لي حضور الكابتن (فتحي) إلى القسم (على ملا وشه) صدق فلسفة الشاويش (محمود سعد) وانتشارها عرفيًا بين الجميع .. فما هي الحكومة نفسها تتبناها وإن كانت تفعل ما تريد فينا وتصر أن تورينا !!

فأنا منذ أكثر من أسبوعين مودع في قسم عابدين لحساب (حسن المصليحي) و(البهّي) دون أية أوراق رسمية ؛ بلا أمر حبس من النيابة ولا أمر اعتقال من الحكومة . وكان من الممكن أن يستمر هذا إلى ما شاء الله .. وليبل القاضي حيثيات حكمه القاضي بالإفراج في الماء ويشربه على غيار الريق حتى يظهر لي صاحب !!..

وكاد يغمرني ويدل نفسي إحساس طاغ بالضالة وانعدام القيمة ، وأن كل ما أحمله من مشاعر للوطن والناس .. وكل ما أومن به من أفكار دفعتني إلى هذا الطريق الغامض بحثًا عن العدالة (المزعومة) وطلبًا للحرية (الموهومة) وكافة ما كتبت من أشعار وما قرأته من كتب وروايات وما تعرفت عليه من الفلسفة والتاريخ بل وما يدور في رأسي من أحلام وأفلام وذكريات ، وكل ما يجعل مني قطرة حيّة في موجة متمردة في ذلك البحر الهادر من محيط الإنسانية .. رهين إرادة فرد ما على رأس جهاز ما .. لا يُسأل عما يفعل!! وأن إعلانني الساذج عن الإضراب عن الطعام هدد بالكشف عن أن الحكومة تطور بحنكة فلسفة الشاويش (محمود سعد) ..! أو مقلوبها .. (أن افعلي يا حكومة في المحكومين (كذا) ولكن أظهري لهم (كذا) (على عينك يا تاجر) حيث كاد قراري الذي دلني عليه المعلم (كرم) تاجر المخدرات (صاحب الخبرة المؤكدة) أن يكشف عورة الذي يحبسني لحسابه الشخصي دون سند قانوني وهدد بفضح التواطؤ المتسلسل ما بين قرار القاضي الذي كان مصير حكمه سلة المهملات وبين رئيس مباحث أمن الدولة ومأمور القسم وشاويش الحجز دون انتظار أمر الاعتقال الممهور بختم النسر .

مهرولاً دخل الضابط (فتحي) إلى الحجز حيث كنت وحدي .. فقامت أستقبله مرحبًا وأنا لصق ابتسامة على وجهي .. وأخذ متلهفًا يسألني عن الحكاية مستنكرًا إصراري على عدم تناول الطعام ثم معاتبًا لي علي تصرفي الأهوج .. وهو الذي يعرفني عاقلًا رزينًا .. قلت له قاطعًا استرساله :

- وانا ما عملتش حاجة مجنونة؟!
- دا الجنون نفسه .. بقى واحد زيك هنا تمهيداً للإفراج عنه , يعمل كده ويوظ كل حاجة؟!
- يا سلام ؟ يعني إضرابي هو اللي ح يأخر الإفراج ؟
- بالتأكيد !.. بشرفي الموضوع كان خلاص ..
- سلامة شرفك يا كابتن (فتحي) .. أنا على فكرة المسئول الوحيد عن تصرفي . ومش ممكن اتحمل نزوة (حسن المصيلحي) وإصراره على الانتقام مني أكثر من كده .. إذا أنا معتقل يودوني المعتقل , واتعامل معاملة المعتقلين وإذا أنا مفرج عني .. أخرج ..
- يا سمير دي مجرد إجراءات . انت في القسم للإفراج عنك ..
- طالت أكثر من اللازم الإجراءات دي .. ثم إن ده يضركم في إيه ؟ أنا باتحمل المسئولية ..
- وأخرجت الثلاثة جنيهاات التي كان قد أعطانيها وقبلتها في حركة (بلدي) وقدمتها إليه شاكرًا .. فانزعج جدًا وتلفت ليتأكد أن الشاويش خارج الحجز لا يراه . وقال في صوت خفيض غاضب :
- إيه ده ؟ عيب رجع الفلوس لجيبك بلاش كلام فارغ ..
- يا فتحي بيه أنا عاجز عن الشكر .. أنا أصلي اتصرفت . ومعايا فلوس أهى .. واحنا اتقنا - انت حتى اللي قلت ح تاخدمهم من ابويا لما تروح .. ما حصلش نصيب مش مهم .. وكتر ألف خيرك .. اتفضل .. عشان تريحني .
- وكرر رفضه ولكني صممت على أن يأخذها .. وسمع حركة عند الباب فأسرع لينهي الموقف وهو يتلفت في حرج بالغ .. وأخذها ..
- ما كنتش اتصور إنك بخيل للدرجة دي ..
- معلهش سامحني !
- وعاد يحاول إقناعي بالعدول عن قراري ولكنني رفضت :
- يا كابتن فتحي أنا مفرج عني بحكم المحكمة . وقضيت مدة حكمي ولازم أخرج .. أما إذا كانوا اعتقلوني , أروح المعتقل على الأقل أتعامل زي زميلي .. فيها حاجة دي ؟ وانا باعفيكم من المسئولية .. وطالب النيابة تحقق معايا .. يا تفرج عني ..
- يا تحبيني . أروح المعتقل . هوّ أنا مش مواطن زي المعلم (كرم) حتى!!
- غالب ابتسامه باهتة لاحت على وجهه وأبدى تفهمًا لما قلت :
- أنا شخصيًا مقدر موقفك .. لكن ادينا فرصة نتصرف بهدوء .

- وانا عملت إيه ؟.. أنا هادي جدًا . وكل ما فيها ح انتظر . هو أنا يعني أنا ح  
امتنع عن إيه ؟ .. دا يا دوب رغيف حاف ..
- إزاي ؟ ح ابعت أجيب لك فطار محترم ..
- مالوش لازمة .. أنا خدت على كده .. المهم ان تستعجلوا الإجراءات شوية ..  
ذنبكم إيه تتحملوا قرفي !..

كنت قد سمعت المأمور وهو يصيح غاضبًا في التليفون وهو يخاطب الداخلية على ما يبدو:  
- لا .. يا سيدي أنا مش مسئول .. وما اقدرش اتحمل القرف ده أكثر من كده ..  
كانت الغرفة التي وضعوا فيها (الإيراد) قد ضاقت على من وفد من فرائس . فاستدعى  
المأمور الضابط (فتحي) .. وطلب منه أن ينقلني إلى الغرفة الصغيرة ويعيد (الإيراد) إلى  
الحجز ؛ حيث صار تزاحم (الإيراد) في غرفة ليس فيها دورة مياه مشكلة لضيوف الحجز ورواده

طلبت من الضابط أن يكلف أحد الشاويشية يحمل البطاطين التي تركها أصحابها لي .  
وكنت قد ربطت كل بطانية وكتبت عنوان صاحبها عليها .. ورجوته في حالة ترحيلي أو الإفراج  
عني أن يعيد كل واحدة لأهلها .. وتمت عملية النقل في صخب , فقد اكتشفوا فجأه مدى  
خطورتي على الآخرين . فتشددوا بطريقة مبالغ فيها في منعي ومنعهم من الاختلاط . وكان  
فيهم من كان معي في الأيام السابقة . وأصروا على السلام عليّ مودعين لظنهم أنني سيفرج  
عني .. وتسببت محاولاتهم .. في شخبط ووتر ولغط وصل أحيانًا للضرب لجرهم وإبعادهم ؛  
حتى تم إعادة الربط والضبط إلى صالة القسم وأغلق عليّ باب الغرفة ..  
لم أجد أمامي سوى أن أرمي البطاطين وهي مربوطة في ركن الغرفة .. وأن أستلقي في  
انتظار انتهاء المفاوضات التلفونية الصاخبة التي يجريها مأمور القسم مع الداخلية والمباحث .  
وهو ما طمأنني أن الأمر لن يستغرق وقتًا طويلًا .. ولم ينس الكابتن (فتحي) أن يواصل  
مساغيه الحميدة كي أتناول الطعام . فجاء إليّ أكثر من مرة ليسألني :

- إيه يا أستاذ .. لسه مصمم !؟

- ربنا يساعدي ..

فيغلق الباب تاركًا ظل ابتسامة باهتة , تحجل في الغرفة الرمادية وكأنها تحاول التضامن  
معي ..

كانت زوجة المعلم (كرم) قد أحضرت لي طعامًا , وكاد هذا الأمر أن يحدث مشكلة ولكنها كانت قادرة كبنت بلد (جدعة) وزوجة لمعلم له (شنة ورنة) أن تتجاوزها مصرة على توصيل الأمانة لي .. واضطر (فتحي) أن يخرجني لها لأقنعها بالعدول عن ترك الزيارة ؛ لأنني لن أبقى طويلاً في القسم .

- وماله بركة وخير تخرج بالسلامة .. خلي الأكل برضه ينفع .. إنت عايز المعلم يقطعني لو رجعت بيه ..

وطبعاً خفت (ليقطعها) المعلم فيشوه هذا المثال الحي للجمال وللإنسانية وخفت أكثر أن أكسر بخاطرها . خاطر ابتسامتها التي لا توصف . وأخذت منها الطعام وشكرتها وطلبت منها أن تحمل تحياتي وشكري للمعلم (كرم) سيد الرجال .. وإن صار الطعام من نصيب الشاويشية !

أوحت لي المشاعر التي بعثتها في روحي تلك الابتسامة التي غمرتني بها زوجة المعلم (كرم) (والتي أستحضرها في شغف الآن) وأنا أتذكر إصرارها العنيد المناضل أن تسلمني بنفسها , (تنفيذاً لأوامر زوجها) كيس الطعام الشهى بالتأكيد والذي لم أتذوقه ؛ وإن أشبعني ملاحظتها التي أعادت لي إنسانيتي . وطردت عن نفسي كل وساوس الضعف الذي زرعتة الإهانة التي لحقتني ؛ حين اكتشفت تفاهة قدرتي عند أولئك المتسلطين عليّ والمتحكمين فيي ..

وتملكنتي بإيحائها فكرة التوقف بالحكاية عند شواطئ فتنها وسحرها الذي جعل من إغفائي على البطاطين الخشنة المربوطة والمكومة في ركن الغرفة - الزنزانة - إبحارًا معها إلى عوالم وآفاق لا تحدها جدران أو أسلاك شائكة عبرت بي وديانًا خضراء ؛ وربي مترعة بالأشجار وبالأزهار والعبير .. أمسكت بيدي وهي تدعو أُمي لتشاركنا الطعام على سطح بيتنا واحتضنتني ابتسامتها أمام سينما (عدن) وقبلتني تحت نخلة (ياسين) .. وخففت عني وربتت على ظهري حتى لا تستفزني جلافة المخبرين اللذين جاءوا لاستلامني من القسم ليذهبا بي في عربة جيب عجفاء ذات أرض قاسية مؤلمة إلي معتقل القلعة .. استجابة لإضرابي الأول عن الطعام ..

لكنها فارقتني فجأة . وتخلت عني عندما خطوت الخطوة الأولى بعد عبور (البوابة المملوكية) الغليظة ؛ لأجد نفسي وحيدًا على عتبة العصور الوسطى .

ولتعدرنني يا صديقي لأنني متأكد أنك لو استطعت أن تعبر معي هذه الصفحات وتحملت أن تدلف معي عبر بوابة العصور الوسطى هذه ستسألني : وماذا بعد ؟ أو على طريقة الحواديت : (طب وبعدين ؟) هل انتهى معك (زمن الزنازين) عند عتبة القلعة ؟

وماذا عن أيام (الواحات) و(عزب الفيوم) و(مزرعة طرة) و(الاستئناف) ؟ .. وسأجيبك  
بكل حب - هذه قصة أخرى .. !

\*\*\*